

زكي المحاسني

شعر الحزبي ادر العزبي

في العصرين الأموي والعباسي
الى عهد سيف الدولة

شجر الحرب في أدب العرب

في العصرين الأموي والعباسي
إلى عهد سيف الدولة

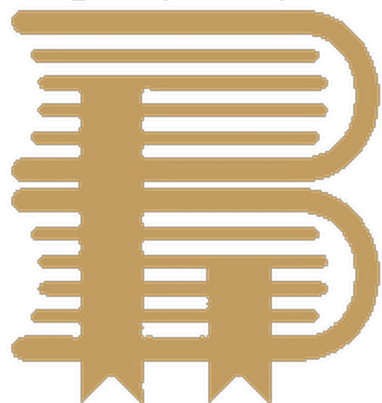
تأليف

زكي المحاسني

دكتوراه في الآداب
ليسانس في الحقوق

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

إليك يا صاحب المرونة نصومى بك البخارى

أهدى هذه الرسالة فهى نفحة من تشجيعك ، وثمره من غرسك ،
أمرت بإيفادى إلى جامعة فؤاد الأول للحصول على الدكتوراه فى الأدب
العربى فى عهد وزارتك الأخيرة للمعارف السورية ، بعد أن طال تحناني
إلى تحقيق هذه الأمنية ، وما ابتغيت إليك وسيلة ، ولا شفيع بى لديك
سوى الحق .

إن رسالتى لتتحدث بمنزل مجدك الحربى ، ففيها أبطال الشعر ينشدون
أهازيج الحماسة فى ملحمة العرب ، لتخليد الفروسية ، وتمجيد الحرية .
فاسمع من خلال صحائفها صليل السيوف ، وحممات الخيل ، وخفقات
البنود ، ترجع بك الذكري إلى ماضيك الحربى الأغر ، يوم كان يلمع
السيف بيمينك .

فإليك يارب السيف فى زعامتك ، وراعى العلم فى وزارتك ، أهدى
هذه الرسالة اعترافاً بالجميل لك

زكى المحاسنى

القاهرة أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب ومدير جامعة فؤاد بالنيابة

١

كان للعرب في الجاهلية شعر يسجل وقائعهم ، ويشيد بحروبهم ، ويردد ذكر معاركهم التي دارت بين عشيرة وعشيرة كحروب الأوس والخزرج ، أو بين قبيلة وأخرى كحرب داحس والغبراء بين بني عبس وبني ذبيان ، أو بين جماعة من القبائل وأخرى كوقائع البسوس بين بكر وتغلب ، أو بين شعب من العرب وشعب آخر كحروب اليمن وعدنان .

سجلت هذه الحروب قصائد كثيرة وقطع وأبيات كملقات عنتره وزهير والحارث ابن حلزة وعمرو بن كلثوم . وقصائد أخرى تأبى على الإحصاء كقصائد بشر بن أبي خازم ، وثعلبة العبدي ، والأخنس التغلبي ، والحارث بن ظالم المري ، والحسين بن الحمام المري ، وعامر بن الطفيل العامري ، وأبوقيس بن الأسلت الأنصاري ، وكتب الأدب العربي تفيض بأشعار الحروب الجاهلية ، وأخبار وقائعها .

وقد جمعت أخبار أيام العرب فكانت قصصاً حربية تجمع النثر والنظم . ولو استقصيت ورثت ووصلت لكان منها قصص حماسية طويلة فيها النثر لسرد الحوادث ، والشعر في مقامات البطولة . وهذا الضرب من القصص ، في رأي ، أقرب إلى الطبيعة من القصص المنظوم كله الذي لا يفرق بين ذكر حوادث متتابعة ، وبين الإعراب عما تجيش به نفس البطل في مآزق الحرب ومقامات النجدة .

٢

وكذلك زخر الشعر العربي الإسلامي بوصف الحرب . وللعرب بعد الإسلام حروب

امتدت مياديتها من حدود الصين إلى بحر الظلمات وإلى جبال البرانس أو ما وراءها . ومرت عصور والحرب تنشب بين الحين والحين في جهة من هذه الميادين أو أخرى ، وسجل المحاربون هذه الوقائع ، وعنى بتسجيلها وتفخيمها وتهويل فيها الشعراء المداحون يشيدون بآثار مدوحهم من الملوك والقواد ، ويطنبون في وصف شجاعتهم وبطولتهم وشجاعة جنودهم وقبائلهم . ومن يرد أن يتبع قصائد الحرب في مظانها فليطلبها في أبواب الفخر والمدح من دواوين الشعر العربي . ففي مدائح مسلم بن الوليد وأبي تمام والبحترى صفحات رائعات من شعر الحرب ، سجلت وقائع خلفاء العباسيين وقوادهم كبنى المهلب وبنى يزيد ومحمد بن يوسف الثغرى الطائى .

وناهيك بمدائح أبي الطيب التى خلدت معارك سيف الدولة والروم ، وأشادت ببطولة الأمير العربي ، وكأنها تطلع عليك بغبار الوقائع ، وصهيل الخيل ، وصليل السيوف ، وصياح المحاربين ، وهى تمثل الحماسة العربية فى أروع صورها ، والبطولة العربية فى أهول مظاهرها . ولا تنس قصائد ابن هانىء فى وقائع الفاطميين فى البر والبحر .

٣

والشعر الحماسى العربى فى حاجة إلى دراسة تكشف عنه ، وتنظم بعضه إلى بعضه ، وتحلى ما حوله من الأحداث وما تقدمه وتلاه من أسباب وعواقب . ليرى فيه القارىء صوراً من الشعر فى إطار من التاريخ ، ومظاهر من الحقائق فى معارض من الأخيلة والعواطف . فيرى الشعر ، على صنع الخيال وتهويله ، معرباً عن حقائق التاريخ ، مبيناً عن طباع الإنسان وأخلاقه ، ومقاصده وعزائمه . وشعر الحرب على فظاعة موضوعه وقسوته ، فيه عواطف إنسانية عالية من النجدة والفداء والإيثار والدفع عن الضعيف وحماية الجار والدود عن الأوطان والعقائد والأعراض . فهو جدير بعناية الإنسان من هذه النواحي إلى ما يعتز به الناس ويفخرون من القوة والغلبة والسيطرة والتسلط .

٤

ولما التحق الأديب الفاضل الأستاذ زكى المحاسنى بجامعة فؤاد الأول اينال درجة دكتور فى الآداب ، اختار لرسالته — واستحسن اختياره — شعر الحرب فى الأدب العربى ، وهو موضوع طويل واسع ، إذ كان تاريخ العرب يؤدى بهذا الشعر فى أربعة عشر قرناً وفى مواطن مترامية من الصين إلى الأندلس . فلم يكن بد من أن يحد الموضوع ويقصر بحثه على شعر الحرب فى بعض العصور . فاقصر على العصر الأموى والعصر العباسى إلى منتصف

القرن الرابع ، وتناول الحروب الخارجية حروب الروم وغيرهم ، وقليلاً من الحروب الداخلية بين الأحزاب والدول في البلاد الإسلامية .

وقد عكف على بحثه عكوف الباحث المخلص المثبت الذي لا يقنع بما دون الغاية ولا يسكن إلى الدعة ، ولا ينوء به النصب والدأب ، حتى نظم أشتات موضوعه ، وجمع أطرافه ، وفصل القول في حوادثه الكبرى . حتى وقف طويلاً على الملحمة العربية الهائلة ، والحماسة الرائعة ، حروب أمير العرب سيف الدولة ، وشعر أمير الشعر الحماسي أبي الطيب المتنبي ، فأفاض في البحث إفاضة جمعت بين المصادر العربية والمصادر البيزنطية والأوربية ، فأحسن في هذا كل الإحسان .

وقد أخرج للأدب العربي سفرأ جليلاً أرجو أن يكون فاتحة أبحاث شاملة في الشعر الحماسي ، حتى يحاط بهذا الموضوع ويجلى للقراء واضحاً مفصلاً مسلسلاً . والدكتور المحاسنى فضل السبق ، وله منى الثناء الحسن كفاء طموحه ونصبه ودأبه ، وجدوى بحثه على الأدب العربي ؟

القاهرة

عبد الوهاب عزام

فاتحة الكتاب

باسمك اللهم قد اخترتُ موضوع هذه الرسالة « شعر الحرب في أدب العرب ، في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة » . وهو موضوع يتناول البحث الفني في شعر الحرب الذي قالته العرب في عصور مجدها تصف فيه بأس أبطالها في حومات الوغى وفروسيهم في زحمت القتال ، وبلاهم في أشرف أيامهم الأولى ، وأشد حروبهم الأواخر ، حين كان بعضهم يغير على بعض أو يجتاز حدود بلاده للفتوح في صدر الإسلام ، أو يحارب جيوش البيزنطيين في زمن المعتصم أو عهد سيف الدولة .

وقد عنيت في هذا الموضوع باستجلاء مظاهر الحماسة في شعر العرب في الفترة التي أبحاثها منذ منتصف القرن الأول للهجرة حتى منتصف القرن الرابع ، وهي فسحة الزمن الذي غلى فيه شعر الحماسة كمرجل تستعر ، فتوخيت إلى تلك العناية أن أعرض شعر الحرب عند العرب في معارض شتى أجمى بها حيناً مكسوة بالسياسة وآونة مخفوفة بالتاريخ . إذ لم أجد الفن وحده راضياً باحتضانها . وما كان أدب العرب ولا شعرهم في زمن من أزمانهم بمعزل عن قضايا تاريخهم ، إن كل قصيدة من قصائدهم مربوطة بحادث يمت إلى التاريخ ويمسه من قريب أو بعيد . وقد كانت منازع الأحزاب وسطوة التاريخ على شعر الحماسة العربية في العصر الأموي أقوى مما كانت عليه في العصر العباسي . ولذلك جاء موضوع رسالتي في العصر العباسي متسماً بمياسم الفن بنصيب أوفى من اتسامه بالتاريخ ، لأن شعراء العصر العباسي كانوا قد تحرروا من ربة التقليد التاريخي وانطلقوا منذ بشار وأبي نواس في أجواء الفن الصافي ولا أعنى بذلك أنه لم يكن لحوادث التاريخ سلطان عليهم ، وإنما أقصد إلى أنهم أصبحوا في طور من الاستقلال الفني يصلهم بالتاريخ في بواعثه وغاياته ، لكن سدى قصائدهم ولحمتها كان لوجه الفن ، فكلم من فارق في شعر الحماسة والحرب ، أو الفخر والهجاء بين قصائد الفحول كالفرزدق وصاحبيه جرير والاخلط وقصائد أبي تمام والبحتري والمتنبي شعراء الحماسة الأخيرة . فإن أولئك كانوا مسوقين بعضا السياسة والتاريخ ليقولوا ما قالوه فكان ذلك مزاج قصائدهم ، وهؤلاء على ما كانوا عليه من صلة بسبب التاريخ أو غايته ، كانوا يجرون أشعارهم في مضمار الفن يطاردون بها فنائص الصور الجميلة وروائع الخيال في تحاسينهم المعنوية واللفظية .

وإذا كان شعر الحرب في الأدب العربي هو أقوى ما نظم الشعراء وأبقى على ترادف الأحقاب لأنه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيا إلى عزة حاضرها ، وهو وحده سجل فخرها وعنوان بأسها وأناشيد بطولاتها ، فقد اخترت أن أكتب رسالتي فيه . وسدد عزيمتي بذلك هذه الحرب العالمية الثانية التي وضعت بالأمس أوزارها على مناكب الإنسانية الحديثة

وما زال دهاقين ساستها إلى اليوم، بعد اندحار أعدائهم، يتعاورون ما بينهم حرباً في خبايا النفوس وهم يقتسمون الأسلاب والمغانم، فأهاجت عندي الحرب الحاضرة بويل آلاتها، وبطش دهايتها، تلك الحرب العربية الغابرة التي اتخذت شعر العرب وصفأها ومجلى لوقائعها وكان أبطالها الكماة المناجيد، أحلاس الخيل وأعلام الشجاعة، يجمعون إلى الفروسية والبطولة فنون الشعر وسحر البيان.

وقد اتخذت لبحثي النهج الجامعي في التبويب والتفصيل والترقيم، معتمداً على التحليل والتركيب حيناً والمقارنة والنقد حيناً آخر لاستكشاف الظواهر الأدبية الحماسية وربطها — إذا دعا الأمر — بأسباب السياسة أو التاريخ، ونظرت إلى موضوعي الذي أثرته وارتضيته فوجدت الشروع فيه من العصر الأموي يستدعي التمهيد له بالملاحم والقصص الحربى في الآداب العالمية والعربية، وبعد أن استقصيت ما عند الأمم كافة — في القديم والحديث — من ملاحم وقصص حرب، نقبت عن الملحمة العربية، وعرضت بالبحث والدرس إلى عرب الجاهلية، فتناولت طائفة من أروع حروبهم التي كانوا يسمونها أياماً ووقائع، وخرجت من ذلك بعد الاستقراء والاستقصاء إلى أن العرب أمة حرب في فطرتهم. وكان طبيعياً أن أخلص في أعقاب هذا التمهيد إلى لغة الحرب لأنها لغة الشعر الحربى الذي أكبت على دراسته في موضوع رسالتى. فمتبعت هذه اللغة من شعرها الأول متقرباً ألفاظها وقد رددتها في غالها إلى الحرب منذ عهد امرئ القيس إلى زمن شوقي.

وحين أقبلت على دراسة الشعر الحربى في العصر الأموي، وجدته بصور الحماسة العربية في أصدق مظاهرها وأروع بيئاتها، مسكوباً عليه لوانان من العبقرية، أحدهما عربى صميم فى باديته وإبله وخشونته وبأسه، والثانى إسلامى دينى فى روحه وبواعثه وثوابه وآخرفته. وملكت شعورى بطولة الخوارج التى رأيتها تبذ فروسية أبطال الأساطير الذين حدثنا عنهم هومىروس، ورق قلبى لأحزان الشيعة التى شاعت فى حميتهم وفدائهم، معتزاً بحماسة الأمويين ومعجبا بشعراء الفخر والهجاء.

وكان نهجى فى بحث شعر الحرب فى العصر الأموي خاضعاً للتيارات الأدبية فى النوازع الحزبية والسياسية، إذ كان الشعراء قد ذهبوا شيعاً متحيزين حسبما دعت الأيام والبيئات، وعلى مقتضى الأساليب التى كان يريدونها السياسة والحكام، ووفق التناؤد القبلى وعصبية النسب التى كانت بين اليمانية والعدنانية والتغلبية والقيسية.

وفى العصر العباسى غالبتني الطريقة الفنية التى يقتضيها الشعر العباسى وحده لضعف السياسة يومئذ وتوزع السلطان، فكنت أحاول ما استطعت أن ألفت أعنة الشعر الحماسى الفنى إلى

أسباب التاريخ ودواعي السياسة ، حتى أوفيت على زمن المعتصم وسيف الدولة فأخضعت البحث للنص إذ أخرجت من دواوين البحترى وأبي تمام والمتنبي وأبي فراس ، حوادث البطولة وأوصاف الحروب التي سكنت التاريخ عن كثير منها أو تغافل .

ونظرت فيمن سبقني إلى هذا الموضوع فوجدت المتقدمين من العرب قد عاجلوه لا بسبيل الفن وإنما فعلوا ذلك لغاية التاريخ وفي مطالب اللغة لتفسير كلماتها أو للإعراب في مناقشة وجوهه ، كما فعل أبو زكريا التبريزي في شرح حماسة أبي تمام وما صنعه أبو الفتح عثمان بن جني في إعرابه لشواهد الحماسة الطائية (١) أو نقده اللغوي . وقد استطاع الخالديان وهما شاعران أديبان كانا في بلاط سيف الدولة أن يصنفا كتابهما الحماسة الخالدة المعروفة بالأشباه والنظائر (٢) وقد أوجدا فيه روحا فنية بدائية للبحث والتنظير في بعض أبيات الحماسة .

وكان هؤلاء السابقون لمعالجة شعر الحماسة وأضرابهم من المؤلفين القدامى مولعين بجمع الشعر الحماسي جمعا فحسب بعد أن يتخيروا أحسنه ، لا يعنون فيه بتصنيف أو تنسيق ينتمى إلى التاريخ أو إلى الفن . وكان دأبهم أن يبرزوا مختاراتهم في مجموعات لا يربط بين أجزائها رابط سوى وحدة الموضوع .

وقد عجموا كلمة الحماسة على كل شعر وجدوا فيه قوة وروعة ، وجزالة وأسرا ، ولذا نرى أبا تمام الطائي يحشد في كتابيه ، الحماسة الكبرى ، وكتاب الوحشيات ، (٣) المعروف بالحماسة الصغرى ما راقه مما قيل في روائع الشعر منذ العصر الجاهلي إلى زمنه ، في أبواب يخرج فيها من الحماسة إلى الغزل والوصف والمدح وذم النساء وذكر الشيب وغير ذلك من أبواب الشعر وفنونه . وقد فعل ذلك أمثاله كخالديين اللذين جاءا في أواسط القرن الرابع للهجرة .

وهم في عمامهم هذا قد وسّعوا معنى الحماسة وبسطوا من شمولها وآفاقها ، ولا أنسى ما سرده أبو عبيدة في نقائض جرير والفرزدق وما شرحه أبو تمام في نقائض جرير والأخطل . وكل ذلك لا يخرج عما سلف ، وإنه يزيد بذكره أيام العرب وروايتها رواية تاريخية بغیر نقاش أو تحليل شأن الكثير من أدبائنا الأقدمين .

إذن لا أستطيع أن أجد في الأوائل من نهج مثل طريقي أو أجرى التأليف في شعر الحرب فيما نهجت وأجريت ، لأنني وقفت عند كلمة الحماسة بمعناها الحربى (Bravoure) أى الشجاعة والبأس والضرب والطعان . وأنشأت رسالتي على الحماسة الحربية عند العرب في

(١) مخطوط لم ينشر .

(٢) مخطوط لم ينشر (وقد عرضت لهما بالتعاهيل والوصف في هذه الرسالة) .

(٣) مخطوط لم ينشر وصفته في هذه الرسالة .

مظاهرها التاريخية والفنية منذ صدر الاسلام إلى أيام أبي فراس الحمداني . وأجبت في ذلك أن أعالج ضرباً من البحث ما عولج قبلي في ميسمه الفن أو التاريخي ، متوصلاً بذلك إلى ذكر حقائق ونصوص صحيحة ودقائق تاريخية وفنية ، تلقى نورا جديداً على الحروب العربية البيزنطية طوال القرنين التاسع والعاشر لليلاد . وقد كان لي في ذلك شرف البحث وسبق التسطير في لغة العرب مستعيناً بالوثائق البيزنطية التي وضعت في العشرين العاشر والحادي عشر بأيدي المؤرخين البيزنطيين وفيهم سيد رينوس وليون الشماس ونقلها إلى العالم الحديث علماء التاريخ البيزنطي أمثال الأستاذين العظيمين « شلبرجه » و « فاسيلييف » ، وهذا ما تتطلبه الرسالة الجامعية من ابتكار في الموضوع واستجلاء للنصوص والحقائق التي لم يسبق كشفها ونشرها ، وبذلك عرفت بما عند البيزنطيين عن العرب مما خلا منه تاريخنا .

أما المؤلفون المحدثون فلم أجد من عالج فيهم موضوعي . وقد وجدت الأستاذ المرصفي من أدباء النهضة الفاتمة بمصر قد صنف الحماسة الطائية تصنيفاً خاصاً وشرحها ، وأتم رواية أبحاثها في كتابه « أسرار الحماسة » . وكان من حظ الأدب المعاصر أن يضع فيه الأستاذ أحمد الشايب كتابه عن تاريخ الشعر السياسي في الأدب العربي إلى منتصف القرن الثاني للهجرة . فقد أخذ بجذور البحث حتى مضى إلى ثماره ، عارضاً كتابه كله في معرض السياسة ، مستدلاً بالشعر على الميول الحزبية والنزعات السياسية في عصور الأدب العربي ، رابطاً الشعر السياسي بأطوار الزمن وعوامل الحضارة . وقد أفدت من دراسته الجديدة وقدرت له إنارة الطريق أمام الباحثين ، وكنت أود لو عالج الشعر الحماسي فصنف فيه كما صنف في الشعر السياسي ، إذ ليس كل شعر سياسي شعراً حماسياً .

وكانت غايي من هذا الموضوع ، أن أدخل به زاوية « شاغرة » من زوايا أدبنا العربي ، فإن تكن لي أمنية في هذا الجهد فلا أكثر من أن أسعد بها في بحث يحى . جديداً ، وفي هذا راحة الجاهد وغبطة الباحث ، ولقد قال أبو العباس النامي في « أبي الطيب » :
« كان بقى من الشعر زاوية دخلها أبو الطيب » . فهل لي أن أقول ، وقد اتسعت في عصرنا آفاق الثقافة وآماد البحث : ما أكثر الزوايا الشاغرة في أدبنا المعاصر تلقاء الدراسة الجامعية الحديثة . وذلك مما يحفزني لإعداد دراسات جديدة في الأدب الحماسي أرجو أن يكون هذا الكتاب سبيلاً إليها ، وما توفيقى إلا بالله .

تمهيد

الملاحم والقصاص الحربى

(١) الملاحم فى آداب الأمم القديمة والحديثة :

قلت حين انتهيت من قراءة الإلياذة ، دلت على حسام آشيل نقش هوميروس آداب أمته . .

فكانت الملاحم فروسية وأدبا فى سجل واحد ، الأدب أسلوبها ونسيجها ، والحرب موضوعها ومعانيها . وكأنه بات لازما على الأمم أن يتيح لها دهرها شاعرا من بنينا ، يعرف تاريخها وأنسابها ويحقق قلبه بهواها فينظم من أجلها « أنشودة حربية » ، تبقى على الزمان . يتداولها الناس جيلا بعد جيل ، يحشد فيها كبريات الحوادث التى تعاورت على هذه الأمة ويحشر اليها سيرة حرب مأيمة سفك فيها الأبطال دماءهم ليدروا بها عارهم ويكسبوا فخارهم ، ويكتبوا عدوهم ، ويحفظوا عليهم ديارهم وأموالهم .

ومن عجب أن يخلق الإنسان وحب الحرب غريزة فيه ، منذ كان على الأرض إلى اليوم ، فقد وجد قطرة الدم بلسما لنزوة الغضب ، وكان من مقدور طباعه ، وقضاء خلقه أن ركبت فيه نوازعه التى تحملها على حب الحياة فكانت الأثرة فى نفسه داعية لظلمه أو تظلمه . فهو إما هاجم على غيره أو مهجوم عليه ، وكان لا بد من الدفاع فنشب فى كلا الحالين خصام أو جلاد ، وحرب أو قتال . فاذا أباد القوى الضعيف أو تصالح الخصمان ، بات الشر مستترا إلى حين . ثم ثار أو أنطوى فى حنايا النفوس .

وما عرف الدهر قوماً سكنوا الدنيا ، ولم يقتتلوا ما بينهم ، أو لم يحاربوا جيرانهم فكان إذن حتما لازما أن تنشأ حوادث حربية فى الأمم . لها صلة بماضيها وحاضرها ، تضم فى غضونها فظيع الويلات ودأبى الذكريات وتلف فى ثناياها روائع المشاهد وخوارق الصور ، لبطولات رجالها ونسائها الذين على صفحات سلاحهم بياض مجدها وفى رواية شجاعتهم وقد عزمتها ، وبترداد سيرتهم نشوة حياتها . وقد أجاب شعراء تلك الأقسام داعى شعورها فكانوا صدى لصيحات مجدهم الغابر ومآثرهم الحاضرة ، فأوحت اليهم أن ينظموا الملاحمة ، التى سكبوا فيها نجيع أكبادهم ووسطروا فيها كل خلال العظيمة التى ورثتها أمتهم . فعمدوا إلى أفدح الخطوب

التي أنزلوها بخصومهم وأروع المعارك التي دافعوا بها أعداءهم في الحصار ، أو لاجوهم بالحديد والنار ، فجعلوها موضوع الملاحم . ولم يدخر هؤلاء الشعراء وسعاً في تسجيل الحرب ومراحلها ووصف أبطالهم وصولاتهم ، وكيف أداروا غمار الواقعة حتى كتب لهم النصر ، ولأعدائهم الخذلان .

ولم يأل هؤلاء الشعراء جهداً في الإجابة بالحكمة الغالية وبالموعظة الباقية ، يجعلونهما ديدناً لأحكام الحوادث وسفراً لإقالة العثرات . ولم يدعوا سبيلاً في أن يمزجوا أخبار الحرب بأفانين الحب ، وخفقات القلوب في الخصام بخفقاتها في الغرام ، فنسجوا من لواجع الشوق ولهفات البعاد قصصاً للغمريين والمتدلهين خلدت بخلود الحوادث وكانت ترفيها للحس من التأثير بالأحزان التي تبعثها سيرة الولايات وسبيلاً للاغراء بقراءة الملاحم .

وقد ألهم الفن أولئك الشعراء الأفاذا الذين نظموا الملاحم أن يجعلوها أناشيد من صحيح الشعر يختلف ألوان سحره ، فهو إما مقطعات من الشعر مسرودة أو أغان محبوكة آخذ بعضها برقاب بعض ، أو فصول إذا انتهى منها واحد كان ابتداء الآخر حتى يكون الختام .

وكان من سر خلودها وأسباب نضرتها أن تصاغ شعراً لتعيش الدهر ، تتخذ منها النساء ترنيماً لتنويم الأطفال ، ويجعل منها الرجال أناشيد العزة والفخر ، ويجد فيها المحاربون ماثراً للحمية ، والأدباء شاحداً للقرائح ، ويتنغم بألحانها الشبان إذ يجدونها هدهدة في جوانحهم للهوى والشباب والأمل المنشود .

فكانت الإلياذة والأوديسة ، أعنى الملاحم المكتوبة . على أن الإلياذة أم والأوديسة بنتها . وكان من فضل الإلياذة على الإغريق أن يجعل هوميروس مجدها مكتوباً على الورق كما كتبه هي على الحجر .

فمنظومة هوميروس بضعة عشر ألف بيت من الشعر ، متسلسلة الحوادث ، في موضوع واحد . هو ماجريات الحرب الطروادية . وذلك أن نفرأ من اليونان جفت عليهم أخلاف الرزق في أرضهم وكانوا يسكنون « بيلوبونيز » ، وجزءاً من اليونان الوسطى . فنزحوا قبل اثني عشر قرناً من الميلاد عن ديارهم هاريين من جور الوطن . فكانت وجهتهم الشمال الشرقي من آسيا الوسطى . فنزلوا على شعب قوى الشكيمة ، صعب المراس هو « الدرونيون » ، أو « الطرواديون » ، (١) فحاصروه وراء أسوار مدينته العصماء « طرواده » ، (٢) .

(١) كتاب « صفحات مخنارة من الأدباء اليونان العظام » بالفرنسية تأليف موريس كروازي الطابعة

السابعة لأرمان كولان بباريس سنة ١٩٢٢ ص ١٠ .

(٢) ايلبوس .

وكان ملكة البطل « بريام » ذا حفاظ على مجد قومه ، فأثر الصمود للغزاة الذين أجهدهم البلاء في الليل والنهار دون أن يستطيعوا دكا للحصن أو فتحا لأبوابه . واخرجهم الارتداد بدون مغنم ، وما وراءهم إذا ارتدوا سوى الجوع والدمار .

لقد جعل هو ميروس موضوع ملحمته هؤلاء الفاتحين ومن نزلوا بساحتهم . وأدار حوادث هذه الحرب بين أبطال أقوام من كلا الجانبين . فكان من الدهاة المناجيد في فريق اليونان : أغاممنون وآشيل وعولس وديوميد وأجاكس وهيلين .. وفي أبطال الطرواديين : بريام وولده هيكتور وباريس وهيكتور وأندروماك .

فاستحر الخصام بين الجانبين من رجال أجلاذ يتناضحون بالنبال ويصطفقون بالعمد والسيوف ويتطاعنون بالأسنة ، ونساء يؤرثن الفتنة أو يحضضن على حماية الدمار . ووقع الخلاف بين الغزاة أنفسهم فكان من جملة أسبابه فتاة حسناء سبهاها آشيل فغالبه عليها أغاممنون وابتزها منه . فحرد الفتى آشيل عن الحرب وظل قابعا تحت خيمته حتى كاد جيشه يندحروا ويكتب على قومه الخيبة والعار . وكان له صديق من خلصائه الأصفياء جعل يسترضيه ليرجعه الى الحرب فلم يرض ، وآثر حب الفتاة المغصوبة منه على حب الظفر لقومه ودرء العار عنهم ، ولما يئس منه صديقه أخذ لأمته فلبسها وسلاحه فحمله ، وصاح في وجه الطرواديين فردهم الى أسوارهم ولكنه قتل . وإذ بلغ مقتله آشيل توقد الحزن عليه في قلبه فاحرق حب الفتاة المسلوكة وطهر ذلك الفؤاد . فهب آشيل إلى سلاحه فلبسه وثار في وجه الأعداء ثورة مجنونة فردهم على أعقابهم وغيبهم السور إلا هيكتور ، فقد ظل خارجه وحده فانقض عليه آشيل . وكان بريام أبو هيكتور وأمه ينظران اليه من شرفات الحصن وقلباهما يخفقان من شدة الجزع عليه . فحمل آشيل على ألد خصومه وطعنه في مقتله . فسأله المطعون إن مات أن لا يمثل بجثته ، فأبى واستكبر وربط جثته الى مركبته الظافرة ودار حول السور أشواطا والنساء من قومه نواحات عليه من أعالي السور والرجال زماء بالنبل لتصمى آشيل الجبار . وكان الملك بريام وزوجه ساعثن في غيبوبة الفناء .

ها هنا ينشد « هو ميروس » بمقتل هيكتور ، النشيد الثاني والعشرين ، ويندفع على نهاية الإلياذة فيروى كيف اتخذ اليونان الخديعة وسيلة إلى فتح الحصون بجواد هيكل هائل من خشب ، فقتلوا بريام واسترقوا زوجته ونهبوا البلد ثم أحرقوها وانكفؤوا الى بلادهم ضالين ، تائهين في عرض البحار .

وكل هاتيك الحوادث لا يقوم بها الإنسان وحده وإنما تشرکه فيها الآلهة والأعوان من

أرباب وربات . وهذه الآلهة تتمثل حينما بشرا سويا تحارب مع المحاربين وحينما وحيا يدب في القلوب فينفخ فيها القوة أو أشباحاً تلوح بالتشجيع للمحاربين .

ولم يترك «هوميروس» قومه هدرا في عرض اليم، وإنما نظم بعودتهم أناشيد «الأوديسة» فصور أغا ممنون يؤوب مجروحا، فيجد زوجته قد غدرت به في غيابته فعشقت صديقه . وعولس ضل السبيل في البحر فعطفت به الروح وبصحه على جزيرة وحش ضخم رائع على هيئة إنسان له عين واحدة في جبينه . فكاد يأكله وصحبه لولا خمر اسبرطه التي كانت معهم فأسكروه بها وفروا بمركب قيضه لهم الحظ وضاعوا في اليم سنين حتى عادوا الى الوطن ، فوجد عولس زوجته مقيمة على العهد حافظة للعفاف ، فشكت إليه رجالا أحاطوا بها يتربصون ، فقتلهم . ثم مات هو مقتولا في معركة بيد ابنه الذي كان يحمل أنه أبوه ،

تلك أناشيد قيل إن «هوميروس» الضرير كان ينشدها قبل مولد المسيح بتسعة قرون^(١) يستجدي بها فيكسب خبز يومه على نحو ما كان يفعل شعراء الإغريق الأقدمون الذين جعلوا الشعر سبيلا للتكسب . ثم حفظ بعد موته كثير من الشعراء المنشدين اشعاره فأنشدوها مثله . وشاعت في عرض البلاد اليونانية وطولها حتى كان عصر الكتابة فكتبت . وغالى بها اليونان فادعت سبع مدن أن «هوميروس» ولد فيها منها إزميرورودس وسلامين وأثينا^(٢) .

واختلف علماء الفرنجة في صحة الإلياذة وحقيقة نسب أناشيدها وانكر بعضهم وجود «هوميروس» وسفه هذا البعض علماء آخرون^(٣) فأقروا بوجوده ووجود أناشيده وعملت الإلياذة الآفاق فترجمت الى كل اللغات الحية ونقلها شعراً الى لغة الضاد المرحوم سليمان البستاني سنة ١٩٠٤ .

وقال نفر إن هذه الأناشيد أسطورية لما فيها من ذكر الآلهة والأخيلة والهواتف واستحالة الانسان هباء أو تجسد الخيال إنسانا . وقال آخرون بل هي حقائق نسج عليها الشاعر رداء من الأساطير . فان «هيرودوتس» المؤرخ الذي ولد بعد هوميروس بأربعمائة عام كان يستشهد بأشعاره على حوادث كثيرة من التاريخ وإن يكن هوميروس قد اخترع كثيرا من الحوادث الأخرى ، فهو بهذا الاعتبار أول المؤرخين في قومه^(٤) بشعر الحرب ، وخلدت

(١) الإلياذة ترجمة البستاني ص ١٩ ، حسب التحقيق في قطع من المرمر منقوش فيه انساب يونانية عتيقة محفوظة في مكتبة اكسفورد .

(٢) رسالة عن الإلياذة بترجمة جوركان بالفرنسية طبعة الكلاسيك لهاتيه بباريس ص ٧

(٣) كروازي في كتابه السابق ص ٨

(٤) الإلياذة البستاني ص ٥٨ من المقدمة .

الإلياذة على ترادف الأحقاب وكرور العصور غير عابئة بالنكبات التي أتت على الإغريق الأقدمين وتعاورت بالبلوى والقضاء على أعقابهم المحدثين . وبقيت منبعا في ديار الغرب يرتوى به الأدب ومشحذة تنصقل بها العزائم حتى قال أحد قياصرة الفرنج المحدثين ، دعوا الأساتذة يكثرُوا من تلقين شعر هوميروس فإن الأمة التي يرسخ في ذهنها وصف صبا الأمم على نحو مايسطه هوميروس ، لايسارع إليها العجز والهرم . وقال د ارنست رينان ، اذا مر على عهدنا الف عام انقرضت جميع التأليف التي بين أيدينا ولم يبق إلا كتاب واحد هو ديوان هوميروس (١) .

وكيف لا يكتب لها بقاء الذكر وقد حوت الى حوادث التاريخ روائع في وصف المعارك وخوارق البطولة ، وضمت فلسفة وحكمة وآدابا ومعارف جمّة في الطب والفلك وفن الحرب وفي شؤون السياسة وإدارة الحكومة .

أما الرومان فقد قلّدوا اليونان في ملاحهم فأنشأ شاعرهم «فرجيل» ملحمة سماها «الإلياذة» فخرج بها عن طوق هوميروس . فهي لم تكن يوماً من الأيام في وجه التاريخ ، إنما نسجها بخياله وأوهامه ، فجعل حوادثها مغامرات البطل «إنياس» وهو الذي سميت باسمه الإلياذة ، وكان أكبر زعيم من حلفاء الطرواديين هب مع صحبه الى قرطاجنة فلكها ثم جاء «إيتاليا» فتزوج بابنة ملكها ، وملك بعده فكان من صلبه «روموس» و«رومولوس» اللذان تروى الأساطير الإيتالية انهما كانا يرتضعان من أطباء ذئبة حنّت عليهما ثم شبا واختصما على الملك .

ثم إن الأمم الغربية التي ابتليت بالحرب وعرفت الفروسة وكان في طباعها حب الجلال مضت على سنن الإغريق في شعر الحرب فكان لها ملاحم كبرى . . . فلدى الأمة الألمانية ملحمة «النييلونغانليد» أوقصيدة النيبيلونغيين ، وهي منظومة حربية كتبت حوالى سنة ١٢٠٠ لليلاد وتشتمل على قسمين أصليين : سيفغريد وثأر كراميلد . وكلية فخواها أن الفتى المغوار «سيفغريد» بعد أن ذاع صيته بالبطولة واشتهرت في القوم غزواته تعشق الفتاة الحسناء كراميلد أخت الملك «غونتير» ملك البورغوند ولما عرف هذا العاهل بهوى البطل أراد أن يجعل صداق أخته عليه قتل ملكة إيزلاندة فقال له ان أنت اعنتنى في حرب هذه الملكة الغاشمة فدكت عرشها اظفرك ببعيتك وزوجتك أختى .

فجداً «سيفغريد» في حربه وقيض له العزم بعد أن أبلى البلاء الحسن أن يجيء بملكة إيزلاندة صاغرة إلى مولاه فنال هو بغيته واشترى ببطولته وظفره عروسه الحسناء ، نكن

ملكة ، ايزلاندة ، تأبت على الملك ، غونتير ، وآثرت أن تكون في سباياها بين عبيده على أن تكون له عروسا . فحازها غضبا فتظامنت ثم اطمأنت . وحين طلع جمالها على عرشها تضائل أمامه جمال كل امرأة في القصر . فكان أسبق المليحات إلى حسدها ، كراميلد ، زوجة سيفغريد وعيرتها بأنها كانت حظوة زوجها يوم جاء بها أسيرة قبل أن تزف إلى الملك . فغضبت الملكة وسول لها كيد النساء أن تضمر للنافسة شرا فأرسلت أحد رجالها فقتل من أجلها الفتى البرى ، سيفغريد .

خلفت زوجته ، كراميلد ، التي كان مهرها غاليا أن تثار لزوجها القتل المغدور وأن تسلط كيدها هي على عدوتها الظلوم وكان الملك ، أتيلد ، ملك الهون راغبا بها يتمنى لو كانت له زوجا فأرسلت إليه من دعاه إلى خطبتها فرضيت به . وبعد حين استطاعت بما أوتيت من سحر ودهاء أن تحمل زوجها على أن يدعو إليه الملك ، غونتير ، وزوجته وحاشيته ليقتلهم جميعا لإبان المأدبة . وحين حلوا بساحتها وجلسوا إلى مائدتها انقض عليهم الجنود من كل صوب فأخذوهم بالسيوف وقتلوه جميعا . وقطعت كراميلد يدها عنق الذي قتل زوجها .

تلك قصة ملحمة دارت حوادثها في القرن السادس الميلادي وهي سيرة ناس كانوا يعيشون على ضفاف الرين ، فباتت من ذلك اليوم ملحمة الأمة الجرمانية في قديمها وحديثها ، وذاع لها بين ظهرانيتها صيت عظيم . وقد ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ونقلت إلى اللغة الفرنسية مرتين واحدة سنة ١٩٠٩ واثانية سنة ١٩٢٣ (١)

وذاع بين الفرنسيين منذ سنة ٧٧٨ لليلاد ملحمتهم التي يحذون على مجدها ويحنون إلى عهدها ، وهي أنشودة رولان التي يقول ناظمها : إنه بينما كان الإمبراطور ، شارلمان ، عائدا من مغزاة في شمال اسبانيا في فتح غائب فأب وعسكره محفوفين بالخسارة فجعل يجتاز بفلول جنوده جبال ، البيرينيه ، فهبط على مؤخرة جيشه نزلاء الوادي من سلبة العابرين وكانوا يسمون ، رونسوفو ، فنهبوا قافلة وذبحوا عسكره ذبح النعاج .

فتغنى الفرنسيون منذ ذلك العهد بفروسة هؤلاء المحاربين ، وجعلوا هذه الموقعة شاحنة لقواهم فكانت أناشيدها الأولى وليدة البلاد التي عاش فيها رولان حفيد شارلمان في أواخر القرن الحادي عشر لليلاد على مقاطعتي ، مين ، و ، أنجو ، فسميت هذه الملحمة باسمه ونمت ألياتها وتضاعفت مقطوعاتها حتى ضمت مجد فرنسة في أوائل العصور في حربها وقاتلها .

وهذه الأنشودة غدا شلمان ورولان أعظم جبابرة الحرب في القصص الحربى الفرنسية .
ولم تلبث هذه الأنشودة الحماسية أن عبرت الى إيطاليا فكان بحارة البندقية يترنمون
بالحانها ويرددون بالأنغام مقاطيعها . ولقد كانت موضوعا ووحيا لكثير من المؤلفين
المسرحيين ، فوضعوا روايات تمثيلية جسموا فيها للنظارة بطولة السكارولنجيين ، وعظمتهم
الحربية في عهد البداوة الفرنسية . . . (١)

وعطفت الأمة الإيطالية على مهزلة ودانتى، التى نظمها عن نفسه بأنه شهد الجنة والنار وكان
فرجيل قائده اليهما فى مركب يعوم على نهر الجحيم فأطل منه على شقوة الإنسان الذى يتلظى .
وخرج من سياحته هذه الموهومة وقد هاله ما رأى من مظالم الوجود .
وحدثت الأمة الانكليزية على شاعرها د جون ملتون ، فجعلت من قصيدته السكبرى التى
سماها الفردوس المفقود ملحمة لها ، تجد فى أبياتها صدى مجدها الأدبى ، منسوجاً عليه ثوب دينى
لأن د ملتون ، كان فى ملحمته يبكى ضيعة الفردوس من يد الإنسان الفانى ، وهبوطه إلى الأرض
بعد أن أغواه الشيطان .

والصحيح أن ملتون إنما بكى فردوسه هو المفقود، فقد أصابه العمى وماتت زوجته الأولى
فأخذ ينظم هذه الملحمة من دم قلبه ويبكى حظ الإنسان وحظه معاً على الأرض الفانية ،
فأكسبته هذه القصيدة الرائعة بعد موته ذكراً لا يبلى . ولقد أعطى أمته ملحمة الفردوس
المفقود ، فأعطته فردوس الخلود .



وما كان الشرقيون أقل حفاوة بشعر الحرب من الغربيين ولادونهم فى الفروسية والبطولة
وسرد القصص عن الآهوال ، فان عندهم ملاحم كبرى نظموها مزيجاً من الحقيقة والخيال
ومن الوهم والواقع وجعلوا ترداد فصولها تذكيراً بالمجد ، وتأريثاً للشأ ووقداً للعزيمة ، فكان
لليابان والصين منظومات حربية . وذاعت منظومة د الرامينا ، التى وضعها الشاعر الهندى
د فالميكى ، قبل المسيح بأربعة عصور . وتكاد تكون فى عمرها وعتقها تالفة للإلياذة . وهى
قصة مزيجها الأسطورة تبلغ ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر . نظم معظمها شاعر واحد
فجعل بطلها د راما ، ابن ملك أوده الذى رباه أبوه بالنعمة وحسن الخلق لكنه حين اشتد
ساعده وفاض شبابه تعشق أم أخيه دهراتا، فغضب عليه أبوه ، ونفاه من البلاد فهام على وجهه

(١) الموسوعة الفرنسية الكبرى لبرتللو وجماعته الجزء ٢٨ نقلاً من كتابى غوييه « أنشودة
رولان وكتاب الملاحم الفرنسية » .

أربعة عشر عاما في غابات «داندا كا» ، ثم عاد ليتولى الملك . وكان للأمير رامما زوجة حسناء اسمها سيتا فأحبها ملك الجن في جزيرة سيلان واسمه «راقانا» فاختطفها فهب «رامما» في طلبها مستعينا بملك القروود حتى قتل ملك الجن واستخلص زوجته وترك على عرش الجن أخا الملك الذى كان له عوناً على قتل أخيه ونصيرا .

كذلك عاد رامما وزوجه إلى بلادهما في ظفر ثم عرج رامما إلى السماء فغاب فيها . وهذه الملحمة تشير في كثير من مواقفها إلى تاريخ الهند العتيقة . أهم ما تذكره غزوة ارياس لجنوب الهند . وفي هذه الملحمة مشابهة بالإلياذة في أساطيرها ، فكما كانت الآلهة تمد «آغامنون» وجمعه بالأسلحة فكذلك كانت الآلهة تمد بسلاحها الفتى «رامما» وإن في حلقه مع الجن والقروود لما يجعلها في أساطيرها وخرافتها مشبهة ببعض حوادث الإلياذة في صدد الجن والمسوخ .

وللهنود ملحمة ثانية هي قصيدة «المهابهارته» وتقع في نحو المائة ألف بيت . فخواها تنافس أبناء العم على الملك وانقسامهم شطرين في خصام يؤدي إلى فناء أحدهما ثم يخلف الآخر بعده ويدركه الفناء فيتبعه .

* * *

وللعبرانيين ملاحم . فإن إصابتهم في تاريخهم بشتات الوطن ، كلفهم سفك دماء . وكان من أبطالهم الفتاة «جوديت» التى جزت رأس «هولوفيرن» ، إذ كان محاصراً لبيت المقدس بعد أن تسلمت من أبواب السور ليلاً ودخلت خيمة القائد المحاصر وسقته خمراً . فهب جمعه في الصباح ، وقد وجدوه مقتولاً فتفرقوا ووقع بينهم الخذلان فانصرفوا عن أسوار المدينة . ونظم شعراء اليهود هذه الحوادث في شعر يردد عندهم بعد التوراة . وقد حوت التوراة جانباً من ملاحمهم ، «كسفر أيوب» الذى يذهب بعض الباحثين إلى أن أصله عربى . وهو يحتوى على ملحمة شعرية عربية في وقائعها وأخبارها ، وأن التوراة نقلت هذه الملحمة إلى العبرية . فاذا ثبت ذلك كان العرب قد سبقوا اليونان والرومان والهند بأعصر إلى وضع الملحمة المثلثى التى نفتقدها اليوم في أدبنا فلا يجدوها في قديمه أو حديثه .

ولكن هذا رأى ما يزال قائلاً لم تنهض عليه أدلة علمية إلى اليوم . ولم يعد أن يكون ظناً من الطنون أو افتراضاً .

وإن في مباحي التوراة وتناوحها لكثيراً من أقوال تلك الملاحم . وكفى بالنبي سليمان وأبيه داود أن يضيفا عليها بالشعر «سفر المزامير» و «انشودة الأناشيد» .

* * *

أما الفرس فأجدر بهم أن يكون من حقهم حمل لواء الملحمة في الآداب الشرقية ، فقد قيض الزمن لهم في العصر الرابع للهجرة شاعرهم الأعظم « أبا القاسم الفردوسى » فنظم الشاهنامة فكانت سفر الأمة الفارسية منذ ذلك العهد ، جمعت تاريخ أكاسرتها فذكرت أسرهم ووصفت فوادح الحوادث في عهودهم ، وكانت بذلك جارية على منهج منفرد عن سائر الملاحم التي سبقتها فهي تروى أحداث ما يقارب أربعة آلاف عام من عمر الفرس ، حكم فيها أربع دول حتى عهد الدولة الساسانية .

وهذه المنظومة هي التي بنيت في التاريخ الفارسى مجد الأمة بعد أن حطمه الإسكندر المقدونى بفتح فارس — فأحييت مجد العجم وأقامت الذكرى لشعائر الدين الزاردشتى . وقد أدخل مؤلفها الفردوسى شخصه في ثناياها — فكان بذلك منفرداً أيضاً — فهو يذكر نفسه في بعض فصولها عند البداية أو الخاتمة كأن يذكر من روى القصة له أو ينوه بفضلها في الشعر وبراعته في نظم هذه الحوادث أو يتشكى ضعف الجسم وهجمة الشيخوخة أو يمدح السلطان « محمود بن سبكتكين » الذى صنف من أجله هذه المنظومة (١) .

وفي الشاهنامة يظهر الفردوسى بطولات الفارسيين في الحرب ومكانتهم في السلم وأعظم الأبطال الذين دارت عليهم حوادث هذه الملحمة « كيخسرو » و « بهرام كور » الملك الساسانى و « بهرام جوبين » القائد و « كيو » و « رستم » و « الاسفنديار » جبار الأبطال .

ولم يستطع الفردوسى أن يبرىء الشاهنامة من النعرة الفارسية التي كانت شعور كل شعبه معزراً بذلك مذهب الشعوبية الذين لا يرون من فضل للعرب . وهاج أحقاده الموروثة فتح المسلمين لبلاده فرمى العرب بسهم من سهام الشاهنامة فقال بلسان رستم (٢) وقد بلغ الأمر بالعربى من شرب ابن الإبل وأكل الضباب حتى طمع إلى تاج الكيانيين فأفّ لك يا فلك السماء) وقد عرف العرب الشاهنامة بعد عصر الفردوسى ، فوصفها ابن الأثير بأنها شعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو عندهم قرآنهم . وقد ترجمها إلى العربية فخادها عن الشعر (قوام الدين البندارى) زمن الملك العادل أبى بكر بن أيوب في أوائل القرن السابع الهجرى وقد تصرف في ترجمتها فزادها ونقص منها واقتفى بمؤلفها في أثره شخصه فأدخل نفسه هو في ذكرها . وكان عنده الملك العادل أجدر بأن يذكر فيها من السلطان محمود الذى نظمت من أجله ، فامتدحه بقصيدة مطولة ذكرها في متن الملحمة ، ثم عاد إلى إتمام فصولها .

(٢) الشعر الحرى والشعر القصصى

لم يفرق نقاد الأدب العربى بين الملاحم والشعر القصصى ، بل مزجوا بينهما فى باب واحد وحسبوا كلا منهما مثل الآخر . على أن الملحمة كما عرفها نقاد الغرب (١) : قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة .

وقد تضم الشعر القصصى ، ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة . ففى أدبنا وآداب الأمم شعر قصصى كثير يكون فيه رواية حسب ، أو سيرة زورة كما فعل امرؤ القيس فى كثير من شعره . وكما جرى فى سرد أخبار النساء عمر بن أبى ربيعة . وليس شعرهما هذا من لمة الملاحم ولا يمت إليها بأى سبب فإذا جاز أن نسمى كل ملحمة شعرا قصصيا فليس يجوز أن نسمى كل شعر قصصى ملحمة .

والشعر الحرى قديم فى الدهر . فقد كان يسمى الشاعر الحرى فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى « مغنياً أو منشداً » ، (٢) يمضى من مدينة الى مدينة على غرار ما كان يفعل الشعراء المسمون « النزوفير » فى القرون الوسطى فى أوروبا . فكان ينزل هذا الشاعر ضيفا على الكبراء والأمراء فيكون زينة مجالسهم وموائدهم ، كذلك فعل الشاعر اليونانى الأقدم « ديمودوكوس » ، عنده عولس ، ملك جزر « إيتاكه » ، وكان صاحب الإلياذة هو ميروس نفسه من هؤلاء الشعراء المرتزقين ينشد مقاطع قصائده وحده على مشهد من عامة الناس ليجود عليه السامعون . ولما مات خلف شعره بين أيدي الشعراء المكتسبين من أمثاله فجعلوه موردا لرزقهم وطفقوا ينشدونه الناس على غرار صاحبه ، ويذهبون به فى البلاد فيكونون به زينة المحافل ، فسماهم الناس الشعراء الهوميريين . وظل حبل هؤلاء الشعراء موصولا إلى عصر أفلاطون . وكان لهم لباس خاص بألوان مختلفات يرتدونه عند الإنشاد وعلى رؤسهم أكاليل من الذهب . وإلى جانب الشعر الحربى نشأ فى أدب الإنسان القصص الحربى وهو روايات وقصص أكثرها النشر وأقلها الشعر .

(٣) الملحمة فى الأدب العربى

حين نقل العرب فلسفة يونان كانوا فى فتنة من عقولهم وخصومة من جدالهم فتفرغوا لمنطق أرسطو وقياس أفلاطون ونقد فيثاغور . وغلوا فى أحكام مزجوا فيها الإلحاد بالدين والسياسة بالتعصب ، حتى نزات المحنة من جراء ذلك بعلماء أعلام فجلسوا على النطع وأصلحت على أعناقهم السيوف بعد أن تربعوا للنظرة على بسط الحرير وبأيديهم الأقلام لا تنفتر عن

(١) كتاب الأدب الفرنسى تأليف جول بيدييه طبعة لاروس ص ٢٨٥ .

(٢) Aède ou chanteur

الكتابة . وكان المأمون يؤرث حومة جدالهم فيخلع عمامته ويضعها جانباً . ثم يقبل على معشره من الفقهاء ويقول :

— إنما بعثت إليكم للنظر . . .

فأفاد الإسلام من فلسفة الإغريق حتى غدت له فلسفة ، لها أعلامها وأساطينها ، كان سينا وابن رشد والفارابي ، ممن كانت قضاياهم العقلية مبنية على قواعد الحكمة اليونانية وكان لها من الفضل أن شاركت في بعث الفلسفة الحديثة بأوروبا .

ورأى المسلمون الفلسفة فاشتغل بها العرب والعجم وطال فيما بينهم المناهدة بالاستقراء والأدلة حتى غدت شغلهم الشاغل في كل حفل أو كتاب وطني على بعضهم فساد العقائد فزوروا بها رجها بزخارف أقوالهم ، ونشأ فيهم « إخوان الصفاء » فشغلت مجالسهم الخاصة أبواب القوم وأحاط الإخوان علمهم بنطاق من الأسرار فكان الحس والمحسوس والعقل والمعقول ديدن تفكيرهم ونقاشهم . وقد ظلت هذه المذاهب الفلسفية والآراء المنطقية تتضاعف بين المسلمين بعضها ببعض كأعداد الحساب حتى غدت لا تعرف من هول خطرها وغموضها وقد أحصى أبو منصور البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » والشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » ، وابن حزم في « الفصل في الملل والأهواء » ، ما لم يكن لامة على الأرض مثله من المذاهب في الفكر والاعتقاد .

فداع في الثقافة العربية منذ استهلال العصر العباسي أسماء أولئك الفلاسفة اليونان الأقدمين . وظل اسم هوميروس بينهم مستسراً إلا عند نفر من حذاق اليونانية أو ممن عرف بأدائها أو ذكر فنونها . وبالأستدلال بأقوال ابن أبي أصيبعة وابن خلدون (١) يعلم بأن هوميروس وإلياذته كانا معروفين لدى العرب بعد نهضة الترجمة في المائة الثانية للهجرة . وقد قال الشهرستاني صاحب « الملل والنحل » (٢) : « أو ميروس » الشاعر وهو من القدماء الكبار ، الذي يجريه أفلاطون وأرسطاطيس في أعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ ثم ترجم له مقطعات من أشعاره بحمل معقودة الكلم على المواعظ والحكم مثل قوله :

(« إن الأدب للإنسان ذخراً لا يسلب . إن كنت ميتاً فلا تحقر عداوة من لا يموت . إن الكلام في غير وقته يفسد العمر كله ») . وقال الشهرستاني في آخر هذه الجمل وهي كثيرة

(١) المقدمة طبع بيروت ١٩٥٢ . وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الطبعة الأولى الذهبية سنة ١٨٨٢ ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) الملل والنحل بهامش كتاب الفصل في الملل والأهواء لابن حزم الطبعة الأدبية بعصر سنة ١٣٢٠ هـ الجزء الثالث ص ١٩ .

وفي موضوعات أشتات من الاجتماع والأخلاق والآداب . وإن وجود الشعر في أمة اليونان كان قبل الفلسفة وإنما أبدعه أوميروس ، (١) .

وقد ترجم الإلياذة الى السريانية بأيام المهدي أحد المعروفين في بابيه ، وهو تيوفيل الروهاوى غير أن نقل الإلياذة الى العربية لم يكن لدى المسلمين يومئذ أمراً هيناً ، لما فيها من ذكر الأوثان التي جاء الإسلام بتحطيمها . كما تجهم الزميتون للنقش والتصوير . وكان جل الأدب اليونانى ممزوجاً بالوثنية فخرمت العربية يومئذ من درة الأدب الإغريقى القديم وديوان أخباره فلم يكن فيها قبس من هذا الشعر الغزير في وصف الحروب وما إليها من أخبار الأبطال كما خلا أدبنا القديم من القصص التمثيلية وكان شائعاً عند اليونان على يد « سوفوكل » وأمثاله وكان شأنه في الوثنية شأن الإلياذة .

ولو نقل العرب هاتيك الأعلاق إلى آدابهم وعنوا بها عنايتهم بالفلسفة لكان في أدبهم من ثمار القرامح ما أغناهم عن التشهى إلى أمثالها عند غيرهم . واستأرى أدبهم خالياً من الملاحم ، ولا ينبغي أن نعتهم ، فنطلب إليهم أن يكون لديهم ملحمة كالملحمة اليونانية في أناشيدها وموضوعها وحديثها . إذ ليس شرطاً في كل ملحمة أن تحتذى الإلياذة أو سواها من ملاحم الأمم العتيقة أو الحديثة .

وعندى أن كل شعر طال أو قصر ، وقد وصفت فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلال ، هو من شعر الملاحم .

على أن الذين يحملون القصص الشعرى ملحمة ، يجدون في الأدب العربى ما لا ينقضى جماله من هذا القصص الكثير . ولكن علام لم يعتمد العرب الأوائل واللاحقون إلى نظم ملحمة كبرى تجىء في آلاف الأبيات كالإلياذة والشاهنامة فتجمع تاريخ الأمة العربية وتخلد مجدها الإسلامى في حربها وسلسها ، وتكون قدوة الحماسة ومناط العزيمة . على حين نجد تاريخهم مملوءاً بالغير والأهوال ، ويكاد يكتب الكاتب وقائعهم بمداد من الدم ، فلقد عرفوا القتال والنزال من سحق الجاهلية حتى عصورهم الأخيرة .

فمثل هذا التاريخ الحافل ينادى شاعر الأمة العربية لمنظومتها الكبرى ، ويحمل الأدباء على تسجيله وتصويره ليكون للمعاصرين ولمن يأتي بعدهم كتاب نخر ، وسفر مجد ، يتلوه الأبناء بعد الآباء .

(١) وذكر القفطى في كتابه « تاريخ الحكماء » و « أخبار الحكماء » أن حنين بن إسحق كان ينشد أشعاراً بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم . أخبار الحكماء طبع السعادة بمصر ص ١١٩ ، تاريخ الحكماء طبع أوربا ص ٦٧ .

أما العرب في جاهليتهم فلم يحاربوا قوماً خارجاً عنهم ، فما عرف التاريخ أنهم جهزوا جيشاً لمحاربة فارس والروم إلا بعد الإسلام . وإن يكن في حروب المناذرة والغساسنة ما لا يشفع لهم بالتقصير في نظم الملاحم الفنية ، وإنما كانت حروب الجاهلية بين قبائلها فحسب ، ولو كان أمر الملاحم الفنية لديهم مألوفاً ، لورثنا عنهم كثيراً منها .

ولعل حبهم للقافية الواحدة يجرى عليها روى القصيدة ، زهدهم في الملحمة إذ كانت تقتضى آلاف الأبيات ، ومن لهم بروى واحد يجرى به الكلام ألفاً في لغة العرب أو في أية لغة في الأرض ، على أن الشعراء الجاهليين لم يحاولوا إلا في قليل زيادة أبيات المطولات على المائة بيت .

وقد استغرب ابن الأثير في خاتمة المثل السائر « أن لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، منظومة كالشاهنامة ، على أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة في بحرهما ، وكان ابن الأثير يرى أن العجم يفضلون العرب في الإسهاب » .
وينتج لي ذلك أن ميل العرب إلى الإيجاز ، وغلوهم في اختصار الكلام ، والتزامهم مقاطع الجمل الضيقة التي تحمل غزير المعاني ، قد يكون السبب الذي صرفهم عن نظم الملاحم وقصر منظوماتهم — مهما زادت — على تلك المطولات التي ألفوها .

وإني وإن قلت إن الأدب العربي قد حرم الملحمة المشبهة بملاحم الأمم المشهورة التي أسماها « الملحمة المثلى » ، فإني أعد الشعر الجاهلي الذي قاله أصحابه في أيام العرب « ملحمة كبرى » ، ولكنها مقطعة الأوصال قد اشترك في وضعها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء ، وما أجد على من ضير في هذا الرأي فإن ملحمة هوميروس ليست له كلها ، وقد أنكر النقاد « وولف » وجوده ^(١) وزعم غير « وولف » ، نفر من العلماء النقادين ، أن اسم هوميروس عنوان فحسب للطائفة الشعرية التي جمعت من أفواه الأقدمين دون معرفة قائلها ، وسميت بالإلياذة ^(٢) . . . وإن في المعلقات الجاهلية العشر ، وفي سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لما يتنخل منه ملحمة عربية كبرى قيلت في الجاهلية . لأن خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون متحاذية ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو صورهم الفنية متماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن العبد مقطوعات في معان جاء بمثلها امرؤ القيس كما أن لديه أبياتاً هي ذاتها عند ضريعه تتغير قوافيها فحسب ، وإيه في وحدة معاشهم وطبيعتهم

(١) نخبه من إلياذة هوميروس ترجمة جوركان ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤ .

أرضهم المتشابهة ، وانبساط آفاق الرمل بين أعينهم وتظلمهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر وفي الوبر ، لما طبعهم جميعا على غرار واحد ، فألف بين منالات معانيهم وخواطيرهم ، وضروب تصورهم مع اختلاف قليل في أساليبهم . على أن البصير في أساليب المعلقات العشر ، واجد فيها شبا في النسج والمعنى ، مما يساعد على الأخذ بهذه النظرية التي أقول فيها باحتمال التأليف للملحمة عربية جاهلية ، تؤخذ من الشعر الجاهلي فتنتخب من مقاطع وقصائد ، لكل شاعر ، تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب ، وتسجل ذكر أبطالها وبطولتهم الفائقة التي ما كان الأدب اليوناني القديم ليبزهم فيها عند ذكر أبطاله وتصوير غاراتهم وخوارق بطولانهم وسداد آرائهم في الحرب وطرائق خدعتهم في الهجمات والمبارزة والحصار والمناجزة ، فللعرب في جاهليتهم وإسلامهم مواقف قل مثيلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفي تشمير الجاهليين للحرب ليل نهار ، وغاراتهم الهاجمة التي ما حفلوا معها الموت ، ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التي عاصرتهم ، أو تقدمتهم في الزمن .

ولإذا كانت ملحمة اليونان تقوم على عقل عولس ، ودهاء أغاممنون وبطولة آشيل ، فإن للعرب الأقدمين عنبرة الفوارس بن شداد العبسي الذي ملأ دنيا الحروب الجاهلية ، وشغل الناس إلى اليوم بقصة أهواله وضروب شجاعته . وعند العرب جساس بن مرة وكليب بن ربيعة والحارث بن ظالم ، وفي آل عبس وذبيان وبكر بن وائل وتغلب وغيرهم من بطون العرب وقبيلها لما يكاثرون به الأمم .

ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم الحربي الذي نبه لإليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ، قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح في ديار فارس ، وأرض الروم وسائر الأقطار التي بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزع سلطانهم في أواخر العصور .

ولو أننا توخينا القصد في هذا الرأي والتمهل في شموله لوجدنا بين أيدينا قصائد عربية لا يذهب بها شيء عن أن تكون جزءا مقطوعا من ملحمة العرب يماثل مثله من أجزاء الملاحم التي لدى غيرهم ، حوى وصف المعارك ، وتزجية العسكر وفورة العدو ، واستجاشة العدة ، تلمع أسنة فرسانه على صهوات جياده . ويتألب عليه العدو وجمعه ، ويدمر عليه بالشدة والبأس ، فيكون الالتحام ويكون السكر والفر ، والإقبال والإدبار ، والرمي بالنبل والحجر والطعن بالسيف والرمح والخطب بالأعمدة . . ثم ينكشف القتال عن قهر أو ظفر ويندفع

الغالبون فائزين بالغنيمة والفخر ، وينطوى الخاسرون على تضميد الجراح وإعداد النار .

ولا بد للأدب العربي من يوم ينهض فيه أقوامه إلى جمع ما تشتت من قصائد الشعراء ، في وصف الحروب العربية والمعارك ، وما لابس ذلك من وشائج الحياة والموت في السلم والحرب فتؤلف الملحمة الكبرى بعون ذلك الشعر فيصف شاعرها الموعود في ملحمة بطولة العرب في الجاهلية وجهادهم في الإسلام وما خالج حيايتهم من شؤون وشجون وحب وبغضاء وكيد وأخبار وسير ودولات وغيرها تبين فيها نخوات الجاهلية وعبقريّة الحماسة التي خفقت بها قلوب العرب والساحة الإسلامية ، ونشدان العدل ورحمة الفاتح ، واستطالة سلطان العرب إلى آفاق المشرق وآماد المغرب ، حتى لاحت على الصين أعلامهم وصفقت صفاة الأندلس سنابك خيولهم ، وعبروا إلى فرنسة فركزوا رماحهم في پواتييه ، وقد انحدروا نحو الجنوب بجيوشهم حيث تلالآت سمرة وجوهم تحت الشمس الإفريقية .

ولا بأس على ناظم ملحمتهم بعد ذلك بالبكاء شفاء للغيل ، فلقد علم امرؤ القيس الشعراء البكاء في مثل هذا الشقاء . وكيف لا يبكي على مجد للعرب قد دثر ، وعهود لهم بادت وضاعت بين سمع الزمان وبصره . وانقضوا وكأنهم ما كانوا ثم أصار الدهر أخلافهم في أعقاب الأمم خملوا عبء المظلمة ودهمهم الفاتحون .

وقد استيقظوا في يومهم هذا وفي أيديهم حفنات من تراب ، هي بقية الصرح الممرد الذي بناه على الأرض الجدد ، وبناء لهم الله ، حين سمك السماء ليكون أعز وأطول . ولكي يكون بهذا البكاء وقد لعزمهم الخامد ، وتأريث لنارهم الخائية فيستعيدوا مجدهم الآفل ، ويكشفوا عن بنائهم الدارس ، فيقيموه حديثا ويلحقوا قافلة المجد في الأمم التي تسير اليوم قدماً ، باذلة في سبيله العقل والروح ، والسلاح والنشب ، والعلوم والفنون وكان الأمل أن ينظم الملحمة العربية شعراء الأندلس ، الذين أظلمت آفاق تمزجهم بالفرنجة فيكون منهم شاعر ينظم الملحمة الأندلسية ، لتاريخ خطوه بدمهم وبلاد فتحوها . البحر من ورائهم والعدو من أمامهم . وقد خلفوا في المشرق أجساد أهلهم الأمويين صريعة مجزوزة الروس . أدبرت عليها صنوف المثلة . فكانوا أشجع في كل ذلك من اليونان الذين حاصروا طروادة وأحسن عقبي .

ولكن أديهم الأخبارى أحمد بن عبد ربه قد نهض ببعض هذا الشرف ، وكان يود أن يكون سهمه فيه أبعد وأسد ، فنظر إلى أعظم ملوكهم ، أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد أول من تسمى بالخليفة ، وتطلع إلى غزواته فوجد أنه ^(١) لم يكن مثل هذه الغزاة لملك من الملوك

في الجاهلية والإسلام ، فنظم أرجوزة في أربعائة وخمسين بيتا ذكر فيها حروبه مع الإسبان وفتوحه وأيامه ووقائع مع بني قومه حسب السنين من سنة إحدى وثلثمائة حين اختلفوا ودبّ بينهم الشقاق على الولاية ، وعصى منهم بعض الأعوان وشق عصا الطاعة بعض العمال . وإني لأعدها ملحمة صغرى على الرغم من سهولة أسلوبها ولين شعرها وفهاهة بحرها ولو أن أديب الأندلس ابن عبد ربه أطال نفس شعره فبدأ قصيدته منذ عبد الرحمن بن معاوية فاتح الأندلس لجاءت ملحمة الصغيرة أوفى بالغرض

(٤) العرب أمة حرب

لم تخل أمة من حرب ، وهى إما أن تكون لها مع الجار أو مع من فى الدار . ولقد ابتلى الدهر الشعوب وفق شرعته التى سنّها الطبيعة ، فكسب عليهم أن يقتتلوا ما بينهم حتى إذا كانت الغلبة لفريق على فريق ؛ هب من ملك الزمام نخرج بالحرب إلى من كان فى جواره .

كذلك ضرب لنا التاريخ الأمثال فلم نجد أمة أصبحت غالبية أو مغلوبة إلا كانت الحرب شغلها الشاغل ، فلقـد كان الاسبارطيون فى سجال حرب مع الآثينيين ، فى أيامهم وأعوامهم وهم أبناء جلدة واحدة ولغة واحدة .

وقامت الحروب الأمريكية بين أهل الشمال وأهل الجنوب حينما من الدهر . شاب لهولها الأطفال ، وشغلت الأمة الفرنسية حروبها الأهلية فكانت ثورتها الكبرى أفدح مذابح الإنسان لأخيه الإنسان ، فى دار واحدة وحرم واحد . وبالألمس احتدمت الحرب الأهلية فى رحاب الصين وبلاد الإسبان .

وكان لليونان قتال مع جيرانها والبعداء عنها وكان مثل ذلك للأمريكيين والفرنسيين وأضرابهم من الأمم مما يعيا بذكره المؤرخون .

فلا تريب إذن على العرب القدامى أن يقتتلوا ما بينهم أحر قتال ، وأن تكون الحرب فى دارهم سجالا وهم الأمة الوحيدة التى عاشت زمنا مديدا مشغلة بنفسها غنية عن جيرانها . وكانت فى بهرة الحلقة من أمم متحضرة .

فى مترامى شمالها بلاد الفرس وديار الروم وفى شرقيها الهند وعلى غربيها أرض النيل . وكان مالها الأنعام تسومها المرعى فى واد غير ذى زرع ، وسهل يخالط السراب فيه السكلاء . فإذا جف ضرع الأرض وأتى أهلها وقطعانهم على الماء الذى خلفته الأمطار والأعشاب التى أنبتتها الدمن ، ارتحلوا عنه يضربون فى مجاهل الصحراء ، حتى يرى رائدهم نجمة ينتجعونها ، فإذا بلغوها وقد بلغ منهم الجهد ، عرفوا قيمة الماء وفداحة العطش وأدركوا

أن بالكلاً حياة الماشية ، فها لهم أن يدمر عليهم جار غاصب فيشرّكهم في ماء سبقوه إليه أو كلاً أحرزوه دونه فيدفعونه . فإذا أبى قاتلوه وسقط في الموقعة القتيل أو الجريح ، فيكون ذلك مولد الثأر وتكون بعده العدة للانتقام .

وكان طبيعياً بعد انحسار المقاتلين أو انكسار العادين أن ينصرف كل فريق إلى أحلافه من قبائل العرب وبتوطنهم . أو أن يكون للقتيل أو الجريح أشياع وأتباع في القبيل والبطون فينهض كل فريق لنجدة فريقه وتكون حرب جديدة ، ويوم آخر مشهود .

وكان يحملهم على هذا الفناء غير النعم والمال ، فلقد نشأت حروبهم من جراء الحفاظ على الشرف فإذا سبي عاشق معشوقته هال أهلها العار ، فهبوا لدفعه وغسله ونشب من ذلك القتال بين أهل الفريقين وتوالدت منه وقائع وثورات .

وكانت لإجارة المستجير تكفي للبحاربة في سبيل إيوانه أو الخفر بدمته . وكان يتفق أن يستجير القاتل بأبي المقتول وهما لا يتعارفان فإذا بلغ الأب الخبر هدر دم ابنه لزمة عنده لا تخفر وشرف لايهان . وكانوا يوقدون نار الحرب في سبيل حق مهضوم أو خدعة بيتت ولم يكونوا زاهدين في الشهرة والرعاية وحب التسلط ، فإن كثيراً من ساداتهم وخطاريفهم شنوا الحرب من جراء الإمارة . وكانوا كغيرهم من الأمم يتغلب فيهم القوى على الضعيف ولا يحمي لديهم الذمار إلا بحد السيوف .

وكانوا لا يدفنون غضباً ولا يغسلون دماً إذا وجدوا على أنفسهم بذلك غضاظة . ولم تكن الديات عندهم سوى كفكفة دموع . وإرضاء للضعاف ، وإنما كان الثأر لديهم شعاراً للحروب .

فإذا قتل رباح بن الأسل الغنوي شاسا بن زهير بن حذيفة العبسي ، ثارت قيس فكان يوم الردة ، وذاقت فيه قيس قهراً وويلاً . فهب خالد بن جعفر ومعه رهطه بنو عامر بن صعصعة ، وصخر بن الشريد فارس الهرات ، ومعاوية الأخيل جد الشاعرة ليلى فقاتلوا عبسا في يوم النقراوات . ولم يهدأ جأش خالد بن جعفر حتى قتل رباحا الغنوي ، قاتل شاس العبسي فتسلل بعد هذا اليوم الحارث بن ظالم داهية السياسة الجاهلية ، فنزل ضيفاً على الأسود بن المنذر أخى النعمان بن المنذر ، فوجد معه في الضيفان خالداً قاتل زهير سيد قومه ، فقتله غدراً وهو نائم ومضى هارباً تنبؤ به البلاد حتى لجأ إلى معبد بن زرارة ، فأجاره فقال بنو تميم لمعبد كيف آويت هذا المشؤوم وأغريت بنا ابن المنذر ورهط خالد بن جعفر ؟ فأبى أن يجيبهم إلى خفر الذمة وبقي على حفاظ للعهد حتى أورده مالك بن خالد ومعه بنو عامر حرب يوم الرحران ، فأسروه وأماتوه هزلاً وكسروا قومه بني تميم .

وقد نتجت هذه الواقعة يوما عبوسا سماه المؤرخون «يوم شعب جبلة» ، لعامر على ذبيان وتميم ، دبرت فيه الحيل وحيكمت للغلبة فيه الخطط ، مما أعده على غشاة البداوة من روائع الأحاييل بين أشباهها التي يبدتها المحاربون إلى اليوم .

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى : «يوم جبلة أعظم أيام العرب» (١) ، ولعل أبا عبيدة يقصد واقعة ذلك اليوم وما كاد فيها جانب من الخصمين وما لقي فيها من الهول الجانب الآخر لأن من أيام العرب ما دام سنين متطاولة ، وكان أروع من هذا اليوم بأسا وأفدح خطبا ، لكن ما اتخذ في هذا اليوم من الحنكة والحكمة ، وسداد الرأي والحيلة وحسن التنفيذ ، كان لا نظير له على قرب مأخذه بين سائر الأيام الجاهلية ، وكان حدوثه قبل أربعين عاما من الإسلام سنة ولد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن «واقعة رحرحان» ، جرت على «لقيط بن زرارة» ، حيفا ومذلة ، فتناولوه الشعراء بالتهجير بها ، لأنه فرط في فدية أخيه سيد مضر ، إذ كان أسيرا في بني عامر فلم يفده بدية الملوك وقال لا أزيد فدية أخى على مائة بعير عملا بوصاة أبينا . فها هو الأسير الأمر واثني على نفسه محزون لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى مات هزالا . فهب أخوه لقيط من بعده وكان الألم خامره مما فرط في جنب أخيه . فانطلق يؤلب العرب على بني عامر وعبس ، فأطمع النعمان بن المنذر بالغنائم والجون الكلبى ملك هجر بالسبي والمال ، وجمع أحلافه وكان في جمعه بنو ذبيان لعداوتهم لبني عبس بسبب حرب داحس والغبراء وغطفان . وعليهم سنان من أبي حارثة المري والد هرم الجواد ، وبنو أسد حلفاء غطفان . وبنو تميم ومعاوية وعمر وولدا ملك هجر ومعهما جمعهما ، وحسان بن وبرة الكلبى أخو النعمان لأمه ومعهم جيش من النعمان وقد علمت بنو عامر وعبس فداحة هذا الهول وكثرة هذا العدد . فاستشارت قيس بن زهير وكان شديد رأى فقال يخاطب الأحوص بن جعفر وكان رعا هوازنا (٢) «الرأى أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل «شعب جبلة» (٣) فنقاتل القوم دونها من وجه واحد ، فإنهم داخلون عليك الشعب ، وإن لقيطاً رجل فيه طيش فيقتحم عليك الجبل . فأرى أن تأمر بالإبل فلا ترعى ولا تسقى وتعقل ، ثم تجعل الذرارى وراء ظهورها وتأمر الرجال فتأخذ أذنابها بأيديهم فإنها تنحدر عليهم وهى تحن إلى مرعاها ووردها ولا يرد وجوها شئ . وتخرج الفرسان فى أثر الرجال الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت وتقبل عليهم الخيل وقد حطموا من عل .

(١) العقد الفريد ط ١٣٥٣ ، ج ٣ ص ٣١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٥ .

(٣) بمعجم ما استعجم للحافظ البكرى ج ١ ص ٢٣٩ . «قال الأصمهباني هى هضبة حمراء طويلة

لها شعب عظيم واسع وبها كان اليوم المنسوب إليها» وفى المعجم المحيط شعب جبلة موضع بنجد .

وكان في رهط قيس بن زهير وبنو عامر وبنو عبس أحلاف عامر ، وبنو كلاب وأحلافهم بنو صعب وأبناء صعصعة ورهط المعقر البارقي ، وأحلافه بنو نمير وأقيال بجيلة دون قيس .

وعطش العامريون وأحلافهم إبلهم ثلاثة أخماس أى اثنتى عشرة ليلة ولم يطعموها شيئا . فلما دخل لقيط عليهم الشعب بجمعه ، كما توقع الحصيف قيس بن زهير حل العامريون عقل إبلهم فأقبلت تهوى ، فدقت كل ما لقيت من جمع العدو فانهزموا لا يلوون على شيء . وقد قتل لقيط بن زرارة وأسر أخوه حاجب وقتل ناس كثير من صحبه ورهطه .

وانطلق المعقر البارقي وكان قد شهد الواقعة يصف بشعره هذا اليوم المشهود ، ويذكر من كان فيه من الرجال الذين دفعتهم الملوك وكانوا كالجراد عدداً وكيف كان العامريون لا يأبهون للأمر وقد أعدوا له عدته فجعلوا يطربون بالظفر الذى سيكون لهم حتى صبحت أعداءهم ، كتائب تضرب الهامات ، وتطيح ببيضها تحت عجااجة يهوى فيها الفارس بسلاحه على خصمه ، كأنه باز كاسر قد انقض على قنيصة فقال (١) :

مع الصبح أم زالت - قيل - الأباعر	آمن آل شعناء الحول البواكر
فليس عليها يوم ذلك قادر	وحلت سليمى فى هضاب وأيكه
كما قر عينا بالإياب المسافر	فألقت عصاها واستقرت بها النوى
وحسان فى جمع الرباب مكاثر	معاوية بن الجون ذبيان حوله
وجاشت تميم كالفحول تخاطر	وقد رجعت دودان تبغى لئارها
جراد هففاً فى هفوة متطائر	وقد جمعوا جمعا كأن زهاءه
رجال بأطراف الرماح مساعر	فمروا بأطناب البيوت فردهم
وأعينهم تحت الحبيك خوازر	كأن نعام الدو باض عليهم
إذا غص بالريق اللها والحناجر	من الضاريين الهام يمشون مقدما
فلم ينبج فى الناجين منهم مفاخر	ضربنا جميل البيض فى غمر لجة
كما انقض باز أقم الريش كاسر	هوى (زهدم) تحت العجاج (لعامر)
مشيح كسرحان القصيمة ضاهر	يفرج عننا كل ثغر نخافه
إذا اغتمست فى الماء فتخاء طائر	وكل طموح فى العنان كأنها

كذلك خلد ذكر هذا اليوم المعقر البارقي بقصيدته هذه ، وهى لا بالطويلة المملة ولا

بالقصيرة المخلة ، فاستوفى فيها ذكر الواقعة من أولها إلى آخرها .
 فقصيدة البارقي هذه ذات ألوان حربية سريعة مختصرة السرد لكنها واعية شاملة وكفاها
 أن يكون فيها بيت واحد تتغنى به الركبان ، وهي تستريح من وعشاء الطريق فتقول :
 فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عيننا بالإياب المسافر
 وكان للقيط بن زرارة الذى تولى تبعة هذه الهزيمة وقتل ، بنت هي ، دختنوس ، زوج
 عمرو بن عدى التميمي أشارت عليه قبل أن يقدم بالألا يفعل قهرها . ثم بان سداد رأيها حين
 دارت عليه الدائرة فحن إليها ، وهو يجود بنفسه فقالت ترثيه وتذكر هذه الواقعة (١) :

ألا يا لها الوليات ويلة من بكى لضرب بنى عبس لقيطا وقد قضى
 لقد ضربوا وجها عليه مهابة ولا تحفل الصم الجنادل من ثوى
 فان تعقب الأيام من فارس تكن عليكم حريقاً لا يرام إذا سما
 لنجزيكم بالقتل قتلا مضعفا وما فى دماء الخمس يا (مال) من بوا (٢)

فنفست دختنوس من كربها . ونظقت بروح الحرب الكامنة فى نفسها للنقمة والثأر وعز
 عليها أن يقتل أبوها أسيراً فيميتته آسراه مالك بن خالد بن جعفر وأخوه ، بعد أن حبسا عنه
 الماء ، وأن يحرم فى بطولته ميتته الأقرام الغطاريف بالأسنة والقنا
 ولم تكن دختنوس وحيدة فى نساء العرب القائلات شعر الحرب وإنما ثمة كثير مثلها
 لمن شعر فى يوم مشهود من أيام الجاهلية أو بعض أيام الإسلام :
 وظلت هذه الواقعة فى تاريخ العرب القدامى مثاراً للمفاخرة بين الظافرين وعارا موروثا
 بين المندحرين ، وتناول ذكرها شعراء كثيرون فيهم التابعة الجعدى .
 وكان جرير وأصحابه المهاجرون فى صدر الإسلام يندشون أخبار هذه الحروب ، ليجعلوها
 وسيلة للتعبير أو المفاخرة كما سيأتى فى الكلام على شعر الحرب فى عصر بنى أمية من
 هذه الرسالة .



وكفى بحرب (داحس والغبراء) أن تكون ملحمة كبيرة ، إذ دامت وقائعها أربعين عاما
 بين بطون عبس وذبيان ، وكان منشؤها لإفساد السبق بين داحس جواد (قيس بن زهير) ، وبين
 الغبراء فرس (حمل بن بدر) وقد تواضعا الرهان ، وقدرا منتهى الغاية التى يسعى إليها الفرسان
 ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمر وهما أربعين ليلة .

(١) الألفانى السابق ص ٣٨ .

(٢) الخمس عدد رجال قتلوا ، ومال : مالك الفزائى حليف قوما ، والبوا الكنفؤ .

فاكن حمل بن بدر فتيانا في شعاب يمر عليها الفرسان ، وأمرهم إن ورد داحس سابقا أن يفرغوه ويردوا وجهه عن غايته . فلما شأرف داحس الغاية وأقبل على الفتية أهاجوه ونفروه فارتد عن قصده وسبقته الغبراء .

فثارت الحرب بين القبيلتين وأحلافهما من جراء الغدر بالسبق . ولم يكن حمل بن بدر ليعبأ بما تنتج الحرب بعد أن ملأ عطفيه من فوز كاذب . ولكم كان يحز في نفسه لو عثرت الغبراء وفاته الفخر بالخييل ، والمكاثرة بأصائلها العرب فغلبه على الرهان قيس بن زهير . وقد قيل في هذه الحرب شعر كثير ، وقتل في سبيلها ناس أكثر ، كان يرثيهم شعراؤهم وفيهم عنزة .

ومن شعراء هذه الحرب الطويلة عنزة العبسي وقيس بن زهير صاحب الجواد . والربيع ابن زياد العبسي ، وعقيل بن غلفة المري ، والربيع بن قعنّب ، وعمر بن الأسلع وغيرهم ، إذ كان منتج حرب داحس حروبا كثيرة وأياما مجددة . وكان لكل يوم شعراؤه وشهوده ، وقتلاه وجرحاه ، يبعثون في أهليهم وأعقابهم تجديد الوتر ، وأخذ الثأر حتى كان اليوم الأخير (يوم الغدير) فأصلح بين البطنين عبس وذبيان سيدان من غطارفة العرب هما هرم بن سنان ، ودعوف بن مرة ، فتحملا ديات القتلى نجوما لفداحتها وكثرتها ، وحقنا لدماء سكبت أربعين عاما كان تعاقد على إهراقها مغاوير ، قد وثقوا حلفهم في ماء معطر كانت تصنعه امرأة اسمها « منشم » جريا على عاداتهم في أحلاف الجاهلية عند حلف المستميتين . ففي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى وهو يخاطب الرجلين المصالحين :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

تلك حرب نشبت طويلة مستحرة بين أحياء العرب ، تكسرت فيها النصال على النصال ، ووقع في ساحها قتلى لا يحصى عديدهم . وكانت من جراء الخيل وعددها والرهان عليها . وكانت المكاثرة والمفاخرة من أسباب هاتيك الحروب .

وكذلك نشبت الحروب بين العرب من جراء العرض والدفاع عن كرامة المرأة أو بسبب المال . وقد يكون المال ستارا تنفذ منه أحقاد الصدور ، كما كان من « حرب البسوس » بنت منقذ بن تميم وقد اضطرت فيها قبائل بكر وتغلب وهم اخوان وأبناء عمومة ، وبقيت ذكراها إلى أواخر العصر الأموي .

كل ذلك بسبب ناقة مشؤومة للبسوس بنت منقذ . وكانت خالة جساس بن مرة المشهور

نازلة في جواره وحماه . فشردت ناقة لها اختلطت بإبل كليب بن وائل ، وكان باغيا غيورا وجبارا ظالما لقومه . فاخترم الناقة بسهمه فعادت إلى صاحبها ، فهبت البسوس إذ رأت دم الناقة خالط لبنها فزقت خمارها وصاحت في العرب . واذلاه ، وواجراه !!
وكانت إذ تصيح بهذا الصوت تزعم أن حمى ابن أختها جساس قد أيسع ، وإن جساسا كتب عليها وعلى نفسه الويل والذل . فأثارت جساسا الذي ذهب إلى كليب فطعنه وقصم صلبه فوقع كليب على الأرض يفحص برجله فقال ، لقاتله جساس ، أغثنى بشرية ماء .

وقد وصف ذلك أحد شعراء هذه الحرب وهو عمرو بن الأهتم فقال :

وان كليباً كان يظلم قومه فأدركه مثل الذي تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه تذكر ظلم الأهل أي أوان
وقال لجساس أغثنى بشرية وإلا نخبر من رأيت مكانى

فهب الشاعر المهلهل أخو كليب . فهلّل من يوم ذلك قصائده في رثاء أخيه وأخذ يحض العرب على الأخذ بثأره ، لاهدأ قراره ولا يخمّد غضبه ، حالفا جهده أن يأخذ بالثأر مهما تفدح الحرب ويعم بلاؤها ، ويكثر قتلها حتى تنال بجاحها الأجنة في بطون الأمهات فقال :

كيف أهدأ ولا يزال قتيل من بنى وائل ينسى قتيلا
قتلوا ربهم كليباً سفاهاً ثم قالوا ما أن نخاف عويلا
كذبوا والحرام والحل حتى تسلب الخدر بيضه والحجولا
ويموت الجنين في عطف الرحم — ونزوى رماحنا والخيولا

وكر على الحمين يوم البسوس أياما شدادا ، قتل فيها أبطال ، وشتت نساء ورجال ، وقيل فيها شعر كثير ، لو ألف بينه لجاء ملحمة أية ملحمة .

ثم كانت « أيام الفجار » وقد شهد محمد صلى الله عليه وسلم آخرها قبيل مبعثه بست وعشرين سنة وكان ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقد شارك في هذه الحرب فكان يناول أهله النبيل . وانه ليذكر ذلك لأصحابه رضوان الله عليهم فيقول (١) .

« كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » .

وكانت أيام الحجيج للعرب أشهرا حرما ، يأمن بعضهم فيها من بعض ، فلما وقعت فيها

(١) في رواية الطبقات لابن سعد ج ١ ص ١١٠ طبعة لجنة النشر الثقافية الإسلامية بمصر

سنة ١٣٥٨ — ان الرجول قال « حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب انى لم أكن فعلت » .

الحروب سموها حروب الفجار . وهذه كتلك جرت وقائع وأياما ، كثر فيها قول الشعراء فوصفوا مناجزة القتال . وحر الطعان وهجمة الخيل وخطب الهامات وضرب النحور . وطول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها ، وهل كانت المعارك في حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم ، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شيء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرخوا سداد الرأي وإنما كانوا في حروبهم يقلبون أوجهه ، ليصلوا إلى أنها الأسد ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفا مطولا يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهي إلى أواخره كما تدعو الحوادث . فليس لديهم قصائد تمسك بأوائله حتى تبلغ نهايتها فتترك صورة معركة منذ بداية الوقعة إلى ختامها ، وإنما هي فترات شعر في لمحات وصف مقتضبة مجتزأة يتبين فيها الروح العربي البليغ الذي انطوى منذ كان على الاختصار في سرد الصور ، أو الزهد في التقصي ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات في موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإننا لانجد فيها وحدة متناسقة في الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة يصف شعراؤها المعارك التي شاهدها أو قبلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعاني والانفلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعاني المتوالدة إذ كان يؤثر الشاعر العربي الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور على ذلك كان عيش العرب في جاهليتهم وصدر إسلامهم ، مفطورين على القتال ، مطبوعين على الحرب فبذوا سائر الأمم بفرط شجاعتهم وفيض حماسهم . وكانت البطولة موزعة عليهم بين كبير وصغير وشيوخ ونساء حتى تكاد القبيلة — كما تقدم الإسهاب فيه — لم تعرف في بيوتها واحدا لم يجرح أو لم يكن ذا صلة قريبة أو بعيدة بيوم من الأيام أو وقعة من الوقائع لقد كانوا جميعا ينهضون بعبء القتال . وقد فهموه أنه جزء من حياتهم الطبيعية ولذلك بات عاراً عندهم أن يموت المرء على فراشه وكان من كوارث الزمن أن يحود بطل بنفسه وهو في بيته فيموت كميته البعير ، فكان خالد بن الوليد يقول عند موته : لقد لقيت الزحوف وما في جسمي موضع شبر إلا فيه ضربة أو طعنة أورمية ثم ها أنذا أموت حتف أنفي ، كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء ، (١) .

فاذا عرفنا لهم ذلك لم نعجب للسموم بن عاديا الغساني حين قال :

وما مات منا سيد حنف أنه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباء نفوسنا وليست على غير الظباء تسيل
ولم تكن ممارسة الحرب مقصورة في العرب على أمرائهم وأغنيائهم وغطاريفهم ، وإنما كانت
كذلك من حظ نفر غير هؤلاء السادة . لقد كانت شغل (الصعاليك) ومرام الأغرابة السود
من العدائين ، ودأب اللصوص السارين وشراد الليل . فصعاليك العرب كانوا يساوون
بفروسياتهم وخوارق بطولاتهم شجاعة السراة المغاوير .
وكأنني أنظر إلى زعيم الصعاليك (عروة بن الورد) فأعجب وأطرب لروحه الشباء السمحة
لأنه ليفزو الأغنياء ، فيسلب ما لهم ليفرقه على جمعه الصعاليك المساكين .
كان يزدري الصعاليك الذين من دأبهم شواغل البطون وارتياض مذايح الغنم ، ومعاونة
النساء في الحى . فكان يفاخر بصعلكته الحرية فيصف تلاًؤ وجهه بنور المحامد وهو في بهرة
أعدائه ينالونه بالزجر من كل جانب ، ويخشون بأسه في قربه وابتعاده ، حتى إذا نزلت به المنية
تلقاها راضياً .

كذلك يقول صعلوك الحروب الذى كان عبداً للملك بن مروان يفضل به بالسباحة على
حاتم الطائي :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله	مصافى المشاش ألفا كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة	أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعسا	يحت الحصا عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحى ما يستعنه	ويمسى طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه	كضوء شهاب القابس المتور
مطلا على أعدائه يزجرونه	بساحتهم زجر المنيح المشعر
فذلك إن يلقى المنية يلقها	حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

ولم تكن المرأة العربية إذا قامت القبيلة بالحرب ، أو شنت عليها الغارة ، أقل من الرجل
حمية وحماسة ، وإن تكن دونه بالأس ، فلقد كانت تشارك الرجال في الحرب في أيام الجاهلية .
فتمضى مع الغزاة في المؤخرة ، تصفق بالدف وتنشد أهانج تحث بها على النضال ، كما كانت إذا
التحم القوم بالقوم ، تسقى العطاش وتضمم الجراح مما يعد لدى العرب سابقة من سوابقهم في
الحرب وقد مشى على غرارهم بعض أمم الغرب في عصرنا هذا في حربهم الغابرة والحاضرة .
وكان من أولئك النسوة شاعرات ، يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال ، فكان
يشاركن الرجال في الشعور الحماسي لتقاء الحرب ونكباتها ، وما كن في ذلك أقل إجادة من

الشعراء. الرجال، في براعة الوصف للخيال والقتال . فهن غير دختنوس ، هند بنت عتبة، وقتيلة بنت النضر ، وأروى بنت الحباب ، وبنت بدر بن هفان التي تقول :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
قوماً إذا ركبوا سمعت لهم لغطاً من التأيسه والزجر

والهيفاء القضائية التي تقول :

الخيال تعلم يوم الروع إن هزمت أن ابن عمرو لدى الهيجاء يحميها
وكفى شوارع العرب نفرا وقد أسهمن في شعر الحرب أن تكون فيهن الخنساء التي ذهبت
عن يمينهن بعمود الشعر في رثائه ونفخه ، وحماسته وحربه .
وكان المرأة كانت ضرورة لشعر الحرب عند الجاهليين، وقد ظل هذا الأثر إلى العصور
الإسلامية الأولى .

ولهذا نجد كثيراً من شعراء الحرب عند العرب يخاطبون نساءهم ويذكرون كيف يستثمنهم
للحرب والمآثر كقول أبي مخزوم النهشلي بقصيدته المشهورة :

إنا محبوك يا سلمي فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاسقيننا
وإن دعوت إلى جلي ومكرمة يوماً سراة كرام الناس فادعيننا
ودرج الشعراء الفرسان على مخاطبة نساءهم في كثير مما يقولون في وصف الحرب .

فأزهر بن هلال التيمي حين انتهى من حربه قص على زوجته أمره ، فقال لها وكأنه كان
يطالب منها الصفح أو الإعذار :

أعاتك ما وليت حتى تبسدت رجالى وحتى لم أجسد متقدماً
أعاتك أفناني السلاح ومن يطل مقارعة الأبطال يرجع مكلماً

ومن أذكر من تلك النسوة اللواتي كن مشاعل الحرب ؟ فإن منهن تحت قلبي من تدافع
ملأن القلوب بالحمية والبطولة .

كن مع الزخوف يهجن مكان الحماسة ، ويثرن دفائن الأحقاد في صدور الرجال ، حتى
إذا هتفت تلك الموسيقى البدوية على قرع الدفوف وغناء النساء ، توقد دم الثأر في القلوب ،
فهب الرجال وبأيديهم السلاح هبة واحدة على الأعداء ، ينادون نساءهم بالبشرى .

أفأذكر ذلك الفارس المغوار الذي كسر الصف وقل الجمع ، ثم هموا به فاستوقفوه بعد
المعركة وقالوا له :

— أحسر اللثام عن وجهك أيها الفاتك المكين . . .

فأطاع البطل قائده خالد بن الوليد ، وأغمد سيفه ثم حسر عن وجهه . فاذا وجه امرأة يشع بهاؤه ويسبي جماله ، فأنسى الأبطال حمجات الخيول وجلجلات السلاح . فقال لها خالد من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : « أنا خولة الكندية أخت ضرار بن الأزور من بقايا الملوك ، أتيت مع نسوة من قومي ، لنشد عضدك في حرب الروم ، ثم أنشدت بين يديه :

نحن بنات تبع وحير وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر اليوم يسقون العذاب الأكبر

وإن في التحدث عن الخنساء وقد استشهد أولادها الأربعة في وقعة القادسية لهزة كبرياء لكل عربي في حمية نساء العرب وبطولتهن في معاينة الحرب . وإن في ذكر أسماء بنت أبي بكر ووصيتها لابنها عبد الله بن الزبير يوم نهايته وفي إكبابها وهي ضريبة لوداعه ولمس يدها الدرع عليه لموقف تمثيل تعجز عنه ملاعب الروايات . وإن في تمزيق هند بنت عتبة أم معاوية لكبد الشهيد حمزة بن عبد المطلب ولو كها إياها ثم لفظها والحرب مصطلية ؛ لخوراق أهوال في حوادث الأمم ، ولم يكن لنساء يونان أروع منها في حروب طروادة .

فلئن ازدهت الشعوب بمثل هذه البطولات من نساها ، فإن في تاريخ العرب مواطن لأعز نحر ، وأبعد ذكر لمآثر المرأة وفضلها .

إنهن نساء ما أتيح لهن بعد من يجمع أخبارهن المشتتة . فينتج منها سيرة تضارع قصة (جان دارك) التي نسج عليها أقلام الكتاب الفرنسيين هذه الصورة الحماسية الرائعة ، وعززوها بفنونهم ، حتى غدت عزا للمرأة الغريبة . وغير أولئك كثير من نساء العرب امتلأ بهن مجد الأمة العربية كانت بطولتهن أشد من بطولة نساء الغرب في حرب الأمس .

ولم يكن اشتغال الأمة العربية بالحرب ومغازيها الطويلة ، ليصدها عن المعروف والإحسان . وإني لأعجب لها تيك القلوب الصلاد التي كانت مفاخر أصحابها في سفك الدم — حفظا على الحق أو إبقاء على البأس — كيف كانت قلوباً ملؤها الرحمة وشغافها الحنان ، حتى ضمت النقائص .

وقد كان أصحاب هذه القلوب يصلون الرحم ويرعون الذمام ، ويضنون بالعرض ، لهم شؤون وشجون في الهوى سارت بأحاديثها الركبان . وكان تفانيهم في الجود وإغاثة اللبيب والمستجير أمراً أفردهم بشرفه تحت الشمس . لقد عمرت قلوب العرب بأرق الأحاسيس وضمت أشد الأحقاد والمواجد ، فما منعها رقتها لأصحابها أن تكون صلاباً على أعدائها ، وأن تستشرى في الحرب والجهاد . وقد امتاز شاعر الحروب العربية من شعراء الأمم الذين نظموا

الملاحم ، أنه كابد الحروب وعانها ، وكان وقودها ولظاها ، ولم يقل الشعر وهو عنها بعيد ، أو يسجل وقائعها وليس له بها عهد ، كما فعل هو ميروس والفردوسى وغيرهما ممن نظم الملاحم ، وكان أكثر الفرسان العرب شعراء مجيدين ، وكان الشعر من أدوات حربهم يستثيرون به الهمم في قلب المعارك ، فينشده أصحابه أو المتمثلون به عند المبارزات وشن الغارات ، كما سيأتى وصف ذلك في شعر الحرب عصر بنى أمية وما بعده .

حتى إذا ختم الزمن على أبطال الجاهلية سفر حروبهم ، هدأت سيوفهم في أغمادها ، واستراح أبطالهم فناموا إلى الابد ، بأعين ملؤها برؤية الحرب والخيال والسلاح ، وسكنت في صدورهم قلوب طال ما خفقت بالعزة والكبرياء ..

خلا زمنهم وبقي يطن في سمع الزمان جرس السلاح الذى تكلم فيه فرسانهم ، وبات المرء إذ يقرأ في أعقاب القرون ، كيومنا هذا ، أحاديثهم ، ويتمثل روائع معاركهم وخوارق فروستهم يحسبهم أبطال الأساطير فتغلبه فيهم الدهشة ، وتتملكه منهم الروعة وتبقى مدوية في مسالك سمعه أسماء الفرسان المقاحيم :

دعنترة الفوارس ، وعنتيبة بن الحرث بن شهاب وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الاسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والاحيمر السعدى ، وعامر بن الطفيل وعمر بن عبدود وعمر بن معد يكرب الزبيدى ، ، وغيرهم كثير .

لقد كانوا يصطرون ما بينهم هم وأعوانهم في حروب غير مجدية ، حتى بعث الله الرسول محمدا فحارب ببعضهم بعضاً حتى صفاهم ، ثم دعاهم النبي إلى حرب الكافرين والظالمين ، فهبوا من بعده بدعوة القوة والدين . فإذا كبارهم من بقايا الجاهلية مساعري حرب وصغارهم أشبال أسود ينهضون بالقتال سجالاً بعد سجال .

تلك ملاحم العرب في الجاهلية . كانوا يسمونها أياماً ووقائع . فلما جاء الرسول سمي حروبه « الغزوات » فكانت مغازيه أروع ما شهد العرب في نظام العسكر ، وبأس البطولة ، وحنكة القادة ، وطاعة المقاتلين ودهاء التدبير .

(٥) لغة الحرب وعمرها

عرف العرب من أدوات الحرب في عتيق عهدهم مثلما عرفت الأمم من هذه الأدوات في قديمها .

ولئن كان لكل أمة عتيقة طراز من السلاح ، قد لا يشبه جميعه ما عند غيرها من الأمم ، فإن العرب وقد تمرسوا بالحرب أعدوا لها عدتها من آلة الحديد ومطايا النزال . ولقد أحاطوا بأوصاف السلاح وعدة الحرب بمالم تحط به أمة من أمم الحرب . فخذقوا الكلام عليها وأجالوا البيان في وصف آلاتها وأكثروا من العناية بتصورها وتصويرها ، حتى ألموا بدقائقها وأشكالها ، وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعرائهم الشاغل ، ودأبهم في استنباط التشابيه وتوليد أفانينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه في أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً في شعرنا العربي نكاثر فيه آداب الشعوب .

وحق للعرب وهم في باديتهم محصورون أيام الجاهلية أن يحتفوا بأوصاف سلاحهم وذكر حروبهم وعدتها ، لأنها كانت تملأ حياتهم في ليلهم ونهارهم . ولو أحصينا ما قال العرب في جاهليتهم في الطعام والشراب والمسكن وسائر مرافق الحياة أو ما قالوه في وصف الطبيعة وما أفاضوا فيه من التمدح بالمكارم وما بذلوه بين أيدي النساء من الشعر الغزلي لوجدنا أن شعرهم في الحرب ووصف آلاتها يشغل شطراً كبيراً من شعرهم قبل الإسلام وبعده .

وإننا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها في المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عُرِّفت على رسلها في الجاهلية قبل أن تستولى عليها الكلفة في تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال في أروع بيانها وأبرع تشابيهها .

حتى إذا خلت الحرب وشيع الواصفون والقائلون من ذكر القتال والوقعة وآلة الحرب واندفعوا إلى السلم الموقوت لم يتركوا أوصاف الحرب ولا ذكر أدواتها ، حتى في اللهو والطرب عاش السيف في أيديهم يذكرون بلاءه في حز الرقاب وقسم الظهور وقطع الدروع ، فإذا صاروا إلى السلم جعلوا السيف نظرات الغيد الأماليد وجروحاً في قلوب العشاق المعاميد أو شبهوا به تلاً أو الصباح أو ساقوا فنون الكلام فقالوا أمضى من السيف . إلى آخر ما يستطيع المتتبع أن يجده في كلام العرب . وهو غزير فياض .

وعاش الرمح في أيدي الفرسان طعانا في البراز يلتمع سناناه ، فهو أزرق كأنياب الغول يخترق الصدور ، ويديم النحور . فإذا أصبحوا في السلم جعلوه قوام الحسان ، وإذا حان البيان قالوا متين العود كأنه ربح قائم وأكثروا في شبه ذلك وأفاضوا .

وكانت النبال للقتال فقرنوها بلحظ العيون الفواتن وجعلوا من جعب السهام أجفان الغواني الرايب . . . وانطلقت الخيل في الحرب فكانت مرسله كالريح فعبرت بهم على جثث العدى ، أو أنجحتهم من المهالك ، حتى إذا هدأت الحرب عن ظهورها جعلوها تقطع المفاوز

لبناء المكارم وحدثوا عليها بكل ما فيهم من مودة وعاشوا معها في كل آونة يصلون كلامهم بشياتها الرغاب (١) .

ذلك خير ما شاع في لغتهم في الجاهلية ، فإذا جاء الإسلام ولم يغير من حياتهم الصحيحة شيئاً — تلك الحياة التي كانت لهم مع السلاح والخييل — زادوا في الحفاوة بآلة الحرب ومطاياها ، وذهبوا في الكلام عليها المذاهب وأفتنوا الفنون . فانساب في لغتهم — في عهد الإسلام — كلام الجاهلية في الحرب وفنونها ، وعدتها وآلاتها وتشايبه القول فيها واستعارة الأوصاف منها . وعم ذلك وشاع . حتى إذا قرأنا شعر العصر العباسي وجدناهم لا يزالون يتمثلون بتشايبه البداة في القتال والنزال على عهد الجاهلية وأقوال حربهم وتعابير سلمهم ، فلم يستطيعوا أن يهملوا هذا التراث الذي لا يفنى في ألفاظه ، وتراكيبه ومعانيه ، والذي ظل بعضه تقليدياً رمزياً كالوقوف على الأطلال ومناجاة دارات الحبايب على الطريقة الجاهلية التي كانت عند الجاهليين حقيقة منتزعة من أرضهم وحياتهم .

وإذا رأى الشعراء المتأخرون رغاء الماء وهديره ، شهوه برغاء البعير وجرجره هديره وإذا شاموا البرق قالوا أنه لمعان السيوف . وإذا وصفوا العزائم قرنها بمضى الجياد ونفاذ النبال . وحين تغزلوا لم ينفكوا عن سهام العين وقد كالرمح كما قال الأولون . ومد هذا البيان سحره في شعر العرب حتى بلغ عصرنا فكان شعراؤنا حتى اليوم ، المجيدون ومن دونهم ، يتأثرون أقوال الأوائل في إصطناع عدة السلاح وأداة الحرب وذكر الخيل في شعرهم عند التشبيه والتمثيل ، ولا يجدون محيصاً عن ذلك لأن تعابير الأقدمين قد بلغت اليهم بالميراث في مسيرة العصور . فلم يستطيعوا أن يتمردوا عليها أو يعدلوا عنها ، أو يتحرروا منها ، لأنها من تراث لغتهم ، ومجد أمتهم .

(١) كتب ابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهما عن الخيل وأخبارها عند العرب ، وصفاتها ، وعن حفاوة العرب بها وحض الإسلام عليها . وقد يزم جميعا الشيخ علي بن عبد الرحمن المشهور بابن هذيل الأندلسي في كتابه «حلية الفرسان وشمار الشجعان» ألفه للمستعين بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر من خلفاء الأندلس ، وجعله مشتملاً — كما يقول — على : جلال وكفاح وخيل وسلاح ، وما يختار من صفات الخيل ويكره ويذم من شياتها ، وجميع ما يختص بأحوال المراكب .

وقد نشر هذا الكتاب الجليل «لويس مرسية» الفنصل الفرنسي في الجزائر عن نسخة الاسكوريال الأصلية أصدرها بالفوتوغراف وخطها مغربي يشبه الكتابة الميريانية كتبت في العام العاشر بعد المائة والألف . وقدم مرسية لهذا الكتاب وفهرسه وصحح خطأه الإملائي وتصحيحه في ١٧ صفحة بالمقابلات على النسخ الأخرى التي عثر عليها منه حقق فيه سنة ١٩١٩ وأخرجه في الطبعة العربية بباريس لبول جونتير سنة ١٩٢٢ ، وعين عصر المؤلف في القرن الرابع عشر الميلادي فيما يوافق القرن الثامن الهجري .

وإني لأسأل نفسي هل تستطيع لغتنا في أى عهد من عهودها أن تبرأ من تلك التعابير
الحرية التي شاعت فيها منذ كانت إلى اليوم ؟
فأرى أن وفرة تمازجنا بالثقافات الأجنبية المعاصرة ستحمل يوماً على تنقية لغتنا من
هذا التراث لبعده العهد به ، ولأن أذواق الناس قد تبدلت فأصبحت تمجّه ولا تستسيغه وإني
لأجد الخطر في مثل هذا التطور . فويل للغتنا من يوم تفقد فيها تراثها هذا العزيز الذي
يذكرنا بفروسة أجدادنا الأقدمين ، فيحملنا على أن نحيا حماة مثلهم للذمار ، أباة للضم على
غرارهم فلا نبلى برطانة المولدين وركاكة المضغوفين في اللغة والبيان، فنخسر الخير الجديد ،
ولا نبقي على العز القديم .

البَابُ الأول

شعر الحرب في العصر الأموي

شعر الحرب في العصر الأموي

تمهيد

(١) الحياة الأموية الجريئة وشعر الحرب :

وجد الأمويون أنفسهم في حياة غير التي عرفها العرب قبل الإسلام ، حياة الأمويين في تحضر ، وشعرهم في تطور ، وسياستهم في تعقد ، وفتوحهم في تأزم ، وكانت معاشهم وضروب مرافقهم الخاصة والعامة في انقلاب جديد ككل انقلاب يعتري الأمم حين تخرج من دنيا قديمة ألفتها ، إلى دنيا حديثة لا عهد لها بها من قبل .

وقد كانت كل ناحية من نواحي هذا التحضر تظهر الظهور العربي الجديد . وكان الشعر أحد الأمور التي ظهر خطرهما في هجمة العصر الأموي . وقد أعد نفسه لمهمة كبرى ، وكأنه كان يستشعر بها قبل أن ينهض بأعبائها الجسام ، في منظومات الحماسة ووصف الحرب . إذ كان العصر الأموي وما فيه من حروب وقتن وازدحام سياسات ، قد حتم على الشعر هذه التسخيرة الضرورية ، وتلك الخدمة المقررة ، فوضع شعر العصر الأموي لسلطان الحرب والسياسة وقد رفده ميراث ضخم صار إليه من الجاهلية . وأى شعر في الحماسة والحرب أشد وقيداً وأبعد أثراً من الحماسة الجاهلية وشعر الحرب فيها ؟

وقد هيأت القرائح الفذة في العصر الأموي أصحابها الموهوبين لخدمة هذا الضرب من الشعر الضروري المحتوم ، فنبغ الشعراء الفحول الذين ملؤوا حياتهم بشعر الهجاء والفخر والحماسة ودعايات السياسة وذكر الحروب .

(٢) الحماسة الأموية بين الحرب والسياسة :

١ — تأثير الشعر السياسي في الشعر الحربي .

لا يكاد ياخذ بإعجابي وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموي ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنة والسيوف تقع في اللبات والنحور وأسمع زمازم الجيش تمور في حومة الوغى ، حتى يعكر على صفاء هذه الصورة وبراعة هذا الوصف أبيات في أواخر القصيدة أو في أثنائها يحاول بها الشاعر أن يعنى على آثار قوم

آخرين في الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيذائهم بالهجاء وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التي عرفت فيهم . فهو أبدا يسعى إلى إعلاء قومه فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل وينزعها عن سواهم حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطا علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه .

وقد تأثرت الشعر العربي من فواتحه إلى خواتيمه في شعر الفخر ، فوجدته يَمْضِي على هذا الغرار في عصر بني أمية . فإذا كان الشعر في وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء في قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر فيعبري من يقول قصيدة أو أبياتا في ذم خصومه في الحرب وحمد قومه فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ثم يدخل آخرون في الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يتقرى ، فيحار متأسسا أي قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأسا في وقعة ، وأي معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأي كتب النصر ؟

وقد يكون دافع الذم أو حافز المدح دسيسا من خليفة أو أمير ، أو نزعة من حزب أو مذهب أو تحيزا من عصبية أو قبيلة . والشواهد على ذلك كثيرة . فان المختار أبا اسحق ابن عبيد الثقفي لما نادى بالثارات الحسينية ! وأخذ يقدم الناس للقتل بغير رأفة ولا تحقيق ، انتقاما لسبط الرسول ، وجعل ينقض على المناوئين للزيرية فيرمى بهم في السجن أو يتركهم يشردون هروبا من بطشه ، أمسك فيمن أمسك بهم بسراقة بن مرداس البارقي الشاعر (١) فطرحه في السجن فتكلف هذا الشاعر مدح المختار ووصف شجاعة جمعه تخلصا من الضيم وفكاكا لنفسه من السجن .

وزاد في تزوير رأيه واصطناع المدح والثناء للمختار إن قال له أيها الأمير إنى رأيت الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض . ويريد أنها كانت تقاتل مع المختار ، فأمره المختار أن يصعد المنبر ، فيحبر المسلمين بهذا ، فلما فعل أدناه وقال ل : إنى أعرف أنك لم تر الملائكة وإنما فعلت هذا كيلا أقتلك ! فأخرج لوجهك ولا تفسد على أصحابي . . . فلما خلا السبيل لهذا الشاعر خرج من الكوفة فقلب ظهر المجن وأفسد بنصره ذكر شجاعة المختار وبأسه . وقد تدفع العصبية القبلية الشاعر إلى أن يقول في شعر الحرب أبيانا يفضل بها قبيلته وقومه على أعدائهم ومناوئهم ، ومن يذهب غير مذهبهم في السياسة وقضية البيعة ، كالذي كان

(١) تاريخ الطبري الطبعة الحسينية ج ١٧ ص ١٢١ . والعقد ط ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٥٦ .

من أمر زفر بن الحارث بعد وقعة مرج راهط ، وذلك بعد أن التقى مروان بن الحكم بالضحاك ابن قيس الفهري وعامة أصحابه فاقتتلوا بمرج راهط (١) قتالا شديداً تكشف عن مقتل الضحاك وجانب من صحبه وانهمزام بقيتهم ، فكان زفر بن الحارث الشاعر الكلابي في المنطلقين فأوت قيس إلى إمرته وكان من السراة الأغنياء تنزل به الأجناد فيزودها بالعتاد والطعام ، وكان له غلمان وحشم وهو موضع مشورة ونصح للبحاريين ، فذكر حرب مرج راهط وتحفزه للنار وجعل يتوعد عداته المروانيين فقال :

أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا	أرني سلاحى لا أبالك إني
مقيد دى أو قاطع من لسانيا	أتانى عن مروان بالغيب أنه
إذا نحن رفعنا لهن المثانيا	ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب
ولا تفرحوا إن جتكم بلقائيا	فلا تحسبونى إن تغيب غافلا
وتبقى حزازات النفوس كما هيا	فقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتترك قتلى راهط هي ما هيا	أتذهب كلب لم تنلها رماحنا
وتأثر من نسوان كلب نسائيا	فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا

قال هذا الشعر وفي نفسه نعمة دفينه على من حاربه في وقعة المرج . وقد صدق في كلبته عن حزازات النفوس بأنها مهما دفنت فانها تبقى كما هي فكان بيته هذا حافزاً من حوافز بطش الهاشمين بالأمويين آخر حكمهم وانكسار شوكتهم فذكروا به قتلاهم وموتاهم من آل البيت . وما ذاع شعر زفر هذا حتى نهض للرد عليه جواس بن قعطل بشعر من وزنه ورويه يمدح شجعان قومه ويتهكم بشجاعة زفر فيقول :

لعمري لقد أبقت وقعة راهط	على زفر داء من الداء باقيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى	سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة	إذا شرعوا نحو الطعان العواليبا

وشد مع جواس عمرو بن المخلاة الكلبي على زفر بقوله (٢) :

بكي زفر القيسي من هلك قومه	بعبرة عين ما تخف سُجُومُها
بيكيتي على قتلى أصيبت براهط	تجاوبه هام القفار وبومها
أبجنا حمىً للحي قيس براهط	وولت شلالا واستبيح حريمها
فمت كدا أو عش ذليلا مهضما	بحسرة نفس لا تنام همومها

(١) الطبرى ج ٧ ص ٤١ . والأغانى ط التقدم ج ١٧ ص ١١٢ . والعقد ط ١٣٥٣ ج ٣/ ١٥٢ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٤٢ .

إذا خطرت حولى قضاة بالقنا تخطب فعل المصعبات قرومها
 خبطت بها من كادنى من قبيلة فن ذا إذا عز الخطوب يرومها
 فكان شامتا بقيس واندحارها فى حرب المرج وانقطاعها وتشئت شملها رجالا ونساء .
 ومفاخرها بقومه قضاة قد شد بها عزمه واقتعد بها بالمرصاد لمن يكيد له من الأعداء . وظل
 زفر يقول الشعر ملاحيا للأمويين والأمويون يحجبون بدم قيس عيلان بمثل هذا البيت الجارح:
 فباه بقيس فى الرخاء ولا تكن أخاها إذا ما المشرفية سلت
 فإذا قرأت هذا الشعر فى وصف حرب المرج أضاع على وجه الحقيقة فى شجاعة المروانيين
 أو الزيريين ، لأن هذا الشعر ما قيل لوجه الحرب فحسب وإنما قيل مع ذلك لوجه السياسة ،
 فأفسدت هذه باحتضانها العصبية ودفعها النزعات صورة الشعر الحربى المجرد الذى يصبو اليه
 الأدب الصرف ذلك الشعر الذى يهب الشاعر نفسه له خالصة من شوائب الإحن ، فيصف
 براعة الأبطال حيال الفرسان ، والتحام الجمع ، ساكباً على كل ذلك تعابير العربية فى
 أروع قوالها .

ولا أستطيع أن أغلو فأدعى أن شعر الحرب فى أدب العرب لا يخلو من ربة السياسة ،
 فإن ثمة شعراً كثيراً قد تكون السياسة دافعة إلى قوله لكنه هو فى حد نفسه شعر قيل لوجه
 الحرب وحدها فلم يتصد إلى تكدير شجاعة الأعداء ورميهم بالجبن والعار . وهذا نجده كثيراً
 فى أشعار الجاهلية إذ كان من أمانة شعرائهم الحربيين أن يعترفوا لخصومهم بالسطو والبأس
 والنجدة والمروءة ، وأن ينصفوهم وهم يمدحون أنفسهم ، فلا يذموهم ولا يجردهم من صفات
 الفروسة الحقبة التى يعترفون لهم بها . وكان بذلك شعرهم الجاهلى أصدق وصفا للحرب من شعر
 الحرب الذى بعد الجاهلية ، إذ داخلته السياسة فصار لونه من ألوان أصحابها . وأحسب أن ذلك
 ليس بضائره ، لأن حياة العرب وحالة دول الإسلام كانتا تستدعيان مثل تلك الألوان فى
 شعر الحرب لكثرة ما تجاذب الشعراء من أهواء ومنازع بعضها دينى وبعضها سياسى ، وسواء
 أكان هذا هو السبب الذى بعث عليها أم ذاك فإن منها قصائد فى شعر الحرب يعز بها الأدب
 العربى لما فيها من دقة التصوير وبراعة الوصف ومتانة الديباجة .

ب — تهاتر الهجائين وتقصيرهم فى شعر الفروسية .

حين وقع للفرزدق شعر رقيق لجريز أنشده وردده ، واستخفه الطرب ، وهو الذى قال فى
 جريز : قاتله الله ما أخف ناجيته وأشرد قافيته والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها
 والشابة على أحبابها ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراش نابجا وعند الجراء قارحا ، (١) .

والذى أريده من قول الفرزدق قوله (لو تركوه) فأقول لو تركوا الفرزدق وصاحبيه ، فلم يوقعوهم فى التهاجى ، لقالوا شعرا قد يكون فيه من وصف الحروب وأيام العرب التى شهدوها أو كانت فى زمانهم ما يغنى أدبنا سجيى الليالى ولو كان ذلك ، لخلصوا من السياسة قليلا ، ففرغوا لشعر يخلدون فيه فروسية الأبطال الذين اطلعهم عصر بنى أمية ، كأنهم من نسيج الأساطير . لما روى عن خوارق بطولاتهم وروائع شجاعتهم وإقدامهم فى الحرب والجلود بأنفسهم فيها .

لكن هؤلاء الشعراء ، وكانوا عصابة كبرى ، تألب بعضهم على بعض من جراء العصبية التى ما زالت فى أعراقهم من ميراث الجاهلية ، فتراشقوا أكثر من أربعين عاما بالمثالب والمقاذع ينضح بأشعارها بعضهم بعضا ، بهجاء ما عرفت أدب العرب فورة مثل فورته فى جاهلية أو عباسية . ولست بمعرض القول للاستفاضة بتعليل أسبابه ، ويكفى أن أقول إنه عمل فى تكوينه ثلاثة عوامل .

الأول : الأثرة الشعرية وغيره الشاعر على شعره وهو عنده أعز من ولده .

الثانى : العامل السياسى .

الثالث : العصبية القبلية .

أفلا يكفى للتدليل على الأول ما قاله مالك بن الأخطل لأبيه بعد أن انحدر إلى العراق يستطلع طلع جرير والفرزدق فى تهاجيها (١) . إذ وصف الشاعرين بقوله وجدت جريرا يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . فقال الأخطل الذى يغرف من بحر أشعرهما وقضى فى تفضيل جرير على الفرزدق بقوله .

انى قضيت قضاء غير ذى جنف لما سمعت ولما جاءنى الخبر

ان الفرزدق قد سالت نعامته وعضه حية من قومه ذكر

فلم يرض بذلك جرير وكان سبب الهجاء بينهما (١) . وإنى لأعجب لجرير إذ لم يقبل حكومة الأخطل فقال إنه نشوان لا تجوز حكومته ، كما قضى بشر بن مروان ، على حين إن الأخطل قد فضله على الفرزدق ، وأحسب أن صاحب الأغاني قد أخطأ ومعه الرواة الأقدمون ، فإن تتابع الحوادث بين جرير والأخطل والفرزدق يقضى أن يكون جرير قال بيته المشهور .

ياذا الغباوة إن بشرا قد قضى الا تجوز حكومة النشوان

بعد أن انحدر الأخطل إلى الكوفة بعد ابنه فاعترضه شيخ من شعراء الدارميين بمال وكسوة ومطية وخمر لئلا يعين على الفرزدق وليهجو جريرا ويفضل الفرزدق عليه . فلعب

(١) الاغانى ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ ج ١٢ ص ٦١

(١) الاغانى ط التقدم ج ٧ ص ١٧٦

برأيه هوى المال وحسد الصنعة فانقلب مفضلاً الفرزدق ومسقطاً لجرير فهاج جرير وقال فيه بيته الذى ينكر فيه حكومته لأنه نشوان ، فهو فى كل ساعة يقول حكماً ويبدله فى ساعة أخرى وهذا هو المعقول فى وضع هذا البيت بعد انقلاب الأخطل لا فور عودة ابنه من العراق وشهادته تلك بحق الشاعر .

وكيف كان أمر هذه الحكومة الشعرية فإن الذى أعنى به منها أن الغيرة والتحاسد على أمارة الشعر أشعل نار الهجاء بين هؤلاء الشعراء .

وكفى بدليل العامل الثانى ما كان يبذله خلفاء بنى أمية وأمرؤها فى سبيل إهلاك القيسية وكبت روحها ورشد شكيمتها وألفت فى عزيمتها أين كانت وفى أى امرئ ظهرت فراح شاعرهم الأخطل كلها مدح عبد الملك بن مروان هجاً قيساً بمثل قوله :

فلا لها الله قيساً فى ضلالها ولا لها لبني ذكوان إذ عشروا

وقد يهجو من أجلهم كليباً ومضر كلها بمثل قوله :

أما كليب بن يربوع فليس لها عند التفارط إيراد ولا صدر

قوم تناهت لإلهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر

فيكون من جراء هذا الهجاء أن يرد جرير على الأخطل بقصيدة مثلها من وزنها ورويها ، وأن يكون بينهما المناقضات التى سار بذكرها ركبنا الأدب القديم وشغلت الرواة القدامى والمؤلفين المعاصرين :

ودليل العامل الثالث تلك النزعات القبلية التى كانت متأصلة فى الجاهلية وقد أورثها الأمويون لقرب العهد بينهم وبين أهلها الغابرين ، فكان مجال التغالب بين هؤلاء الشعراء المتهاجين هو الفتك والتجريح بالأنساب والتعمير بمثالب فرطت من الآباء والجدود .

فإذا نخر الفرزدق على جرير بأن آباهه كانوا سادة وأمرأه ، وآباء جرير كانوا رعاة فقال :

تاج الملوكة ونفخهم فى دارم أيام يربوع مع الرعيان

أجاب جرير بنقيضة مثلها فنزع من الأخطل ادعاء الحكومة فى السياسة والشعر ، وعيره بمقتل كليب بن ربيعة من أجل ناقة البسوس ، فقال للأخطل ولقومه :

فدعوا الحكومة لستموا من أهلها ان الحكومة فى بنى شيبان

قتلوا كليبكو بلقحة جارهم ياخزر تغلب لستموا بهجان

ولعل الأخطل دخل حرب الهجاء بعد مراحل منها كانت ناشبة السوالف بين الفرزدق وجرير من جراء العصبية القبلية والتحاسد على الشعر ، حتى ملأ العراق بشعرهما يتسابان به ويتنازبان بالألقاب إلى أن بلغ خبرهما الشام فأهاج الأخطل ، ولعله خشى منهما على منزلة

شعره فأرسل ابنه — كما قدمت — يعرفه عن كُشْبِ بخبرهما الصحيح .
وهبت حرب هجاء بين هؤلاء الثلاثة شغلت الناس في أقطار العرب كلها ، وكان الشعر في إبان عظمته الأموية والتفات القوم إليه ، وفيه ضروب الدعوات السياسية .

فالأخطل مفرط في الدعوة للروانيين بشعر شديد الصفع لأعدائهم حتى بات يخشى بأسه كل قاص ودان ممن يبطن بغضا للخليفة ودولته ، وعرف القوم أن لشعره في نفس عبد الملك ابن مروان فعل السحر والخمر ، فرهب جانبه وخيف شعره . فما هي إلا قصيدة يقولها فيمحق بها القبيلة محقاً ويذرى أخبار السوء فيها ، حتى كأنها صحيفة سياسية تصدر عن بلاط عبد الملك كالصحف السياسية التي تصدر في عهدنا عن حزب من الأحزاب أو بلد من البلدان .

والفرزدق د متق ، مضر لحب الشيعة ، فكان يتمدح بخصال من يريد من الأمويين ، هيباً أن يجرح من شعور الشيعة حتى وقعت الواقعة بينه وبين هشام بن عبد الملك فنفض عن شعره د تقيته ، وجر عليه إظهار تشيعه أن حبس بين المدينة وبين التي إليها تهوى قلوب الناس . وهجا هشاماً وغيره بالحول فلم يكن من هشام إلا أن أطلقه بعد أن مدحه ، قطعاً لهجائه .

وراح جرير يترامى على عتبات الخليفة المرواني متوسلاً بالحجاج حتى أكل من فئات الموائد الأموية بعد شبع الأخطل وريه .

فقلت في أعقاب الزمن وأنا أنظر إلى ذخر زاخر من شعر هؤلاء الثلاثة : كيف فرطوا في شعر الحرب فتحلقوا على الهجاء والتراشق بنبال الكلام وكان لكل شاعر منهم صحب ينضحون بالهجاء دونه ، فكان ذلك شعراً ملؤه الشتم والمثلبة وهجر القول وخشه ، فهتكوا بالقصيد الأعراض والحرمت ، وأهاجوا أسرار الأسر من مضمراً أستارها . وقد أشبهتهم بالمتشائمين في الدروب من الأوشاب يقرعون السبة باللعة ويتجادلون باللسان .

ولقد شغل أولئك الشعراء زمنهم وشغلوا أنفسهم حتى لم يهدأ لأحد منهم جفن ، فكمليلة أرق الفرزدق عينه فيها وهو يعب من زقاق الخمر ليتبلج عنه الصباح وقد نظم ثمانين بيتاً في هجاء جرير ، وكم كان مثل هذا الحيف وشبهه لجرير والأخطل . حتى هدأت أجسادهم في الثرى . ولم يشف الغليل ، فلقد مر جرير بقبر الفرزدق فتمنى لو عاش طويلاً فيزيد في هجائه فقال .

مات الفرزدق بعدما جدعته ليت الفرزدق كان عاش قليلاً

وأحسب أن هؤلاء الشعراء الأفاذا ، وقد وهبتنا إياهم العربية في فورة عظمها وبأس سلطانها وقيام دولتها العرباء قبل أن يتدخل في بنيتها عجمة . لو أنهم سكبوا خيالاتهم الرائعة ، وقرائحهم الشرارة الصيبة على حروب العرب فوصفوها من أول وقعاتها إلى عهدهم ، ولم يكتفوا بأبيات يحشرونها بين شعر المدح والفخر والهجاء لمناسبات تدعو إليها إحن السياسة

ونوازع القلوب لأنونا الدرة التي نفقدها ونلوب إلى اليوم عليها فلا نجد لها .

ولما وإن عتبنا عليهم ذلك فلم يكن الذنب ذنبهم وحدهم ، وإنما كان جرم المجتمع الذي احتواهم وساقهم في تياره الجارف في عهد كثرت فيه النأامات وتوالدت فيه الفتن ، وأعمت أهل النحل بنحلهم ، فسدت الطريق الواضحة إلى الشعر الحربى المنشود . وأصابت هؤلاء الشعراء المتهاجين كوارث خاصة شغلهم حتى عن أنفسهم ، وكان أوفر نصيباً من هذه الكوارث الفرزدق . أفلم تشرّد نومه نوار قبل أن يطلقها ، وبعد أن فركت فخرجت فراراً منه إلى ابن الزبير وكان يملك على الحجاز والعراق . ثم ألم يقض مستقره زياد بن أبي سفيان حتى هرب على وجهه في البلاد . فكان شأنه شأن النابغة الذبياني حين نغم عليه النعمان بن المنذر فراح في دارات غسان يتقلب على الغضا ، وكان حية من الرقش تساوره في فراشه . فقال الفرزدق مثل مقالته في اعتذارياته (١) وسار في سبيله حيث يقول :

أتانى وعيد من زياد فلم أنم وسيل اللوى دونى فهضب التهام
فبت كأتى مشعر خيبرية سرت فى عظامى أو سمام الأراقم
وآوى بعد لآى إلى سعيد بن العاص فى المدينة فأجاره على زياد فلها هدأ فى ظل
سعيد قال (٢) :

ألا من مبلغ عنى زيادا مغلفة يخب بها البريد
بأنى قد فررت إلى سعيد ولا يسطاع ما يحمى سعيد

ولكن لم تهدأ عنه فى منتهأ نبال الهجاء ، فظلمت تصل إليه من الشام والعراق فى قول جرير :

إذا دخل المدينة فارجموه ولا تدنوه من جدث الرسول
وظل ينتقل بين مكة والمدينة حتى مات زياد . فلم يكدر يستريح من حرب زياد حتى سجا الحجاج فأهاجه ووقع معه فى حرب أشد إخافة له وأكثر مرارة عليه .

لست أجور على هؤلاء كل الجور ، فإنهم لم يألوا جهداً فى ذكر الحروب التى قد يكون بعضهم شهداء أو وقعت فى زمنه أو رويت له أخبارها — كما سيأتى فى فصل الكلام على شعر الحرب عندهم — ولكنهم لم يلجأوا بوصف معاركها ولم يبذلوا من أنفسهم تصوير وقائعها والنحام جيوشها واستجاشة عدتها ، وما كان من مفاتيحها وخواتيمها . وإنما كان ينزويهم شيطان الشعر نزوات بين القصائد والآيات فيكتفى الفرزدق فى معارض هجائه أن يسوق

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ .

الفخر ومعه طرف من ذكر الحرب وأيامها القديمة عند قومه وجيشهم اللجب . فيقول في آخر قصيدته التي يهجو بها يزيد بن مسعود وخولة الدحداحية ، وكانت رجزت بهجوه ، ثم هربت منه إلى بيتها ، فكان من حرياته هذه أن قال (١) :

وكم من رئيس غادرته رماحنا يعج نجيعاً من دم الجوف أحمر
ونحن صحبنا الحى يوم قراقر ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ونحن حدرنا طيئاً عن جبالها ونحن حدرنا من ذرى الغور جعفرا
بأرعن جرار تضىء له الصوى إذا ما اغتدى من منزل أو تهجرا
له كوكب إذ دارت الشمس واضح ترى فيه منا دارعين وحسرا

ولا يقع في خلدك أنه الفارس المعلم الذى شهد كل هذا ، وإنما هم أهله وجدوده وآخرهم أبوه الذى يقول فيه بعد ذلك :

أبى يوم جاءت فارس بجنودها على حمضى، رد الرئيس المسورا (٢)
غدا ومساحى الخيل تفرع دونها ولم يك فى يوم الحفاظ مقصرا
فأذكرنى وهو يفاخر بحرب أبيه وفروسيته ، شعراً لفيكستور هوجو ، فاخر فيه بفروسية أبيه وبطولته فى حروب المغرب فقال فى أوله :
— أبى ذاك المغوار ذو الابتسامة الحلوة .

ولم يكن هوجو حريباً ولم يحسن إلا شعر الغزل والوصف ، وكان هجاءاً كالفرزدق وذا صناعة وديباجة مثله .

ولم يك الفرزدق شجاعاً حتى نطالبه بشعر الحرب . فقد كان يفر منها جهده ، وفى مهربه من زياد . وكان معه دليل اسمه مقاعس (٣) تعرض لها سبع فى الليل فربح الفرزدق وشهد بحبسه على ديوانه ابن الأعرابى .

وخلاصة القول إن شعر الهجاء فى عصر بنى أمية شغل فحول الشعراء عن شعر الحرب كوحدة موضوع . وهم وإن شغلتهم الشتائم خلال قصائد المدح والهجاء ، لكنهم كانوا يصفون الحرب وأيام العرب فى سوانح تلك القصائد ، لا فى قصيدة خاصة موقوفة على ذكر الحرب .

(١) ديوان الفرزدق لملاء ابن الأعرابى طبع بوشيه بياريس سنة ١٨٧٠ ج ١ ص ٣٥ .

(٢) يوم حمضى ، عرض فيه بنو تميم لقافلة فارسية عملة بالهدايا لكسرى برويز كان يقودها حوزة

ابن على من بنى حنيفة (هامش بوشيه ص ٨٢ ج ١ من الترجمة الفرنسية لديوان الفرزدق) .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٣٨ .

ح — الشعر الحربي في العصر الأموي ومن هم شعراؤه :

لقد امتلأ عصر بني أمية بكبريات الخطوب ، ما خلعت منه فترة يرف عليها جناح السلم ، حتى نجمت فترة يسيطر عليها شبح الحرب ، وقد تناولت رقعة البلاد العربية الاصلية والأقاليم الإسلامية المفتوحة ثورات لوافح وقتن جواحم ، كانت تستشرى فتأخذ كالنار باليابس والأخضر وتهلك الحرث والنسل . وندر أن ضرب التاريخ مثلاً بشدة الحروب وانصباب الدم الزكي كالذي ضرب في عصر الأمويين وما قبله ، في فسحة من الزمن تبلغ مائة عام من قتل عثمان بن عفان إلى هلك مروان بن محمد .

فهذا عثمان مجلل ببرديه ، مضرج بالدماء ، مقتول في بيته في المدينة بعد حصار خمسين ليلة في ظمأ وبلاء وجهد وشجار . ولا يهدأ عثمان في لحده حتى تنهض عائشة بنت أبي بكر صائحة في الأباطح تدعو أعوانها إلى الثأر له ، ومعاوية متربص ينتظر . وهذا على متجلبب بتقاه يدرأ عنه تهمة هذا الدم المسفوك بالحجة ، حتى إذا يئس دفع عن نفسه بحد السيف ، فخرج إلى بيعته المسلمون فاستمسك معاوية في الشام ، ودعا إلى نفسه فبوع بالخلافة ، فإذا على أرض العرب ومهد الإسلام خليفتان يضطرعان ، كل منها يدرع بحجة من السياسة والثأر يقف التاريخ أمامها حتى اليوم مكتوف اليدين . مكوم الفم ، غمت عليه أوجه الحق . وقد حل في أنفس الأئمة غرض الدنيا قبل ثواب الآخرة . فتحدر الأبطال القدامى والمسلمون المحدثون إلى يوم الجمل عند البصرة . فإذا هم في زحام حرب تحدهم فيها عائشة على جمل ، هودجه الذي هي فيه كالقنفذ مدة نضح النبال . واعترك المهاجرون والأنصار وأهل الكوفة والبصرة في حومة لاهبة ، وانكشف القتال عن فوز علي وصحبه وانكسار عائشة وجمعها وقد هدأ على الأرض أول رأس كريم هو رأس الزبير ، فطرحه قاتله ابن جرموز^(١) بين يدي علي . فأسف لنزوة صاحبه . وراحت زوجته تعول بمثل قولها :

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلماً حلت عليك عقوبة المتعمد

وظل يوم الجمل يحمل ذكرى تهول الرجال وتشيب الشباب في قول من يقول :

شهدت الحروب وشيبتني فلم تر عيني كيوم الجمل

وبات في طي الزمان رجز إسلامي عتق يهدر مجلجلاً في سمع الأبطال الجفأة الذين

استساغوا سفك الدم يقول :

(١) قتل غدرأ بعد انتهاء المعركة الفاصلة وقد أرسل الأحنف بن قيس بن جرموز عليه فطعنه من ظهرة وهو يصلى وأخذ خاتمه وسلاحه (الطبري ط أوربا ج ٦ ص ٣٢١٨ في حوادث سنة ٣٦ للهجرة .

نحن بنو ضبة أصحاب الجبل
الموت أحلى عندنا من العسل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

هدأت وقعة الجبل فهب معاوية كإعصار عاصف ، فلأ السهل والجبل بدعوى الثأر لعثمان ولقتلى يوم الجمل الأبرياء ، فأيقظ ما كمن من المواجد على الثأر والقتل فأنكر على بيعته ، وأهاجت تلك الأيام الحرب بشتى البواعث ، فأطل الشيعة من خصاص الفتنة وركبوا متن الحرب ، وهجم على المسلمين يوم عصيب هو يوم صفين ، فإذا هو حرب مستعرة ، ولقاء مبيد عند الرصافة تكسرت فيه القنا على القنا واحمر وجه الموت ومال ميزان الظفر فشالت كفة معاوية ، فلجأ إلى المكر والمرواغة ، فخادع عليا برفع المصاحف والاحتكام إليها . فأبى عليه التحكيم ناس من صحبه حصيفون وأبطال مغاوير خلعوا طاعته وخرجوا عن حكمه فساهم التاريخ (الخوارج) ، وسموا أنفسهم بذلك فكانوا عصابة ثالثة تحارب علياً ومعاوية .

وانحسر يوم صفين عن علي وقد خدع معاوية وقد ظفر فنصب على نفسه غرضاً مع معاوية لسهام الخوارج الذين رأوا تكفيرهما وأباحوا دمهما ومن سار على غرارهما من المسلمين .

وكان أول أمرهم أشد عنفا على عليّ لأنه كان أقرب إليهم حرباً ، ولأنهم كانوا من جمعه ، فقد نشز عن طاعتهم وحالف مشورتهم في أمر التحكيم ، فكفروه ودعوه إلى التوبة ثم قاتلوه ، ففتك بهم في وقعة النهروان وأطار جماجمهم كنثير الهشيم .

وانفض أصحاب علي من حوله فوجدنا أسفه وأحزانه على وحدته هذه كأنغام شاجية في خطاب نهج البلاغة ، تطل أبد الدهر معولة ، مسفوحة بدموع شيعته .

ونشأت الدولة الأموية بخيلها ورجلها وحروبها ووقائعها فإذا نامة الزيريين : عبد الله في الحجاز وأخوه في العراق ، وإذا الشيعة منبذون يضطهدهم الأمويون والزيريون والخوارج ، وإذا الخوارج — أغوال الدولة ومردة جميعها — أهدروا دم الزيرية والشيعة والأموية وكل مسلم غيرهم تحت السماء . وحين استتب الأمر للأمويين ومن بعدهم للروانيين حكموا السيوف في مقاتل الخوارج . فلما انهمز الزيريون جمع الأمويون عديدهم وعدتهم حتى استاصلوا شأفة الخوارج أو كادوا . وما كادو الأمويون يتنسمون الراحة حتى انقسموا على أنفسهم وحارب بعضهم بعضاً ، فهبت الهاشمية المغدورة من مكانها . فانت عليهم . فكان ذلك ختام عهدهم الدامى .

ففي وقائع هذا العصر الأموي وفي مقدمته قال شعراء كثير شعرا في الحرب لكل منهم نزعة خاصة من حزب أو فريق، ولكل من هؤلاء الشعراء دعوة في شعره الحربي لهذا الحزب أو ذاك الفريق ، أو دفع ومحاماة . وبات المؤرخ الأدبي الذي ينظر إلى هذه القصائد لا بد له من الأخذ بالسياسة لتوضيح الأدب واكتناء جوهر الشعر الذي يتعلق بالحرب ليصنف الشعر الحماسي الذي قاله العرب . وذلك ما أعنى به في هذه الرسالة ، إذ يكون هذا الشعر الحربي الذي قيل في المواقع والحروب الأموية غايته في حماسه وفروسيته ، وأسلوبه ولغته، ومعانيه وغاياته ، ولسهولة دراسته قسمته إلى :

- | | |
|-----------------------------|---------------------------------|
| (١) شعر الخوارج في الحرب . | (٢) شعر الشيعة . |
| (٣) شعر الزيرية . | (٤) شعر الأمويين والمروانيين . |
| (٥) شعر الهجائين في الحرب . | (٦) شعر الحرب وراء خراسان . |
| (٧) الشعر في حروب الروم . | (٨) الرجز وأوزان الشعر الحربي . |
- ولست بغيتي أولا سوى الشعر وحده ضمن نطاق الفروسية والحماسة ، والوصف والبيان في المعاني والمباني . ولا ضير على الأدب في أن يستعين بحوادث التاريخ لما، وبتيارات السياسة بين يدي الكلام على هذا الشعر تسديدا لبحثه وموضوعه لعلّي أتقرب من الغاية المنشودة مستطاع جهدي .

الفصل الأول

شعر الحرب عند الخوارج

لو بعث الخوارج في هذا الزمن ، فشاهدوا حرب الإنكليز والألمان وجلاد الأمريكيين واليابان ، لما شابت نواصيهم ولا فغرت أفواههم من هول ما يشاهدون ، ولكن لهم رأى في عرادات الحديد ولافضات النار من المدافع القاصفة والدبابات العاصفة والطائرات الراجفة وأحسب أن كل هذا الهول الذي نعاصره ان يخلب الباهم فيخالوا أنه سحر من الجن ولن يبعث في نفوسهم الزرابة بسلاحهم وهو الرمح والسيف والدرع والجن . ولن يميلوا عن مواكب مطاياهم السلاهب الجياد وسيكون لهم رأى واحد معروف عنهم منذ ملحمة صفين حتى أيام الحجاج والمهلب ومن خلف من أعدائهم .

ذلك الرأى هو الفناء في الحرب ، وأحسبهم لو عاينوا جيوش عصرنا وعتادها لزادهم تهكما واستصغارا . ولتمنوا يوم ذلك على خالقهم لو كانت لهم أجنحة يطرون بها في السماء فيرتفعون عن هذه الأرض الغاشمة التي لم تقدرهم قدرهم من الشجاعة الباهرة والفروسية الأسطورية . ولعلمهم يتغادرون طويلا حين يبلغهم أن جيوشا عن بكرة أبيها كانت تلقى السلاح هاربة من الموت إلى الحياة مؤثرة للعافية على القتل ، يرفع جنودها أيديهم إلى رؤسهم علامة الانخزال ويلوحون بأعلام بيض إشارة التسليم تجلهم بسواد الذل في أعمارهم الباقية .

ولو أنهم بعثوا وردوا إلى أيامنا لآثروا العودة إلى التراب الذي تروى بدمائهم فيظلون في أطباقه مطمئين ، مطبقين أعينهم القريرة على ميتة العز والإباء ، فإتهم هم الذين قاتلوا ملء الجوارح والجوانح وعشقوا الحرب عشق المتيمين للغواني ، وما رفعوا أيديهم إلى رؤوسهم صغارا وما لوحوا بالأعلام البيض تخاذلا وتسليما .

حتى إذا هاج أخبارهم في الحرب وأنشد أشعارهم في الضرب والطعان فتى مثل في أعقاب الزمان هشت رماهم في ثراها ، فودت لو جمعت عظاما وكسيت لحماً ودبت فيها الروح فتهب من مطاوى العفاء تمتشق الحسام وتهدر كالفحول وبأيديها الرماح وأفواهاها تصبح ملء الفضاء :

— لا حكم إلا لله .

فإذا خامر تلك النفوس روعة أو رهبة وهى فى زحام الأبطال وحومة النضال صاح بها أصحابها زاجرين بقول قطرى بن الفجاءة شاعرهم العظيم :

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لن تزاعى
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز	فيطوى من أخى الخنوع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى	فداعيه لأهل الموت داع
ومن لا يفتبظ يسأم ويهرم	وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للرم خير فى حياة	إذا ماعد من سقط المتاع

تلك موعظة قطرى بن الفجاءة المازى . وكان رأس الخوارج وسيد فرسانهم وشعرائهم وقد قامت الحرب فى هذه الآيات بينه وبين نفسه التى ملت فرار الكئاب وتزجية الصفوف وحومة الوغى ، ففزعت وولت فوقف فى بهرة الحلقة بيوم حرب يحاورها بشعر الحرب ويقنعها بدليل من الإيمان وحساب الأعمار .

ولم يك قطرى خطيب الحرب بينه وبين نفسه فحسب ، وإنما كان خطيبها الأ كبر على رؤوس الأجناد . ولو أن تاريخه وأخبار صحبه قد كتبها ناس متجردون من نوازغ النفوس والهوى لجاءنا نبؤه الصحيح . ولكن ليس فى أيدينا مما سلم من تاريخه سوى حفنة صغيرة من أشعاره ، مبعثرة فى كتب التاريخ والأدب القديم . فكأن التأليف عصر بنى العباس اصطلاح على اضطهاد الخوارج ، وطنى على المؤلفين فوصفوهم بأنهم لصوص وشذاذ آفاق . ولكنهم لم يستطيعوا أن يطمسوا حقائق فروسياتهم التى ينبغى أن تكتب فى تاريخ الشعر الحماسى بأعز صفحة من صفحات عصوره .

فإذا توزعت البغضاء أخبارهم ، وافترقت كل مؤلف سهولة جمعها وترتيبها وعز على المفكر الحر أن يلعنهم ، فلا أقل من أن يجمع شعرهم وقد قيل أكثره فى الحرب ، وهو على قلته التى وصلت إلينا يكفى أن يعطينا صورة صحيحة عن فروسياتهم وكفاحهم ، وروعة أوصافهم للوقائع والمعارك .

لقد كانوا غلاة فى الاعتقاد الدينى عقدوا آراءهم فى التوحيد ، والوعد والوعيد ، والإمامة وكانوا كذلك غلاة فى حربهم ، قست قلوبهم فى سفك الدم والتخريب ، وغلظت أ كبادهم فى أحكام الحرب ، حتى استباحوا قتل الأطفال ، وعللوا ذلك بإبادة أعراق الظالمين لئلا

يخلف من بعدهم خلف يضيعون مثل آبائهم كتاب الله وسنة الرسول (١) .
 وكانوا يفرعون إذا هدأت ثوراتهم ، إلى ذكريات قتلاهم فيثيرون أحقادهم . وكان قتلى
 والنروان ، سيلا دائما إلى إيقاظهم كلها استجمعوا أو هدؤوا بعد الحرب . ولم يعبؤوا في
 عيشهم بلبوس أو طعام ، وإنما كانوا كما وصفهم عبد الله بن عباس لما أرسله على اليهم ليحاجهم
 فلم تجد عندهم حبيجه الدوامخ ، ولا نفعه التجاور معهم ولا الجدل فرجع إلى عليّ يصفهم
 فقال (٢) : إنه رأى لهم (جباها قرحة لطول السجود ، وأيديا كشفنات الإبل عليهم قص
 مرخصة وهم مشمرون) .

ولقد شردوا في الجبال والسهول معتصمين بإيمانهم وقد نذروا أرواحهم للإسلام ،
 وكأنهم كانوا يريدون أن يخلصوا بأنفسهم من أضرار البدع والضلال بشيخو ص الأئمة .
 نفروا من أول يومهم نفرتهم الكبرى بعد أن دعاهم إليها أحد زعمائهم الأوائل عبد الله
 ابن وهب الراسبي حين قال لهم (٣) : « أخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور
 الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضللة » .

ولكم عجبت كيف جمعوا فضائل الشجاعة والورع والتفاني في الدفاع عن حوزة الإسلام
 وكيف كانوا يبتغون في الدين المثل الأعلى والغاية السامية ، مجردة عن باطل الحياة ورغبات
 الخليفة ومنالة الدنيا . وبت مفكرا في أمرهم الغريب إذ باعوا الله أنفسهم واشتروا بتقواهم
 جنات النعيم فسماهم الناس « الشراة » .

كانوا من أعماق السجون يحنون إلى الحرب ولا يخشون من سلطان السجان ، ففي عهد
 المفيرة سجن معاذ بن جون بن حصين وكان من شعرائهم فأرسل إليهم من محبسه يقول (٤) .

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ	شرى نفسه في الله أن يترحلا
فشدوا على القوم العداة فإنها	إقامتكم للذبح رأيا مضللا
فياليتني فيكم على ظهر ساج	شديد القصيرى دراعا غير أعزلا
مشيحا بنصل السيف في حمس الوغى	يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم	أثرت إذاً بين الفريقين قسظلا
فيارب جمع قد فلتت وغارة	شهدت وقرن قد تركت مجندلا

(١) ذلك رأى نافع بن الأزرق شيخ الأزارقة من الخوارج في دفع هذه المثابة (الأغاني ط دار
 الكتب المصرية ج ٦ ص ١٤٢) .
 (٢) الكامل ج ٢ ص ١٣٤ .
 (٣) الطبرى ج ٦ ص ٤٢ .
 (٤) الطبرى ج ٦ ص ١٠٧ .

وكان ينبغي لمن ضم هذه الفضائل الدينية المطلقة ، وتلك الشجاعة الفائقة أن يتسامى عن الإسفاف وسفك الدماء بغير حق . فقد كانوا في مراحل تمردهم يعترضون عابرة السبيل ، فيستوقفون من يجدون من المارة يسألونهم أسئلة في معتقدات الخوارج ، فإذا لم يجيبوا إليها قتلوهم شر قتله .

وهم في كل ذلك ما حادوا عن تحيف الغلاة الذين ذكروا في تاريخ الأمم مقرونة أعمالهم بفضاعات تقشع لها الأبدان . وسجل تاريخ عصرنا نكبات أتاها المحاربون في معسكر الاعتقال من تعذيب الأحياء وخنقهم بالغاز ، أو إحراقهم ألوفاً وهم أحياء وأموات . ولولا الجروح والطفيان الذي يصيب المحاربين ، لما تلبست سيلا إلى غض الطرف عن مثالب الخوارج ، في ترويعهم الآمنين ، واقترائهم على الأبرياء .

وكيف دار أمرهم ، فقد نصبوا أنفسهم باختيارهم غرضاً للرماة ، فنضجهم المسلمون من كل جانب بالنبل . فكان أول من أعمل فيهم القتل على بن أبي طالب وشيعته ، ثم تلقاهم من بعده المغيرة والزبير . ثم المهلب والحجاج . وآل بهم الأمر إلى أن يكونوا هدفاً في أكثر الحروب الداخلية التي نشبت زمن بني أمية ، وأن تظل فلولهم موضع النقمة والعذاب ، حيناً من دهر بني العباس .

إنى لأندفع بين أشعارهم الحماسية ووقائعهم في « النهروان ، والنخيلة ، وحروراء ، ويوم دولاب ، ويوم سولاف ، فأراهم حيناً متجمعين وحيناً مشتتين ، تلحقهم الحروب من كل جانب حتى أجلاهم المسلمون عن أرض العرب فعبروا الفرات إلى تخوم فارس ، ثم تجاوزوها فهم بأرجان ثم في أصبهان وسابور ، واعتصموا بإصطخر . وكانوا يفتكون بكل بلد نزله خشية غدر أهله ، حتى أن « قطربا ، هدم إصطخر على أهلها ، لأنهم كاتبوا بأمره المهلب سراً ، ثم صار أمر زعيمهم هذا إلى الاعتصام بطبرستان .

وكانوا أعرف بفنون الحرب من سائر المسلمين ، يحسنون توقي البيات ، ويتقنون ضرب الحصار والتفلة منه ، واصطياد الغفلة من الخصم . وكان من أطرف ما عرفت لخصومهم أنهم كانوا يستعملون أساليب الإذاعة والدعاية في ساحات القتال عند وقوف الحرب أو الاستجمام ، على نحو ما عمل الفرنسيون أوائل الحرب بالأمس . فقد كانوا ينصبون أبواقاً على أبراج حصون « ماجينو ، يدعون بها الألمان إلى إلقاء السلاح ، أو يتندرون بهم ، فيجيبهم الألمان برصاص البنادق والرشاشات . فقد روى صاحب الكامل والطبري^(١) أن الخوارج في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ويحمل بعض الطرفين على بعض ، وربما كانت

مواقفة بغير حرب ، أو ربما اشتدت الحرب بينهم . وكان رجل من أصحاب « عتاب » يقال له « شريح » ، ويكنى « أبا هريرة » ، إذا تحاجز القوم مع المساء نادى بالخوارج وبرئيسهم الزبير بن علي :

يا ابن أبي الماحوز والأشرار كيف ترون يا كلاب النار
شد أبي هريرة الهرار يهركم بالليل والنهار
ألم تروا « جيا » ، على المضمار تسمى من الرحمن في جوار (١)

غاظ الخوارج ذلك ، فكمن لهم عبيدة بن هلال فضربه واحتمله أصحابه . فظنت الخوارج أنه قد قتل فكانوا إذا تواقفوا نادوهم : ما فعل الهرار ؟ فيقولون ما به بأس ، حتى أبل من علة ، وخرج إليهم فصاح : يا أعداء الله أترون بي بأسا ؟ فصاحوا به : قد كنا نرى أنك لحقت بأملك الهاوية ، في النار الحامية .

آن بعد الإلمام بشجاعة الخوارج ، واستشرائهم في الحرب ، وضراوتهم ، أن أبدأ بأشعارهم . لقد كان أشعرهم قطري بن الفجاءة ، له في شتيت الكتب مقطوعات أربع وأبيات مبعثرة منفصلة من قصائد لم تصل إلينا . وقد كان أبو تمام ضئيلاً برواية الشعر الخارجي ، مع حفاوته بالشعر الحماسي القديم ، فلم يرو في حماسه لقطري بن الفجاءة سوى مقطوعتين قصيرتين وبيتين اثنتين (٢) . وأحسب أن أبا تمام حين حبسه الثلج في همدان لجمع ديوان الحماسة من مكتبة صاحبه الذي نزل عنده ، لم تفعل في برد جسمه نار قطري ذي الشجاعة المتوقدة ، فلم يختر له سوى تلك الأبيات القلائل ، وأحسبها أقل شعره .

أما المبرد فقد عني به في « الكامل » ، فروى له قصيدة ميمية في (أم حكيم) وحرب دولاب . واحتقن به مؤدب مصر في مستهل نهضتها المعاصرة السيد علي المرصفي في كتابه « رغبة الآمل من كتاب الكامل » . وفي أسرار الحماسة في شرح حماسة الطائي . وروى لقطري أصحاب التاريخ كالمسعودي والطبري مقطوعات من هذه الفوائد ، وشعراً آخر قاله رسالة إلى ابن جعد نديم الحجاج .

كان شعره هذا لهيباً من البطولة ، تموج فيه المروءة والنخوة والإقدام . فهذه حرب دولاب (٣) ولم يكن فيها « قطري » ، رأس الخوارج ، وإنما كان من أعيانهم ومذاويدهم . فقد تقدم عليه في قيادة أمرهم نافع بن الأزرق ، وكان قطري من أبطال هذه الحرب المستعرة التي

(١) جى مدينة كانوا محاصرين في أسوارها .

(٢) شرح ديوان الحماسة الطبعة الأولى لفرايتغ ص ٤٤ ، ٦٠ ، ٣٣١ .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٨٥ مكان من أرض الأهواز .

جهز إليها بن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، عليه مسلم بن عبيس الذى وصف الخوارج بقوله :
 « إني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم » . ودامت معركة
 دولاب عشرين يوماً ، وكان الخوارج أقوى عدة بالدروع والجواشن وكراديس الخيل .
 وذلك سنة خمس وستين للهجرة فى جمادى الآخرة (١) . ويقول الطبرى عن الخوارج فى هذه
 الواقعة وما بعدها (٢) « جاءوا وهم أحسن عدة وأكرم خيولاً وأكثر سلاحاً من أهل البصرة .
 وذلك لأنهم مخروا الأرض وجردوها وأكلوا ما بين كرمان إلى الأهواز فجاءوا عليهم مغافر
 تضرب إلى صدورهم وعليهم دروع يسحبونها ، وسوق من زرد يشدونها بكلايب من الحديد
 إلى مناطقهم » .

وراح الخوارج جزلين يمرحون فى فرحة النصر ويحمدون الله على انحسار الغمة . وكأني
 بهم فى أمسية من أماسيهم على أرض ميثاء من ضواحي الأهواز بعيداً عن أعدائهم المزمومين
 الذين عبروا النهر وانصرفوا نحو البصرة ، جلسوا تحت تلك الأمسية يضمدون جراحاتهم ،
 ويعدون قتلاهم ويترحمون عليهم ، ويقرنون أسماءهم بشهداء النهران ، ومن مضى على آثارهم
 من المفتدين المبتهلين . وكان قطرى فى جمعهم تلك العشية يستوحى شعره ، فهاج الظفر بلابله
 فتذكر زوجته (أم حكيم) ولم يكن سيد فرسان الخوارج ليصبو إلى أم حكيم بعد (حرب
 دولاب) لو لم تكن أم حكيم فى البطولة مثله ، زان جماها البسالة ، فلقد كانت من أجمل النساء ، فى
 شجاعة الرجال ، متمسكة بدينها وكانت من القانتين .

وتزاحم على صباها وهواها قلوب الخوارج ، فخطبها أفذاذهم فردتهم متأية عليهم ،
 فقداهما الخوارج بالآباء والأمهات حتى قال عنها ميمون بن هارون « مارأيت قبلها ولا بعدها
 مثلها (٣) » . ولعلها كانت ، إذ ردت عنها خطابها ، لاتصبو نفسها إلا إلى بطل واحد مثلها كريم
 الأعراق زكى القلب ، كقطرى ، وكيف بغيره ترضى ، وهى إلى ما جمعت من ملاحاة النساء كانت
 صعبة المراس تحمل مع الخوارج على أعدائهم . لقد كانت وهى تحمل على الفرسان فى الحرب
 تمنى لو أتيح لها فارس أشد منها بأساً وأصوب ضرباً فيطيح برأسها ويريحها من حملة ومن
 القيام بواجبات الأنوثة نحوه من تغسيل وتدهين وتمشيط وتزيين ، فتقول فى رجزها
 وهى تقاتل :

أحمل رأساً قد ملكت حملة

وقد ملكت دهنه وغسله

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخه ج ٧ ص ٨٨ .

(٣) الأغاني ط دارالكتب المصرية ج ٦ ص ١٥٠ .

ألاقتي يحمل عني ثقله

فيود ذلك الفتى (قطرى) لو كان رأسه هو المنادى عليه .

ولعله ذكر في ذلك المساء بعد هدأة من العشاء (أم حكيم) فطاف في عينيه حللها المعسول .
وطيفها الجميل فأحس بحبه للحياة بعد أن زهد فيها ، وتذكر بياض (أم حكيم) وشفاءها لغلة
المحزون السقيم ، وأحسبه — كما يعترف — كان إذا شجر بينه وبينها خصام رفع كفه فلطم بها
وجها الصبوح . لقد لمع في خاطره ما تقدم من ذنبه في ضربها ، ولطم وجهها ، فغالبته الندامة .
وتمنى لو كانت تشهد فتكه في يوم دولاب .. وانسرح خياله فراح يصف لأم حكيم حرب دولاب
وما لقيت بكر بن وائل حين غرقت هي والأزد في ماء دجيل وطفقت على وجهه لحي الغرقى
من شيوخ الأزد (١) ، وجرت الخيول محجمة على تميم ، ثم عاجت على عبد القيس شفرات
السيوف ، وعلى أحلافها قبيلة يحصب وقبيلة سليم ، ثم بزجر قطريا على خيال الهوى والظفر
دم مسفوك وجراح وصرعى من قومه امتلأت بهم الساحة ، فتفيض أحزانه ومواجهه على
مقتول كريم نجيب ، لعله كان له أخا أو حميا ، أو كان أباً لأم حكيم أو شقيقاً أو لعله كان
نافع بن الأزرق لأنه قتل في هذه الواقعة . فتروعه حسناء تضرب خدها معولة وتبكي عليه ، وقد تكون
هذه الحسناء أم حكيم نفسها فقد سقط ذلك البطل صريعاً في دولاب ، غريباً عن موطنه فجمع
قساوة القتل إلى مرارة الاغتراب . ثم يعاوده خيال (أم حكيم) في زحام هذا الهول فيتمنى
لو كانت تشهده وقومه وهم يستبيجون حمى الكفار فترى أولئك الخوارج الفتيان الذين باعوا
الإله نفوسهم ، لينالوا يوم القيامة جنات عدن ، وحظوة فردوسه الأعلى .

كذلك كان (قطرى) بعد حرب دولاب يقول (٢) بشعره :

لعمرك إني في الحياة لزاهد	وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
من الحفزات البيض لم ير مثلها	شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إني يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جد لثيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت في الماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول حدنا	وأحلافها من يحصب وسليم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصا	يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريما على فتى	أغر نجيب الأمهات كريم

(١) كما يقول شاعر من الأزارقة يوم ذاك :

يرى من جاء ينظر في دجيل

شيوخ الأزد طافية لهاها

(٢) الأغاني ط النقدم ج ٦ س ٥٥

أصيب بدولاب ولم تك موطننا له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم. ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

* * *

وكان قطرى بن الفجاءة يؤثر في شعره هذا أن تكون (أم حكيم) تشهده وهو يصارع الأبطال . وهذا شعور غلب على أكثر شعرائنا الأبطال — على نحو ما أشرت إلى ذلك في تمهيد الرسالة من أن حب الشعراء الشجعان للتحدث عن محبوباتهم في شعرهم الحربى مهدهد لبطولتهم — وقد عرف العرب الجاهليون والإسلاميون ذلك من شعرائهم. فقد كان هؤلاء الشعراء الحماسيون يتمنون لو شهدتهم نساؤهم في العراق والطعان ، ليملكوا قلوبهن بشجاعتهم إذا لم يملكوها ، بجمال الجسوم ووسامة الوجوه وملاحة السمات .

وقد كلف من الغربيين بتصوير أمثال هذا التعاطف الروائيان كورنيه ورأسين من شعراء الأدب الكلاسيكى فى فرنسا، فبنيا كثيرا من رواياتهما التمثيلية عليه فكانت نساء الرواية تكلف بشجاعة الأبطال أكثر من كلفها بجناهم . وكان الأبطال يبذلون من مظاهر فروسيته كثيرا من المواقف ليملكوا بذلك قلوب النساء كما فى رواية « السيد ، لبيير كورنيه ، فان الحسناء «شيمين» بنت «الكونت كومان» صفحت عن معشوقها قاتل أبيها إعجابا بفروسيته ، وانتصاره فى الحرب على قبائل المغاربة فى حروب الأندلس .

وكيف جاء وصف قطرى لحرب دولاب ، فإننا لا نستطيع أن نطالبه بأكثر مما وصل إلينا من شعره . ومن يدرى ؟ فلعل قصيدة «أم حكيم» كانت أطول من ذلك نفسا ، وأحكم فى أبياتها ، وكفى بما بلغنا منها ، أن يصور هول تلك الحرب التى هلك فيها قرم من أقرام الخوارج هو نافع بن الأزرق ، فأبقى لنا منها صورة مختصرة ، ولكنها واضحة وضوحا يمكن الخيال من تمثيلها على وجهها الأكمل ..

لقد استلها بالغزل والحنين إلى الحبيب الغائب ، ثم سلك إلى دولاب سبيل الوصف ، وحتمها بالناموس الدينى عند الخوارج منذ غداة التحكيم ، وهو استباحة دم كل من ليس خارجياً مثلهم ، ويبيعهم أنفسهم لله فى الدنيا لينالوا من لدنه نعيم الفردوس جزاءً وثواباً . فلذا عد قطرى محاربيه خارجين على الدين ، فوصفهم بالكافرين ولم يعد فيما أثر له من شعر قليل هذه النزعة التى يمزج فيها كل (خارجى) فروسيته بدينه .

لقد كان شعر قطرى صورة لحقيقة قلبه وعقله ، وكان صدق لكل خارجى مجاهد متعبد . إن قلبه قد امتلأ بحب الحرب ، واستولى على عقله جدل الدين وفقه العقيدة . وكان يهوله أن

يئد من أصحابه رجل كائن جعد ، فيكون سميّاً للحجاج ونديمه (١) . وأن يقعد عن مشاركتهم في حرب الحجاج وأصحابه ، فأرسل إليه شعراً يعاتبه فيه . وصف بهذا الشعر مجاهدته للفرسان وصبره على السيوف في حرب المهلب بن صفرة ، والتزام ابن جعدة لباس الخنز عند أمير لا يأمر بتقوى الله . وختم رسالته الشعرية هذه بناموس الخوارج وشعارهم الديني في ثواب الآخرة (كما تقدم) وهو الغاية القصوى بعد جهادهم للكفار فكاتب إليه :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا	إذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب ، كلنا	صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخنز عند أميره	أمير بتقوى ربه غير آمر
فسر نحونا تلق الجهاد غنيمة	نفدك ابتياعاً راجحاً غير خاسر

وإني لأجد بين شعره هذا وبين قصيدته بأم حكيم ما أجد من الفرق بين شعر يخلع عليه خيال المرأة بهجة السبك وحلاوة القول ، وتزيده فحولة الفروسية رصانة التعبير وجزالة اللفظ وشعر يقوله قائله بوازع من التزم فتسوده روح الفقه والموعظة وتطغى على ما فيه من وصف البطولة .

على أن أبا جعد قد عمل فيه هذا الوازع فهجر الحجاج والتحق بالخوارج فقاتل معهم وغالط بروحه أرواحهم . فكان في النهار يهيج مع الخوارج هياج الليوث ، وفي الليل يتعبد ربه باكياً كالنساء المعولات . لقد ترك الحجاج هارباً إلى عصابة الخوارج تاركاً للحجاج رقعة فيها شعر منه هذه الأبيات :

فأقبلت نحو الله بالله واثقاً	وما كرتي غير الإله بفارج
إلى عصابة ، أما النهار فإنهم	هم الأسد أسد الغيل عند التهاج
وأما إذا ما الليل جن فإنهم	قيام بأنواح النساء النواشع

فلم يعد في أبياته وصف الخوارج بكلمتين لا ثلاثة لهما وهما :

« الفروسية والدين » .

أما بقية شعر قطري في الحرب فمثل ما تقدم منه ، فيه هذه الروح التي تزجر المتخاذلين ، وتنضح بالقتال ، لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى . فهو في أبياته القليلة الماثورة يصور شجاعته وبأسه ويقول :

لا يركن أحد إلى الإحجام	يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أراي للرماح دريئة	من عن يميني مرة وأمامي

متعرضاً للبوت أضرب معلماً
أدعو السكاة إلى النزال ولا أرى
حتى خضبت بما تحدر من دمي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب
شهم الحروب مشتهر الأعلام
نحر الكريم على القنا بحرام
أطراف سرجي أو عنان لجأى
جذع البصيرة قارح الإقدام
وأين استقصى قطرباً في شعر حربه . فإن كان هذا كل ما قاله — وهو ما لا أذهب إليه —
فلقد حال اندفاعه إلى الحرب وحواماتها ، عن القول في صفاتها ، أن الخطوب حملته
ومعشره على غواربها فكان آخر نصر لهم في يوم سولاف^(١) بعد شهر من قراع المهلب ،
وقد ابتلوا منه بويل وصلابة ، ولما صار الأمر فيهم إلى قطرى خانه أصحابه فخلعوا بيعته بعد
أن بايعوه بالخلافة ودعوه بأمر المؤمنين^(٢) . ثم تتابعت عليه الهزائم والانكسار في يوم
(سلى وسليرى^(٣)) فلجأ صحبه للشعر يروحون به عن أنفسهم كقول واحد منهم :
وكائن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتلى في الجحيم مصيرها
وحين شردت قطرباً جنود المهلب انفض عنه المحاربون إلا فئة من الرجال وبضع عشرة
امراً فعر حتى سقط على منحدر ، فابتدر إليه قاتلوه ، وخالجه عطش فساوموه على سلاحه
بشربة ماء ، فأبى فابتدروه عاثراً فقتلوه ، وأدعى كل فارس أنه صاحب رأسه ، لكنه مات
ميتة بطل ، وزاد على البطولة أنه كان الشاعر الخارجي الأول ، الذى وقف شعره
على الحرب .

وشعره في ميزان الأدب — كما أجده — متفاوت النفاسة . فقصيدته في أم حكيم في
ذروة الشعر الحربى ، بل في عداد الجياد مما قال شعراء العرب من شعر رفيع الصوغ ، محكم
البيان ، حلو المعاني ، لم تنفر كلماته ، ولا ندت أبياته . فكأنه طنفسة رائعة النسيج من الخز ،
إنه جمع بين ابن الكلمات الغزلة ، وجميع الحزن ، وصلابة الحماسة . أما أشعاره الباقية فتفاوتت بين
الجزالة والركة ، ولكنها جميعها لا تنهض إلى جو شعره في أم حكيم ، فان تلك الميمية التى قالها
في حرب دولاب نغمة إنسانية مصبوغة بالدم ، ميادة بالهوى ، فوارة بالحماسة .

قرنت عمران بن حطان بقطرى ، فوجدت عمران أصلب من قطرى ديناً وأشد غلواً في

(١) مكان بناحية الأهواز .

(٢) ذكر أبو زكريا التبريزى في شرحه لميمية قطرى في حماسة الطائي أن القوم سلموا على قطرى
بالخلافة ثلاث عشرة سنة (نسخة فرايتغ ص ٦١) .

(٣) منزل من منازل الأهواز .

(٤) السكامل ج ٢ ص ١٩٩ .

فكرة الخوارج وانصرافا إليها ، لكنه دونه في الشجاعة والبأس ، فإن قطريا أحكم الخوارج شجاعة وبأسا ، وهو على قلة شعره الحربى الذى سكب فيه خلاصة فنه ، قد أمسك بعنان شعر الحرب ونزعة الخوارج ، فسار بهما في شوط واحد . أما عمران فقد انحط مليا في شعر الحرب ، وفي حدة الفروسية وسورتها . وبلغ من طغيان مذهبه الدينى على شجاعته وحربه أن اعتزل القتال فكان من القعدة حين ضعف عن الحرب وحضورها (١) ، فاقصر على الدعوة بلسانه ، على أنه كان حديث عهد بنزعة الشراة ، فقد روى عنه أنه كان مشغوبا بطلب العلم والحديث قبل أن يفتن بهم .

وكان هروبا فلم يصمد للحجاج ، فشرذ بين القبائل مستخفيا ، منتسبا نسبيا كاذبا ، ليضلل الأعين عن سبيله ، ويغرر العارفين به . ولم يخلص إلى أيدينا شيء كثير من شعره الحربى حين كانت له مشاركة في الحروب ، ويروى القيروانى في « زهر الآداب » أن الحجاج أمسك به ثم أطلقه فدعاه الشراة إلى معاودة الحرب وقالوا له لم ينبجك إلا الله ، فارجع إلى حربه معنا ، فقال لهم هيمهات ، وأنشد شعرا في طوعه وانصياغه للحجاج . لكنه ترك أبياتا من شعر الحرب صديغة بالدم راجفة بالذكرى المرة ، أظهر فيها الشماتة بمقتل على بن أبى طالب ، وأثنى على قاتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى فقال فيها :

يا ضربة من تقى ما أراد بها	إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر ثم فيه ثم أحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا
لله در المرادى الذى سفكت	كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أسمى عشية غشاء بضربته	مما جناه من الآثام عريانا

ولست أشك في أن شعر عمران في الحرب قد فقد أكثره ولم يصل إلينا سوى نزر ضئيل منه ما قاله في روح بن زنباع الجزامى ، بعد الخلوص منه والهرب لوجهه . فقد تهكم في هذا الشعر بالحجاج بن يوسف لما اعتصم خائفا بالحصن من غزاة الحرورية ، « جان دارك » ، الخوارج ، التى دخلت عليه الكوفة وزوجها شبيب الخارجى ، ولم ينبج الحجاج سوى عبد الملك إذ أرسل إليه من يعينه على حرب شبيب ويفرج عنه غمرته في حصنه ففرح عمران بانخذال الحجاج فقال فيه :

أسد على وفي الحروب نعامة	ربداه تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى (غزاة) فى الوغى	بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت (غزاة) قلبه بفوارس	تركت مدابره كامس الدابر

وفاض في حروب الخوارج ذكر غزاة هذه وقيل إنها كانت بطلة شاعرة ولها مآثر في الحرب فأين شعر غزاة الخارجية في الحرب ؟ وما خبر تلك الفروسية في قصيدها وكانت شاعرة كما يقولون ؟ . وقد كانت غزاة صلدة القلب كزوجها ، فقد هجم على مسجد الكوفة وجعل وصحبه يقتل المصلين فيه (١) .

كانوا في طغيانهم هذا هم والخوارج كسيل هائج يأخذ ما يلقاه في دربه ولم يكن همه النهاب والслаب لوجه المال ، وإنما كانوا أبدا هائمين على وجه مذهبهم وغائية دينهم ، قد اتخذوا شبا السيوف سبيلا الى نشر فكرتهم ، وإهلاك أعدائهم الذين يرون كفرهم ، حتى طغى مذهبهم بالعنف والطوع على كثير ، وجر إليهم شعراء محاربين كالطرماح بن حكيم وكان فارسا ظهرت في شعره فروسيته ، إذ يقول :

فلبست للحرب العوان ثيابها وشببت نار الحرب فهي توقد
وكان هذا الشاعر من أصحاب المروانيين فدح يزيد بن المهلب الأزدي ثم رثاه ، ولإعجابه بالمهلب وأولاده مدح الأزدي كلها ، لكن الخوارج وجدوا السبيل الى قلبه فجروه إلى مذهبهم فهام به وهب نحوهم ، وحن اليهم ، حتى قال فيهم : (٢)

لله در الشراة لمنهمو إذا كرى مال بالطلأ أرقوا
يرجعون الحنين آونة وإن علا بهم ساعة شهقوا
على أنه مع حبه للخوارج ، وأنه كان يرى رأيهم (٣) فليس في ديوانه شعر يصف فيه حروبهم ويصور معاركهم التي كانت أكثر معارك الحروب الداخلية وأروعها في عهد بني أمية

* * *

وثمة شعراء خوارج أثر لبعضهم شعر طويل ، كعمرو بن الحصين قاله « يوم قديد ، وهو مكان بالقرب من المدينة خرج فيه الحجازيون لقتال الخوارج (٤) » وهم لا علم لهم بالحرب فخرجوا في المصبغات والثياب الناعمة واللهم لا يظنون أن الخوارج شوكة ، وتواقفوا حينئذ بدأ القرشيون فرموا سهمًا قتلوا به رجلا من الخوارج ، فصاح أبو حمزة الخارجي شيخ هذه الواقعة (٥) « شأنكم الآن فقد حل قتالهم » فنشبت المعركة وكانها سعي فقتل فيها نحو من سبعمائة (٦) .

(١) الطبري ج ٧ ص ٢٣٣ .

(٢) ملحق ديوانه نشر كرانكو طبع لندن سنة ١٩٢٧ القصيدة رقم ٣٧ .

(٣) الأغاني ط دار الطباعة بمصر سنة ١٢٨٥ ج ١٠ ص ١٥٦ .

(٤) المصدر السابق ج ٢٠ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) الطبري ج ٩ ص ٢٠٩ .

وقد شهد عمرو بن الحصين شاعر الخوارج هذه الحرب فقال قصيدة في وصف معركتها وصفاً دقيقاً ، وصور الخوارج في تقاهم وشجاعتهم بقوله :

متأوهين كأن في أجوافهم	ناراً تسعرها أكف حواطب
تلقاهم فتراهم من راع	أو ساجد متضرع أو ناحب
ومبرئين من المعايب أحرزوا	خصل المسكارم أتقياء أطايب
متسربلي حلق الحديد كأنهم	أسد على لحق البطون سلاهب
حتى وردن حياض مكة قطناً	يحكين واردة اليمام القارب
سائل بيوم (قديد) عن وقعاتها	تخبرك عن وقعاتها بعجائب

وإني أرى لدن تحليل هذه الأبيات من القصيدة الخارجية الحربية ، أنها لم تخل من ثلاثة أوصاف شاملة يوصف بها جانب كبير من شعر الحرب عند الخوارج وهي :

- (١) وصف الفروسية ، والبسالة ، والفتك والتفاني في الحرب .
- (٢) وصف التقوى والتفاني في العبادة .
- (٣) وصف أخلاق الخوارج في سلامة العيوب وخصال المكارم .



ولم يعدم الخوارج على كثرة عددهم شعراء كثيرين ، لولا ضيعة أخبارهم وأشعارهم لاتانا عنهم نبأ خطير .

كان من شعرائهم يزيد بن حبياء الضبي ، وكانت له مهاجمة مع زياد الأعجم الذي كان يعيره بخارجيته ومتابعة مراقب العراق .

وثمة شعراء من الخوارج لم يؤثر لهم سوى البيتين أو الأربعة . ولم يعدم الشعر الحربي عندهم ناطقاً به ، حتى زعمائهم فإنهم كانوا شعراء وكانوا يفرجون بالشعر عن خواطر نفوسهم الحماسية ، كأمثال حيان بن ظبيان الذي يقول في شوقه إلى الحرب :

خليلى ما بى من عزاء ولا صبر	ولا إربة بعد المصايين بالنهر
سوى نهضات في كتاب جمه	إلى الله ما تدعو وفي الله ما تفرى

ويتبين من هذا الشعر كله الذى قالته الخوارج أنه نم على الفحولة والجزالة وجاء بالقول المحكم . لكن حظه من تاريخ الأدب كان قليلاً . بل لم يكن له حظ من ذلك قط ، فاصطلح عليه رواة الأدب بزرأية على أهليه وإهمال لروايته . ولو أتيح لهؤلاء الشعراء الخوارج أن يكون مؤلف الأدب في تلك الأعصر التى جمعت فيها الأخبار أديباً خارجياً أو أنه ينزع

نزعهم لجاءنا من أشعارهم الكثير ، لأن فيض قرائحهم في هجمة الوغى كان غزيراً . فكان ارتجال الشعر عليهم هيناً ، فكيف بالتأني في نظمه ، والتطويل في أنفاسه .
على أن فناءهم في الحرب لم يعفّ على أشعارهم ، فإن موت القراء والمحدثين في كثير من وقعت هذا العصر لم يمح آثارها ، ولم يمسه إلا بقليل من الضياع مع ندرة التدوين في تلك الأيام .

أما أولئك الشعراء الذين أتاح لهم الحظ حسن الذكر وجمع الشعر كالكيمت والفرزدق وكثير — فذلك من حسن حظوظهم لدى التاريخ ، وهؤلئى الأدب القديم ، الذين كانوا في أكثرهم شيعة ، فلم يتركوا لذويهم شاردة إلا قيدوها . والعباسيون غلوا في البغضاء لخصومهم في عصر التأليف ، وكانت العصبية القبلية غالبة عليهم . وأما الفرزدق وأترابه ممن تركوا الشعر الغزير ، فإن قعودهم عن الحرب ، وتفرغهم للشعر ، أعانهم على تلك الغزارة . ولأن رواة هذا الشعر أدركوا العصر العباسى بأعمارهم ، وكانوا يحبون هذا الشعر ويقدرّون قائله فأملوه على جامعيه . ومن للخوارج — وهم المنبوذون بالكفر ، المضطهدون في كل صقع — بمثل ذلك وقد أفنّاهم القتال فزقهم من كل جانب ؟ فلا أفادوا ظفراً باقياً ، ولا شعراً مروياً كثيراً . وخير دليل أورده على إهمال أمرهم أن قطرباً زعيمهم وكبير شعرائهم ، كان حظه من أبى الفرج الأصبهاني ، في ثلاث صفحات .

وفصل الخطاب في شعر الحرب عند الخوارج ، أنه صورة ثورة غالية العناد ، جاحدة القياد ، تستبيح دم من لا يؤمن بها ، وكانت تتخذ السلاح سبيلاً إلى نشرها كثورات الأقوام وفتنتها العارمة . وقد امتازت ثورة الخوارج من سائر الفتن بأنها كانت ذات مثل عليا لوجه الدين وحده ، ولم يصبغها صابغ بأمر الدنيا كحروب الهاشميين والامويين وثورات الشيعة . وقد رُفد هذه الثورة الدينية شجاعة خارقة وبطولات جبارة نادرة^(١) ، كان حاديتها أشعارهم الحربية وكأنهم كتبوها على شفار السيوف التي كانوا يكسرون جفانها ، ثم يصممون بها في هجمات الحروب ، وشعارهم أبداً :
— لا حكم إلا لله . . .

(١) جاء في معلمة الإسلام بالفرنسية (ج ٢) في مادة Kharijite ص 958 (أن فروسية الخوارج كانت في أهوالها كضرب من ضروب الأساطير) .

الفصل الثاني

شعر الحرب في أدب الشيعة

أدب الشيعة مقرون بالشجون ، مسكوب عليه الدموع ، حزناً على مقتل علي بن أبي طالب وولده الحسين وآل البيت .

لقد كان الأمويين يهجونهم فلا يخادعونهم ، وكان لسب عليّ على المنابر أكبر الأثر في إهاجة ثوراتهم حتى أن المغيرة بن شعبه ، وهو أفضل عمال معاوية على الأمصار ، كان لا يدع دم عليّ والوقوع فيه ، والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم ، حتى سبب هذا الاستفزاز مقتل بطل عزيز من أبطال الشيعة هو حجير بن عدي ، فلقد رد علي المغيرة في المسجد وهو يلعن علياً فقال له :

— بل إياكم ، فذمم الله ولعن^(١) .

وجر هذا أن خلع حجير بن عدي طاعة الأمويين ، وتألب حوله جمع من الشيعة ، كانوا أوائل النأمة الثائرة في عهد بني أمية . وآل الأمر إلى أن هب حجير برجال مستشرين فقاتلوا الأمويين في الكوفة وخارجها ، فأقلقوا عليهم أمصار العراق ، وكان شعارهم هذه الأبيات :

يا قوم حجر دافعوا وصابلوا وعن أخيكم ساعة فقاتلوا
لا يلفين منكم لحجر خاذل أليس فيكم راح ونابل
وفارس مستسائم وراجل وضارب بالسيف لا يزايل

فدعا زياد بطون العرب من همدان وتميم وهوازن وأبناء مذحج وأسد وغطفان ، ليأتوا جبانة كندة ، حيث كان يسكن حجير بن عدي الكندي ، فيحملوا له حجراً . فلما صار حجر عنده أسره وكبله بالحديد ، وأرسله إلى معاوية فقتله . فقام من بعده أصحابه أشد ثورة وضراوة حتى توالت مفاتن الشيعة .

وكان شعراؤهم في هذه الفتن والحروب الداخلية ، يسجلون صوراً من المعارك ،

ويتناولون وصف الحرب بشعرهم فيعززون بتلك الأشعار مذهبهم ومطلبهم وينوحون خلال ذلك على شهدائهم وأئمتهم الأبرار .

والشيعة الذين كتبوا ثورتهم في حنايا ضلوعهم منذ مات علي^١ كانوا يصوبون النظر الشرر إلى خلافة بني أمية . فلما مات معاوية هبت أحقادهم من مكائنها ، كجمر سفت الريح عن وجهه الرماد .

وشاء تاريخ الفتن الداخلية في عهد بني أمية أن تكون الكوفة وكر الثورة ، والبصرة مبعث الفتنة ، فكانت تولد منها شرارات الحروب ، ويصدر عنها الوحي في خلع عصا الطاعة . وكذلك كان ، فقد أرسل أهل الكوفة من أشياع علي^٢ إلى ولده الحسين ، أن يقدم إليهم ليبايعوه على الخلافة ، ففعل غير سامع لنصح عبد الله بن مطيع الذي وقاه عثار الكوفة فقال^(١) له : « إن الكوفة بلدة مشؤومة بها قتل أبوك ، وخذل أخوك ، واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه » .

فلم يصغ الحسين لنصحه ، وإنما ركب رأيه ، وأحسبه كان يخاف أن يتلقاه الناس بما تلقوا به أخاه الحسن بالقادسية وهو عائد إلى المدينة ، بعد أن دخل وجماعته في طاعة معاوية ، فنادوه :
— يا مذل العرب^(٢) .

فلما جرد بنو أمية عبيد الله بن زياد على الشيعة ، نهض الشيعة نهضة رجل واحد لنصرة الحسين ، حتى كان الرجل يترك ماله ويهب ومعه زوجه للدفاع عن سبط الرسول ، كالذي فعل عبد الله بن عمر الكلبي . فقد هجم عليه في إحدى الوقائع في الدفاع عن الحسين فارس من جند الأمويين ، فاتقاه الكلبي بيده اليسرى وأطار أصابع كفه ، فقال عليه الكلبي فضربه حتى قتله وهو ينشد قوله :

إن تنكروني فأنا ابن كلب
حسبي يتي في عليم حسبي
إني إمرؤ ذو مرة وعصب
ولست بالحوار عند المنكب

(١) الطبري ج ٦ ص ١٩٦ .

(٢) الطبري ، النسخة الأوربية . (V.II ص ٩) . .

إني زعيم لك أم وهب
بالطعن فيهم مقدماً والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب

وئارت أم وهب امرأته ، فسارت وراءه ويدها عمود تصيح به وتقول :

— فذاك أبي وأمي ، قاتل دون الطيبين من ذرية محمد . . .

فأقبل إليها يردّها ويزجرها ، لتعود نحو النساء ، فأخذت تجاذب ثوبه ثم قالت له :

— لن أدعك دون أن أموت معك .

ولم تنصرف عن زوجها حتى زجرها الحسين .

وكان عمر بن قرظة الأنصاري يقاتل دون الحسين ، ويتبرأ من الخوارج وهو يقول :

قد علمت كتيبة الأنصار أني سأحمي حوزة الذمار

ضرب غلام غير نكس شاري دون حسين مهجتي وداري

وكان البطل من الشيعة يجود بنفسه في الحرب والموت يشرح في صدره ، وهو مجندل

وعينه عالقة بالحسين ، فلما صرع مسلم بن عوسجة أول أصحاب الحسين أكب عليه الحسين

وبه رمق ، فقال رحمك الله ربك . فدنا منه حبيب بن مظاهر وقال له ، عز على مصرعك

ولولا أني لاحق بك الساعة لأردتك أن توصي ، فقال مسلم وهو يلفظ نفسه الأخير :

« أوصيك بهذا رحمك الله » . وهوى بيده إلى الحسين وهو يقبض .

وكان في الحاملين على الحسين وصحبه شمر بن ذى الجوشن في ميسرة الجيش الأموي فتلاقى

الجمعان حتى عقرت الخيول وصاروا رجالاً كلهم . وغلت الحماسة في نفس حبيب بن مظاهر

فهجم على بطل من أبطال ابن زياد ، فضرب وجهه فرسه بالسيف فشب ووقع عنه ، فأنقذه

الأمويون أصحابه ، فقال حبيب : (١)

أنا حبيب وأبي مظاهرُ فارس هيجاء وحرب تسعر

أنتم أعدّ أعدّ وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر

ونحن أعلى حجة وأظهر حقا وأتقى منكم وأعذر

فلما سقط هذا البطل هد موته حسينا ، فقال إني أحتسب نفسي وحماة أصحابي ، فأخذ

الحر بن يزيد يقول .

آليت لا أقتل حتى أقتل ولن أصاب اليوم إلا مقبلا

أضربهم بالسيف ضرباً مقصلاً لا ناكلاً عنهم ولا مهلاً
أضرب في أعرافهم بالسيف — عن خير من حل مني والخيف
وتسابق أبطال الشيعة يذودون عن الحسين ، وسهام أعدائه تهوى على جانبيه فكما صرع
دونه واحد حل مكانه آخر ، يدفع عنه بصدرة ، ويجود من أجله بروحه ، حتى كانت نوبة
زهير بن القين ، فقال بين يديه وهو يصد هجمات المناوشين :

أنا زهير وأنا ابن القين أذودهم بالسيف عن حسين
أقدم هديت هاديا مهديا
فالיום تلقى جدك النبيا
وحسناً والمرضى عليا
وذا الجناحين الفتى الكيا
وأسد الله الشهيد الحيا

فلما استعر القتل ، وتعاور على الحسين الجمع من كل جانب ، وكان الحسين مغواراً يصد
عن نفسه ذات اليمين وذات الشمال ، خف إليه صاحبه يزيد بن المهاجر الكندي ، فجثا على
ركبته بين يديه ، وأخذ يرمى بالنبال عن يمين وشمال ويقول :

أنا يزيد وأبي مهاجر أشجع من ليث بغيل خادر
يارب اني للحسين ناصر ولا بن سعد تارك وهاجر (١)

وما زال ينضح دونه بالنبل حتى قتل .

فتقدم على بن الحسين يدفع دون أبيه ، فصرع وهو يقول :

أنا على بن حسين بن علي
نحن ورب البيت أولى بالثبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

فميت لمقتله أخته زينب ابنة فاطمة بنت الرسول ، وأكبت عليه تبكيه . ولم يزل الحسين
يفقد صاحباً بعد صاحب من حماته ، والباذلين المبهج في سبيله ، حتى بقي ثلاثة رهط أو أربعة
وقد روى رواية مصرعه أحد أعدائه — عبد الله بن عمار — الذي قدم ليطعنه بالرمح
فلما حكم مقاتله ، زجرته نفسه عنه ، فانكفاً بعيداً يشهد آخر ساعات سيد الشهداء وسببط
الرسول ، مغترباً في أرض العراق ، وقد قتل صحبه الأخيار وانفض عنه دعائه ، فجعل يشهده

(١) يشير إلى عمر بن سعد ، وكان لهم من ألد الخصوم .

وهو يكر على أعدائه يمنة ويسرة ، فقال عنه ، فوالله ما رأيت مكسورا قط قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناحاً منه ولا أجراً مقدماً ، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله إن كانت الرجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب ، (١) .

حتى شد عليه الأمويون شدة واحدة وكانوا يحاذرون قتله ، قلوبهم الغلاظ كانت تطلبه وأيديهم كانت تخشى أن تلتوث بدمه . حملوا عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى وضرب عاتقه ، ففأ وكبا ، وحمل عليه ، سنان بن أنس بن عمرو النخعي ، فطعن به بالرمح ، ثم أراد آخر أن يحتر رأسه فضعف وأرعد فزل سنان بن أنس فذبحه وأخذ رأسه ، بعد أن ضرب جسده بالسيوف .

وأكب هؤلاء المحاربون على ثيابه وثقله ومتاعه فنهبوا ، فصبغوا بطولتهم الآثمة بالشنار ، ولوثوا فروسياتهم الغاشمة وصلادة حروبهم باللؤم والعار . حتى أنهم لم يتعففوا عن نساء الحسين (٢) ، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها . ولقد كان أبطال الحسين أشرف نفوساً ، وأعز كرامة وأوفى ذمماً ، ولقد كان في أصحابه سويد بن عمرو بن أبي المطاع مصروعاً من ضربة نزفت دمه ، فوقع بين القتلى مشخناً ، ثم وجد لإفاقة ، فسمع القوم يقولون : قتل الحسين ، فإذا معه سكين بعد أن أخذ الأعداء سيفه ، فهب مجنوناً ، ونهض من حشجة الموت فقاتلهم بسكينه حتى قتل .

وبلغت النعمة واستشراء المثلة في نفوسهم أن داسوا بأفراسهم جسد الحسين ، حتى رضوا ظهره وصدره ، وجمع د الشمر بين ذى الجيوشن ، اثنين وسبعين رأساً من رهوس الشيعة ، فأرسلها إلى عبيد الله بن زياد فوضع رأس الحسين بين يديه ، وجعل ينكت بين ثنية فـه ، فأهاج هذا المنظر زياد بن أرقم — وكان شيخاً — (فانفضخ باكياً) وهو يقول لعبيد الله ابن زياد : د أعل بهذا القضيـب عن هاتين الشفتين ، فوالذى لا إله غيره لقد رأيت شفـتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما . وكاد يـهم عبيد الله بقتله . ثم أهدى الرأس المجزوز ليزيد بن معاوية ، وأدخلت عليه نساء الحسين مجملات بالسواد .

✱ ✱ ✱

قصصـت هذا الفصل المروع من مصرع الحسين لأستعين به على بسط الشعور في تقدير

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٠ .

شعراء الشيعة في هذه الواقعة وما بعدها من وقعات الانتقام ، ولكي أرى أية روح حماسية متدفقة بالشجو والألم كانت تدب خلال شعرهم الحربى حزناً على مصرع الحسين . وأجدني بعد هذا الفصل من مصرع الحسين ، متكلماً على الشعر الذى قيل في حربه ، وما قصدت إلا إليه بلمحة التاريخ الذى رافقه .

إن شعر الحرب لدى الشيعة المحاربين كان قليلاً وقصيراً على هذا النحو الذى أوردت . ويجمع بين البيتين أو الثلاثة من الرجز السهل الذى كان أبطال العرب قد تعودوه في كثير من حروبهم ، يقذفون به ، وهم بين أيدي القتال . وفي مواجهة الأعداء .

وقد وجدت هذا الشعر الحربى يقسم معانيه قسمين :

(١) شعر يصف بطولة أصحابه (فابن كلب) يعرف المحاربين بنفسه وحسبه ، ويذكر بطولته لوجه اعتزازاً بالفروسية — على نحو ما أشرت إليه في التهيد وعند الكلام على شعر قطرى (فهو فارس لوجه الحرب) .

(٢) شعر يجمع بين نزعة الشيعة إلى الحرب ، وفكرة السياسة التى دعتهم إلى الحرب ، ويذكر اعتقادهم الدينى الشيعى .

فعمر بن قرظ الأنصارى يعان في شعره أنه ليس (من الخوارج الشراة) وأنه يحارب فداءاً للحسين ، (فهو فارس لوجه الحسين) .

أما حبيب بن مظاهر فإنه بعد أن يذكر بطولته وبلاءه ينوه بأن الشيعة على حجة صحيحة ظاهرة ، وأن الأمويين على حجة كاذبة خفية ، وهو يومئ بذلك إلى قضية الخلافة ، وما وليها من الجدل والحجج ، في أمر التحكيم ، ولكن في نوبة يزيد بن القين تظهر النزعة الشيعية ، ضاحية بارزة ، ويبدو اعتقادهم الدينى الخاص بأن جعفر بن أبى طالب الذى قتل في غزوة مؤتة بعد أن قطعت يداه طار بجناحين إلى الجنة ، وسيعود في آخر الدهر ليمأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وبغياً .

ثم يذكر (أسد الله الشهيد الحى) ، وهو عند الشيعة المهدي المنتظر ، محمد بن الحنفية ، يقيم بجبل رضوى عنده غسل وماء .

ولما صار الارتجاز في وقعة الحسين إلى ابنه على عالن (برأيه السياسى) (في نظام الحكم) فقال :

نحن ورب البيت أولى بالنبي

تالله لا يحكم فينا ابن الدعى

وأراد بذلك ، أن الخلافة بعد النبی هم وارثوها ، لأنهم أولى بالنبي من غيرهم ، بعد أن

كان هو الولي . وحلف جاهدا ألا يترك يزيد يحكم في الأمة لأنه ابن رجل يدعى الخلافة (وهو معاوية) .

فكان الشيعة في شعر حربهم هذا أقل فروسية من الخوارج ، وأكثر دعوى منهم . وقد مزجوا السياسة بالدين بينما كان الخوارج بعداء عن نزعات السياسة الجاححة ولم تكن السياسة الجاححة في يوم من الأيام مطلبا لهم ، وإنما كانوا يبتغون رفع كلمة الله ، لقد كانوا أبدا محاربون من يتخذ الدين وسيلة إلى الدنيا ، ولذا حاربوا كل الفرق والنحل (فكانوا خصوماً للشيعة والزييريين والأمويين ^(١)) على السواء ، لأن هؤلاء — في رأيهم — قد اصطلحوا على المفاصد وأقاموا على الضلال وصولاً إلى الحكم ، واستبداداً بالإمارة والخلافة .

أما الشيعة فكانوا ذوي رأى سياسى عنيف إلى جانب رأيهم الدينى . ولم يكونوا يحاربون وراء فكرة عليا كالخوارج ، وإنما كانت فكرتهم دنيوية خالصة لوجه المنفعة ، فهم يريدون أن ينصبوا آل البيت في سدة الخلافة ليكونوا أمراء على الناس ، فلذا كان بنو أمية أشد عليهم حروبا وأصلب قلوبا مما كانوا مع الخوارج ، لأن الخوارج كانوا أهل ثورة وليسوا أهل طلب . أما الشيعة فكانوا أهل ثورة وطلب في وقت واحد .

* * *

ولننحدر الآن إلى شعرائهم ، في عهد بنى أمية ، الذين كانت أشعارهم صدى لحروب الشيعة مع الأمويين ، وبلعساً لجراحاتهم العميقة ، وسكناً لنفوسهم في خلجات أحزانهم التي لا تبلى . فاذا تحسسنا طوابع شعر الحرب في تلك الحرب تلقانا في أول أمرنا (الكميت) ابن زيد الأسدي ^(٢) . إذ ليس من حق شاعر شيعى سواه أن يتقدم عليه أول الأمر . فلقد كانت منه البداءة والبادرة في أن يظهر كشاعر كبير يعالّن بشييعته في الزحمة الاموية وفي بهرة الحلقة من العهد الذي كان فورة لاضطهاد الأمويين للشيعة . ولست إذن من رأى المعلمة الإسلامية المكتوبة بالفرنسية التي تدعى أنه أول من قام بالنقبة . وأخذ عنها هذا الرأى من كتب عن الكميت بعدها ، لأن المعالنة في إبان السلطان الأموى لا يتفق وهذا الرأى القائل في سىء .

(١) السيادة العربية والشيعة في عهد بنى أمية تأليف فان فلوتن — الترجمة العربية طبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٤ ص ٦٩ . ومعلمة الإسلام بالفرنسية (II. p. 959) بحث (مقولات الخوارج في السياسة والدين كتبه Dellavida) .

(٢) في معلمة الإسلام الفرنسية في مادة Kumait ج II ص 1181 أن الكميت أول من قام بالنقبة . ولد سنة ٦٠ ومات سنة ١٢٠ للهجرة بالكوفة .

على ان التعصب للعدنانية قد غلا في قلبه فهجا اليانية حياً حياً بقصيدة مذهبة سائرة ،
فنصب نفسه غرضاً لسهام الهاجين ، فرد عليه شعراء في حياته ، ولم يسلم في مماته من ردود
الهاجين ، ومعارضاتهم لمذهبه ، كما فعل به دعبل الخزاعي وابن ابى عيينة .

لقد شغل الكمية نفسه ردحاً من عمره ، تفرغ فيه لمذح الهاشميين ووقف عليهم قسماً
عظيماً من شعره . لعل قليله الذي وصل إلينا ووجدناه كثيراً . كان جزءاً من ذلك ، فقد
قيل (١) إنه لما مات أحصى شعره فوجد خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً . ونحن
لا يعنيننا من كل هذا الشعر نزعة الشيعة ولا دعوته للإمامية ولا مبادرته الأمويين بالتدح
بأعدائهم الألداء ، وإنما الذي يشغلنا هو شعره الحربي . فهل كان له شعر حرب في أدب
الشيعة وما قيمة هذا الشعر ؟

في القصائد الهاشمية قصيدتان رائعتان من أحسن شعره في الحرب وأجزله ، أولاهما
يصف فيها شجاعة أئمة الشيعة وفي مستهلها يصف أبطال شيعته بقوله :

فهمو الأسد في الوغى لا اللواتي بين خيس العرين والآجام
أسد حرب غيوث جذب بها — ليل مقاويل غير ما أفدام
سادة ذادة عن الخرد البيض — إذا اليوم صار كالأيام
لا كعبد المليك أو كوليـد أو سليمان بعد أو كهشام

ثم يتناول بالشرط الثاني من هذه القصيدة الهاشمية التدح بخصال علي بن أبي طالب إمامه
الاعظم ، فيذكر تجريده السيف لحرب الخوارج والأمويين فيقول .

جرد السيف تارتين من الدهر على حين درة من صرام
في مريدن مخطئين هدى الله — ومستقسمين بالآلزام

ثم حن حنين كل شيعي إلى الحسين والها متفجعاً ، وغاص إلى أعماق قلبه ينضح من آلام
الشيعة التي لا تهدأ سجنس الليالي على مقتل الحسين ، فوصف مقتله في لحظة خاطفة فقال :

وقتل بالطف غودر منه بين غوغاء أمة وطغام
قتل الأديعاء إذ قتلوه أكرم الشاربين صوب الغمام

ثم أعلن الملاء بتشيعه وميله إلى هؤلاء الأئمة المغدورين ، واشتياق نفسه إلى لقاءهم ، حيث
كانوا شريدين فقال .

فهمو شيعتى وقسمى من الأمة — حسبي من سائر الأقسام
ليت شعري هل ثم هل آتينهم أم يحولان دون ذاك حمى
قلت لنفسى وأنا أخلص من الكلام على هذه القصيدة ما أشجع الكميت لكأنه لقب
بالأسدى لصفة الأسود فيه . فقد هجم بشعره هذا الذى يصف فيه حرب أئمة الشيعة وبأسهم
وصلابة غاراتهم فى وجه الأمويين ، فى حين كان غيره من الشيعة شعراء أو أهل نخلة أو ذوى
عتره متشردين متخذين التقية حماية لأرواحهم ودريئة ، وأحسب أن من قالوا بتقيته لم يلتفتوا
إلى هذه القصيدة .

ولم يكف الكميت بالوجهة الوصفية فى فنه ، وإنما زاد عليها دقة الصنعة فى بعض أبياتها
والجرس الكلامى والتزاوج فى سياق الحروف . ففى فنه مع سهولة التعبير إيراد كلمتى (الحماة
الكماة) ، وتكرار رنة السجع ، فى البيت الواحد للتمويل . فأتبع سجعاً موسيقياً فى بعض أبياته
وكان سباق الطائي للسجع فى الشعر — فقال (أسد حرب ليوث جذب) فطابق فى فنه
البلاغى مطابقة تامة اتباعها بقوله (بهاليل مقاويل) ، وراقته هذه الديباجة فراح بعد بيت
يقول مغاوير ، مساعير ، معازيل ، تنابيل)

قلت لنفسى . أفلا أفرد الكميت ، وهو فى هذه المنزلة من التشيع الصادق والشعر الرائع
قصيدة مخصوصة بمقتل الحسين تكون سيرة البطل الشهيد ؟ ولم أك لأقنع منه ، بقصيدته اللامية
فى مقتل الحسين ، لأنها — على طولها — لم تكن مخصوصة بمقتله . وكان فى طوقه — وهو
الطويل أنفاس القصائد — أن يترك فى أدب الشيعة ، بل فى الأدب العربى كله أخلص
قصيدة فى مقتل الحسين ، يجعلها الشيعة مأتمهم . وهم الذين مارعهم من القصيد الاماوصف
لهم مقتل الحسين وأحزان أحبابهم آل البيت . وكم كان أحسن الكميت لو جعلها ملحمة
تبدأ من يوم خروج الحسين من الحجاز بدعوة أهل العراق ، إلى يوم مصرعه ، إن قنع
بذلك ولم يجعلها منذ امتنع على بن أبى طالب عن المبايعة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم
أما وقد فاتته هذا ، فلا ضير عليه بعد ، فيما ترك لنا بلاميته الشاجية ، وهى فى صميم الحرب
الشيوعية وفيها يقول عن قتلة الحسين (١) :

ومن عجب لم أقضه أن خيلهم
همما هم بالمستلثمين عوابس
لأجوافها تحت العجاجة (٢) أزل
كحدآن يوم الدجن تعلو وتسفل (٣)

(١) الهاشميات الطبعة السابقة ص ٧٠ .

(٢) أى لأجوافها تحت تراب الواقعة صوت .

(٣) المستلثمون لابسو اللأمامات وهى الدروع والحدآن طيور كواسر .

يحلثن عن ماء الفرات وظله
 كأن حسيناً والبهليل حوله
 يخضن به من آل أحمد في الوغى
 فلم أر مخذولا أجل مصيبة
 يصيب بهم الرامون عن قوس غيرهم
 حسيناً ولم يشهر عليهن منصل
 لأسيافهم ما يختلي المتقبل (١)
 دما ظل منهم كالبيهم المحجل (٢)
 وأوجب منه نصرة حين يخذل
 فيا آخرأ أسدى له الفى أول (٣)

ثم يصور الشاعر نوبة ثقله ومتاعه بعد موته ، ويعوج لهيفاً على وصف رأسه المحزوز ولوعة الشيعة عليه ويختم قصيدته في مقتله بتوعد للأمويين ليوم نار موعود .

فيا رحمة للكيميت . ما كان أروع شعره في الحرب ، وما الصق بالجزالة حماسه قصائده ! وهو مع كل ذلك لم يكن فارساً بجسمه ، وإنما كان فارساً مغواراً بروحه يهجم بها في المخاطر والمهالك على الموت . فأين اندفاعه في ساحة الوغى من هجمته على الأمويين بالتحقير والذم والشتيم ؟ حتى كاد له خالد بن عبد الله القسرى عامل هشام بن عبد الملك على العراق وجاء به إلى هشام الذى أهدر دمه وأراد الفتك به .

ثم ما هى إلا الأعياب السياسية التى كشرت مثل أفعى عن أنيابها وكأنها تضحك فأفسدت بسحرها ودهائها على الكيميت (تشيعة) .

والذى أجده أن هشاماً كان يستطيع قتل الكيميت وهو غير هياب . إذ ليس للكيميت من يخشى بنو أمية دفعهم عنه أو الانتقام له . ولكن حصافة هشام مكنت بشاعر الشيعة فحولته من شاعر هجاء للأمويين إلى شاعر مداح لهم . وكان ذلك أنجح عند هشام وصحبه من قتل الشاعر هدرأ ، فكسبوه بإحيائه وأغدقوا عليه العطاء حتى ترك تشيعه ، وانطرح بين أيدي الأمويين يفديهم ويقول لهم :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

وقد خدر المال أعصاب التشيع عند الكيميت وعند أبيه معه . فلما قيل لأبيه في ذلك قال : لا أرد مكرمة فعلها ابني ، (٤)

(١) يشبه دم الحسين المسفوح بأسيافهم هدرأ بالبقل الذى يتقبله قاطفه كما يشاء وقد اختلى به .

(٢) فيه لإقواء .

(٣) بهذا البيت إشارة سياسية إلى أن قاتلى الحسين متورون مدفوعون وكذلك ظهر حين تنازعوا في شرف قتله وجز رأسه .

(٤) الأغاني ط التقدم ج ١٥ / ١٢٢ .

ولكنه مع هذا الانقلاب في التشيع إلى محبة بنى أمية لقي الغدر من الأمويين فكان قتله على أيديهم ضرباً بالسيوف .

* * *

وقد تلمست غيره شاعراً شيعياً يكون شبهه حماسياً في شعره وصفاً للحروب الشيعية ، فوقعت على أعشى همدان ، وقد كان صنع قصيدة بائية مطولة في حرب (عين الوردية) كاتماً الناس فكانت ، إحدى المكتّمات كن يُكتمن في ذلك الزمان ، (١)

فن وصفه لهذه الحرب وما لقي الشيعة من الهول يقول :

فلاقوا بعين الوردية الجيش فاصلا	إلهم فحسوم ببيض قواضب
يمانية تدرى الأكف وتارة	بخيل عتاق مقربات سلاهب
فجاء هو جمع من الشام بعده	جوع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت سراتهم	فلم ينج منهم ثم غير عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا	تعاورهم ربح الصبا والجنائب
وأضحى (الخزاعي) الرئيس مجدلاً	كأن لم يقاتل مرة ومحارب (٢)
وعمر بن بشر والوليد وخالد	وزيد بن بكر والحليس بن غالب
ومن كل قوم قد أصيب زعيمهم	وذو حسب في ذروة المجد ثاقب
أبوا غير ضرب يفلق الهام وقعه	وطعن بأطراف الأسنة صائب
فياخير جيش للعراق أهله	سقيتم روايا كل أسحم ساكب
فإن يقتلوا فالقتل أكرم ميتة	وكل قتي يوماً لإحدى الشواعب

وحين بلغ عبد الملك بن مروان مهلك الشيعة في هذه المعركة صعد المنبر فجعل يحمد الله ويثني عليه أن أهلك من أهل العراق كل (ملقح فتنة ورأس ضلال . وأنه لم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع أو امتناع) .

ولم أجد أعشى همدان على محزون رثائه وحسن أدائه إلا دون الكمية في شعر الحرب . وليست قصيدته هذه (مع أنها من المكتّمات كما كانوا يقولون) إلا مرثاة عادية . إذ لم يصور الأعشى حرب عين الوردية ولا السبب الذي من أجله قامت (ثورة الشيعة) في الكوفة فندبوا أنفسهم إلى مقارعة المروانيين ولا وصف التقاء الجيشين ، وكانا أكثر عدداً من كل

(١) الطبري ج ٧/٢٨٠ .

(٢) هو سليمان بن صرد الخزاعي قائدهم في هذه الحرب .

(يوم) للشيعة وأعدائهم قبله . ولعل تشييعه سد عليه وجه أوصاف الحرب فاشتغل بالبكاء والرناء ، شأن الشيعة جميعاً في أدبهم المسودّ المحزون ، تشغلهم الدمعة المراقبة على عليّ والحسين وآل البيت عن مطالب الفن في إبداع الوصف وحسن التصوير .

ووجدت شعراء الشيعة سوى الكميت من الذين عاشوا في عصر بني أمية ، كان أكثرهم يخشى بطش الأمويين فاستسروا في ظلال « التقية » ، جاملوا بني أمية كما فعل (أيمن بن خريم) فقد كان شاعراً شيعياً مسالماً^(١) ، أو شغلهم الهجاء فلم يعطوا (التشيع) كل هواهم ، كما فعل الفرزدق ، أو عبدوا الجمال وآثروا الاكتفاء به ، والعزاء في عبادتهم كما فعل كثير عزة^(٢) . فلقد كان « غالباً في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ » . وأحسب أن آل مروان لم يخشوا شره إذ كانوا يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك له لجلالته بأعينهم ولطف محله في أنفسهم^(٣) .

وهو على الرغم من أنه أشاع في أدب (الشيعة الغالية) مذهبهم الديني الخاص إذ أدخل عليه (الفكرة الكيسانية) في التناسخ ورجعة المهدي الذي يقول عنه .

تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء
فإنه بالرغم من إفراطه في هذا الزعم الشيعي ، فقد شغله الحب وشغف قلبه هوى عزة فوق عليها أكثر شعره . فأين منه شعر الحرب وزحمت الفرسان وحومات الوغى التي دارت دوائرها على الشيعة في زمنه ، من قوله با كياً على هجر عزة وقطيعتها وافقاً في رسومها ينشد تائيته الحلوة المشهورة :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا قلو صيكا ثم أبكيا حيث حلت
وراحت عزة تعبت به وتصليه بنار القطيعة ، فحرمتم قومه الشيعة في زمن بني أمية من غرر أشعار ما كان أجدرها لو خلدت حزن الشيعة الدفين ، وظمأ سيوفهم إلى نارات الحسين .

(١) الأغاني الطبعة الأوربية ج ٢١ ص ١٣ .

(٢) الأغاني طبع دار الطباعة ج ٨ ص ٣٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

الفصل الثالث

شعر الحرب في أدب الزبيريين

ججم المؤرخون القول فلم يفصحوا ، وكان في أفواههم الماء . إنهم زعموا جميعا أن عائشة أم المؤمنين دعت لحرب على ثأرا لدم عثمان ، حتى كان يوم الجمل ومعه الزبير بن العوام وفيما تهب عائشة لحرب على وقد كان يحبه الرسول ويؤثره ، لو لم يكن أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم بتسريح عائشة بعد حديث الإفك ، إشارة تليح .

وحاول على قبل معركة الجمل أن يفصل الزبير بن العوام عن أزر عائشة فلم يفلح ، لأن ابنه عبد الله كان ممسكا باختيارة فقال على : (١) « مازال الزبير رجلا منا أهل بيت حتى أدركه ابنه عبد الله فلفقه » .

وليس يبعد عندي ، بعد هذا ، أن تكون عائشة رضى الله عنها ، وهي امرأة من النساء ، قد بقي في نفسها ألم دفين وحفيظة مكبوتة على على حين أشار بطلاقها بعد حديث الإفك .

ولم تكن عائشة الا امرأة من النساء حوت في نفسها ما يحتاج كل انثى من حفاظ ، فيها الغيرة ، وفيها الكيد . ولقد كان الرسول يبلو منها غيرة كلما أراد الذهاب إلى بقية نسائه .

وأرى أن انهزامها في وقعة الجمل تسلل إلى نفس اختها أسماء أم عبد الله بن الزبير فلم تستطع أسماء أن تحارب بنى أمية بنفسها إذ كانت مكفوفة وكان في قلبها من الحماسة والبطش والفروسة وحب الانتقام مالو وزع على جيش من الأبطال لزداد عنه ، فسكبت حرارة قلبها ونقمة نفسها وموجدتها اللاهية في ابنها عبد الله بن الزبير . وكان عبد الله ذاهوى في الخلافة وتطلع إلى التفرد بالإمرة في ديار الإسلام كلها ، ثم نفخت فيه (روح الانتحار) وهو مشرف عليه . وكانت تعلم مصيره المحتوم من القتل والمثلة ولعمري إنها لأروع من مسرحية إذ تجود امرأة مسنة بأحسن بنينها بعد فقد أخيه ، فتدفع به إلى الحرب وقد حوصر وانفض عنه جمعه . لكأنى أمثلة داخلا عليها بعد أن حاصره الحجاج خمسين ليلة بمكة ثم راسله بالامانة ، فقال لأمه في الساعة الأخيرة يستشيرها : (٢)

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٠٣ وبلاغات النساء لأبي الفضل طيفور طبعة الألفى بمصر سنة ١٩٠٨ م ص ١٢٠

— يا أماء ، خذاني الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير من ليس عنده
من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟
فتجيبه : (١)

— « أى بئسى » ، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريما ، فقال :
— يا أمه ، إني أخاف أن يمثل بى بعد القتل ، فأجابته :
— وهل تتألم الشاة من السلخ بعد الذبح ؟ .

وكانت تنصحه أن يلبس ثيابه مشمرة وأن يخرج إلى القتال بغير درع . وكانت تعلم
حتما أنه إنما يخرج للانتحار وأن رأسه سيرفع على الرماح ، كما رفع رأس أخيه مصعب من
قبله وأنه سيصلب . ولكن غليان الثورة فى نفسها كان جاحما فلم تقبل المسالمة والإبقاء على
عبد الله . فدفعته بيدها إلى الموت ، وكانت كمن وقفت على شفا هاوية فدفع فيها إنسانا يتردى .
وما أحسبها أطفأت بموته غلتها من مقاتلين هجموا على ابنها عبد الله ، وهم يتعاورون قتله
ويصيحون به متهمين .

— يا ابن ذات النطاقين !

ومن يدري ؟ فربما كانت الفروسية فى نفسها تدعوها إلى الحرب منذ أغاثت الرسول
وصاحبه أباه ليلة الهجرة .

ولعل مقتل طلحة بن عبيد الله فى وقعة الجمل . وكان طلحة عضدا لأختها عائشة ، أبقى فى
نفسها نقمة على قاتله مروان بن الحكم — على ما فى أنفس العرب من كمن المواجد والثار —
فشجعت ابنها عبد الله ومصعبا على محاربة عبد الملك بن مروان . فكانت الضغينة الدفينة من
أسباب صلابتها فى متابعة القتال حتى الساعة الأخيرة

وإنى أتصور كيف جاءها الخبر فى مقتل المصعب أخى عبد الله . فقد كان بطلا من المناجيد
فلما وهت حربه وخانه صحبه ، قتله عبد الله بن ظبيان واحترز رأسه (٢) ، وجاء بالرأس إلى
عبد الملك بن مروان وهو يقول :

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم

(١) إن إصرارها على المضى فى الحرب وقد ظهر انكسار ابنها فيها لدليل آخر على زجها به فى
الموت دون روية وتمقل .

(٢) العقد ط ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٦٠ .

وأستعين بالخيال على تمثيل مقتل عبد الله بن الزبير الذى كانت أسماء تسمع خبره ويروى لها . . .

لقد كان عبد الله بن الزبير مكين القلب ، ثابت الضربة . ضرب رجلا به أدمة فقطعه — حين حارب حرب موته — وهو يقول : هذا من قتلة عثمان ورب الكعبة . وأحاط به الناس فتكاثروا عليه ينوشونه من كل جهة ، فلم يزل يدفعهم بالسيف حتى أخرجهم من المسجد ورجع إلى البيت العتيق وهو يقول :

أبى لابن سلى أنه غير خالد ملاقى المشاي ، أى صرف تيمما
فلست بمبتاع الحياة بسببة ولا مرتق من خشية الموت سلما
واقترح جماعة مقبلين عليه وهو يقول :

قد سن أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

ثم حمل على نفر قادمين حتى بلغ بهم (الحجون) فرماه محارب من الخارج بأجرة ، ولعلها سقطت عليه من المنجنيق ، فوقعت على وجهه وأدمته . وكأنى أبصر بيده يمسح بها وجهه ويمررها على لحيته وهى مخضلة بالدم فيقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
ثم عاد إلى صحبه وقال لهم :

— ألقوا أغماد السيوف ، وليصن كل منكم سيفه كما يصون وجهه ، لا ينكسر السيوف بيد أحدكم فيقعده كالمرأة ، . ثم قال :

يا رب إن جنود السلم قد كثروا وهتتكموا من حجاب البيت أستار
يا رب إني ضعيف الركن مضطهد فابعث إلى جنودا منك أنصارا
ثم شدخه محاربوه بالحجارة فانصرع .
فسجد الحجاج لله شكرا .

أما حال أسماء أم الصريع فلم يغيرها نزول الموت بابنها . لقد شهدته مصلوبا كما أمر الحجاج فقالت له كلمتها المشهورة :

د أما آن لهذا الفارس أن يترجل ، .

وأرادت بذلك التهكم والتندر بالحجاج ، والإبقاء على فروسية ابنها حتى بعد موته ، لأنه لم يشف الحجاج أن يسفح جنده دم الزبيريين ، وإنما قام يتشفى بنفسه ، فأكب على عبد الله ابن الزبير فجز رأسه داخل مسجد الكعبة (١) . ثم أرسل برأسه وبرأس عبد الله بن

صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبت فيها — إخافة للقوم — ثم ذهب بها إلى عبد الملك بن مروان (١) .

* * *

وجاءت نوبة الشعراء الزبيريين فبصرت بهم فلم أجد أصون بينهم للعهد من (عبيد الله بن قيس الرقيات) ، فقد كان (زبيرى الهوى) (٢) مدح عبد الله بن الزبير بغرر قصائده في سلمه وفي حربه . وكان يعادى معه عبد الملك فلما قتل عبد الله هرب . وهو إذ لم يقو على رثائه خشية من بنى أمية فإن في شعره لمجالاً لوصف البطولة التي عرفها التاريخ للزبيريين ، وكانت قرشيته تحمله على حد السيف ، فيتمنى لو أن قومه لم تفتك بهم الفتن . فيكون من قريش خير ملوك الناس .

قال يفخر بقرشيته ويتمدح بالزبير ويصف فروسية مصعب في العراق ثم حصار الشاميين للبيت وتحريقه ، ثم يملك دهشه ويل هذه الحرب الفاجرة ، فيتمنى لو أتلفت الشام وفيها بنو أمية غارة طياشة ، تذهل المرء عن بنيه والصاحب عن ذويه . وصارح بنى أمية العداوة ، ثم عطف قلبه على الحسين — وإن لم يكن طبيعياً — فإن مقتله يعطف كل القلوب . وعبيد الله ابن قيس الرقيات كان شاعر قريش في الإسلام . فما ينبغي له أن يقصر في أمر قريش التي ملأت السهل والجبل :

لأنه يذكر في هذه القصيدة القرشية ابن الزبير وأخاه مصعبا ، ومقتل المختار الثقفي الذي ادعى النبوة آخر أمره فيقول (٣) :

والزبير الذى أجاب رسول الله فى الكرب والبلاء بلاء
والذى نفخ ابن دومة ما توحى — الشياطين والسيوف ظماء
فأباح العراق يضرب بالمنصل — صلتا وفي الضراب غلاء
إنما مصعب شهاب من الله — تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

ثم يصف حريق البيت في معركة مكة ، ودعوته إلى تقويض الدولة الأموية في عقر دارها بقوله :

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٠٥ والكامل فى التاريخ لابن الأثير ط أوربا ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٢) الأغاني ط التقدم ج ٤ ص ١٥٥ .

(٣) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ط فينا القصيدة رقم ٣٩ .

ليس لله حرمة مثل بيت نحن حجاب به عليه السلام
 حرقة رجال لحم وعك وجذام وحمير وصداء
 كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شهواء
 تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن براها العقيلة العذراء
 أنا عنكم بنى أمية مزور — وأتم في نفسي الأعداء
 إن قتلي بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قتلتهم شفاء

ولنترك مصعبا مطلول الدم في العراق ، وعبد الله بن الزبير فياض الروح في الحرم
 يصرخ عليها الصدى في حنادس الليل . ولنتأثر ابن قيس الرقيات فنجدته قد اتخذ الليل جملا
 وفر والأمويون يجدون في طلبه ، فإذا هو بعد حين في فلسطين ينزل ضيفاً على أهل له من
 بنى كنانة ، فيجد في أكنافهم أمه وراحته . ويخامره الحنين إلى داره البعيدة فيذكر شروده .
 ولعله كان يحن إلى الزبيرين في قصيدة تفيض بالحماسة ووصف الحرب . وما أحسبه (كان
 جباناً) كما اتهمه راوى ديوانه (١) أبو جعفر عمرو بن حبيب حسبما أورده الدكتور
 Rhodokanakis ناشر ديوانه . ولا أدل على بطلان هذه التهمة من شجاعته قيل أن يشخص
 عبد الملك إلى حرب مصعب حين حمله مصعب مناطق ملأى بالمال وقال له خذها فهي لك
 وانطلق حيث شئت فإني مقتول . فقال له الشاعر لا والله لا أريم ، وظل معه حتى قتل ،
 فانطلق وحده عائداً إلى الحجاز (٢) .

وإن شعر ابن قيس الرقيات — إلى ذلك — فياض بالحماسة ومعاناة الفروسية . ولا أدل
 على ذلك أيضاً من قصيدته الشامية التي قالها في فلسطين بعد أن استقرت فيها نواه ، وكانت
 معه زوجته فناجها باستهالة غزل ثم قال : (٣)

هزئت أن رأيت بنى الشيب عرسي لا تلومي ذوائبي أن تشيبا
 إن يشب مفرقي فإن قریشا جعلت بينها الحروب حروبا
 فاطننى فالحقى بقوى إني لا أرى أن أقيم فيكم غريبا (٤)
 فانزلى في بنى كنانة تلقى فيهم العز إن دعوت قريبا
 فأرى الدهر قد تغير بالناس وقد كانت الشعوب شعوبا

(١) الطبعة السابقة ص ١٩٣ . (٢) الأغاني ط التقدم ج ٤/ ١٥٦ .

(٣) ديوانه قصيدة رقم ٤٤ .

(٤) وردت في ديوانه (بقومك) وأعدده تصحيحاً صوابه (فانزلى بقوى) لأن القوم كانوا أهل
 في فلسطين وكان هو في الحجاز نازلاً في قومها فأرى نفسه بعد مقتل الزبير غريباً لمصانعة أهل الحجاز بنى
 أمية بعد مقتل عبد الله بن الزبير .

ثم أثار النسب عزته بقومه ففخر بفروسيته فقال :

حلق من بني كنانة حولي بفلسطين يسرعون الركوبا
من رجال تفنى الرجال وخيل رجم بالقنا تسد الغيوب
لا يباليون من أقام إذا ما كشفوا بالسيوف يوما عصيبا
ذاك خير من البليخ ومن صوب ذئاب على يدعون ذيبا (١)
إن قوم الفتى هو الكنز في دنياه — والحال يسرع التقلبا

وهو في هذه القصيدة وإن ججم حديث الفروسية عن نفسه ، لكنه أفصح به عن قومه .
أما وصفه فروسيته هو وغاراته وحضوره القتال ، وذكره آماله وأمانيه فلم يعدم منه
شعره صورة حماسية حية مزيجها حنينٌ مقترِبٌ إلى محبوبته الحجازية التي أتت دونها المفاوز
وعيون الأعداء . إنه يقول في هذه القصيدة (٢) :

حبذا الحج والثريا ومن بالخيف — من أجلها وملقى الرحال
قطنت مكة الحرام فشطت وعدتني نوائب الأشغال
إن ترينى تغير اللون من وعلا الشيب مفرق وقذالى
فضلال السيوف شين رأسى وطعانى فى الحرب صهب السبال
واغترابى عن عامر بن لوى ببلاد كثيرة الاقتال
وملوك فارقتهم أفردوني وصروف الأيام بي والليالى
ثم يصف أفراسه مع قومه وقد ركبا :

فعدونا بهن فى غبش الليل — رفاقاً كأنهن المغالى
أدرك الذحل فتية من بنى — عمرو بصبر النفوس بين العوالى
لو رأيتى ابنة النويم (ليلي) إذ تلف الأبطال بالأبطال
حين نبقى أخاك بالأسل السمر — وشعث كأنهن السعالى
لشفى نفسك انتقام بنى عمك — حين الدماء كالجرىال
طل من طل فى الحروب ولم — يطل على ولا دماء الموالى
وبنى مالك بن حسل ثأرنا غير نخر بنا وغير انتحال

(١) البليخ تصغير البلخ وعنى به العراق . وصوب الذئاب يعنى من حل بالحجاز من الروائيين بعد مقتل صاحبه ابن الزبير فهو يزهد زوجته بالعراق والحجاز .

(٢) ديوانه ص ٢٠٧ .

وأصبنا بعد الرجال رجالا وحوينا الأموال بالأموال

ذلك ابن قيس الرقيات ، إنه لم يأل جهداً في وصف قتال الزبيريين وإقدامهم وحملهم أنفسهم على متون السيوف وصمودهم لجيش الأمويين اللجب في العراق والحجاز . ولم يك مقصراً في وصف نفسه وشركته لهذه الفروسية وذاك البأس في القتال والحروب .

كان كغيره من الشعراء السابقين والمعاصرين ، قصير النفس في الموضوع الواحد طويله في أشتات الفكر . فأين في شعره وصف حصار الحجاج لمكة خمسين ليلة ، وأين تصوير المعركة الفاجرة في الحرم ، وكان الجاهليون سموا حرب الفجار باسمها لأن المقاتلين استباحوا الحرم ومكة فقاتلوا فيهما كالذي صنع الحجاج والحصين بن نمير صاحب المنجنيق الذي كان يقذف الحجارة على البيت . ولم نر أثراً لذكر الحجاج في مكة حتى كأن ابن قيس الرقيات كان يخشى أن يثلب جبار العراق والحجاج بن يوسف .

وكيف دار عليه الأمر فإن أشعاره الحماسية كثيرة وجيدة ، صورت لنا جوانب من حياة الحجاز المضطربة على كف الحروب ، كما صور قلق نفسه وشروده وشركته في الحرب والقتال .

وسنرى في الكلام على شعر الحرب عند بني أمية ، حال هذا الشاعر وحال غيره من الشعراء الذين لم يستطيعوا إبقاء على أنفسهم إلا أن يلبسوا الإهاب الجديد لبني أمية وهو المصانعة ، طاوين بين الجوانح المأ على الشهداء الفانين في ساح الوغى . تحقق قلوبهم بالأحزان على مقاتلهم الفاجعة ، وتنطق ألسنتهم بمدح أعدائهم الأمويين ، أصحاب السلطان ، إبقاء على أنفسهم ورجاء للنوال ، بعد أن أعوز السؤال . فكانوا كالارض الجذبة المحترقة تمنى الرى حتى من آسن الماء .

...

ويوح الحجاز أفلم يطلع في وهاده وعلى أنجاده غير ابن قيس الرقيات في زحام المعارك وبجران القتال ؟ ثم ألم ينجب الحجاز شاعراً يبكى بعد ابن الزبير على الملك الدائر والعز الزائل والدم المسفوك في أكناف البيت العتيق !

بلى ، إن هنالك عمر بن أبي ربيعة الخزومي . ولكن ما أكثر خجل الشعر الحماسي لدى عمر بن أبي ربيعة . فهل أبقت النساء مكاناً في قلب عمر يخفق بالحمية وينبض بالمرودة في هجمات الحوادث الجارفة بالدم الصيب ، في أباطح الحجاز ، عند أم القرى وعلى دارات يثرب .

لقد كان ابن أبي ربيعة مشغولاً بالحسان ، موكل العينين بالجمال ، يتبعه حيث يجده ، فيجد في لآثره إلى سوقه التي تزدهم به في موسم الحج .

قرأت ديوانه قصيدة قصيدة وبيتاً بيتاً ، فلم أجد أثراً لشعر فيه شيم الرجولة . فكان ابن أبي ربيعة لم يكن معاشراً للكبريات الحوادث في بلاده ، بل لعله كان في معزل عنها ، وفي ملهاة بالرعايب يسيل تخنناً ودلالاً ، وهو تياه بجاله على النساء . بينما كان على كشب منه يسفك دم الغطاريف من رجال العرب فيخضب أرض العروبة المقدسة .

وهو إذ يسجل مرة واحدة حادثة تبعث الشجو وتصرخ بالثقمة من ظالم ، لا ينسى أن يجعلها سبيلاً إلى الغزل والدعابة .

فقد عرف أن مصعب بن الزبير بعد أن قتل المختار بن عبيد الله الثقفي ، أحضر زوجته فسأل إحداها — أم ثابت — عما تقول بالمختار . فقالت أيها الأمير أقول فيه الذي تقول فأطلقها . وسأل الثانية وكانت — عمرة بنت النعمان بن بشير — فقالت رحمه الله ، كان عبداً صالحاً . فحبسها وكتب إلى أخيه عبد الله إنها تزعم أن المختار نبي مرسل ، فأمره بقتلها . فوكل مصعب أمرها إلى جندي من عسكره فخرج بها ليلاً بين الحيرة والكوفة يضربها بالسيف وهي تصيح : يا أبتاه ، يا عترتاه ، ثم تشحطت فماتت .. فلم يثر هذا الحادث الفادح من الروعة في نفس ابن أبي ربيعة أكثر من ثلاثة أبيات كان همه فيها الغزل فحسب فقال :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول

وليت شعري أي قتل وقتال كتب على ابن أبي ربيعة الذي لم يجرد غير سيف المجون يقتل به أخلاق زمنه ، حتى أفسد بشعره ربات الخدور ، وحتى هجاه أبو العباس الأعشى الشاعر وغيره (بنمكوله في الهجاء واشتغاله بأقوال الخنا) .

ولعله غنى عن وصف مواكب الفرسان (بمواكب الحسان) فقال وهو يلحق أسراب النساء بمكة ، في عائشة بنت طلحة ، وكانت تهرب من لقائه فرصدها وهي ترمي الجمار فلما رآته قالت : يا فاسق .. فراح يذكر (موكبها) فيقول :

ولقيتها تمشي تهادي موهنا ترمي الجمار عشية في (موكب)

تلك مواكب ابن أبي ربيعة في دهر الفتن والقلاقل ، وحروب الحجاز واحتدام الحماسة . فليت جده (حذيفة) أورثه بعض فروسيته . فلقد كان حذيفة يحارب برحين يوم عكاظ في الجاهلية حتى سمي ذا الرحين ، لكان إذن قد كسب القرشيون في عمر شاعر حروبهم ، ومؤرخ مغازيهم ، إلى جنب ابن قيس الرقيات ، في عصر بني أمية .

الفصل الرابع

شعر الحرب في ظل الأمويين

لقد انقسم الشعراء في ظل الدولة الأموية ، من كان هواهم فيها وعصبيتهم لها قسمين :

(١) شعراء محضوا بنى أمية ودهم وأصفوهم هواهم ، فصدقوا في وصف حروبهم وتصوير معاركهم ، ومدحوا بما كانوا يرون بنى أمية أهلا له من المكارم وجميل الذكر وبسطة السلطان . فجاء شعرهم فيها سليما من الملق ، وكان أحسن هؤلاء الشعراء قولاً وأصدقهم وصفاً من شهدوا تلك الحروب وكانوا في المقاتلين .

(٢) شعراء اصطنعوا المودة لبني أمية وادعوا لهم الهوى ، ولكن قلوبهم مع غيرهم من الخوارج أو الشيعة أو آل الزبير أو غيرهم من شق عصا الطاعة على بني أمية ، وكان شعرهم فيهم يفوح منه التصنع ويشيع فيه الملق . وكان بنو أمية إما عارفين بهواه ، فأغضوا دونه الجفون إبقاء عليه ، وتوخيا للعافية ، أو كانوا مخدوعين فيه .

وقد اشتجرت في بنى أمية الحوادث ، واصطلحت عليهم الكوارث ، ولكنهم صمدوا لهجمات الخطوب من كل صوب . واستطاع ساستهم والمخلصون من قادتهم أن يسيروا دفة المركب الأموي في هذا البحر المتلاطم حتى بلغوا به الشاطئ . ولكن شد ما تنكر لهم الزمن فلم يسعدهم براحة . فإنهم ما بلغوا شاطئ الأمان ، حتى وجدوا عليه الهاشمين والعباسيين متربصين بهم آخر الدوائر .

وكانت نوبة أولئك الشعراء في هذه الحروب والقلاقل ، وفي أشد تلك الفتن أن يقولوا شعراً مزيجاً مدح الفاتحين والغازين من بنى أمية ، وذم المنسحقين والمتمردين من أعدائهم الكثير ، يصف جوانب من تلك الحروب ومشاهد من هذه المعارك دون الاستفاضة في تصوير القتال على النحو المنشود . وقد كان في مجال القول هؤلاء الشعراء سعة ، فإن العراق كان لا يخلو في سنة من السنين أو في شهر من الشهور من حدث كبير أو فتنة صغيرة . ولم ينفجر فيها بالبركان المكبوت لا تزال فيه النار ، تجد لها متنفساً من الشقوق ، أو فرجة تنفجر فيها . وأحسب أن الحجاز والعراق ، كانا دارتي المفاتن ، وإقليم فارس وما

والاها كان ساحة التوسع في الفتوح الناجحة، و تغور الروم كانت مباغيات ومحاولات خاسرة حيناً ، وناجحة حيناً ، تجر من المتاعب أكثر مما تجر من المكاسب . وكانت هذه الأمصار كالأعداد في مفاتها وقلقلها يضرب بعضها في بعض ، كما يضرب عدد الحساب ، فيتوالد جهم من الكوارث . ولم تكن جيوش الأمويين في ذاتها سليمة من عوامل الانقسام والدس والفتن . فما يكاد الجيش يفصل بأمر خليفة إلى حرب الأعداء ، حتى تشيع فيه روح التحاسد بين قواده وأجناده ، وحتى يشور بعض رجاله على بعض ويخلع ناس طاعة آخرين فيستحاربون ويتفانون ، ثم ترسل رؤوس العصاة هدايا إلى الخليفة . كالذي كان في حروب (قتيبة بن مسلم) وهو في خراسان ، حين خلع بيعة سليمان بن عبد الملك ، وكوثوب الأمويين على أمراء أجنادهم المهلبين ، وحبسهم لهم وقتلهم يزيد بن المهلب .

١ — كعب الأشقرى

شاعر الحروب الأموية

من شعراء الفريق الأول، أى الشعراء المخلصين لبني أمية ، (كعب الأشقرى الأزدي). وقد كان شاعراً من الفرسان الذين شاركوا في الفتوح واحتملوا في القتال نصيباً ، فقد شهد حروب الأزارقة . وحين أمكنت الحرب المهلب بن أبي صفرة من رقاب الخوارج أرسل بكعب إلى الحجاج ، يطلعه طلوع النصر ^(١) فجاء الحجاج في داره ، فأنشده في حفل حاشد قصيدته الرائية الكبرى ^(٢) . وهي عندي أكبر قصيدة قالها شاعر فارس ، في عصر بني أمية جعلها مخصوصة لوصف المعارك ومشاهد البطولة ومواقف القتال وسكبتها في موضوع حماسي واحد . وقد بلغت أبياتها أربعاً وثمانين بيتاً ، بدأها — كعبد الشعراء الأوائل — بالغزل ثم عطف مسرعاً إلى مدح المهلب بأبيات خلص منها إلى الموضوع ، فوصف كيف بغت العدو بالهجمة وارتاعت النساء واضطربت حال الخوارج ، فاعتصموا خلف الجسر ، ثم وصف جيوش الأمويين وقد لبست لباس الحرب وعبرت الجسر إلى الخوارج ، ترف عليها ألوية المجد فوق أبطال كالليوث ، ظلوا يلحقون بالخوارج إلى سابور الجنود ، فقصموا لهم فيها وكانهم أبطال من الجن ، واشتبكوا معهم هنالك في معركة أفنت من الفريقين رجالاً حتى ترك الخوارج الحرب وتسلبوا بالمكر والخديعة ما وراء تلك الأصقاع . فأتبعهم جيش الأمويين مرحلة بعد مرحلة يقاتلهم ويهزمهم ، حتى كانت (الموقعة الفاصلة) في قاع من الأرض صف فيه الجمعان

(١) الأغاني ط التقدم ج ١٣ ص ٥٤ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٧٠

كطودين، فشى الأمويون إليهم كماة متراصين، كأنهم قطع من الليل، وكانوا يحفون بقائدهم الأزدي فتضارب القومان بالسلاح في نار مستعرة من الحرب وفي حومة موت، ما فيها إلا الصوارم والأسنة، حتى وقع الخوارج صرعى، فداستهم الخيل، ثم غادرتهم للطيور تقرى لحومهم كواسرها، فان كان هذا آخر وصف كعب الأشقرى الشاعر البطل، لمعركة المهلب مع الخوارج، ختم قصيدته بمدح المهلب وزاد الأزد بين قومه قسطاً من الفخر والمحامد والشرف والبطولة.

وقد تخيرت من هذه الملحمة الرائعة طائفة من أبياتها قال فيها شاعرها الفارس :

ياحفص انى عدانى عنكم السفر	وقد أرقى فآذى عيني السهر
علقت يا كعب بعد الشيب غانية	والشيب فيه عن الأهواء مزدجر
واشدت الحرب والبلوى وحل بنا	أمر تشمر في أمثاله الأزر
تلبسوا لقراع الحرب بنبتها	فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا
ساروا بألوية للجد قد رفعت	وتحتن ليوث في الوغى وقر
قتلى هنالك لا عقل ولا قود	منا ومنهم دماء سفكها هدر
باتت كتائبنا تردى مسومة	حول المهلب حتى نور القمر
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا	(بكازرون) فما عزوا ولا ظفروا...
لاقوا كتائب لا يخلون ثغرهم	فيهم على من يقاسى حربهم صعر
صفان بالقاع كالطودين بينهما	كالبرق يلبع حتى يشخص البصر
يمشون في البيض والأبدان إذوردوا	مشى الزوامل تهدي صفهم زمر
وشيننا حوله مناملية	حتى من الأزدي فيما نابهم صبر
ندوسهم بعناجيج مجففة	وينتنا ثم من صم القنا كسر
في (معرك) تحسب القتلى بساحته	أعجاز نخل زفته الريح ينحقر
في كل يوم تلاقى الأزدي مفضعة	يشيب في ساعة من هولها الشعر
والأزدي قومي خيار القوم قد علموا	إذا قرومهم يوم الوغى خطروا
حتى بأسياهم يبعثون مجدهمو	إن المكارم في المكروه تبندر
لولا المهلب للجيش الذي وردوا	أنهار كرمان بعد الله ماصدروا

ونستطيع أن نحلل (من الوجهة الفنية) هذه القصيدة الحربية النادرة في أدب العرب

عصر بني أمية تحليلاً يتناولها بأجمعها على الشكل الآتي :

« ما يتعلق بمعناها » :

١ — سار فيها شاعرها على غرار شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ومعاصريه ، بمن يبدوون القصائد بذكر الحبيب ووصفه ، والتشوق إليه — وقد لا يكون هنالك من حبيب .

٢ — مزج فيها مديح معشره وهجاء أعدائه بوصف المعركة . فسار في سبيل أمثاله ، بمن قالوا شعر الحرب فمزجوه بمديح معاشريهم ، وهجاء أعدائهم .

كان أفضل من غيره من شعراء بني أمية الذين وصفوا الحرب والقتال بنطاق ضيق ، فلقد توسع في الوصف الحربى وتوالت أبياته فيه ، لا يتدبئها البيت الشارد إلا قليلا .

٤ — وصف العرب في حروبهم بما هم أهله فلم يمار (في تفضيل شجاعة الأمويين وبطولتهم) وإنما (مدح شجاعة الخوارج أيضا) ووصف بطولتهم وفروسيتهم ، وتفانيهم في القتال ، على الرغم من هجره لأعداء الأمويين ، وكان هذا الشاعر أكرم من غيره من الشعراء الأمويين في إظهار ذلك .

٥ — وصف لبوس جيشه وسلاحه والتحامه بالعدا وصفا استعان على تجسيمه بالإحاطة وتتابع الصور . فقد وصف الصفيين فشبههما بالطودين مما يحس بالحس ويحسم بالذهن . وجعل البرق تشبيها للبعان السيوف بينهما . وجعل الحرب نارا . وذكر تنكسر السلاح لكل أداة يحارب بها . وذلك للتدليل على شدة الهول في تجسيم الضنك . ثم ذكر كيف داست الخيول القتلى وفي هذا إشارة صارخة إلى انحطام العدو وهزيمته ، ووقوع قتلاه ، تحت سنابك الخيل ، مسلبة الجسوم لكواسر الطير .

٦ — ذكر المَعذرة في القتال من أنه ثأر وقصاص ، فقال إن هذه المعركة (قتلى بقتلى فهو قصاص) .

وما يتعلق بمبناها من الوجهة الفنية .

١ — أن بحرهما « البسيط » من أخص الأبحر بشعر الحرب ، لازدواج تفاعيله وتردادها بما يكسبه رنة موسيقية حماسية .

٢ — جاء رويها على الراء وهو الروى الذى آثره كثير من الشعراء في شعر الحرب ووصف المعركة ، كرائية عمرو بن الحصين في حروب الخوارج ، ورائية أبي تمام في رثاء بطولة الطوسي .

وإن ألفاظ القوافي « نفروا وعبروا ، وظفروا ، وانتصروا ، ومكروا ، كلها ألفاظ حربية تشد أزر الروى في تطويل نفس القصيدة وحماستها .

٣ — نخامة ألفاظها مع سلامتها من الحوشى والغريب ، وسلاسة أسلوبها . وأخذ بعض أبياتها بحجز بعض ، يجعلها في خيار الشعر الحربى بوصف القتال في الأدب العربى .

٤ — لم يسقط طول نفسها بعض أبياتها عن منزلة بعض ، فقد بدأت حلقة في جو من البلاغة ، وظلت كذلك ثم كانت خاتمتها في مثل هذا المطاف الرفيع .

٥ — لا يحد النقد اللغوى سبيلا إليها ، فإن كعبا كان شاعراً إسلامياً جيد الشعر ، عرّب الصليبية التي لا تعرف ضعف اللسان . وقد شهد له بالتقدم الفرزدق^(١) وكان بعد هذه القصيدة نابغة شعراء الأزديين ، وكفاه أن شهد له الحجاج بالشاعرية فقد قال له بعد إنشاد هذه (الملحمة) وهو معجب : « أشاعر أنت أم خطيب ؟ » .

وقد طرب الحجاج لهذه القصيدة الكبرى ، وطلب إلى كعب أن يصف له بني المهلب ، فأفاض بكلام من « النثر الحربى » ، جزل مرسل . فأجازه الحجاج بمال كثير ، وأرسله إلى عبد الملك بن مروان ، ليستنشد الرائية الكبرى ويحيزه عليها .

وكان هذا الشاعر الأزدى فخوراً بأزدية التي تمرست بالحروب ، ذاهباً بها حتى فضلها بفروسياتها وشجاعتها على قريش ، ومنهم ما على الأمويين في تغلب الأزد على الخوارج المعتصمين في ديار فارس ، وقتلهم (عبد رب الكبير) الذي خلع بيعة «قطرى» ودعا إلى البيعة لنفسه وانقسم عن صاحبه^(٢) فخارب الأمويين حتى فنى في حروبهم ، وكان سبب هذا الانقسام دسيس دسه المهلب بين الخوارج حين التمس عليه أمرهم وأعيته شوكتهم . ثم استطاع المهلب أن يتفرغ لكليهما واحداً بعد واحد . فكانت له الغلبة على الخوارج في عهده ، ولم يكن يستطيع عليهم غالباً ، حتى بايعه على الموت أشجع رجال جيشه .

ذلك طرف من شعر «كعب الأشقرى» في حروب بني أمية للخوارج وقد وصف المعارك التي شارك فيها بنفسه وشهداها وأحسن ذكرها ، ووصفها وصفا دقيقاً رائعاً على نحو ما تقدم مثاله . ولا خلاف في أنه كان كما ذكرت أخلص شعراء بني أمية إليهم حتى كان عبد الملك ابن مروان يعير الشعراء به ويتنقص أماديهم ، وهو يعرف أن فيها زوراً وهلقاً ، فقال لفريق منهم^(٣) « يا معشر الشعراء ، تشبهوننا بالأسد الأبحر والجليل الوعر والملح الأجاج ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى في المهلب وولده » .

وقد اشتغل كعب الأشقرى بملاحاة الشعراء ومهاجمتهم ، فابتلى دهره بآيات الأعجم يناوئنه

(١) الأغاني ط التقدم ج ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) الكامل ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٣) الأغاني الطبعة السابقة ج ١٣ ص ٦٠ .

ويكويه . ولو تفرغ كعب وطال عمره لترك في أدبنا العربي تراثاً رائعاً في شعر الحرب قل أن يكون ضريعه عند غيره من الشعراء الذين عاصروه ، كما كان يملك طول النفس ودقة التصوير ورفعة الأسلوب والتقرب من وحدة الموضوع مع الفروسية (الشخصية) والمشاركة في الحرب .

الأعشون الثلاثة في الحماسة

(١)

لاضير على الأعاشي في الحرب إن افتقدوا إليها النظر ، فإن بصائرهم كانت تمد العيون .
لقد عرف أعشى بنى تغلب (١) حروب قومه مع بنى شيبان فكان يحث جمعه عليها ، ويندب إلى لظاها القاعدين ، فزجر أبا مسمع مالكا حين أورى نار الحرب ثم قعد عنها فقال فيه :

جزى الله شيبانا وتيما ملامة جزاء المسيء سعيها وفعالها
أبا مسمع من تشكر الحق نفسه وتعجز عن المعروف يعرف ضلالها
أوقدت نار الحرب حتى إذا بدا لنفسك ما تجنى الحروب فهاها ،
نزعت وقد جردتها ذات منظر قبيح مهين حيث ألفت حلالها

وكان في شعره أقرب حماسة إلى القبيلة منه إلى نزعة أموية . ولعل نزعته الأموية قد أتبع لها من ينحرفها في نفسه نحرأ ، فلم يفض شعره بحماسة أموية . وأعلل ذلك بتجهم وجهه لقيه به عمر بن عبدالعزيز حين جاءه مادحا ، فلم يحزه ، وقال له : « ما أرى للشعراء في بيت المال حقاً ولو كان لهم فيه حق لما كان لك لأنك امرؤ نصراني » . ولولا أن الوليد بن عبد الملك كان قد أكرمه قبل عمر بن عبدالعزيز ، لراح يذم الأمويين .

(٢)

وتعصب أعشى ربيعة (٢) للروانيين فكان مرواني المذهب ، يذم الزبيريين ويحرض عليهم الأمويين ، ومع ذلك لم يسلم من الحجاج الجبار حتى اعتذر إليه بشعر حماسي فيه تهديد فقال : (٣)

(١) وهو النعمان بن يحيى من تغلب بن وائل .

(٢) هو عبد الله بن خارجة .

(٣) الأغاني السابقة ج ١٦ ص ١٥٧ .

أبيت كأني من حذار ابن يوسف طريد دم ضاقت عليه المسالك
ولو غير حجاج أراد ظلامتي حمتني من الضيم السيوف الفوانك
وفتيان صدق من ربيعة نصرة إذا اختلفت يوم اللقاء النيازك
يحامون عن أحسابهم بسيوفهم وأرماحهم واليوم أسود حالك
وكان مفوها أيام الفتن ، فدافع عن الكوفة والبصرة لما اتهمها الحجاج بإظهار المعصية
وشق عصا الطاعة ، فاستل سخيّمته بقوله : « أيها الأمير كل من المصريين قد والله اجتهد في
قتالك ، فأبى الله إلا نصرك ، وذلك أنهم جزعوا وصبروا ، وكفروا وشكروا . وغفرت إذ
قدّرت ، . فرضى عنه وقال له تجمز إلى عبد الملك يسمع منك هذا . »

(٣)

أما أعشى همدان ^(١) فقد وفي حق الحماسة عليه ، حين وصف وقعة (عين الوردة) ^(٢) وبكى شجاعة قتلاها .

وأحسب بنى أمية لم يكونوا راضين عنه يومذاك ، لأن قتلى عين الوردة الذين قال فيهم
قصيدته « المكتمة » كانوا من أعدائهم الناشزين عليهم . . لكنه كفر عن جريته فانتجع
مروان بن الحكم في الشام ، فلم ينل عنده حظاً ، فتحول إلى حمص وكان عليها النعمان بن
بشير فأغناه . ولكن أريحيته أبت عليه إلا الوفاء للأمويين — بعد أن ملأ قلوبهم عليه
غيطاً في سالفته من التشيع — فنظم قصيدة في مدح الحجاج وبنى أمية وهب لينشدها الحجاج
في حفل أقامه الحجاج ليحاكم فيه أصحاب ابن الأشعث بعد أن هزم رئيسهم وقتله في وقعة
(دير الجماجم) سنة اثنتين وثمانين للهجرة ^(٣) . وكان أعشى همدان قد نفر مع النافرين وشارك
ابن الأشعث في حرب الحجاج . فجاء به الحجاج وهو يرسف في قيوده ، وأحضره مجلس المحاكمة
والتشكيل فقال له ، « الحمد لله الذي أمكن منك » :

فنهض الشاعر المنكود غير وجل ولا هيب من وعيد أبي محمد وتهديده . فأنشد قصيدة
يتمدح فيها بفروسة الحجاج ، ناكثاً عهد ابن الأشعث ، ومصورا وقعته الأخيرة وانخذه وما
خامر جمعه من الندامة فقال : ^(٤)

(١) هو عبد الرحمن بن الحارث الهمداني .

(٢) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٨٢ .

(٣) في رواية المسمودي أن وقعت ابن الأشعث مع الحجاج بلفظ نيفا وثمانين وقعة (تاريخه ج ٣

ص ٧٣) .

(٤) الأغاني السابقة ج ٥ ص ١٥١ .

أبى الله إلا أن يتمم نوره
وينزل ذلاً بالعراق وأهله
وما لبث الحجاج أن سل سيفه
وما زاحف الحجاج إلا رأيت
فكيف رأيت الله فرق جمعهم
بما نكشوا من بيعة بعد بيعة
لبنى أمير المؤمنين ظهوره
فما أسرع قلب أعشى همدان ! فإنه أثنى على بنى أمية ثناء المخلصين ونسى يديه في
حربهم ، ظناً منه أنهم سيأخذونه بالرحمة ، وفاته كيد الحجاج وصلابة عوده ، وجبروته ،
فضى فى مديحه لبنى مروان يقول :

وجدنا بنى مروان خير أئمة وأعظم هذا الخلق حلياً وسؤدا
إذا ما تدبرنا عواقب أمرنا وجدنا أمير المؤمنين المسددا

ولعله أدرك سوء المصير فأرخصى عنان الشعر يتعطف به قلوب بنى أمية على المغلوبين ،
ويستحث رحمتهم وإشفاقهم على قوم تنوح نساؤهم عليهم وهن خالطات الدموع بكحل العيون
وأين سخيمة الحجاج وقلبه من شعر الشعراء ؟ لقد أفل دهر العرب الجاهلى الذى كان
فيه شاعر كالنابغة يستل سخائم النعمان فيرضى عنه بعد إهدار دمه ، وأدرك العرب دهر
مثقل بالترات ، مصبوغ بالدماء والنقم ، فلما فرغ الشاعر من إنشاد هذه القصيدة التائية ،
عجب من حضر لأعشى همدان ، وعطفوا عليه قلب الحجاج ، فقال لهم جبار بنى أمية :

— إيه ، هيهات . . . وصاح :

— يا حرسى ، اضرب عنقه .

الفصل الخامس

الفروسية القبلية

من شعراء (الفروسية القبلية) النابغة الشيباني (١) ، فقد كان شاعرا بدويا من شعراء الدولة الأموية ، مدح بني أمية وأجزلوا له العطاء ، لكنه لقي من هشام بن عبد الملك عذابا فبات في عهده طريدا . أما نخره بحماسة قومه فكان دليلا على نزعة القبلية في الفروسية ، وهي عنده وعند أئداده أفضل من التمدح بفروسة الأمويين وبطولتهم .

أما الشاعر الذي ظهرت في شعره النزعة القبلية بوضوح والتزام وحفاوة ، فهو الشاعر القطامي (٢) . وإنى لأعده مثالا لشعراء الفروسية القبلية ، وأرى شعره أصبح دليل على شعر الحرب الذي سكب عليه صاحبه على قومه ، فلم يجعل لغيرهم نصيبا في شرفه ، وقد ذهب القطامي بعمود هذا الضرب من الشعر الأموي .

كان شاعرا فارساً كما يدل على ذلك شعره ، شهد حروبا قبلية وسمت شعره بميسم قبلي صرف . وتكشف لي هذا الشاعر عن نزعة عصبية جاهلية ، لم يذهب بها العهد الأموي . ولعل نصرانيته وقته من التنازل عن هذه العصبية الجاهلية التي زهد فيها المسلمين ، دينهم الجديد . والذي يشغلني من أمر هذا الشاعر شعره الحربي القبلي ، وقد وجدته موفورا في ديوانه (٣) الذي وقف عليه المستشرق الألماني (بارت) وكتب له مقدمة تحليلية ربط فيها القرابة بين القطامي والشاعر الأخطل ، وكان ثابتا عند بارت أن القطامي كان نصرانيا وأسلم ، مستندا على رواية أبي الفرج الأصبهاني التي يقول فيها (٤) : « وكان نصرانيا وهو شاعر إسلامي مقل ، فكان تفسير الأستاذ بارت يؤول أن القطامي كان نصرانيا ثم أسلم فأنكر عليه ذهابه في هذا التفسير الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه (٥) « شعراء النصرانية » ، ولولا أنني أحب أن أجزم بنصرانيته لأعلل مذهبه في شعر الفروسية القبلي وعدم تأثره بالإخاء الإسلامي ونفي

(١) هو عبد الله بن الحارث .

(٢) هو عمير بن شبيب بن عمر التغلبي .

(٣) ديوانه ط ليدن سنة ١٩٠٢ لبارت .

(٤) الأغاني ط التقديم ج ٢٠ ص ١١٨ .

(٥) شعراء النصرانية في دولة بني أمية ص ١٩٢ .

العصبية القبلية بين المسلمين ، لما عرضت لقول بارت والأصبهاني وشيخو . وقد رجح عندي مذهب الأب لويس في هذه الناحية .

لقد جرت حروب لقوم القطامي مع القيسيين ، فأعطى قومه قسطاً كبيراً من شعره ظهر في ديوانه ، وكان لا يقر لأحد بالفروسية سوى قومه حتى قال في المهلب :
وما جعل الله المهلب فارساً ولكن أمثال الهذيل الفوارس
والهذيل من بني تغلب :

ويظهر هذا الحس الحماسي لإعزاز القبيلة جلياً لديه في قصيدته العينية (لضباع) التي يفضل فيها جنسه بالبطولة والشجاعة وثقاف السيوف فيقول فيها (١) .

كان الناس كلهم لأم ونحن لقلّة علت ارتفاعاً (٢)
فكل قبيلة نظروا إلينا وحلوا بيننا كرهوا الوقاعا
فهم يتبينون سنا سيوف شهرناهن أيا ما تباعا
ثم صرح (بالبخضاء والعنصرية) والضغائن التي لاتحمد في صدور بعض القبائل على بعض فقال :

وكنا كالخريق أصاب غابا فيخبو ساعة ويهب ساعا
فلا تبعد دماء بني نزار ولا تقرر عيونك يا قضاعا
ثم ذكر شركة قبيلته في الحروب و (الملاحم) والوقائع ومآثرهم الحربية حتى التي كانت في الجاهلية يوم الكلاب فقال :

ولو تستخير العلماء عنها ومن شهد (الملاحم) والقراعا
بتغلب في الحروب ألم يكونوا أشد قبائل العرب امتناعا
زمان الجاهلية كل حي أبرنا من فصيلتهم لما (٣)
همو وردوا الكلاب على تميم بموج يبلع الناس ابتلاعا
لقد كان القطامي من غلاة القبلية . وكان من مغالاته هذه وإلحاف عصبية يهول بشعره قيمة العشيرة وخطره فيها وبلاء فروسيته (٤) فيقول وهو يفاخر بشعره الحربي :

فلو أننى هانت على عشيرتي لسبت عروض واستحلت محارم
ألم تر للبنيان تبلى بيوته وتبقى من الشعر البيوت الصوارم

(١) القصيدة رقم ١٣ .

(٢) أى بنو العلات وهم لأب واحد وأمها شتى .

(٣) أبرنا أى أهلكنا فصيلتهم . لما أى شيئاً بعد شئ كاللحاح من اللحم .

(٤) القصيدة رقم ١٤ .

وأحسبه عاش جرارا أذبال الفخار ، مزهوا بقبيلته مفديا فرسان قومه الذين مزجوا
كثوس منايهم بالشرف في (يوم العروبة ويوم نهر الثرثار) ، مصورا غاراتهم وبأيديهم
السيوف مصلته تنقض كالشهب ، ، ما تعرف غمدا منذ سلت للحروب ، حتى إذا روى وجده
بهذا الوصف للسيوف القاطعة ، ونيران الحرب الواقعة والرماح المتشاجرة التي تفرى الدروع
عاد إلى نخبة القبيلة فأنذر وتوعد . وكل ذلك قاله لظفر العبسي ، غير هباب ولا وجل ، على
حين كان أسيرا عند زفر فمنّ عليه صاحب قريقساء وسيد العرب فأطلقه . وما ذلك إلا لتأصل
الروح القبلية في نفسه ، واصدق بلائه في فروسيته ، حتى راح هو في دوره يمن على زفر
أيضا فيقول (١) .

من مبلـغ زفر العبسي مدحته	من القطامي قولا غير أفناد
إني وإن كان قومي ليس بينهم	وبين قومك إلا ضربة الهادي
مثن عليك بما استمقيت معرفتي	وقد تعرض مني مقتل بادي
لولا كتائب من عمرو وصول بها	أرديت ياخير من يندوله النادي
إذ لا ترى العين إلا كل سلـبة	وسايج مثل سيد الردهة العادي
إذا الفوارس من قيس بشكتهم	حولى شهود وما قومي بشهادي
ثم يكون تهديده وتفضيل قومه بقوله :	
أبلغ ربيعة أعلاها وأسفلها	أنا وقيسا تواعدنا لميعاد
ولو تيننت قومي مارأيتهمو	في طالعين من (الثرثار) ندّاد

ويدل شعر الحرب عند القطامي أنه سلخ جزءاً كبيراً من حياته مشغولاً بالحرب العوان
بين قومه بني تغلب وبين قيس عيلان (٢) فإن قصائده في غير الغزل لا تخلو من ذكر الحرب
والسلاح والاعتزاز بشجاعة القبيلة . ويدل شعره إلى ذلك على أنه بلا الحرب وعانى أهوالها
ولولا ذلك لما وقع أسيرا بيد زفر بن الحارث الكلابي حين ظفر زفر على التغلبين في حربه
إياهم . وشعر القطامي وإن جرى في الحرب ولم تفسده السياسة ، فإن الأخطل داهية السياسة
وهو خال القطامي كان كفيلا في أن يستغل نزعته القبلية وثورته العصبية الواقعة ، ويمضى بها
في سبيل السياسة ، فيحارب به القيسيين مع تغلب . وقد كان التغلبيون يناصرون عبد الملك
ابن مروان ، بخلاف القيسيين الذين حاربوا مع عبد الله بن الزبير .

(١) القصيدة رقم ١١ .

(٢) الشعر والشعراء ابن قتيبة طبعة أوربا ص ٤٥٣ .

الفصل السادس

شعر الحرب عندهم الهجائيين

(١) صماسة الأخطل

لعل الأخطل أعظم فروسية ومعاناة للحرب من صاحبيه الفرزدق وجريز ، إذ كان أكثر تصويراً للحرب وحفاوة بها للصوقه بنى مروان ومناخته عن دعواهم ، وبث سياستهم ، ولذا نرى وصف الحرب وذكر القتال أكثر في شعره من صاحبيه .

وقد ابتلاه دهره بالغزوة ، فتوسط الحرب ، وكابد الطعن والضرب ، فذكر (يوم الثرثار) في شعره كثيراً . وكان الثرثار يوماً مغسولاً بالدم بين بنى تغلب قوم الأخطل وبين قبائل القيسية . فقد تحاشد التغليبيون فيه إلى الثرثار (١) ، قتل فيه عمير بن الحباب السلي رأس القيسية ، وقد بلغ المتقاتلون ألوفاً ، فاشتدت الواقعة وأحب الجمعان الموت ، وبلغ من بطولة الشجعان فيها أن قاتلوا وهم جرحى ، فكان شعيب بن مليل وهو من رؤوس التغليبيين يقاتل بعد أن قطعت رجله وهو يقول (٢) :

قد علمت قيس ونحن نعلم أن الفتى يقتل وهو أجذم
فلما قتل شعيب نزل أصحابه فعمقروا دوابهم ثم قاتلوا حتى قتلوا .

ودامت وقعة الثرثار يومين حتى انتقضت تعبية القيسية وغلبوا على أمرهم فغلبتهم تغلب وأسرتهم ، وبقرؤا منهم بطون ثلاثين امرأة من أحلافهم بنى سليم (٣) .

حق للأخطل أن يملأ شعره بذكر يوم الثرثار وأن يكأثر به ويفاخر ، وقد ظهرت في شعره روح القبيلة فأجاد في وصف الحرب وبطولة قومه ، إذ جاء شعره صادقا في بطولتهم ومآثر

(١) واد عظيم في الجزيرة يمدد الماء في الشتاء وهو بين سنجار وتكريت كان قديما منازل لسكر ابن وائل واختص بأكثره بنو تغلب يصب في دجلة من فضلات نهر نصيبين (ياقوت) .

(٢) الأغاني الطبعة السابقة ٦٠/١١ ، وتكملة شعر الأخطل وقوف الأب صالحاني طبع بيروت عن نسخة طهران الخطية سنة ١٩٣٨ ص ٢٢ .

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير الطبعة الأزهرية ج ٤ ص ١٥٢

التغلبين فراح يفت بشعره في عضد المغلوبين وفيهم تميم ، ويذكر يوم الثرثار وبلاء قومه فيه ومقتل عمير بن الحباب واحتزاز رأسه ، ويحذر قومه من الصلح فيقول (١) :

فقد أحيا سفاه بني تميم دفين الشر والد من البواق
ملأنا جانب (الثرثار) منهم وجه زنا أمية لانطلاق
ولاقي ابن الحباب لنا حيا كفته كل حازية وراق (٢)
فأضحى رأسه ببلادك وسائر خلقه بحبا براق (٣)
فلا تسترسلوا لدجاء صلح فإن الحرب شامزة النطاق (٤)

وذكر بقاء جثة عمير ضاحية في الفلاة ، وفي ذلك إشباع لروح النعمة في نفسه ، وإعراب عن العداوة القبلية التي كانت مازال متأصلة في نفوس العرب لعهد بقوله :

أمعش قيس لم يمتنع أخوكمو عمير بأ كفان ولا بطهور
تدل عليه الضبع ريج تضوعت بلا نفح كافور ولا بعبير

* * *

وكان بعد (الثرثار) يوم البشر وهو يوم الجحاف ابن حكيم ومعه القيسية على بني تغلب وكان المتحرش الأخطل إذ أساء إلى الجحاف في مجلس عبد الملك (٥) وغمز جانبه ، وخرج الجحاف إلى صحبه من القيسية فجمع منهم ألف فارس ، وآلى أن لا يغسل رأسه حتى يوقع بني تغلب الذين منهم الأخطل ، حتى جاء ماء لبني جشم بن بكر رهط الأخطل ، فصادف عليه قوما عديدا فألشب فيهم سلاحه ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذ الأخطل فيمن أخذ ، وعليه عباءة وسخة فظنوه عبداً ، فلما أطلقوه خشى أن يعرف فرمى نفسه في جب فلم يزل فيه مختبئاً حتى انصرف القيسيون فنجوا ، وقد قتل أبوه (غوث) في هذه الواقعة وكانت تسمى وقعة (يوم البشر) (٦)

ففر الجحاف إلى بلاد الروم بعد أن طلبه عبد الملك بقتلى هذا اليوم ولم يزل فيها حتى حملة عبد الملك ديات القتلى ، وكان الجحاف شاعرا فوصف هذا اليوم يخاطب الأخطل بقوله

(١) ديوان الأخطل رواية اليزيدي عن ابن الاعرابي وقوف الأب صالحاني ط بيروت سنة ١٨٩١

ص ٣١ .

(٢) الحميا هنا شدة الحرب وسورتها ، والجازية السكاهنة ، وفي البيت تهكم .

(٣) حبا براق اسم موضع .

(٤) الشامزة المشمرة .

(٥) تكلمة شعر الأخطل ص ١٧ .

(٦) البشر جبل من عرض الفرات من جهة البادية (ياقوت) .

أبا مالك هل لمتنى إذ حضضتنى
على القتل أم هل لامننى بك لائمتنى
ألم أفتنكم قتلاً وأجدع أنوفكم
بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل قى ينمى (عميرا) بسيفه
إذا قبضت أيماهم بالقوايم
يكر عليهم ساجحا ذا علالة
بأيض طلاع ثنايا المخارم (١)

وقد وصف ابن الصفار المحاربى ويل هذه الحرب ومناحة تغلب بعدها وتحريق تغلب لموتاتها خشية العار من أن يعرف الناس القتلى ، فتكون كثرتهم سبة عليهم أبد الدهر فقال :
وهل يرجع الموتى حنين مآتم
ويكف وقد أوقدتم النار فوقهم
يبيكين قتلى تغلب وانتحاجها
فخرقهم تسعارها والتهابها
وكان طبيعيا أن يسدل الأخطل ثوب ستر على انهزام قومه فى هذا اليوم ، فتحاشى الخوض فيه كثيراً فى شعره وتناول هذه الواقعة جرير يعيره بها ويعيبه وكان مثلها بالمرصاد (٢).

وكان بعد الثرثار يوم (الشرعية) وفيه انتصر قوم الأخطل . وكان يوما سياسيا وليس لوجه القبيلة . فقد دفع فيه بنى تغلب الى حرب قيس مالك بن مسمع وكان زيرى النزعة ومن أصحاب مصعب بن الزبير وملازميه ، وجعل الأخطل يحضهم فى هذا اليوم بمصرع مجاشع المقتول فى أول يوم من حربهم ، (٣) .

وكان النصرارى قوم الأخطل فى أمن وحرية ، بحيث يشهرون صلبانهم على الرايات ، ويعتصمون بذكر قدسيهم ، فقال الأخطل فى حضه قومه يذكر ذلك :

ويها بنى تغلب ضرباً نافعاً
وانعوا بأطراف القنا مجاشعا
لما رأونا والصليب طالعا
ومار سرجيس وسما ناقعا
والبيض (فى أيما لنا) القواطعا
والخيل لاتحمل إلا دارعا
خلوا لنا (راذان) والمزارعا
وحنطة طيسا وكرما يانعا

فلما وقعت هذه الواقعة بعد الثرثار ، وكان الظفر فيها لتغلب أيضاً ، وقعت أخبارها للأخطل ألد من وقوع الخمر فى حلقه فقال :
وسرن من الثرثار خمسا إليكمو
يخبزن أخباراً ألد من الخمر

(١) العلالة بقية جرى الفرس .

(٢) الأغاني طبعة التقدم ج ١١ ص ٥٦ .

(٣) تنكلمة شعر الأخطل ص ٣٢ .

وفى ذكر هذا اليوم ويوم (إرأب) جعل الأخطل يتصالف على جرير ويعيره لأنه يربوعى ، وكان بنو يربوع أحلافاً للقيسية التى حاربت قوم الأخطل فأحمى الأخطل مياسه ، وكوى بها جريرا ووصف جيش الهذيل وأحلافه ، وفرسانهم وخيولهم ، وكرهم فى الحرب فقال :

ولقد سمالكم الهذيل فنالكم	بإرأب حيث يقسم الأنفالا ^(١)
فى فيلق يدعو الأراقم لم تكن	فرسانه عزلا ولا أكفالا
بالخيل ساهمة الوجوه كأنما	خالطن من عمل الوجيف سلا
فسقين من عادين كأساً مرة	وأزلن حد بنى الحباب فزالا
فانقق بضأنك يا جرير فإنما	منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

ولم يكتف بغمز جرير هذه الغمرة المتكمة ، وإنما أراد أن يجرى على عادة صحبه الشعراء المقذعين ، فصب الإقذاع على جرير بعد هذا البيت واتهم بالفاحشة أمه .

كذلك أضاع الأخطل قدرته على وصف المعارك وتصوير الحرب بشعر الهجاء ، فزج أماديج بنزوات من شعر الحرب ، كان يضع خلالها أبياتاً فى هجاء أعدائه القبليين ، وأعداء الأمويين متمدحاً فيما بين ذلك بالأمويين أو مفتخراً بنفسه ، تغالبه فى جميع ذلك وسأوس السياسة التى احترفها ، وكان من أقطابها فى بلاط عبد الملك بن مروان . وقد بلغ من حذقه فى فنونها أن كان يتلاعب بقلب الخليفة فيستل منه الرضا عن رجالات العرب وأقوامهم ويملاؤه سخائم على آخرين ، كما فعل حين أوغر صدر عبد الملك على الجحاف بن حكيم (كما تقدم) وكان يصلى عواقب سياسته ، كالذى جرى له فى حرب الجحاف لقومه التغلبيين وتقتيلهم وفيهم أبوه غياث .

وحمل عبد الملك على أن يرفس زفر بن الحارث على صدره وأن يرميه من مجلس بجانبه إلى الأرض ، ثم انطلق يعزز حملته هذه السياسية بقصيدته الكبرى :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى فى ظرفها غير
وفىها يقول :

بنى أمية إني ناصح لكم
فلا يبيتن فيكم آمناً زفر
واتخذوه عدواً إن شاهده
وما تغيب من أخلاقه دعر

ثم فتك بهجائه فى هذه القصيدة بقرى عيلان جميعاً .
تلك كانت شواغل الأخطل ، حرب هجاء مع جرير الذى كان يسميه بـابن المراغة أى

ابن الأتاتان ومع أعوانه من الشعراء . ومعالجة دسائس سياسية فيما بين ذلك ، وشعر مدح ليس فيه نزعة حزبية أصيلة كالتى نراها عند شعراء الخوارج أو الشيعة أو دعاة الزبيريين . كل ذلك حال بينه وبين التفرغ لشعر حرب مطول ، يؤرخ الحروب التى جرت فى زمنه — وكان مقامه يقتضيه ذلك كشاعر للخليفة مختص به أثير عنده — فترك لنا شعراً تعج قصائده الطوال بالهجاء والفخر والمدح .

٢ — فرسية الفرزدق

يقول محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي إن الفرزدق كان أجبن من الصافر^(١) ، وتروى كتب الأخبار^(٢) وشعر الفرزدق أنه هرب من زياد بعد أن هجا بنى فُقيم فاستعدوا عليه زيادا فلبجأ إلى المدينة وعليها سعيد بن العاص فأمنه وأجاره .

ودعاه زياد للعطاء واكتساب الصنف فأبى واستعصم بخوفه واتخذ البيد سبيلا

وكان اسم زياد يخيفه ويقبض عليه نفسه ، وقد أقر بذلك حين قال :

إذا ذكرت نفسى زيادا تكشمت من الخوف أحشائي وشابت مفارقى^(٣)

وكان يخاف الحجاج جبار بنى أمية ، ويراها كالليث ، تخشى بوادى ثورته ومضارب سيوفه

فى الأعناق فيقول :

أخاف من الحجاج ثورة مخدر ضوارب بالأعناق منه خواده

وتحطمت على القدر شجاعة نفسه ، فقد أضر برجليه الحديد فى محبس خالد بن عبد الله

القسرى حتى أطلقه أسد أخو خالد ، بعد أن مدحه الفرزدق بقصيدة أولها :

عسى أسد أن يطلق الله لى به شبا حلق مستحكم فوق أسوقى

وإن شاعراً كسر قلبه خوف السلطان ، وهربه فى البلاد من بطش زياد ، متعرضاً فى لياليه

لليث والذئب ، وقد تحمل حبس هشام وحبس القسرى بيد صاحب شرطته الظالم مالك بن

المُنذر بن الجارود^(٤) ورسف فى القيود ،

وإن شاعراً شغلت قلبه النساء ، فهن نوار بنت أيمن ، وثانية مجاشعية ، وثالثة من اليرابيع

كانت تقول له نوار د تزوجتها دقيقة الساقين ، ورابعة اسمها سودة ، وخامسة هى حدراء بنت

زريق القيسية . وذهبت نوار بأكثر قلبه حتى نتفت لحيته فقال :

(١) ديوان الفرزدق لبوشيه ط باريس القسم الأول ص ٢٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٣٨ .

(٣) ديوانه القسم الرابع ص ٢٣٧ .

(٤) طبقات الشعراء للجمعى ط أوربا ص ٨٧ .

بكرت على نوار تنف لحيى تنف الجمعية لحيى الخشنخاش (١)

كل ذلك البلاء قد اصطلى على الفرزدق ، وزاد عليه احتسابه أولاده من نوار وبكاؤهم معها عليهم ، وكتبته لتشيعه ، إلا نزوات كان يسرى عن نفسه بها بين حين وحين . . ليكفيه واحد من هذه الخطوب أن يهشم نفسه ، مهما يكن صلد الفؤاد مكين التحمل .

فلنعذر إذن أبا فراس ، فإن أهله وصحبه كنهوه باسم الأسد تيمنا بشجاعته ، وهو إن فاتته شجاعة الفعّال فلم يحارب ، ولم يخض المعارك و . نبت يده عندما ضرب بالسيف ، حتى هُجى بذلك (٢) ، فإنه لم يقصر في القول فقد نصب لنفسه عمود غر يشق عنان السماء ، وراح في طوال قصائده وقصارها يفاخر ببطولة قومه ، وفتك قبيلاته ، وبأس أبيه غالب ، وضعف جده ، وكان ذا قلب نبيل ، مرتاحا المعروف . وكان مصابا بالفسوق ، يعرف من نفسه ذلك وشاع بهذا أمره ، وكان خلقه سلاحا بيد جرير عليه .

كل ذلك يدل على انطلاق نفسه وانعتاقها . وقد ظهرت هذه (النزعة الانطلاقية) في حياته السياسية ، إذ لم يمارس الأمويين ولم يمازجهم كغيره من الشعراء الذين على رأسهم الأخطل ولذا تراه ظل مبعداً عن البلاط الأموي حتى كان عهد سليمان بن عبد الملك ، فأتاه ينشده قصيدة منها قوله في هذا الدليل :

فما كنت عن نفسي لأرحل طائناً إلى الشام حتى كنت أنت المؤمراً
خبك أغشاني بلاداً بغضّة إلى روميّا بعمّان أقشرا

وهو يقصد بالرومي العمانى القشيري الملبى بن أبي صفرة الأزدي العمانى ، فقد عاش الفرزدق يهجو ويهجو زوجته (خيرة القشيرية) معتصماً ببشر بن مروان ، وكان بشر يحميه من الغوائل فكسب أماديحه فيه ، حتى كانت أماديج الفرزدق في بشر أكثر من شعره في سائر المروانيين ومنهم عبد الملك .

والذى أبتغى الوصول إليه مما تقدم عن الفرزدق أن نفسه انخذلت (انخذلاً بسبب كولوجيا) حتى بات يمدح الرجل ويذمه في برهة واحدة ، كما فعل مع عمر بن هبيرة الفزارى ، فإن في ديوانه قصيدة مطولة بمدح ابن هبيرة بعدها قصيدة مطولة في هجائه .

وهو الذى عير هشام بن عبد الملك بالحوّل ، وجعله من الموالى فكان الحوّل أشد عليه وقعاً ، بقوله :

يقلب وجهها لم يكن وجه سيد وعيناً له حولاء باد عيوبها

(١) ديوانه القسم الرابع ص ٢٢٦ .

(٢) طبقات الشعراء السابقة ص ٩٣ .

فبسه هشام ، وإذا بالشاعر حين صالحه هشام يمدحه ، ويخص بالمدح عينيه فيصف
جمالها بقوله :

قد اقسمت عيناك يوم لقيتنا حشاشة نفس ما يحل اقسامها
فكيف بمن عيناه في مقتلتهما شفاء لنفس منهما وسقامها
وأنت لهذا الناس بعد نديهم ساء يرجى للمحول غمامها

فإذا عذرنا الفرزدق بعد تحليل نفسه من هذه الوجوهات كلها استطعنا أن لا نعبأ كثيراً
بشعر الحرب عنده ، فهو إذا هجا ابن الأشعث ووصف انهزامه ، فإنما يمدح الحجاج ويتملق
جانبه . ولو أنه أطال نفسه في شعر الحرب لترك أبياتاً متلاحمة تصلح أن تكون له شعراً
حماسياً رفيعاً . ولكنه بدلا من أن يسترسل في وصف الهزيمة لجيش ابن الأشعث فإنه عير
ابن الأشعث بحياكة الأبراد اليمانية ، ووصف هزيمته وصفاً مسرعاً لا خير فيه فقال :

وافلت حواءك اليمانيين بعد ما رأى الخيل تردى من كبتٍ وأشقر
ثم تناول ابن الأشعث بهجاء قاصم لاذع ، كله مقذعة ذميمة ، لا تدخل في باب الشعر
الذي تحسن روايته لكثرة ذكر العورات فيه . وبحسبه في هذه القصيدة أن يحسن قليلاً
وصف (معركة دير الجماجم) فيقول :

فلبا رأى أهل العراق سلاحهم وسياهم كانوا نعاما مثفرا
كان صفيح الهند فوق رؤوسهم مصاييح ليل لايبالين مفعرا
بأيدي رجال يمنع الله دينهم بأصدق من أهل العراق واصبرا
كان على دير الجماجم منهم حصايد أو أعجاز نخل تعفرا

ثم تناول الحجاج بكيل المدح وقرن فروسيته وبسالته بأهل (بدر) ثم (أنزل
الملائكة) على جيش الحجاج تقاتل معه اكتساباً لنصره على الأشاعنة فقال :

لقيتم مع الحجاج قوما أعزة غلاظا على من كان في الدين أجورا
بهم يوم بدر أيد الله نصره وسوى من القتلى الركي المعورا (١)
جنوداً دعا الحجاج حين أعانه بهم إذ دعا رب العباد لينصرا

ولكن الفرزدق القلق إذا اضطرب استطاع أن ينشدنا أبياتاً خلال فخره ، يصف فيها
جيشاً علت رماحه وهو يسير ، له هزيم في النهار ووئيد في الليل ، ثم لم يلبث أن أعياه الصبر

(١) الضمير في قوله (نصره) يعود على الله أي أيد الله بهذه الجنود نصر نفسه والركي الضعيف

فانفلت من هذا الوصف الرائع للجيش الى الفخر ذا كرا أعمامه وأهليه ، فقال وهو يعنى الجيش :
 ومنتجع دار العدو كأنه نشاص الثريا يستظل العوالي (١)
 كثير وغى الأصوات تسمع وسطه وثيدا اذا جن الظلام وحاديا
 وإن حان منه منزل اللل خلته حراجا ترى ما بينه متدانيا (٢)
 وإن شد منه الألف لم يفتقد له ولو سار فى دار العدو لياليا
 وأخبرت أعمامى بنو الفزر أصبحوا يودون لو أزجوا إلى الأفاعيا
 فإن تلتمسنى فى تميم تلاقى براية علياء تلو الروايا

ثم يترك شعر الحرب فجأة فى هذه القصيدة ، إلى تعداد آبائه وذكر نسبه .
 فإذا لم يطمعنا الفرزدق بشعره الحربى ، وحاول إقناعنا (بفروسية لسانه) قنعنا منه أن
 يكون من أبطال (حرب الكلام) ينافح عن أهله باللسان ويعادى خصومه بالهجاء دون
 السنان ، وهو الذى يقول :

أنا الشاعر الحامى حقيقة قومه ومثل كفى الشر الذى هو حاربه
 وكنت إذا عاديت قوما حملتهم على الجمر حتى يحسم الداء حاسمه

٣ — بطولته جرير

تالله لست أرى أبدع موقفا ولا أصدق شهادة على براعة جرير فى شعر الحرب من
 حادثة لم يرو نظيرها فى حروب الأقسام — على ما عرفت — منذ كان الخصام .
 كان فى جيوش العرب المتحاربين أدباء . وكانوا كثيراً ما يتذاكرون الأدب وعليهم
 المفاضات والسلاح ، وهمهمات الخيل تملأ مسامعهم . إنه لم يكن يشغلهم عن الشعر وأخبار
 الشعراء وذكر الأدب شيء ، حتى الموت ، ولا كانت العداوات تحول بينهم وبين تذاكر
 هذا الفن .

يروى الأصمهانى فى أغانيه ، وابن سلام فى طبقاته (٣) أن رجلين كانا فى عسكر
 المهلب بن أبي صفرة ، تنازعا فى جرير والفرزدق أيهما أشعر ، وكان ثمة نهر حاجزا بين جيشهما
 وعسكر الخوارج ، وفيهم قطرى بين الفجاءة وعبيدة بن هلال اليشكرى ، فقال لهما المهلب
 حين سألاه رأيه فيهما دلا أقول فيهما شيئا ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما ، عبيدة

(١) النشاص الرماح المشرعة .

(٢) الحراج الشجر الكثير .

(٣) ط التقديم ج ٧ ص ٣٧ . وطبقات الشعراء ط أوربا ص ٨٨ .

ابن هلال اليشكري فمليكم بالآزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق (١). وكان أحد الرجلين عمر بن شبة ولم تكن نفسه تهون عليه ، تخاف مسألة الخوارج في الأدب والحرب قائمة . فخرج ورفيقه ودعا للبراز عبيدة بن هلال فخرج إليه عبيدة فقال المهلي ، وصاحبه بحيث يسمع :

— « أسألك عن شيء تحاكمنا إليك فيه » ، فقال :

— « وما هو ، عليكما لعنة الله — قال : فأى الرجلين عندك أشعر أجريز أم الفرزدق ؟ فقال :

— لعنكما الله ولعن جريراً والفرزدق أمثلي يُسأل عن هذين الكلبيين ؟

قالا لا بد من حكمك . فقال : إني سائلكم قبل ذلك عن ثلاثة قالوا : سل . قال : ما تقولون في إمامكم إذا فجر ؟ فجعلوا يراوغان بالجواب ويعبثان به ويهيجانه . فذهب لينصرف فقالا له ، إن الوفاء يلزمك . وقد سألتنا فأخبرناك ولم تخبرنا . فرجع فقال من الذى يقول ؟ :

إنا لنذعر يا قصير عدونا	بالخيل لاحقة الأياطل قودا
وتحوط حوزتنا وتحمى سرحنا	جرد ترى لمغارها أخذودا
أجرى قلائدها وقدد لحمها	أن لا يذقن مع الشكائم عودا
وطوى القياد مع الطراد متونها	طى التجار بمضرموت برودا

فقالا جرير . قال فهو ذاك .

وهذه الحادثة على سذاجتها تبين إقامة الخوارج على رأيهم ، فكان أول ما اشترط الخارجى الأديب على المهليين أن يجيبوا في إمام المسلمين إذا ارتكب الفاجرة . وكان جديا ولم يكونا مثله ، وإنما طفقوا يجيبانه إجابات يستثيران بها غضبه ، ولكنه لم يغضب وإنما أجاهما إلى سؤلها فروى لجرير أبياتا في شعر الحرب ، تفيض فروسية في وصف هجمة الخيل متلاحقة على العدو . واعتصام الفرسان بغاراتها ، وضمورها طول الطراد . فكان جرير بأبياته هذه القلائل مصورا للأفراس المعدة للحرب (في أربع صور متتابعة) وهى :

(١) عادية (٢) جرداء (٣) مقددة اللحم (٤) مطوية المتون .

وإن في صمود جرير لحرب هجاء عوان دامت أربعين عاما ، كان يشنها عليه من كل صوب وحذب فخلان حملا لواء الشعر في كل بنى أمية وهما الأخطل والفرزدق ، ومعهما ثمانون شاعرا فيهم السليطي والبغيث والأشيب بن رميلة ، لدليلا على صلابة عوده وقوة نفسه وشجاعته ، فلا غرابة إذا قال من شعره في الحرب وأثرت له أبيات كثيرة في الحماسة .

لأنه كان يفخر بلسانه وكان يفخر بسيفه فيقول :

جری الجنان لا أهاب من الردی إذا ما جعلت السیف قبض بنانیا
ولیس لسيفی فی العظام بقیسة وللسیف أشوی وقعه من لسانیا
ومن ها هنا علم جریر أبا تمام والمتنبی کیف یفضلان السیف علی القلم إذ كان جریر یقول
(إن السیف أنجع من اللسان) .

وكان جریر یشهد الغزوة ویكون فی العسكر (١) وكانت نفسه تعلو به إلى مشارف
الفرسان والأبطال ، وكأنه كان یحس فی نفسه (الحس الحربی المكبوت) وقد ظهر فی هذا
الشعور حین قال الحجاج للفرزدق وجریر وهو فی قصره بالبصرة « إثنیان فی لباس آبائكما فی
الجاهلیة ، فلبس الفرزدق الدیاج والخز وقعد فی قبة . وشاور جریر دهاة بنی یربوع فقالوا
له ما لباس آبائنا إلا الحدید ، فلبس جریر درعا وتقلد سیفاً وأخذ رمحا وركب فرسا لعباد بن
الحصین ، وأقبل فی أربعین فارسا من بنی یربوع ، وجاء الفرزدق فی هیئته تلك ، فقال جریر
فی هذه الحادثة (٢) .

لبست سلاحی والفرزدق لعبة علیه وشاحا كرج وخلاخله (٣)
أعدّوا مع الخز الملاء ، فإنما جریر لکم بعل وأنتم حلائله
وكانت كوامن بطولته تظهر فی ثنایا قصائده فهو حین یمدح عبدالعزیز بن الولید والحجاج
وأولاد عبد الملك كان یفاخر بفروسية قومه وركوبهم للحرب فیقول :
لقد علم الحی المصبّح أننا متى ما یقل یا للفوارس نركب
وكان یذكر مواضی قومه فی آیام العرب . وكل ذلك (مشحذة لبطولته التي كمنّت
فیہ) كقوله :

ویوم بنی ربیعة قد لحقنا وزدنا یوم ذی نجب كلابا
ویوم الحوفزان وأین تیم فتدعی یوم ذلك أو تجابا
ولا یفرّ خلال شعره كله عن تردید فروسية قومه ومآثرهم السالفة كقوله :
ألیس فوارس الحضبّات منّا إذا ما الحرب هاج لها عكوب (٤)
وسار فی شعره علی غرار أصحابه أهل الهجاء یمزج المدح بالفخر ، والهجاء بوصف

(١) الأغاني ٧/٧٠ .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٦٧ .

(٣) الوشاح السكرجی الوشاح الخنث (المحیط) .

(٤) العكوب القبار .

الحرب وذكر السلاح والآيام . ويظل أبداً كما عرفته مولعا بأوصاف الخيل وتصوير الفروسية يحب تشبيه موصوفاته بها ، وقد تثيره حروب قومه وهم حلفاء القيسيين ووقعاتهم مع التغلييين . قوم عدوه الأخطل ومنافسه على صولجان الشعر فيقول (١) :

ونعرف حق النازلين ولم يزل	فوارسنا يحمون قاصية السرب
على مقربات هن معقل من جنى	وسمّ العدى والمنجيات من الكرب
ألا رب جبار وطئن جبينه	صريعاً ونهب قد حوين إلى نهب
وقد أوردت قيس عليك وخندف ^٢	فوارس هدمن الحياض التي تجي
ستعلم ما يغنى الصليب إذا غدت	كتائب قيس كالمهناة الجرب (٢)

واستعمل جرير في أكثر هجائه تعيير عاداته ، بخبياتهم في الحروب والمعارك ، إذ كانت هزائمهم عنده أكبر سبة يستطيع إلصاقها بهم ، فقد قال للأخطل معيراً وهاجياً وهو يصف مواضى الحروب التي دارت عليه وعلى قومه :

فما لك في قيس حصاة تعدها	ومالك في غورى تهامة أبطح
وفاضت حجون الورد بالمرج منكم	دماء وأفواه الخنازير كلح
لقيم بأيدى عامر مشرفية	تعض بهام الدارعين وتجرح
بمعتك تهوى لوقع ظلماتها	خذاريف هام أو معاصم تطرح
سما لكم الجحاف بالخييل عنوة	وأنت بشط الزابتين تنوِّح

وهو في أماديحه لا يفتر عن ذكر الخيل فيمدح عبد الملك بقوله :

وقوم قد سموت لهم فدانوا	بدهم في مليلة رداح
ويمدح هشاما ابنه فيقول :	

عادات خيلك أن تبيت عوابسا	بالدارعين ولا تراها رودا
---------------------------	--------------------------

وفي شعر جرير ، أبيات كثيرة تشير إلى حوادث سياسية ، ووقائع حرب ، وقتن كان يتخذها وسيلة لغاية الهجاء وتعيير القبائل — ولم تكن عنده هي الغاية .

ومهما نقّر الباحث في شعر الحرب عند جرير فإنه واجده على النحو الذى وجدته عند رقيقه ، ممزوجاً أبداً بالهجاء ولم يكن غاية . فهو يصف معركة (يوم البشر) التي لقي فيها

(١) ديوانه الطبعة الأولى العلمية بمصر سنة ١٣١٣ ص ٢٧ .

(٢) أرى في عجزه تصحيحاً ينبغي أن يكون أصله (كتائب قيس للمهناة الجرب) أى إذا غدت كتائب قيس — التي هي أحلاف يربوع قوم جرير — اقتال المهناة الجرب التي هي كتائب الأخطل . إلا إذا صح أن تكون المهناة الجرب مدحاً لكتائب قيس كناية عن هزائها من شدة الحرب .

الأخطل الهوان ، وصلى جحيم الجحاف وعرف حز سيفه في رقاب قومه التغلبين . وجريـ
في وصفه لهذه المعركة يدير دفة الكلام نحو هجاء خصمه ، لا ليعلم بطولة الجحاف وفروسية
قيس ، فيقول عن الأخطل (١) :

بكى دوبل لا يرقأ الله دمه	إلا إنما يبكى من الذل دوبل
فإنك والجحاف يوم تحضه	أردت بذاك المكث والورد أعجل
سرى نحوكم ليلا كأن نجومه	قناديل فيهن الذبال المفتل
فما اشتف ضوء الصبح حتى تعرفوا	كراديس يهدين ورد محجل
وقد قتل الجحاف أولاد نسوة	يسوق ابن حلاس بهن وغرهل (٢)
عقاب المنـايا تستدير عليهم	وشعث النواصي لجنن تصلل
بدجلة إن كروا فقيس وراءهم	صفوفا وإن راموا المخاضة أوحلوا
وما زالت القتلى تمـور دماؤها	بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ثم يختم هذه القطعة الحربية مفتخرا وهاجيا فيقول :

لنا الفضل في الدنيا وأنفك راغم ونحسن لكم يوم القيامة أفضل

ولم يكن ليترك حادثة سياسية كبرى إلا سجلها في شعره ، كما فعل عند مقتل آل المهلب فهنا
بهم يزيد بن عبد الملك . كما كانت له قصائد كثيرة ألغت (المناقضات) بينه وبين الفرزدق
والأخطل . وخير مثال من هذه النقائض قصيدته التي يناقض فيها ميمية الفرزدق (٣) عندما
مدح سليمان بن عبد الملك وذكر مقتل قتيبة بن مسلم بسيف وكعب ، فيرد عليه جرير ناقضا فيها
أقواله إذ يرد مديحه لنفسه هجاء ، ويقلب نغمة مثلبة وانتقاصا .

٤ — خصائص شعر الحرب عند الهجائيين

أخص خصائص الشعر الحربي لدى شعراء الهجاء الثلاثة بما يلي :

- (١) كان الكلام على الحرب من لوازم شعر العصر الأموي ، لما كان فيه من الحروب والفتن .
- (٢) لم يتفرغ شعراء الهجاء لنظم (ملاحم) ولا شبهها ، وإنما اكتفوا بأبيات يصفون فيها
الحرب ويعرضون أثناءها تصوير لمحات مخطوفة من المعارك .

(١) ديوان جرير السابق ج ٢ ص ٦٠ . وطبقات الشعراء ط أوربا ص ١١٢ — ديوان جرير ج ٢

ص ٦١

(٢) ابن حلاس وغرهل محاربان .

(٣) ديوان جرير ج ٢ ص ١٣١ . وردت فيه قصيدة الفرزدق الميمية ونقيضتها بعدها من جرير

(٣) لم يكن شعر الحرب غاية عندهم، وإنما كان وسيلة إلى مدح الظافرين، أو هجاء المخذولين ولذلك قصرُوا في القيام بقصائده التي كان ينبغي أن يفردوها له ، وأن يقولوها في سبيله .

(٤) طغيان التهاثر عليهم ، والتساب ما بينهم ، شغلهم عن التفرغ لنظم شعر حربي مثالي .

(٥) قلة اشتهارهم بالشجاعة وحمل السلاح جعلهم في شعر الحرب دون الشعراء الفرسان

الذين كانوا في الجاهلية وفي الإسلام أو عاصروهم :

(٦) نخامة شعرهم وقوة جرسه وصلابة عباراته وبخاصة شعر الفرزدق ، كان خير قصيد

لإظهار أشعار الحرب في حالها القشبية . ولو هم بذلوا من أنفسهم في هذا السبيل شعرا طويلا في موضوع واحد ينظمونه في الحرب وما إليها من مقدمات ومنتوج ، لتركوا لنا الملحمة العربية المنشودة .

(٧) شعر الفرزدق طنانة قوافيه . وهي الصالحة لشعر الحماسة ، فقد أشاع الفرزدق في الشعر

العربي من الوجهة الفنية ، الهاءات المردفة بعد الروى وما يسميه العروضيون بالخروج والوصل كقوله :

مناهل رواحله ، دائره مشافره ، دعائه حاسمه ، عواقبه كانه ، رسولها فضيلها . . .

وصلح هذا الضرب من القوافي عند الفرزدق لشعر غره كله . وكان لدى صاحبيه الأخطل

وجرير قوافي طنانة تشبه قوافيه وتصلح لما صلحت له .

(٨) شيوع ألفاظ الحرب والتشبيه بآلاتها كان سياق لغة الجاهلية في شعر الحرب ،

وخاصة لدى الهجائين . فالخيول والسيوف والرماح مستفيضة الذكر في كل أبياتهم .

(٩) كان شعر الهجائين شعراً جاهلي الأسلوب ، ازداد من تعبير القرآن الكريم ، وكلام

الحديث تعابير إسلامية . لكنها على حدائنها وانصقالها ، لم تغير من النزعة الجاهلية في لغة الشعر .

(١٠) النزعة القبلية والدعوى العصبية ومناظرات الأنساب التي شاعت في شعر الهجائين ، جعلت

شعر الحرب لديهم مصبوغاً بتلك النزعات والدعوات والمناظرات ، فردتهم وهم في إبان العهد

الأموي إلى جاهلية لم يؤثر فيها حض الرسول صلى الله عليه وسلم على أطراح عزاء الجاهلية ،

(١١) كان شعر الحرب لدى الهجائين كالأنباء الحربية المقتضبة في زماننا ، وكان هؤلاء

الشعراء صحفاً بشرية حية ، متعادية على نحو صحفنا التي ألفها في عصرنا ، تروج أخبار أحزابها

وتسفه آراء الخصوم . وكانت أموال الخلفاء والأمراء التي تسكت بآلاف الدنانير لمقالة هذا

الشعر وإذاعته ؟ كالأموال التي تصب في أيامنا على الصحف . وكان لا يكاد أحد الشعراء

من هؤلاء الفحول يقول قصيدة حتى يرددها الناس ويتناقلوها في سوق المربد وفي البيوت ، (١)

البقيع الساب

شعر الحرب الخارجية زمن بني أمية

(١) شعر الحرب وراء فرسانه

بلغ الفتح العربي على عهد الدولة الأموية إلى مملكة الصين . وحارب أبطال العرب في فتوح هاتيك البلاد بمعارك لم تكن حوماتها أقل ججيا من حومات الوغى في قلب فارس وأباطح العراق . ولم تكن جيوش العرب في تلك البقعة متفرغة للفتح وحده . ولو تفرغت له وحده لعمت بسطان الإسلام أقطار الأرض . ولكن تلك الجيوش كانت مشغولة عن غزد المسير للفتح بالإحز بين القواد والأجناد ، وخلع الخلفاء والوثوب على الأمراء .

وكان جيش العرب في تلك الأصقاع أكبر جيش محشود . فان جيش يزيد بن المهلب بلغ مائة ألف مقاتل سوى الموالى والمماليك و (المطووعين) . وقد قاد يزيد بن المهلب هذا الجيش ومعه أولاده حتى تفتحت أمامه حصون دهستان بعد أن قتل من أهلها أربعة عشر ألفا ، ثم اندفع على جرجان ، ومات يزيد وهو في طفرة هذه الفتوح لامية بطل فاتح بين عساكره الذين يحتفون به ويبيكون عليه ، وإنما قتل قتلا ، وأنكر بنو مروان حسن بلائه وسطوة حربه . وأمعن العرب غزوا حتى بلغوا سمرقند والصغد فسقط من أبطالهم في هذه الوقعات كثير ، منهم المسيب بن بشر وكان (ثابت قطنة) الشاعر الفارسي على ميسرة الجيش وكان قد بايع المسيب بن بشر على الموت . وقد قطعت في إحدى هذه المعارك يد بطل اسمه البسختری (١) . فأخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذب بيديه ، المقطوعتين ، حتى استشهد . وكان هؤلاء المقاتلون وراء خراسان يحسبون أن القيامة قد قامت في معاركهم من دهمهم القوم ووقع الحديد وصهيل الخيل . فقال الشاعر ثابت قطنة — وقد ضرب عظيما من عظماء الترك يصف في إحدى هذه الحروب استمراء المحاربين حتى كادت نساؤهم تحالط المشركين محاربات .

فدت نفسي فوارس من تميم
غداة الروع في ضنك المقام

فلولا الله ليس له شريك وضربني قونس الملك الهام
إذا لسعت نساء بني دثار أمام الترك بادية الخدام (١)

وحين توجه سعيد بن عمرو الحرشي إلى بلاد الصغد وفرغانة قاد جيوش المسلمين وخطبهم فقال : لسنا نقاتل عدو الإسلام بكثرة ولا بعدة^٢، ولكن بنصر الله وعز الإسلام ، وأنشأ يصف بطولته بشعره ، ويشد عضده بفخر الأهل والقبيلة فيقول (٣) :

فلست لعامر إن لم تروني أمام الخيل أظعن بالعوالي
وأضرب هامة الجبار منهم بعضب الحد حودث بالصقال
فما أنا في الحروب بمستكين ولا أخشى مصاولة الرجال

ودوخ سعيد الحرشي ما وراء خراسان حتى بات العسكر يتناشدون فيه مثل هذا الرجز :

إذا سعيد سار في الأخماس
في رهج يأخذ بالأنفاس
دارت على الترك أمر الكاس
وطارت الترك على الأحلاس
ولّوا فرارا عطّل القياس

وكان النصر قد يميل عن المسلمين فلا يفرعهم القتل ولا يثنيهم فوز العدو عن الإمعان في الفتح والجهاد في سبيل الله . وكما كان بين أولئك الجنود العرب من معاميد تركوا الهوى من أجل الحرب . بينهم الشرعي الطائي الذي كان يذكر فئاته هنداً ، وهو منقطع في بلاد نائية فيصف لها ما يلاقى ومعرشه في ربوع السغد والشاس ، عند خاقان ونيلان وجنودهما الجلاد ، أسفا على قتال العرب في الدار البعيدة وقد طمع بهم ملوك الترك وأثخنوا فيهم الجراح :

تذكرت هنداً في بلاد غريبة فيا لك شوقاً هل لشملك جمع
تذكرتها والشاس بيني وبينها وشعب عصام والمنبايا تطلع
بلاد بها (خاقان) جم زحوفه و (نيلان) في سبعين ألفا مقنع
إذا دب خاقان وسارت جنوده أتتنا المنبايا عند ذلك شمرع (٣)

(١) بادية الخدام أي مقطعة الآذان وفي الحديث كأنكم بالترك وقد جاء تسكم على براذين مخدمة الآذان أي مقطعتها .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٦٩ .

(٣) ورد هذا المعجز في الطبري (ج ٨ ص ٩٥) على هذه الصورة وحق الإعراب نصب القافية للحالية ولعله تصحيف صوابه (أتتنا المنبايا عند ذلك تشرع ، أو أتتنا منبايا عند ذلك شرع فتكون شرع صفة لمنبايا) .

وانخذل المسلمون في وقعة الشعب التي دارت بين قائدهم الجنيد ، وبين خافان انخذالة مرة ،
أنطقت شعراهم بوصف القهر وتصوير الخذلان الذي لحقهم . فكان من هؤلاء الشعراء
المحاربين ابن عرس العبدى ، فقال دالية مطولة يذكر فيها انكسار صحبه العرب تلقاء الترك في
ما وراء خراسان غير كاذب ولا موارب ، كاتباً على معشره الخذلان ، صادقا في شعر
الحرب فقال :

أين حماة الحرب من معشر كانوا جمال المنسر الحارذ
بادوا بأجال توافوا لها والعائر الممهل كالبائس (١)
كنا قديما يتقى بأسنا وندراً الصادر بالوارد
حتى منينا بالذى شأبنا من بعد عز ناصر آئد (٢)
ثم يخاطب الجنيد قائد هذه الوقعة وكان بعدها يلوذ بالبيكاه :

تبكى لها أن كشفت ساقها جدعا وعقرا لك من قائد
تركنا أجزاء معبوضة يقسمها الجازر للشاهد
أضحت سمرقند وأشياءها أحدىثة الغايب والشاهد
ثم يذكر الأبطال الذين سقطوا في هذه الوقعة فيقول :

فكم ثوى في الشعب من حازم جلد القوى ذى مرة ماجد
يستنجد الخطب ويغشى الوغى لا هائب غس ولا ناكد (٣)

وراح ابن عرس في أواخر هذه القصيدة يقرع القائد الجنيد ويجر عليه سوء المغبة ، في
قتل الألوف من المسلمين بخطط قيادته ، إذ يقول :

لا تحسبن الحرب يوم الضحى كشربك المزاء بالبارد
جنيد ما عيصك منسوبة نبعها ولا جدك بالصاعد
خمسون ألفا قتلوا ضيعة وأنت منهم دعوة الناشد

وقد جعل الشاعر هذه القصيدة رسالة الخذلان والقهر إلى خالد بن عبد الله القسرى فقال
في آخر بيت منها :

قصيدة حبرها شاعر تسعى بها البرد إلى خالد

(١) العائر المنفلت .

(٢) بضرب الشطر الأول كان تصحيف وهو شامنا بالميم ولا جواب له .

(٣) الغس الضعيف .

وانه ليبين في نظرة النقد ان أكثر هذا الشعر الذى قاله الشعراء في الحرب وراء خراسان، أو ما وراء النهر ، وفي فتوح تلك الأصقاع قرابة الصين كان شعرا سهلا لا يعلو به فنه إلى أدنى منزلة من منازل شعر الفحول ، في عصر بنى أمية ، فكثير من قوافيه قلقلة ، وفي معانيه ابتذال وفي تراكيبه شئ من الركاكة ، ولعل لأصحابه معذرة في أنهم لم يصقلوه وهم على حرب ، على أن منهم من عرف بالشعر المحكم كصاحب قطنه ، ومن تهب في أبياته الفجولة ، كبن عرس ، فاذا أغمض الفن عينه عن هذا الشعر شفيع له صدقه وسداجته ، فكان من الشعر الذى قبل للحرب فحسب ، وعد نفسه لصدق حماسته ، وأصالة بواعثه ، ووحدته موضوعه .

(٢) الشعر في حرب الروم

تهتز نفسى وتأخذنى العزة بالحماسة حين أتحدث عن نهوض (أبى أيوب الأنصارى) إلى حرب الروم وهو شيخ هدمته الحروب والسنون ، وإنه لمريض لقد كان في جيش يزيد حين سيره معاوية ومعه أبو العباس لحرب الروم . ونهض لهذه الغزاة كل مجاهد فلم يتخلف أحد . فلما صار جيش العرب على خليج في دربهم ، ثقل أبو أيوب فأناه يزيد عائدا فقال (١) : — ما حاجتك أبا أيوب ؟ فقال : أما دنياكم فلا حاجة لى فيها ، ولكن قدمنى ما استطعت في بلاد العدو فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح) أرجو أن أكون هو .

ولكن المنية أدركت الشيخ البطل أبا أيوب دون مناه وما زال جيش المسلمين يغذ سيرا في أرض الروم دون أسوار القسطنطينية ، فقام يزيد بتكريم الرجل الصالح الذى ذكره الرسول وأمر بتكفينه وحمله على سرير ، ومضت الكتائب تحمله على عواتقها حتى جاور الأسوار الموعودة ، فأشرف قيصر وجمل يرى سريرا يحمل والناس يقتتلون ، فأرسل إلى يزيد : « ما هذا الذى أرى ؟ فقال يزيد : هذا صاحب نينسا ، وقد سألتنا أن نقدمه في بلادك ونحن منفذون وصيته ، أو تلحق أرواحنا بالله .

فأرسل إليه قيصر :

« أبوك كان أعلم بك ، فوحق المسيح لا حفظنه بيدى ، .

ويقول صاحب العقد الفريد إن قبر أبى أيوب كان معروفا في القسطنطينية إلى يومه ، بنى عليه قيصر قبة يسرج فيها .

(١) العقد الفريد ط سنة ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٣٢ / ١٣٣ وتاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٣٠ وصلة

تاريخ الطبرى ص ١٥ (الطبعة الحسينية بمصر) .

كذلك كرم قيصر بطل العرب الشيخ الذى كان يرجو أن يموت على أسوار بلاده . . إلى
لأذكر هذه البطولة العربية التى حض عليها الإسلام وأرث ناراها الإيمان وباركها الرسول .
أذكرها ، وألوب على الشعر العربى الذى قاله الشعراء فى حروب الروم عصرَ بنى أمية ، فلا
أقع منه على ما ينقع الغلة من مثل شعر الحرب فى معارك الفتن فى العراق والحجاز والشام وفى
فتوح المشرق .

وقد كان العرب فى عهد بنى أمية يغزون ثغور الروم . وكانت جيوشهم التى يغزون بها
الروم تسمى « الصوائف » فهى تجهز فى أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار ، (١)
وقد عللت قلة الشعر الذى يصف حروب العرب مع الروم فى هذا العهد بما ذكره ابن
خلدون حيث يقول « وكانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية وحدثت الفتن ،
واشدت الفتن أيام عبد الملك واجتمعت الروم ، واستجاشوا على أهل الشام ، فصالح عبد الملك
صاحب القسطنطينية على أن يودى إليه كل يوم جمعة ألف دينار ، خشية منه على المسلمين
وذلك سنة سبعين لعشر من وفاة معاوية .

وفى سنة ٩٨ للهجرة جهز سليمان بن عبد الملك جيشا إلى القسطنطينية بقيادة مسلمة أخيه
فبلغها فى مائة ألف وعشرين ألفا ، وعبر الخليج وشد الحصار على المدينة ثم صالح أهلها ،
فنقل إليهم الطعام والمؤن التى كانت معه فارتدوا عليه محاربين وأغلقوا أسوارهم « فلقى جنده
ما لم يلقه جيش آخر ، حتى كان الرجل يخاف أن يخرج من المعسكر وحده من البلغاريين الذين
استجاشهم لاون البطريق » ، (٢) .

وقد كفانى ابن خلدون مؤونة التقصى وراء شعر العرب فى حرب الروم ، إذ وجدت أن
العرب لم تكن حربهم حرب جد مع الروم فى عهد بنى أمية ، فإن اشتغالهم بالفتن واستقصاء
المشرق كان عبئا على سيوفهم قد يزيد أمر الروم ثقلا وحملًا . ولعل الشعراء فيهم لم يشهدوا
حروب الروم شهودهم غيرها ، مما أجادوا وصفه وذكر وقائعه .

وكان عبد الملك — كما يذكر ابن خلدون — قد خفض الجناح لصاحب القسطنطينية ، فكان
يودى إليه ما لا خشية منه على المسلمين فى بلاده . وكان قبله معاوية يتبع المسالمة مع الروم
« فإذا أتاه عن بطريق من بطارقة الروم كيد الإسلام احتال له ، فأهدى إليه وكاتبه » ، (٣) .

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٣ باب أخبار الصوائف وحصار القسطنطينية ص ٧٠ .

(٢) تاريخ مختصر الدول لريغوريوس بن هرون الطيب الملقب المعروف بابن العبري طيروت

سنة ١٨٩٠ وقوف الأب صالحانى .

(٣) رغبة الأمل من كتاب الكامل للمصنف ط النهضة بمصر ج ٥ ص ٣٩ .

ولست أذهب إلى أن العرب كانوا خانعين في محاربتهم للروم ، فإن الشواهد كثيرة على مناجزتهم لهم الحرب منذ أيام الوليد بن عبد الملك ، وأن الحرب كانت سجالا بينهم . وكما كان الروم أيام عبد الملك يؤمنون المسلمين في بلادهم فقد كان من بعد ذلك عمر بن عبد العزيز يؤمن الروم في الشام ، إذ يذكر البطريق أفثيشيوس المعروف بسعيد بن البطريق^(١) وإن عمر ابن عبد العزيز كتب للنصارى سجلا أنهم آمنون على كنائسهم التي بدمشق ، والديار التي خارج دمشق في الغوطة ، لا تخرب ولا تسكن ، وليس لأحد من المسلمين عليها سلطان وأشهد لهم بذلك .

وظل العرب يغيرون في عصر بني أمية على بقاع الروم ، مما يلي أنطاكية حتى حدود القسطنطينية ، وكانوا يشتون بها ثم ينصرفون عنها إلى قابل^(٢) .

فإذا عرفنا ذلك فليكن كله سببا لثلا يتفرغ شعراء العرب لوصف حرب الأمويين مع الروم كما تفرغوا لوصف حروب العرب للروم زمن بني العباس .

غير أن قليلا من الشعراء الأمويين كانوا يشيرون إلى هذه الحروب الرومية ، والظاهر أنها كانت تشغل شعراء الفتح الإسلامي في أيام الخلفاء الراشدين أكثر مما شغلت شعراء العصر الأموي . وقد وجدت مثالا لذلك (عبد الله بن سبرة الحرشي) وكانت قد قطعت يده في بعض غزوات العرب للروم فرثاها ووصف وقعة يوم فلتاس فصور كيف بارزه أرطوبون الروم وضربه بالسيف على يده فز أصابعه وترك أصل كفه . وكان أجمل من وصفه لبطولته ومبارزته ، وصفه لشعر الأرطوبون وقد تهدل فكأنه هدا ب مخملة أسود لم يخالطه بياض حول رأس أصلع . وهي قطعة تصويرية لحرب العرب مع الروم تكاد تقوم بالعدر عن غيرها من الشعر يقول فيها^(٣) :

يمنى يديّ عدت منى مفارقة	لم أستطع (يوم فلتاس) لها تبعا
وقائل غاب عن شأني وقائلة	هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله	نحوى وأعجز عنه بعد ما وقعنا

(١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق للبطريق أفثيشيوس ط الآباء اليسوعيين ببيروت

سنة ١٩٠٥ ص ٤٤

(٢) فتوح البلدان للبلاذري طبعة الشركة العربية بمصر سنة ١٩٠١ ص ١٧٢ .

(٣) أمالي القائل الطبعة الثانية لدار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ ج ١ ص ٤٧ و عيون الأخبار ط

دار الكتب المجلد الأول الجزء الثاني ص ١٩٣ . والطبرى طبع أوروبا ص ٢٠١٦ .

ما كان ذلك يوم الروح من خلق
ويل امه فارسا أجلت عشيرته
يمشى إلى مستميت مثله بطل
كل ينوء بماضى الحد ذى شطب
حاسيته الموت حتى اشتف آخره
كان لمتنه هداى مخملة
فإن يكن (أرطبون) الروم قطعها
وإن يكن (أرطبون) الروم قطعها
بناتين وجزمورا أقيم بها
ولو تقارب من الموت فاكنتما (١)
حامى وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا
حتى إذا أمكناسيفيهما امتصعا (٢)
جلى الصياقل عن دريه الطبعا (٣)
فما استكان لما لاقى ولا جزعا
أحم أزرق لم يشمط وقد صلعا
فإن فيها بحمد الله منتفعا (٤)
فقد تركت بها أوصاله قطعاً
صدر القناة إذا ما أنسوا فزعا (٥)

ولم يقصر بعض الشعراء الذين كان عليهم لزماً أن يتمدحوا ببنى أمية وفيهم النابغة
الشيباني أن يقولوا شيئاً من الشعر في حرب الروم ، فكان أن مدح نابغة شيبان الوليد بن عبد الملك
وذكر أخاه مسلبة فوصف حصار العرب لمدينة رومية وضر بهم لأهلها بقوله (٦)

أخزى (طرندة) منه وابل برد
ما زال (مسلمة) الميمون يحصرها
وقد أحاطت بها أبطال ذى لجب
حتى علوا سورها من كل ناحية
فأهلها بين مقتول ومستلب
تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحية
وعسكر لم تقده العزل الجوف (٧)
وركنها بشقال الصخر مقدوف
كما أحاط برأس النخلة الليف
وحان من كان فيها فهو ملهوف
ومنهم موثق فى القد مكتوف
والله يعلم ما تخفى الشراسيف (٨)

ولم يخل الأخطل على حرب الروم فذكرها في شعره لماماً ، وقد أخذها سيلاً إلى مدح الوليد
ابن عبد الملك فأفاض في وصف الخيل التى ذهبت به إلى تلك الديار مجتازة بالصحراء ويقصد

(١) اكنتما — دنا

(٢) امتصعا — بعدا .

(٣) الشطب طرائق السيف ودرية من الدر والطبع الوسخ الشديد .

(٤) الأرطبون والأطربون — رئيس الروم .

(٥) الجذمور الأصل (٦) ديوانه ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٢ ص ٥١ .

(٧) طرندة بلدة فى بلاد الروم . (٨) الشراسيف أطراف الأعضاء ويقصد بذلك الجوارح .

بذلك صحراء تدمر في طريقه مجتازا أحياء العرب حتى بلغ ديار الروم ، فهو يقول للوليد :
 وفي كل عام منك للروم غزوة بعيدة آثار السنا بك والسرب
 وإن لها يومين يوم إقامة ويوما تشكى القرض من حذر الدرب (١)
 ولا ينسى في آخرها فحيزة الهجاء ، ونعرة التشفي من جرير ، فيقول له :
 يقولون ذبب يا جرير وراها وليس جرير بالمحامي ولا الصلب
 ويذكر الأخطل حرب الروم في سياق هجائه لقيس عيلان ويمدح الوليد بقصيدة
 ثانية فيقول :

بكفيه الأعنة لا سووم قتال الأعجمين ولا ضجور
 قتلت الروم حتى شذ منها عصائب ، ما تحرزها القصور
 وثلك الأخطل مفاخرا بغزوات الوليد للروم ، وفتح بلادهم بشجعانه وجيوشه ، فقال :
 وإن أتعرض للوليد فإنه نمته إلى خير الفروع مضاربه
 وما بلغت خيل امرئ كان قلبه بحيث انتهت آثاره ومحاربه
 وتضحى جبال الروم غبرا فجاجها بما أشعلت غاراته ومقانبه
 ولم يكن المؤرخون يحتفون بما قيل من الشعر في حرب الروم فإنني لم أجد واحدا منهم
 ذكر شيئا من الشعر في عصر بني أمية قيل في حروب الروم ، حتى أن ابن خلدون أرخ
 هذه الحرب لزمن بني أمية في فصل واحد ولم يذكر فيه بيتا واحدا من شعرهم في تلك الحروب .
 وقد بت أعجب لوقعة أرمينية التي كان على جيوشها عثمان بن الوليد في أربعة آلاف من
 المسلمين فلقية الروم في ستين ألفا . فهزمهم وأثنى فيهم القتل والأسر ، ولست أناقش هذا
 الخبر لقلة عدد العرب وكثرة عدد الروم . وإنما الذي يعنيني جهة الأدب فيه ، إذ لم يبلغنا أن
 الشعراء قالوا في هذه الوقعة ما يحتفل بروايته . ولست أزعم أن مثل هذه الوقعة تخلو من
 الشعراء وأحسب كان من فرسانها فيهم كثير .

إن الرقعة التي تقع بين القسطنطينية وأنطاكية كانت مسرحا لحرب العرب مع الروم زمن
 بني أمية ، ولقد فتح العرب منذ أيام خالد بن الوليد إلى أيام مروان بن محمد بلاداً كان فيها
 الصقالبة والألان والفرنجة ، ومن هذه البلاد أماسية ، وخرشنة ، وعمورية ، وسلوقية ، وقيسارية
 والمصيصة ، وفيها حصون فتحها العرب كحصن بولق ، والأخرم ، وبولس ، وققيم ، وحصن
 المرأة (٢) . وفي كل ذلك شاحذ للشاعر الأماوي ليقول في آثار العرب بحربها . ولعل شعراء

(١) يقصد بالدرب الطريق إلى ديار الروم وهو الدرب الذي رآه صاحب امرئ القيس دونه وبكى

(٢) حدد أحمد بن جعفر اليعقوبي في تاريخه (ط أوربا سنة ١٨٨٣ ج ١ ص ١٧٧) أن ملكة

العرب لديار الروم — في عصر بني أمية — كانت من حد الفرات إلى حد الاسكندرية .

قد قالوا شعرا في تلك الحروب ، ووصفوا هاتيك الأصقاع زمن الأمويين ، ولكن لم يبلغنا من شعرهم إلا القليل تنسم فيه روائح البطولة العربية في ديار الروم ، ونسمع في هذه الآيات القليلة ، جلجلات سلاحهم في محاربة الصقالبة ، ومقارعة الأرطبون .

فيل

الشعر الحربي والرجز

راج عند العرب في حومة الحرب أن يرتجز أبطالهم بيتاً أو أكثر ، ولا يزيد مثل هذا الرجز على خمسة أبيات أو ستة ، ولعل الرجز — وهو كما يقول رواة الأدب القديم كان أول ما ابتدع العرب من أوزان الشعر نتجوه من مشية الناقة ، وفي لغتهم الناقة الرجاء هي التي تمشي الرجز .

فهو إذن سهل على ألسنتهم . ولذا تناولوه في الحروب حين المبارزة والمناجزة ، فكان على شبا السيوف وأطراف الأسنة ، ولم تشغلهم عنه فجائع القتال ، ولا مواجهة الهلاك ، فكانوا إذا هجموا على العدو ارتجزوا والخييل تهوى بهم نحوه ، وكانوا يهددون جراحاتهم بلحونه ، ففي فتنة حجر بن عدي الكندي ضرب رجل من جذام ، كان في شرطة زياد ، عبدالله ابن خليفة الطائي بعمود فصرعه فقال هذا البطل رجزه وهو يهوى إلى مصرعه

قد علمت يوم الهياج خلتي أني إذا ماقتي تولت
وكثرت عداتها وقلت أني قتال غداة ثلت

وكسرت يد عائد بن حملة التميمي ونابه ، فقال مرتجزا وهو في حومة الوغى :

إن تكسروا نابي وعظم ساعدي

فإن في سورة المناجد

وبعض شغب البطل المبالد

وظاهر أنهم كانوا في معترك الحرب يتفاخرون ببطواتهم وفروسياتهم وقديم أيامهم التي شهدوها .

يذكرون ذلك في خطابهم للمرأة ، شأنهم فيما أشرت إليه من سوابق هذه الرسالة ، إذ كانوا يحسون زهواً بين أيدي النساء إذا علمن منهم أخبار تلك البطولة ، وحوادث هذه الفروسية ، فلقد حدثوا عن المسيب بن نخبه ، أنه كان في يوم د عين الوردة ، فاتكا شديداً ، ماظن أن رجلاً واحداً يقدر أن يبلى مثلاً أبلي ، ولا ينكأ من عدوه مثلاً نكأ . لقد قتل رجلاً . وسمع يقول رجلاً قبل أن يُقتل ، فيذكر فيه المرأة التي كان يهواها وهي مبالاة الذوائب بيضاء

صفحة الصدر ، ويعلمها آثار بأسه ، وفعل شجاعته ، وأنه أشجع من الأسد فيقول مرتجزا :

قد علمت ميالة الذوائب
واضحة اللبات والترائب
إني غداة الروح والتغالب
أشجع من ذى كبد موائب
قطاع أقران مخوف الجانب

وكان بطل من الشيعة يصبح بالثارات الحسين ! فرمى بنفسه في المعركة وارتجز حتى
قتل وهو يقول :

أنا ابن شداد على دين عليّ لست لعثمان بن أروى بولى
ولم يكن الشعراء الأمويون الذين كانوا بعيدين عن بعض الحروب بأقل رجزاً ممن شهدوها
أو كابدوها ، فقد ارتجز « القطامي » مدحة ليزيد بن المهلب فتعنى أن يراه قائدا للجحفل اللجب
تميد الأرض من تحته ، يجشو أمامه ذوو التيجان ، ويكون له كل يوم عيد بانتصاره على
أعدائه فقال :

لعل عيني أن ترى يزيدا	يقود جيشا جحفلا شديدا
تسمع للأرض به وئيدا	لا برما هدا ولا حسودا
ولا جبانا في الوغى رعديدا	ترى ذوى التاج له سجودا
مكفرين خاشعين قودا	وآخرين رحبوا وقودا
لا ينقض العهد ولا المعهودا	من نفر كانوا هجانا صيدا
ترى لهم في كل يوم عيدا	من الأعداء جزرا مقصودا

وقد قصّد هؤلاء الشعراء الأمويون قصائد الرجز فطولوها وهملوها ، كما فعل العجاج
وابنه روبة وأصحاب (الفرقة الراجزة) وخرجوا فيها عما ألف شعراء الجاهلية . وكان أغلب
هذا الرجز شعراً حماسياً ، وكأنه أناشيد حربية ، وما كان ينبغي أن نعد أصحابه قد ركبو
الحير . وأحسب أن حمار الشعر هو الرجز المنفرد كرجز النخاعة وأصحاب العلوم الفقهية .

ولست بسبيل الدفاع عن الرجز ، كفاً منه أنه كان صدى حرياً لجرس النفوس التي
كانت تقوله وهي في زحام الطعان ، ومدارج الردى ، فكان كنغمة موسيقية تحدد نبرات
الطنانة قائلها في ركب الحروب . ولو أحصى ما قال المتبارزون والمتقاتلون ، في طویل حروب
العرب وأيامها ، من هذا الشعر ، لجاء جما فياضاً تضيق عنه الدواوين ، ويتعابا على الراوين .

وهو في جملة شعر حربي ، دفاق بذكر الدماء ، فوار بصلصلة السلاح ، يكاد يكون لزاما لكل فارس جلد ، وبطل عنيد .

أما بقية الأوزان في شعر الحرب ، زمن بني أمية ، فكانت في الأغلب الأوزان الطوال آثر عند الشعراء من الأوزان القصار ، لاستيعاب أبياتها جملة المعاني . فإن الشعر القصير في أوزانه ، ضيق الصدر بمعانيه ، ولذا نجد أن الكثرة الغالبة في شعراء هذا العصر تفيض قرائنهم على البحر الطويل ثم يتبعه في البحور ما كان رباعى التفعيل ، ثم يأتي ثلاثيه . وقد قل نظمهم شعر الحماسة على المجزوء ، ولعل تعليل ذلك قرب العرب في هذا العهد من جاهليتهم . فكان شعراؤهم يمشون في أبحر الشعر على غرار الأوائل . حتى إذا حانت نوبة شعر الحرب في العصر العباسي أقبل شعراؤهم بلين مبانيهم وحلاوة معانيهم ، فزادوا على الأولين بعد طوال البحور صغارها ، وافتنوا فيها الأفانين فكان شعر الحرب في أدهم أعم معنى وأسهل مبنى ، وأرق جرسا ، فيه القصص الحربي ، وفيه وحدة الموضوع .

فأتمم

الخصائص العامة لشعر الحرب الأموي

أختم الكلام على شعر الحرب في العصر الأموي بذكر خصائصه العامة التي ألخصها فيما يلي :

ما يتعلق بالأسلوب :

(١) مشابهة الشعر الحربي في عصر بني أمية لحماسة الجاهلية ، ففي كليهما جزالة لفظ ، وروعة ديباجة ، حتى لا يكاد النقيض يستطيع التفريق بين الأسلوبين إذا خفي عليه صاحباهما ، وإذا خلا شعر الحماسة الأموية عما يشعر بالزمن والتطور الفني كألفاظ الدين وتعايير الإسلام .

(٢) قد ينحط أسلوب الشعر الحربي في عصر بني أمية عن أسلوبه في الجاهلية عند بعض الشعراء الأمويين غير الفحول .

(٣) اتسام الشعر الحربي في هذا العهد بألفاظ جديدة دينية ، وتعايير إسلامية ، وذكر آيات من القرآن الكريم ، وكلمات لها مصادر من الحديث الشريف .

(٤) إطالة الأنفاس في القصائد ، مما لم يعرفه الجاهليون في موضوع واحد كالحماسة ، فإن في الشعر الحربي الأموي قصائد طويلة في مساق الحماسة ، وإن لم يكن الشعر عامة قد تحرر في هذا العهد من تشعب الموضوع وازدحام القول في غير غرض واحد . وقد كان للشعراء الفحول من أهل الهجاء الفضل البعيد في إطالة هذه الأنفاس ، في الشعر الذي يجري على روى واحد .

(٥) فرض الشعر الحربى ميسمه على فصاحة الشعراء . فكان من ضرورة شكله ؛ وهو للحماسة والبأس والفخر والعزة ؛ أن تجيء أشعارهم فيه قوية رصينة ، ذات جرس وجزالة ، لتكون كلها ظروفًا لقعقة السلاح ، وحمات الخيل ، ومقتلة الأبطال ، واحتدام المعارك . فيما يتعلق بالموضوع :

(١) اتساع الآفاق الاجتماعية والسياسية في العصر الأموى أغنى الشعر الحربى بالمعاني ، فكثرت فيه الأخيلة وقلت فيه السذاجة الجاهلية .

(٢) كثرت فيه معاني المبالغة في السطوة والبأس لدواعيها الزمنية ، فإن الحروب الأموية والفتن كانت تحمل على استنباط المعاني الجديدة في تصوير الحماسة والشجاعة والمقاتل .

(٣) وجود المعاني الإسلامية كالجنة والنار والثواب والعقاب والشهادة ، وما يقتضى هذه المعاني من تصوير قى لميعة الأعداء ، وعالم الآخرة في نعيمه المقيم .

(٤) ركوب السياسة عواتق الشعر الحربى ، وتصريفها إياه في أغراضها الخاصة والعامة .

(٥) شيوع الهجاء خلال الحماسة ، وشيوع الفخر خلال الشعر الحربى للعلاقة الوثيقة بين هذه المعاني .

(٦) ذكر العصبيات من يمانية وعدنانية وقيسية وتغلبية حتى صار أكثر القصائد الحماسية من هذين الضربين ، وخاصة ما قاله الفحول الهجائون في حروب قيس وتغلب ، ووقعات الجحاف ، وزفر بن الحارث وقوم الأخطل وجريز ، ومطاوله الفرزدق في أصوله وجدوده .

(٧) اقتران كثير من الشعر الحربى بمفاتيح الغزل شأن شعراء الحماسة الجاهلية من ذكرهم للمرأة في أثناء الفخر بالشجاعة ، وتشارك العرب في ذلك آداب الأمم الحماسية ، فقد كانت المرأة قرينة الشعر الحماسى ، منذ هو ميروس اليونانى إلى سيرانو دوبرجراك الفرنسى . وقد ظل هذا القران بين المرأة والحماسة في الشعر العباسى ، كما أذكر ذلك عند الكلام على شعر الحرب في العصر العباسى ، في الباب الثانى من هذه الرسالة ،

(٨) صفات الملاحم فيه ، فإن في شعر الحرب الأموى كثيراً من المعاني الحماسية التى تقتضيها الملاحم الكبرى ، وهذا يفتح باب التأميل في تكوين الملحمة العربية الكبرى من سدى هذا الشعر بعد أن تكون لحته من حماسة العصر الجاهلى .

(٩) سلطان التاريخ عليه أكثر من سلطان الفن ، بخلاف الشعر العباسى الذى كان لفنيته الأثر الأول فيه .

(١٠) كل ما ذكرته في الخصائص الفنية لشعراء الحرب عند الهجائين في هذا العصر ، يمكن أن يوصف به شعر الحرب عامة في العصر الأموى .

البَابُ الثَّانِي

شعر الحرب في العصر العباسي الأول

شعر الحرب في العصر العباسي الأول

الفصل الأول

تطور الشعر في العصر العباسي الأول

١ - تمهيد الدولة

أبان أبو العباس السفاح في خطبته على منبر الكوفة (سياسة العباسيين) بعد أن بويع بالخلافة، وكأنه قال (خطبة العرش) على نحو مانعبر عنه في مصطلح زماننا، لقد خطب قبل موقعة الزاب، وكانت الزاب هي المعركة الفاصلة بين الدولتين الأموية والعباسية. لقد قال للمسليين في هذه الخطبة الأولى (١).

أدر كنتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس. وكان الخليفة العباسي الأول مندفعاً في حماسة لاتنهاي، فقرر في آخر خطبته، أن هذا الأمر سيظل في بني العباس حتى يسدوه إلى عيسى بن مريم.

والذي أبهت له في هذه الخطبة التاريخية أن الدولة الهاشمية الموعودة قد رأت حلها يتحقق، وزرعها يزهر ثم يثمر، فأسعدت الناس كما قال خطيبها السفاح المير. وهي وإن أسعدت من كان يهواها أو يرضاها، وأشقت من شق لها الطاعة، وأوقد عليها الفن. فإن العصر العباسي الأول وما تبعه من تلك العصور كان أسعد حالا للناس من أعوام الأمويين، فإن أرواح الفن كانت تفتح كالأفاعي زمن أبي أمية، فهجعت قليلا هذه الأرواح المخوفة زمن العباسيين، واستطاع هؤلاء في زمان هجودها القليل أن يتنسّموا الحياة الجديدة التي جاء بها التحضر، فاشتد تمازجهم بالأمم التي فتحت أمصارها العرب قبلهم، وكثر زواجهم ببنات هذه الأمم، فأنساهم حسن هذه الجوارى، جمالها تيك الأعراب، وسكنوا في القصور،

(١) تاريخ البداية والنهاية لعلماد الدين أبي الفداء الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤. طبعة السعادة بمصر

ج ١٠ ص ٤٢. وتاريخ الطبري ج ٩ ص ١٢٦ الطبعة الحسينية.

وأجروا في القصور المياه ، وابتنى ملوكهم وأمرؤهم الصروح الممردة كالجعفرى والقفص ، وتابع الخلفاء والأمراء من دونهم من الرؤساء والقواد والعمال ، حتى سرت روح هذا التحضر في الشعب . وكان الشعب عامة في سواده أو قلته ، وفي أمصاره العراقية كلها ، يعيش متبجحاً وكانت تعتريه موجات من الضيق حين تشتد الثورات الداخلية ثم تنفرج . ويدلنا بذخ الخلفاء العباسيين في أكثر عصورهم على وفرة المال الذي كانت تنوء بغرائره الإبل ، وقوافلها تقبل من كل صوب ، ويبدأ في عرض الصحارى لتنسكب في بغداد .

وتحضر العباسيون في زمن لم تتحضر في فسحته القصيرة أمة مثلهم ، ففي أقل من خمسين عاماً تحضر العباسيون في عهدهم الأول فانقلبوا من شظف الحياة الأموية إلى نعمى لا عهد لهم بها ، وكانوا على الرغم من الحروب في الشرق والغرب ، يعرفون كيف يجدون السبيل إلى السرور والنعمة والحضارة . حتى كان عهد الرشيد وهو العصر الذهبي للعباسيين ، ثم تبعه عهد المأمون والمعتصم فالمتوكل . وقد كان القوم حقاً في تلك العهود كلها أسعد الناس كما قال أبو العباس السفاح في خطبته الأولى ، لقد كانوا أسعد الناس (لأنهم تحضروا) في الطعام والشراب والملبس والمأوى . وكان لامتزاجهم بالفرس أثر عظيم في لهوهم ومباهجهم فاستتموا مطالب التطور والتحضر حتى أفسدهم التحضر ، وقديماً كانت تجلب المدنية المفسد ، مثل شر لا بد منه للخير .

ولإنها لكلمة في استفهامها الجواب وفصل الخطاب : فأين من البيد عهد الرشيد ؟

٢ - تطور الشعر ونجده

وكما تحضرت الدولة العباسية ، فقد تحضر الأدب العربي ، وأصف تحضره بالتطور ، والأمم كما قلت في هذه الرسالة إن مذهب التطور الطبيعي الذي يتناول قضايا العلم يشمل الآداب والفنون .

لم يكن الشعر الأموى صالحاً لزمن العباسيين ، فديباحته القاسية الجزلة ، ومعانيه البدوية الموروثة عن الصحراء أصبحت غريبة . أو كادت تصبح مكروهة في العصر العباسي . ولذا نجد أبا نواس يحس بتلك المياسم القديمة في الوقوف على الأطلال ، ومناجاة النوى والحجارة فيثور ثورته المعروفة على مفاتيح القصائد ، وتبلغ به هذه الثورة إلى شتم العرب لما نسجوه في مطالع القصائد من الغزل بالمرأة ووصف الدار وآثارها العافيات . وهو بعد أن يدعو إلى تطور الشعر في مفاتيحه واستهلاله ، يجدد فيه فيرسم لمن عاصره ومن يأتي بعد ، كيف يكون استهلال القصيد ، فيجعله في ذكر الخمر والدنان ، والكؤوس والندامى .

ولم يقتصر الشعر في العصر العباسي الأول على التطور والتجديد ، بل لحقته فنون حديثة لم يكن يعلمها الشعراء الأوائل ولا ما رسوها ، منها ما يتعلق بمقاييس الشعر واشتقاق بحوره ومنها ما يناط بمعانيه ، كفن الزهد والتصوف ، والشعر التعليمي .

وكثر الغناء بالشعر وتغاوى أهل اللحن في اجتلاب الطرب . وشاع الرقص ، وكان للفرس الخطر الأقوى في طبع العرب بهذه الطوابع . وأكبر الظن أن الأمراء الفارسيين الذين استعملهم العرب هم أول من أدخل (الرقص العام) وضروب اللهو والمقاصف على العصر العباسي ، وأجد هذا سيلا إلى شعر المجون وظهور الشعراء الخلعاء . وفتحت بسبب كل ذلك آفاق جديدة أمام الشعراء ما عرفها أسلافهم ، فراحوا ينظمون القصائد والمقطوعات بفنون طريفة وعلى أنماط جديدة ، فيها تصوير وإغراق ، وقد زخرفوا اللفظ كما زخرفوا المعنى .

٣ — هل طرأ على الحماسة التغير ؟

كان من الطبيعي أن يصيب فنَّ الحماسة نصيب مما أصاب سائر فنون الشعر في هذا العصر ولكن لو عرضنا على التمييز تلك الفنون لوجدنا بعضها قد اضمحل أو تقاعس . كفن الهجاء ، فقد أصبح تبعاً للفخر ، ولم يكن بين الشعراء العباسيين الفحول تهاج كالذي كان بين جرير والاختل والفرزدق ، وليس يعدل هؤلاء بشيء ما كان بين بشار بن برد ومنافسيه من التهاجي ، ولا ما كان بين البحترى وابن الرومي من قذيع السباب . وصار الهجاء ضرباً من ضروب الشعر لا يحتفل به وحده ، كما كان زمن الأمويين . أما الغزل فخرج من قديمته الأموية إلى التنبذ والتهتك العباسي حتى صار في الغلبان ، وصار المدح سوقاً للتجارة يقف أصحابه أياماً بأبواب الخلفاء ليؤذن لهم بالإشاد .

وكان شعر الحرب وسط هذه الفنون العباسية الكثيرة ، يخضع للتطور ، فإن قرع المزارق ، وصولة الأبطال ، قد تغيرت عما كانت عليه في العصر الأموي . كان الأمراء والعمال في عهد بني أمية عرباً أقحاحاً ، وكذلك سواد العرب ، لقد كانوا أبناء الحرب وأحلاس الخيل ، كأنهم خلقوا من ضلوعها يمشون في حلق الحديد مشى الجبال البرزخ ، والموت هزأة في أفواههم ، وكان أكثر محاربيهم يلقون أنفسهم على السلاح ، لرفع كلمة الله . وقد تغير أكثر ذلك في العصور العباسية . فضاعت النزعة العربية أو ضعفت ، وتعاورت على شعر الحماسة في العصر العباسي الأول أزمات اجتماعية وأسباب سياسية ، ورافقت ذلك عوامل أدبية مجتمة تتعلق باللغة والبيان ، فانحط شعر الحرب عن الدرجة التي رقى إليها في عصر بني أمية .

وبجمل الأسباب التي دعت إلى ذلك وقوف الفتوح حيناً ، وفتور البطولة حيناً آخر ،
والقواد الأعاجم ، والشعراء الأعاجم .

ولست أنكر أن هذه الأسباب التي أدت إلى انحطام شعر الحرب كان إلى جانبها أمور
أدت إلى تألق معانيه ، وروعة خياله ، كتأثير الفارسية في الخيال العربي :

١ — وقوف الفتوح حيناً ، وفتور البطولة حيناً آخر

كان عهد الراشدين والعصر الأموي مائلاً بفتوح الشرق والغرب ، وكان الفتح مسعراً
الحماسة في شعر كل أمة ، فهو الذي يقدر خواطر الشعراء ، فتتقد ويجود أصحابها بشعر الحرب
الباقى على الزمن ، يخلدون به مجد الأمم ، ويسجلون ذكر الفتوح بشعر لا يبلى . فلما هدأت
الفتوح في العصر العباسي الأول هدأ معها شعر الحرب وفترت لواضع الحماسة ، وقامت فن
داخلية ملأت على العباسيين جو السياسة بالقتام ، فكان شعراؤهم يستجيشون عدة الحماسة من
موضوعات هذه الفن ، كما فعل البحترى وأبو تمام في فتنة بابك الخرمي ، فانهما أعطيا هذه
الفتنة الداخلية من شعرهما شطراً كبيراً ، قوى الحماسة ، بعيد الأثر في تاريخ الشعر في العصر
العباسي . ولكنهما كغيرهما من الشعراء الفحول كانا منصرفين إلى المدح المأجور ، والغزل .
والمطارحات ، فلم يكن شعر الحماسة قصدهما الأول في هذا الشعر . ولو نزعنا من شعر أبي تمام
مرثياته الأبطال الطوسيين ، وخاصة مرثيته لمحمد بن حميد الطوسي وأشعاره في أبي سعيد الثغري
وفتح عمورية ، لما بقي عنده في سائر شعره الكثير أثر للحماسة الحقة وشعر الحرب ، وقد كان
أبو تمام أجود من غيره في شعر الحماسة ، وأحسبه كان خيراً فيها إذ أحبها وأحب المختار من
شعرها فألف فيه ، وإنى لأعذره فهو شاعر قد صب في قوالب عصره ، ولو اتقدت الفتوح
في زمنه لوجدنا صداها في شعره صريحا ، كما وجدنا فتح عمورية وحروب الروم بما لم يعد عند
شاعر من قبله .

وكيف كان الأمر فإن وقوف الفتوح أو انقطاعها ، كان من الأسباب التي قعدت بشعر
الحرب في هذه الفترة .

ب — القواد الأعاجم

لم ييسح التاريخ بكل الحوادث . وقد باح الشعر بما كتبه التاريخ . لقد مدح أبو تمام
(الأفشين) بعد أن غلب على (بابك) وجاء به مقيدا إلى المعتصم ، فأدخل المعتصم
الشعراء على الأفشين ، وحملهم على مدحه ، وكان أبو تمام فيهم ، فقال أبو تمام فيه شعرا نافه

الحماسة كعود جف مأوه . فقلت لنفسي لو كان الأفشين عربيا هاشميا ، لكان لشعر أبي تمام شأن غير هذا الشأن في الحماسة ووصف الحرب ، ولذا نرى أكثر شعره في هذه الفتنة منصرفا إلى مدح المعتصم ، إذ كان المعتصم هو القائد الأعلى للجيش .
وإذا كان فخلا الشعر في العصر العباسي الأول هما أبا تمام والبحتري العربيين الصميمين فلا تريب عليهما أن يفتر شعرهما الحماسي في مدح القواد العجم ، فما كان لهما ولا لشاعر عربي سواهما أن يهجم على مدح العجم . لأن النزعة العربية كانت لا تزال مستحكمة في الأعراق ، وقد ضعف الحافظ ، فضعف المحفوز .

ح - الشعراء الأعاجم

كان لضعف الشعر الحماسي في العصر العباسي الأول سبب آخر يتعلق بالشعراء أنفسهم (فاعلين لا منفعلين) إن صح في العربية مثل هذا التعبير ، فإن من الشعراء من كان فارسيا في أصله من جهة أبيه أو أمه ، كبشار وأبي نواس . فلم يكن شعورهم ليرتاح للفتح العربي ، وذكر البطولة العربية ، ولذلك نجد أبا نواس قد احتال على شعوره الحماسي في البطولة والفروسية ، فصرفه إلى جهة الطرديات ووصف القنائص .

أما بشار بن برد فإن شفع له شعر حرب أو مقال في حماسة ، فذلك في قصيدته البائية التي وصف فيها حرب «عمر بن هبيرة» للجيش الكثيف فقد مدح فيها هذا الأمير ووصف الجيش وصفا رائعا فذا ، لكنه لم يخف شعوره في تهديد العرب وهو في زحام الحماسة ، فقال بيته المشهور وكأنه كان يصرخ فيه بوجه الخليفة المهدي :

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نضاربه

وهو لم يلبث أن هجا بعد حين عمر بن هبيرة أشد الهجاء فأين من قلب بشار الشعور بالحماسة التي تتطلب من الشاعر الخلوص في توقيير البطولة ، وإكبار أهل الشجاعة ؟

وكان الشعراء الأعاجم في جميع العصور العباسية لا يفترقون في شعورهم بالبطولة العربية عن الشعراء السابقين . وكان الأثر عند أولئك كالأثر عندهذين ، ولذلك لا تجد فحولة الشعر الحربي ، والصدق في حماسه إلا عند الشعراء العرب الأقحاح ، في مدى العصور العباسية .

د - تأثير الفارسية في الخيال العربي وأثر ذلك في شعر الحرب

لو أتيح للعرب في الجاهلية أن يختلطوا بغيرهم من الأمم خلطتهم في عصور الإسلام ، لوصل إلينا تراثهم الجاهلي على غير ما هو عليه ، من صفات عربية ، وطوابع بدوية صرفة ،

ولكان في طريقة تعبيرهم ، وأسلوب تفكيرهم ، ومدى خيالهم شكل آخر غير ما كان في الجاهلية .

لو أنهم مازجوا بلاد فارس طويلا ، وعاشروا الروم عشرة تلاحم ، لوصل إلى أيدينا منهم أدب لا يفرق كثيرا عن أدب تلك الأمم في خياله وتصوره ، وطريقة أدائه وموضوعاته .

وقد ضرب العرب الأمثال للأمم ، بأنهم ليسوا مؤثرين للجمود ، وإنما هم قوم يحبون التطور ، ويستطيعون الاندماج في غيرهم ، إن كانوا يجدون في هذا الاندماج لهم حياة وبقاء ومنزلة وقدر . وقد دلل على مثل هذا اللقاح بعض الجاهليين الذين زاروا بلاد فارس ، فان الأعشى ميمون عاد من عند كسرى وفي لغته بعض كلام الفرس حتى قال في بعض شعره (وبربطنا دائم معمل) والبربط آلة موسيقية فارسية كالعود ، ما أحسب العرب عرفوها أو ذكروها في لغتهم قبل الأعشى . ولم تخل لغة العرب في الجاهلية من كلمات فارسية أو رومية ، ولكنها وإن تكن قليلة فقد دل التقصى على أن أصلها فارسي أو رومي عملت على دخولها في لغة العرب أسباب اقتصادية كالتيجارة ، وسياسية كامتزاج العرب في الشمال شرقا بفارس وغربا بالروم ، وحين جاء القرآن الكريم ورد في بعض ألفاظه ما يعود به النسب إلى تلك الأصول .

وحين تمازج العرب بالفرس بعد الفتوح الإسلامية لم تستطع لغة فارس ولا عادات أهلها ولا أساليب عقولهم وتلاوين خيالهم أن تتسرب إلى العرب . وكان العرب أقاموا دون ذلك سورا صفيقا فلم تستطع فارس أن تجتازهم لإيهم . وكان الأمر على النقيض — لضرورة الدين الجديد ونشر تعاليمه — أن دخلت الفارسية في غمار العربية ، فأقبل أهلها المسلمون على لغة العرب يتفهمون كتابها المنزل ، ودعاهم الدين في دواعيه هذه ليفهموا بعد أموره وأحكامه شعر العرب ونثرهم ، وأن يكون منهم خلف يحذقون لغة العرب ، ويجرون في بيانها أقلامهم ، أو يطلقون في فصاحتها ألسنتهم ، فإذا منهم شعراء ومترسلون ، ومنهم خطباء وأهل مذاهب في الفن . كان العصر الأموي للفرس مرحلة تعلم للعربية ، وثقف بأدائها ، وكان العرب في هذا العصر لا ينظرون لفارس على أنها مصدر ثقافة وحضارة ، وإنما كانت لهم دارا مفتوحة بسيوفهم لنشر الدين الخفيف في أرجائها وما وراء أصقاعها . ولو أن الفتن سكنت نأμάτων الأمويين والمروانيين ، لفكروا باكتناء هاتيك الحضارة ، وهذه الثقافة ، التي كانت لأهل البلاد المفتوحة . ولكن شغلهم الفتن في فارس وخراسان وما وراء النهر ، وفي حومة بلادهم في الشام وفي العراق والحجاز وعلى ثغور الروم . وكان تراعى سلطانهم إلى مصر وشمال افريقية وقيام

دولة عربية في الأندلس شاغلا لهم — إلى ذلك — عن ثقافة فارس ومحاولة التعرف إلى آدابها وفنون حضارتها .

ولم يتعرف العرب حقيقة ما بين أيديهم من فن فارس إلا في العصر العباسي ، وخاصة حين كان لأهل فارس شأن لديهم أي شأن . وقد بدأ اهتمامهم الأدبي بها بعد اهتمامهم السياسي ، منذ غدروا بأبي مسلم . وقد جاءهم مسالما ووراءه خراسان براياتها وجيشها . وكان أبو جعفر المنصور من الدهاء ونقض العهد والمسارة إلى الغدر بعد التأمين ، في حماة سياسية أحاطها بالخوف والبطش والغيلة . فلم يتمكن عهده من أدب فارس ، ولم يظهر أثر الحضارة الفارسية في الآداب العربية ، وكانت مواليد العرب من الفرس لم يظهر خطرها بعد ، فبقيت تلك الآثار الفنية كأمثة مكبوتة خلال الدم لم تجر بها الأقلام ، ولم تفتح بها الألسن .

وجاءت في أيام المأمون فتنة خلق القرآن فصدت نتاج التمازج الثقافي بين الفرس والعرب ، حتى أتبع لهذه الفتنة ركود من دهرها فافتتح ذلك الباب مصراعا بعد مصراع ، ثم أقبلت منه وفود الثقافة الفارسية فاندلعت على اللسان العربي ، وأسهم فيها ناس من الفرس فيهم عبد الله ابن المقفع وفيهم سواه من أهل النقل والترجمة . ولكن تلك الترجمات لم تكن من الفارسية وإنما كانت من فلسفة الروم .

وكيف جرى الأمر فإن أزاهير التمازج الثقافي بين فارس والعرب لم تطلع بعد ، وإن تكن أغصانها نبتت ، وأوراقها قد زانت تلك الأغصان في مغارس العصر العباسي ، بعد زمن المأمون .

ولا أستطيع أن أجد الدليل مجسما ، فإن دلائل هذا التطور تخفى على التنقيب ، ولا يحيط بها إلا من يدرس لغة العرب في ذلك العصر العباسي ولغة فارس فيه ، ويرى ما تسلسل بين اللغتين من التعابير والتشابه والكلمات .

ومجسبي أن أقتطف تلك الأزاهير من بستان الشعراء الذين تنسبهم أصول فارسية ، فإن العرق دساس ، والدماء نزاعة ، وكلاهما ذو أثر بين في تطور الأدب لدى كل أمة وفي كل جيل فبشار أصله فارسي من جهة أبيه ، وأبو نواس فارسي من جهة أمه . وجدير بهذين الشاعرين أن تبدو على شعرهما آثار الفكر الآري والخيال الفارسي ، كما نجد آثار التفكير العربي ، وبدادة الخيال عند أبي تمام والبحترى وأبي الطيب ، مصقولة بالتطور الزمني والتمازج الثقافي ، الذي يغير من نوازع الدم وطوابع الأنساب ، ولكنه لا يستطيع أن ينتزع من الأعراق نوازعها الأولى .

وليس خيال الشاعر وطريق تصوره وليد نفسه ، وإنما هو أمر عملت فيه نفوس متغلغلة

في غمار الأجداد الذين سبقوا . إن الخيال والتصور يشبه السحنة والهيئات التي على وجوه كل منا ، وإن هذه السحن والهيئات ليست وليدة أبويننا وحدهما وإنما هي وليدة أجيال كثيرة لا يعلمها إلا خالقها ، كذلك أساليب تفكيرنا وقوة تخيلنا أو ضعفه ولون هذا الخيال وتصاويره ، كل هذا يعمل فيه من أورثنا الحياة الجسمية والحياة العقلية .

ولكن كيف أستطيع من خلال كلمة أو لفظ ومن سياق تعبير أو جملة أن استشف في الكلام العربي الخيال الفارسي أو الصورة الآرية ؟

فلئن كان للكلمات حياة مثل حياة أصحابها ، فإن ذلك ليبدو على شيء من السهولة . افتح أى معجم شئت في العربية أو غيرها تبين لعينيك كلمات ننطق بها نحن ، ونفكر فيها تضم في أعماقها حياة أناس لا يحصى لهم عدد كانوا يعيشون وكانوا يتكلمون ، إن كلمة واحدة من هذه الكلمات تحتوى تاريخ أقوام ، وفي خفقات ألفاظها وتداولها على الألسنة حوادث لا يأتى عليها حصر .

ذلك هو الخيال الذى تثيره كلمة واحدة أو لفظ ، وجملة واحدة أو تعبير . فإذا عرفنا هذا أمكننى الفرصة من توجيه هذا البحث في صدد غايتي وهى : (ما هو أثر الخيال الفارسي في شعر الحرب عند العرب ؟) .



إن بشار بن برد فارسي الدم صرف الصليبة في العجم . كان أبوه (يرجوخ) من طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة . وأجداده من (اذكر إلى يستاسب) عجم ، فيصح أن يكون بشار مثالا للقياس في هذا البحث لأن في خياله منازع فارسية ولغته عربية .

ولكن قبل كل شيء ما هو الخيال الفارسي والخيال العربي ؟

عرفنا الخيال العربي في شعر الجاهلية والإسلام أنه صورة منضوحة من صميم الحياة العربية . فالماء المندور في الجاهلية ، والشمس المحرقة ، وظلال النخيل ، والأفراس والإبل والخيام والصحراء المنبسطة والمرأة الجميلة ، كل ذلك أمور ملموسة في المادة تهيج في ذهن المتكلم أخيلة كثيرة يضرب بعضها في بعض فتجىء عالماً من الصور لا تحصى . وكل هاتيك الصور التي كانت تهيجها في الذهن تلك المشاهد الملموسة ، كانت تجىء على ألسن العرب وتقوم في أذهانهم خيالات صادقة كل الصدق وفق حياتهم الساذجة المحدودة .

إنى أضع ههنا صورتين لإحدهما جاهلية ، صنعها إمروء القيس في ذهنه بخيال بدوى ساذج ، حين اشتاق إلى الحبيب الثأى . وكانت (أذرع) له داراً فلم يعنه خياله المكتوف في حدود

البادية على التجرد الذى قد يكون لشاعر عرف الحضارة ، أو مرت أسبابها فى حياة أهليه ،
فقال عن تلك المرأة :

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

ومعنى هذا البيت — كما أرى — أنه حين مر بأذرعات عنت على باله محبوبته ، فرمى
بخياله نحو يثرب فتشوّر نارها منها ، فكان نظره العالى هو الذى أدنى إليه دارها . وإنه لخيال
قوى مجنح ، يكاد يكون خارجاً عن طوق الجاهلية . ولكنى آثرت ذكره لأدل على براعة
خيال من أخيلة الجاهلية ، فأقارنه بخيال آخر من أخيلة الشعر فى العصر العباسى ، حين بدا
الخيال الفارسى الآرى فى أذهان من سوره فى لغة العرب .

فهذا بشار بن برد تعن على باله صورة معشوقة ، فيتمنى لو كان عندها فى إناء الفاكهة
تفاحة فتأكلها ، أو كان فى زهرتها ريحانة من الرياحين تشمها ، فتهوى على الأولى بالعض
وعلى الثانية بالشم فيذوق مبسمها وشمها . ثم لا يشفيه هذا الخيال المعرب فى أن ينتفع منها
بعض أو بشم ، وإنما يريد أن تخرج به الروح من تلك التفاحة . أو ذلك الريحان فيكون لدى
المحجوبة وفى خلوتها إنساناً سوباً فيقول :

يا ليتنى كنت تفاحاً به فلاح أو كنت فى قبض الريحان ريحانا

حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها ونحن فى خلوة مثلت إنسانا

فأين خيال لمرىء القيس على ما فى جانبيه من جناح طائر ، من خيال بشار ؟ إن بينهما
لبوناً مثله مسافة العصر بين الشعارين ، وكروور السنين . ولست أذهب إلى أن هذا الخيال
عند بشار خيال شاعر مكفوف ، يتصور أغرب الصور ويعينه عليها العمى ، ذهاباً مع من
يقول إن المكفوفين أصحاب أخيلة جاححة لا يستطيع عليها المبصرون .

لقد حمل بشار الفارسى لغة العرب فى بيتيه هذين خيالا رائعاً ، فارسياً آرياً . وأكبر
دليل على آريته (فكرة التجرد الفلسفية الموجودة فيه) وهى خروج الإنسان من ريحانة أو
تفاحة . ودليل آخر على فارسيته أنه منتزع من فكرة دينية مجوسية وهى (التقمص) فروح
الإنسان الموجودة فى الريحان والتفاح يمكن أن يعين عليها الوجود فتتمثل بشراً سوباً .

فإذا صح هذا المذهب ، تطرقت إلى الكلام على شعر الحرب فى أدب العصر العباسى
فاستقرأته وتقصيت وجود الخيال الفارسى فيه .

لم يكن الفرس أبعد شجاعة من العرب — على ما كان لهم من حضارة ضمن ثغورهم
المترامية التى كان يحميها جيشهم المنظم — وإنما كانوا أحكم نظاماً فى الحروب وأكثر فنوناً ،

فإنهم حاربوا جيوش اليونان وعليها الإسكندر المقدوني وذاقوا ذل الانكسار ، ولكنهم إلى ذلك كانوا أمة ذات صولة وعسكر . فلما كسرتهم الحرب العربية وثل عرشهم الإسلام ومزقت جيوش المؤمنين جيوشهم من يوم القادسية ، عرف التاريخ أن السيوف العربية المنحنية الدقاق ، إنما كانت الأيدي التي ضربت بها أطول في العزيمة ، والقلوب التي أفرغت فيها تلك الشجاعة كانت أوعى وأقوى . ولا شك أن الخيال الفارسي كان يظهر أثره جلياً في كثير من شعر الحرب في العصر العباسي ، سواء أكان هذا الشعر في مدح أم هجاء أو حماسة ، وفي وصف أم غزل ، لأن حياة العرب في هذه الحقبة قد تغيرت ، وكان لهدوء الفتن الكبرى أثر أعان الملء والأدباء على التفرغ للعلم والبحث . فبدت طلائع من الأخيلة الفارسية في شعر بعض الشعراء كبشار وأبي نواس . أما بقية الشعراء ذوي الأصول العربية ؛ فكان مثل تلك الأخيلة قليلاً في شعرهم على ما أخذوا به أنفسهم من دقة الشعور وحسن التصوير ، كأبي تمام والبحتري والمتنبي .

كان الشعراء في العصر العباسي يجدون في لغتهم ما يريدون من تعابير الحماسة والفروسية ، ولم يكونوا يشعرون ضيقاً في أداء ما يحول في أنفسهم من معاني الشجاعة والبطولة . ولكن هل كانوا في الحقيقة أغنياء بتعابير الحماسة ؟ أو كان في تعابيرهم فاقة ، وكانوا بحاجة إلى أن تتسع آفاق خيالهم في وصف الحرب بعد دواعي الحضارة العباسية وتمازج العرب بفارس والروم ؟ سنرى بوادر هذا الاتساع الخيالي في شعر أبي تمام والبحتري وأبي الطيب في وصف الحرب ، ولكن الخيال الفارسي إذا تسلل إلى الشعر العربي فإنه لن يبدو معالناً عن نفسه ، وإنما كان لوناً جديداً في جملة الألوان التي اصطبغ بها الشعر العربي . وهو ينجيء في قول الشاعر بلا تكلف ومن غير أن يعتمد على استدناؤه أو يحس أنه خيال فارسي أو عربي ، وإنما المعاني والأخيلة أمور ذهنية تطلعها الأفكار ، يمكن للدارس أن يتبين أعراقها في طويل الاستقصاء .

أخص هذه الأخيلة الفارسية ما كان بعيداً عن صدق البداوة أو محال التصديق ، كالتشبيهات الغالية التي نراها في شعر العصر العباسي وفيها التهويل والتجسيم في الاستعارات ، وكالإحاطة بالموصوف من أكثر جهاته ، مما لم يكن العرب يعرفونه في الجاهلية وصدر الإسلام ، إذ كانت تغلب عليهم السذاجة وتنوع الموضوع في الغرض الواحد .

وكانت بوادر التجديد في المعاني معرضة في العصر العباسي لنقد علماء الأدب ، فقد نقد الأدباء الأقدمون بشاراً حين قال بيته الحماسي الرائع :

كأن مُشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فروى أبو الفرج في أغانيه أن محمد بن عمر الجرجاني وأبا يعقوب الخرمي كانا يرويان عن بشار أنه قال :

« لم أزل منذ سمعت قول إمريء القيس في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول :
كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى
أعمل نفسى في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت حتى قلت : (كأن مشار النقع فوق رؤوسنا) .
فالخيال الجديد يظهر في شعر بشار ، وهذا البيت وحده أصدق دليل عليه . فأين من خيال البداءة هذه الكواكب التى تنهاوى ؛ فتشبه بها الأسياف وهى تتصادم فى الحرب ؟
ولم يكن شعر أبى نواس — بعد بشار — مقصراً فى روحه الفارسية ، فقد ظهر الخيال الفارسى فى خمرياته بأروع مما ظهر فى شعر بشار . فإذا تناولنا المعانى الخمرية فى الجاهلية عند الأعشى ثم عند الأخطل فى معان واحدة أو متشابهة ، رأينا أبا نواس يتناولها بتصوير رائع ما كان لشاعر عربى قبله أن يتصورها فيه .

ثلاثة أبيات هى دليل ، توافق الشعراء على معنى فى روح واحد فى وصف لمعة الخمرة وتألئها ، أو طيها وحلاوتها . قال الأعشى فى الخمرة :

بيابل لم تعصر فسالت سلافة تخالط قنـديداً ومسكا مختما
وقال الأخطل :

فجاء بها قد خيلت فى إنائه بها كوكب المريخ تصفو وتزبد
وقال النواسى :

إذ عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

فبان الخيال البدوى الساذج عند شاعر الجاهلية الذى وصف رائحة الخمرة بالمسك وطعمها بالسكر وهو القنديد . وهذا أقرب إلى مدارك البداءة التى عرفها الأعشى فلم يرتفع خياله إلى السماء ، وإنما ظل على أرض البادية ، وهو خيال ساذج ملبوس ، شأن الكثير من الأخيلة الجاهلية .

وظهر عند الأخطل الخيال الحضري الذى يصرح به صاحبه بأنه (خيال وليس بحقيقة) تبدو فيه الخمرة لامعة متماوجة مشمعة كأنها عند صفائها وزبدها كوكب المريخ فى تألقه .
فرفع شاعر بنى أمية النشوان رأسه إلى السماء ، وطار إليها بخياله ، فكان خيال الكوكب مما تستدعيه دنيا الحضرة بعد خيال القنديد والمسك الذى دعت إليه دنيا الوبر ، حتى إذا جاء النواسى العريـد ، فعرف أسرار الخمرة ، وناجى أرواحها ، وتفرد من بين الندمان بنشوتين ، انطلق خياله الثاقب حين رأى الخمرة يعب فيها الشارب فى الظلام ، فهاجت فى نفسه (كوامن

الفارسية الدينية) - وقد تهيّج به تلك الفارسية دون أن يصطنع لها الهياج - فبدت (الفكرة المجوسية) وهي (عبادة الكواكب) . وهل كان تقبيل الكوكب إلا مظهراً من مظاهر تلك العبادة المجوسية العتيقة ، إذ كان أهلها يعبدون الشمس ويستقبلون لآلاءها المفتان بالعيون والقلوب . (وما أجد أشقى للعابد من لثم المعبود) .

تلك سوانح من خيال فارسي لاح به أبو نواس في خلال شعره . وإن في شعره لمن هذه الصور أطيافاً كثيرة .

وقد احتفى الرواة والأدباء من أقدمين ومحدثين بتجديد أبي نواس ، فزعموا أن تجديده كان في مفاتيح القصائد : أبدل فيها ذكر الأطلال البالية بالخرّة والقناني . ولو التفتوا إلى هذا الضرب من المعاني الجديدة في شعره مما لم يألف العرب ، لأمكنهم الفرصة من الكلام على (فن أبي نواس في صميم تجديده) .

إن ديباجة الشعر التي جاد بها أبو نواس عرف مثلها العرب ، بل عرفوا خيراً منها ، لكن معانيه هي التي كان يلوب على مثلها قبله الكثير . ولست دائماً مع الجاحظ الذي يقول : المعاني مطروحة في الطريق ، فإن هذه المعاني النواسية لم تكن لقي مطروحاً في الأرض ، وإنما كانت منضدة كواكب ونجوماً في درب المجرة .

(٤) نظام شعر الحرب في هذا العصر

يتناول شعر الحرب في العصر العباسي الأول حتى آخر أيام المتوكل موضوعات كان فيها غنى للحماسة العباسية كلها . وقد درستها في هذا الكتاب دراسة فنية حيناً ، ومنوطة بالتاريخ حيناً آخر . وقد توزعت هذه الموضوعات نواحي مختلفة ، فإن شعر الحرب كان منتوج الحروب الداخلية ، وكان يصدر عن الحروب الخارجية . وقد قيل في حرب البحر ، كما قيل في حرب البر ، وفي جميع ذلك قال شعراء العصر العباسي الحماسيون شعرهم الحربي ، وسأذكر هذه الضروب واحداً بعد آخر في فصوله التي تحويه .

(٥) نماذج من شعر الحرب في العصر العباسي

إن في الكلام على وصف الجيش في الشعر العباسي ما يعطي صورة مجموعة لنماذج الشعر الحربي ، إذ كان الجيش هو مجموعة رجال الحرب وعدتها ، ففي الجيش أبطاله وكأته ، وإسلاهم وكثراهم . وإن مجال الموازنة بين أقوال الشعراء في الجيش وقياس بعض أوصافهم على بعض لأوسع مدى لمن يصدر عن هذه الموارد من الكلام .

لقد نظر أكثر شعراء بني العباس إلى الجيش نظرات متشابهة ، وتصوره كل منهم في حالة

إن بعدت به قليلا عن رفيقه ، فإنما تقر به اليه بقدر ما اصططح عليه وصفهم للقتال ، ونظرهم للسلاح والابطال . وإذا كنت أعد ابن الرومى أتم بيانا للوصوف وأوفى وعياً للصورة ، فإني أبدأ بوصفه للجيش .

رثى ابن الرومى يحيى بن عمر ، وكان يحيى بن عمر ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب . فوجب أن يكون بهذا النسب مضطهدا لدى العباسيين كغيره من العلويين والشيعة ، وكان قد حاق به ضر وسوء حال فحبب إليه كل ذلك الخروج على العباسيين ، فخرج فى طوائف من الزيدية بناحية الكوفة . فجرد عليه المتوكل من غلبه وجز رأسه . وجلس العباسيون بعد قتله يتقبلون تهنئة الناس أفواجا بموته .

وكان ابن الرومى نزاعا للشيعة ، مصارحا فى ميله اليهم وامتداحهم وإجراء طرف من شعره فى دعوتهم .

فهو إذن حين يرثى يحيى بن عمر إنما يرجم السياسة العباسية فى عقر خطرها ، إنه يرثى من خرج على تلك السياسة ، فاستطاع بما أوتيته من دقة التصوير وسبق فى الإلمام بوحدة الموضوع أن يجيء خلال هذا الرثاء بقطعة رائعة من شعره يصف فيها الجيش الذى سوف يهب لحرب العباسيين ، جيش الثوار الذين ما زالوا يكمنون فى ضمير الزمان . وما هبة ذلك الثار إلا يوم يؤوب حق الطالبين إليهم بعد أن نزعه منهم العباسيون فتدار عليهم يومذاك الكأس التى أداروها .

ألم ابن الرومى — فى وصفه الواعى — بما ينبغى أن يوصف به الجيش الصاحب للجب . فهذا الجيش الذى يصفه :

فجر تضيق الأرض من زفراته ، وتهرب الوحوش من زجله وصياحه ، تلمع سيوفه على مدى الأبصار كأنها البرق ، وتسطع عليه شمس الضحى بومض بعد ومض فيحسب بحراً يروج ، شب شعاعه بين الأرض والسماء فتراه النصور التى تحمد للجيش جودها بالقتلى والجرحى فتحوم عليه . وحين ينبطح عليه نظر الناظر يقع على حرج من الأحراج فيحار لهوله ، رجاله وفرسانه عدد الجراد ، وفوق الجياد رجال كأنهم الليوث ببسالتهم .

يلتحم رجال هذا الجيش بالعدو التحاماً لا يترك فرجة تنفس فارسا عن خيله ، ولو أن سحابة أمطرهم لما وقع صوبها على أرض . ولبقى ماؤها يتدحرج على رؤوسهم وأجسادهم ، وقد لمعت رماحهم كما يلمع الفتيل المشتعل .

فثل هذا الوصف الواعى ، يقوله ابن الرومى فى الجيش الذى سيغير على العباسيين لانصاف الطالبين :

لعل لهم في منظوى الغيب نائراً
بمجر تضيق الأرض من زفراته
إذا شيم بالأبصار أبرق بيضه
توامضه شمس الضحى فكأنما
له وقدة بين السماء وبينه
إذا كرفى إعراضه الطرف أعرضت
يؤيده ركنان ثبتان رجلة
عليها رجال كالليوث بسالة
تدانوا فما للنقع فيهم خصاصة
فلو حصبتهم بالفضاء سحابة
كان الزجاج اللذميات فيهم
على أن هذه الطير التي تلم بالجيش الذى وصفه ابن الرومى تذكري بالنسور التي وصفها
النابغة الذبياني ، وهي حلقة فوق جيش الغساسنة ، لكن النابغة تبسط بوصف هذه النسور
التي هي لوازم كل جيش محارب ، وأجل ابن الرومى الكلام عليها
وتثير هذه القطعة التي يوفق ابن الرومى فيها بوصف الجيش قطعة تشابهها لأبي الطيب
المتنبى ، فتلمع في الخاطر إحداها ثم تلمع فيه الثانية . ولولا ضرورة المقارنة ههنا ولزوم
المقام ، لأخرت وصفه للجيش إلى الباب الثالث .

يصف أبو الطيب جيش الأمير محمد الحسين بن طنج يوم نزل عليه بالرملة ، فيجعل
السييل إلى وصف هذا الجيش مدحاً لهذا الأمير بأنه لا يتلقى الحرب إلا به فيقول :

وذى لجب لاذو الجناح أمامه
تمر عليه الشمس وهي ضعيفة
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة
ويخفى عليك الرعد والبرق فوقه
أرى دون ما بين الفرات وبرقة
بناج ولا الوحش المثار بسالم
تطالعه من بين ريش القشاعم
تدور فوق البيض مثل الدراهم
من اللبع في حافاته والهامم
ضراباً يمشى الخيل فوق الجماجم

(٢) الحميج السديد النظر .

(١) الهزمج الكلام المتتابع

(٣) الحراج جمع الحرج وهو المكان الكثير الشجر . وتخرج تمار .

(٤) أوئج أكثف من أوئج ككرم .

(٥) يعنيج يرد من العنيج وهو رد البعير عند العرب .

(٦) ترهيج تثير الغبار .

وطعن غطاريف كأن أكفهم عرفن الردينيات قبل المعاصم
تلك تهاويل أبي الطيب وهي في هذه الآيات تحصر الوصف في الجيش :

(١) أنه لجب .

(٢) لا ينجو منه طائر في السماء ولا وحش على الأرض .

(٣) تقع عليه أشعة الشمس ضعيفه لما يحجبها فوقه من غبار ورايات .

(٤) تصل إليه أشعة الشمس من بين ريش القشاعم .

وهذا الوصف الأخير (تهاويل مغرق) فقد جعل الذنور لكثرتها فوق الجيش قد
منعت الشمس أن تتسرب إليه .

(٥) يقع عليه ضوء الشمس مدوراً كالدرهم ، إذ يمر من بين الفرج التي فوقه .

(٦) لمع سلاحه وهماهم رجاله تخفى عليك البرق وتصم الأذن عن الرعد .

(٧) يريك هذا الجيش من فعالة بين الفرات وبرقة ضرباً تمشي الخيول عليه
فوق الجماجم .

(٨) أبطال هذا الجيش غطاريف ، وقد تعودت أكفهم الطعن بالرماح ، قبل أن
تكون لها معاصم (وهو تهاويل ممعن في غلوه) .

فهذه الأوصاف التي سكبها المتنبي على الجيش شارك في بعضها ابن الرومي في قطعته السابقة
عن الجيش الذي أئذ به العباسيين في رثائه ليحيى بن عمر .

لقد شرح ابن الرومي (صوت الجيش) وأجمله المتنبي . وكلاهما ذكر الشمس ووقوعها
على الجيش واختلفا في عرض صور الشمس على الجيش ، فابن الرومي يجعل الشمس إذا وقع
ومضها على الجيش جعلته يرى كالبحر المتموج ، ويكتفي بصورة واحدة . أما أبو الطيب
فيتناول وصف الشمس على جيش ابن طغج بصورتين :

(١) امتناع الشمس من الوقوع على الجيش لما يظله من الغبار وكواسر الطير .

(٢) أن الشمس تتخلل ريش القشاعم فتقع على الجيش مستديرة كالدرهم .

وهو معنى يحبه أبو الطيب ويؤثره في وصف الشمس على الأرض ، وقد جاء به مرة
ثانية حين وصف شعب بوان ببلاد فارس ووقوع الشمس على تلك المغاني الطيبة من خلال
أوراق الشجر دنانير تفر من البنان .

وكان أبو الطيب حين مدح أمير الرملة مشغولاً بالدرهم فجاءته القافية في تمثيل وقوع

الشمس على الجيش (بالدراهم) ، لكنه في شعب بوان — وقد استغنى — صارت تلك الصورة ذهبية في خياله فقرنها (بالدنانير) فقال :

وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان
وذكر ابن الرومي في قطعته هذه برق السيوف وفاته الرعد ، فجمع بينهما المتنبي . أما
القشاعم التي نشرت ريشها فوق الجيش — كما يقول أبو الطيب — فقد ذكرها ابن الرومي
وعنى بها الطيور العوافى التي تلم بالجيش وهي فرحة هزجة . ومثل ابن الرومي للتخيل بفرسانها
كأنها عدد الجراد وعليها رجال كالليوث ، ثم رسم صورة لهذا الجيش وهو ملتحم بالأعداء
للتحامة لم تترك بينه فراغا ، ومثلها أبو الطيب ماشية فوق الجماجم وعليها الغطاريق الذين
تمرسوا بضرب السيوف فكان أكرمهم ضربت بها من قبل أن يخلقوا .

ولا ينبغي في باب المقارنة بين هاتين القصيدتين أن يكون تعاور الشعارين على المعاني
ذاتها مثلبة لللاحق بعد السابق ، إذ ليس بين هذه المعاني سبق ولحاق بعد أن طرقها العرب
المتقدمون متفرقة أو مجموعة . وليس على القطعتين من مياسم الجودة سوى الغلو والإغراق
الذي لم يعرفه الأوائل . فابن الرومي يعمن في الغلو فيقول : لو وقع على هذا الجيش مطر
لتدحرج ماؤه عليه ولم ينسكب على الأرض ، تهويلا لكثرة عدد الجيش وتلاحم المتقاتلين
وأبو الطيب يغالى فيقول ناسبا إلى أبطال الجيش معرفة بثقاف الرماح (كأنها أسطورة)
فأكرمهم عرفت الطعن بالرمح قبل أن تنبت في أطراف المعاصم والسواعد .

فإذا فرغت من المقارنة بين المعاني لدى الشعارين لم يبق لدى من الوجهة الفنية سوى
المقارنة بين الديباجتين . فابن الرومي أتى ببعض الغريب مدفوعاً إليه ، لا راضياً ، لأن
قافية قصيدته تدفع الشعر إلى مثل ذلك الغريب . أما لحمة شعره فجاءت — كدأبه في فنه —
صافية التركيب سليمة من الركاكة والتزيد ، وكذلك قطعة أبي الطيب . وما كان لأبي الطيب
وابن الرومي أن يعرض ديباجتهما على التنقيير إلا كل منتطح في الأدب ، متزيد في العيب على
البارعين . ولا يستطيع النقد أن يفاضل بين القطعتين لأن لكل منهما طابعاً فنياً ومظهراً
خاصاً يختلف عن الآخر وإن توافقا في بعض المعاني . وكفى أن يكون ابن الرومي مجيداً إذ
كان يصف الجيش على وجه التصور والخيال ، ويصفه أبو الطيب على حال الحضور والمعاينة .

ووصف البهتري الجيش ، وأبو عبادة كثير الخيال ولوع بذكر الطيوف يؤثرها بكثير
من شعره حتى كاد يسمى (شاعر الأطياف) وخیال (علوة) الحلبية يسرى في أكثر
قصائده ، فلا عجب إذا وصف الجيش من صورته المنقوشة على (إيوان كسرى) .

لقد تمثل جيش كسرى في قصيدة الإيوان حين شاهد صورة أنطاكية على جداره ، والظاهر أن كسرى لما بنى إيوانه ، أراد أن يسجل على جدرانه مفاخره الحربية ومآثر جدوده ، فصور له الرسامون صورة الجيش الفارسي وقد غزا أنطاكية فأوقع بالروم . ولا شك أن تلك الصورة التي شاهدها البحترى على الإيوان كانت صورة ملهمة فارسية رومية في (أنطاكية) . ولذلك قال (ارتعت بين روم وفرس) وكلمة ارتعت لا يستعملها مثل البحترى إلا في معناها من الخوف والرغبة التي تعترى المرء وهو يرى الجيش الملتحم . وإلى جانب هذه الصورة التي شاهدها البحترى على جدار الإيوان صورة ثانية تمثل أنوشروان في زحام المعركة وقد رفرفت المنايا على رؤوس المقاتلين من الهول ، وكسرى معمل قيادته يدفع الصفوف إثر الصفوف وهو تحت علمه الأكبر (الدرفس) . فكسرى في هرة المعركة ، وهذا ليس بكاف في فن البحترى (صاحب التلاوين والتزويق) . ولذلك فقد أفرغ البحترى جمعة فنه على تلك الصور الفارسية المنقوشة فعرضها في نطاق فنه ، فإذا كسرى أنوشروان في لباس أخضر فوق أصفر ، وهو يخط ، وعليه حلة مصبوغة بالورس . وحين قال البحترى إن هؤلاء الأبطال يتعاركون بين يدي كسرى وهم صامتون خافتون لأنامة لهم ولا جرس ، رجع إلى الصورة الجامدة التي على الحائط ، لكنه سرعان ما حركها بما أوتي من صنعة في التجسيد والتجسيم ، فوصف أبطالها على أنهم (جد أحياء) يهوى أحدهم بالرمح ويصد الآخر الرمح بالترس ، ثم جرد من الخيال حياة ، فتصور الأبطال يتحاربون وهم خرس فأظهر الحركة وأخفى الصوت ، ثم عاد إلى الشك بنظره وشعوره ، فجعل ارتيا به بحقيقتهم سيلا إلى مد يديه إلى لمسهم ليتقراهم ويعرف حالهم بين الخيال والحقيقة . إنه يقول في السينية البارة .

فإذا ما رأيت صورة أنطاكية	—	ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنوشروان	—	بزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على	—	أصفر يخطال في صبيغة ورس .
وعراك الرجال بين يديه		في خفوت منهم وإغماض جرس
من مشيخ يهوى بعامل رمح		ومليح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد أحياء له	—	م بينهم إشارة خرس
يغتل فيهم ارتيا بي حتى		تتقراهم يداي بلس

ولم يكن البحترى في هذه القصيدة إلا ألعوبة بيد الفن ، حين زار الإيران نظم قصيدته فيه على البيان والخيال ، وخلع على الإيوان كله من أبوابه إلى شرفاته روحا منطلقة ، فإذا الإيوان يخفق بكل ما كان فيه من وقوف في الزحام ووفود كسرى وقيان وسط المقاصير .

وقد خرج البهتري من نطاق نفسه وحسه ، فخلط وجوده في صورته وخيالاته ، حتى اشتبه عليه الأمر فتوهم أنه ينادم على الشراب كسرى ويطربه مغنيه (البلبند) فقال :
وتوهمت أن كسرى أبرويز — معاطي والبلبند أنسى
ولم يخل شعر الكثير من شعراء العصر العباسي من أن يكون لهم قول في وصف الجيش حتى أن بشارا وهو الذي ليس عليه من حرج في أن يترك ذلك قد جرى في مضمار المبصرين وكاد يسبقهم حين وصف جيشا حاربه عمر بن هبيرة يقول فيه :

وجيش كجنىح الليل يزحف بالحصا	وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها	تطالعنا والطلل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه	وتدرك من نجي الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا	وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقد مضى القول في قيمة هذا الشعر الحربي عند بشار . وترك بشار الشعراء بعده ينظرون إلى فنّه فيجبون تقليده ، كما فعل ابن المعتز . حين وصف الجيش فقال على غرار بشار :
وجيش كمثل الليل تسود شمسه ويحمر من إعناته البر والبحر
وكفى بشارا إلاما بفن التهيئة العسكرية كلمة (يزحف) فإن فيها كل معاني التهيئة .

والظاهر أن بعض الشعراء كانوا يتعمدون الشعر الحربي ، وهم يعلمون أن وصف الجيش عنوان هذا الشعر عندهم . فوقع بعضهم بتصنع ظاهر وكلفة مريّة ، فحسبوا أن ذكر الخيل والسيف والرمح هي التي تثير معاني الحماسة في النفوس كما فعل النابغة حين قال :

جيش يفوت الظن حتى لا يرى	ماغاب من أنظاره محددا
وكأنما جعل الآله رواسي الأعلام —	أعلاما له وبنودا
وترى وتسمع لمعه وحفيفه	فتظن فيه بوارقا ورعدا

وليس وصف الجيش بكاف لمعرفة الفن الحماسي عند الشعراء ، فإن في الكلام على شعر الحرب عند كل واحد منهم مجالا للنقد والتحليل ، ومندوحة للحكم والتقدير ، وسبيلا إلى معرفة فهم الحماسي ، والحربي .

الفصل الثاني

شعر الحرب الداخلية

١ - سيف القرامطة

تجوز المؤرخون في كلامهم على العصر العباسي فسموا من شق العصا على الدولة (خارجياً) ، فكان عندهم الزنادقة العصاة ، والشيعية الغلاة المناوئون وأصحاب النحل ومذاهب الإباحة وذوو البغى ، خوارج . ومن هذا القبيل عدوا (القرامطة) رأس الخوارج . بل كان الخارجي عندهم في أكثر ما يعنون هو (القرمطي) .

وأراهم قد ذهبوا مذهباً غير عادل ، فإن الخوارج الذين في عصر بني أمية وخاصة في صدر ذلك العصر ، كانوا زهاداً مبتهلين ، وعباداً قانتين ، فضلاء كانوا يتحلون به من الفروسية الباهرة ، والبطولة الخارقة (التي تقدم وصفها عند كلامي على شعر الحرب في الأدب الأموي) مع الشهامة والمروءة في أمر النساء والأعراض .

لكن القرامطة — وقد تتبع آثارهم من مناشيء أمرهم إلى ذهاب ريمهم — كان صاحبهم الأول يدعو إلى إمام من أهل البيت النبوي^(١) ، ثم لم يلبث هو وأتباعه وأعقابهم أن صاروا زنادقة ملحدين واصوصاً سفاكين . وهم وإن كانوا على شيء من الشجاعة والبأس ، إلا أنهم كانوا مثلاً للجبين والخذلان في أكثر مواقفهم التي حاربهم فيها العباسيون . فليس إذن من العدل في التاريخ ، والإنصاف في الوصف ، أن نعد القرامطة وأمثالهم مثل الخوارج .

لم تكن للخوارج في العصر الأموي شعبذات وحيل تنجيم ونيران يخادعون بها الناس ، وإنما كان لهم السيف لساناً والحرب معاوناً ، ولكن القرامطة كانوا أصحاب تلك الحيل ، فقد روى أن واحداً من أوائلهم وهو (هاشم بن حكيم) لقب (بالنبي المقنع) لأنه كان يضع

(١) الطبري ج ١١ ص ٣٣٧ .

أول القرامطة رجل من ناحية خوزستان نزل سواد الكوفة مظهراً للتشيع والعبادة ، ومرض فحمله رجل اسمه (كرميتة) على ثور له وجاء به إلى بيته ، فقلب عليه اسم صاحب الثور فسمى (قرميطة) وكرميتة بلغة النبط أحمر العين ، وكان صاحب الثور أحمر العينين .

على وجهه قناعاً من الذهب ^(١) فزعم ابن القارح في رسالته لأبي العلاء ^(٢) أنه كان قد قصاراً أعور فصنع لنفسه وجهاً من الذهب وخوطب برب العزة .

وظهر من القرامطة (مقنع) آخر في الرملة بفلسطين أيام المعتصم كنيته أبو حرب فوضع على وجهه القناع لئلا يعرف ، وكان أموياً فزعم لجمعه أنه السفيفي المنتظر ، واتبعه من القرويين والحرائين مائة ألف فأحاط به المعتصم وناجزه الحرب وأسره ^(٣) .

والظاهر أن القرامطة كان رؤساؤهم مولعين بستر الوجوه ، فظهر منهم (مبرقع) ثالث أيام سيف الدولة ، فالتفت عليه القبائل وافتتح مدائن بأطراف الشام ، فنهض إليه سيف الدولة وحاربه وقتله ، وعاد إلى حلب ورأس القرمطي المبرقع على رحله ^(٤) .

فذكرني وجه الذهب والقناعان بمشابهة مطابقة في حوادث التاريخ الفرنسي . فقد كان الداهية ريشيليو ، ألزم أحد الأمراء ممن كان له الحق في العرش أن يلبس على وجهه قناعاً من الذهب وأبداه على وجهه لإخفاء له ، وحبسه في إحدى قلاع البحر صرفاً له عن الملك حتى مات صبراً . وأعلننا تاريخنا أن من القرامطة (زكرويه) ثم (الحسن) ابنه . وقد نهض في سواد الكوفة ثم في الشام ، وأن منهم (علياً بن أبي هاشم بن صدقة الكاتب) ظهر أيام المعتضد ، وأن منهم الصناديق البني الذي ذكره ابن القارح وأبو العلاء في رسالتهما ، وإن منهم القرمطي الخطير (أبا سعيد الجنابي) ، وقد ظهر بالبحرين ، فاستفحل أمره ، حتى هدم المدن وأحرقها وسبي النساء وقتل الأطفال والشيوخ ، وبلغ به الفتك أن وصل إلى مكة فقال ابن القارح : إنه قتل فيها ألوفا واستملك من النساء والغلمان من ضاق بهم الفضاء كثرة وأخذ حجر الملتزم وظن أنه مغناطيس القلوب ، ونهب المحاريب وجواهر الكعبة وقناديل حرما ^(٥) . وقد ملأ هذا القرمطي أوائل القرن الرابع الهجري بأهوال جرائمه ، وحاربه الخليفة المعتضد فلم يقو عليه ، ولا قدر عليه الخلفاء الذين جاءوا على أثره .

(١) في الطبري ٣٣٨/٩ ، ٣٤٢ أن خروجه كان بمرور خراسان ، ثم قتله المهدي فأرسل عليه قائده سعيداً الحرشي . وذكر الطبري أن اسم المقنع (حكيم) . أما سيد أمير على فيسميه (هاشم بن حكيم) في كتابه (مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي) مصر سنة ١٩٣٨ ص ١٩٩ .

(٢) رسائل البلاط ط ١٩١٣ ص ١٩٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج ١١ ص ٥ .

(٤) بتيمة الدهر للشعالي ط مصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١٨ .

(٥) صلة تاريخ الطبري لعرب بن سعيد القرطبي المطبعة الحسينية بمصر ص ٧ .

وقد أجمعت كتب الفرق والنحل والأهواء أن هؤلاء القرامطة جميعا كانوا يستيحيون المحرمات ، وأنهم غلاة الإباحية ، وهدمة الشرائع ، ينكرون الحياء ويقوضون المجتمع والأسرة بتعاليمهم الفوضوية الفاحشة ، وآرائهم التي تمت إلى المجوسية ، كما ذكر ذلك أبو منصور البغدادي^(١) وقد عاصر أواخر حركاتهم .

فأين هؤلاء القرامطة البغاة من الخوارج الأوائل الذين كانوا يقطعون الليل سجوداً ، والنهار حرباً لرفع كلمة الله .

أما أشعار القرامطة في الحرب فقليلة ، بل نادرة وكان ينبغي لهم أن يتركوا لمن يبحث عنهم شعراً في الحروب الكثيرة التي قاموا بها ، وقد كان الدم حلالاً لهم ، وإني لأراهم سفاحين رجمة مولعين بتسكاب الدم فلا يشفيهم إلا إراقتهم ، وليسوا غريبين عن مذاهب التحليل النفسى المعاصر ، فإن أمثال (فرويد) وأهل فلسفته ينبغي أن يعدوهم من فريق (الساديين Sadistes)^(٢) وهم المصابون بالسفك واجتراح المفاحش واستباحة الأعراض والموغلون في حب الدم ، وطريقهم أن يبطشوا ويضربوا ولا تبرد غلتهم الجائعة إلا باراقة الدم . وفي المجرمين نفر كثير من الساديين أمثال هؤلاء القرامطة ، وفي علم النفس الحديث بسطة لوصف هذا الضرب من الناس أصحاب الشذوذ . ولست استغرب ندرة ما وصل إلينا من أشعار القرامطة ، فإن الرواة لم يحفظوها تحرجاً وتأثماً فربما تضمنت حضا على الإباحية وانتهاك الحرم وبث الإلحاد . ففاضت هذه النماذج من دنيا الرواة كما غاض أكثر الشعر الذي قيل في مثل ذلك . من هذا الشعر القرمطى ما قاله كبير القرامطة أبو سعيد سليمان الجنابي وقد كتبه للمسلمين بعد أن انهزم واعتصم بهجر^(٣) :

أغركم منى رجوعى إلى هجر	وعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ في أرض بابل	وقارنه النجمان فالخذر الخذر
ألست أنا المذكور في الكتب كلها	ألست أنا المبعوث في سورة الزمر
سأهلك أهل الأرض شرقاً ومغرباً	إلى قيروان الروم والترك والخزر

(١) الفرق بين الفرق ط المعارف بمصر عن نسخة برلين سنة ١٣٢٨ م ص ٢٧٢ .

(٢) نسبة إلى المركيز دو (ساد) وهو فرنسى مشهور في الأدب الشاذ الذى يصف الجرائم . وقد كتب أدبه صورة عن نفسه التي كانت موالعة بسفك الدماء واجتراح الفحشاء . وقد سجن من جراء جرائمه وفي سجنه كتب أدبه الشاذ هذا . ولد دوساد في سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨١٤ .

(٣) الفرق بين الفرق الصفحة السابقة .

ويتبين من هذه الآيات التي تهدد بمجاستها ، وتحذر ثم تحذر ، وأنها انذار بحرب لا تبقى ولا تذر ، أن القرامطة كانوا يؤمنون بالتنجيم و (بالرجعة) وهي من المذاهب الباطنية ، وأن سليمان هذا كان يدعى أنه نبي مرسل وأنه مبعوث في سورة الزمر . وقد رجعت إلى السورة فتبينت أنه إنما أراد بها قوله تعالى : وأشركت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . وقبل هذه الآية آية تشير إلى البعث وهي : ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .

وإن القرامطة لم يتركوا شعرا حربيا يؤثر عنهم ، وإنما تركوا أخبارا طوالا في جرائمهم الكثيرة ، وإن خيرا للشعر الحربي ، وهو مناط الحماسة ومعرض المروءة وولايد الحمية ، أن يخلو من فتك القرامطة ، ووصف بغيهم ، ومراتهم في المظالم والضلال .

٣ — علوى البصرة

وتصوير ابن الرومي لمذبحة الزنوج

أنكر المؤرخون أن يكون (علوى البصرة) على بن محمد الذي ثار أيام المعتمد على الله — منتهى النسب إلى على بن أبي طالب ، فقد وصفوه بأنه كان متحيرا في إثبات نسبه الطالبي . ولكن التاريخ حفظ لنا أنه كان علويا ، فعللت نهوضه بالفتنة بسبب مظلمة العباسيين للعلويين ، وأخذهم منهم حقهم الأول في الخلافة .

وعملت إطاعة الزنج لهذا العلوى ، وهبوبهم لندائه ، بما كان يقاسى العبيد من ظلم الرق ، فكانت ثورتهم في وجه أسيادهم حقا من حقوقهم الإنسانية ، ومطلبا نبيلًا من مطالب الحياة ، على نحو ما ثار بعدهم بمئات السنين زنوج أمريكا في وجه أسيادهم الظالمين ، فقد علل المؤرخون الغربيون أن قضية الرق في أمريكا كانت من أعظم الأسباب التي أدت إلى الحرب الأهلية بين أهل الجنوب وأهل الشمال في الولايات المتحدة ، تلك الحرب المريرة التي لم تكن تقل في نكباتها وأهوالها عن الحرب الأهلية الإسلامية أيام على ومعاوية ، حتى كتب النصر لجيش الشمال ، فهدأت هذه الحرب ، وكان من أعز ثمراتها تحرير العبيد ، وكسب من جراء تحريرهم أحد رؤساء أمريكا (أبراهام لنكولن) لقب (محرر الرقيق) وكان قبله الرق في أمريكا سوقا لها نخاسوها ، ولها بضاعتها الإنسانية المزجاة .

لكن ثوره العبيد في أمريكا ، كانت لوجه الحرية فحسب ، ولم تكن مقرونة بدعوة دينية أو مستغلة لغرض سياسي خاص .

أما ثورة الزنوج في البصرة ، فقد استغلها (العلوى) ووجهها في غير ما ينبغي من حقوق الإنسان . إن العلوى عزم في أمره على النهوض في وجه العباسيين وجعل العبيد وسيلة لبلوغ أغراضه السياسية الخاصة . لقد صلى وخطب السودان فأهاجهم على قلب الحكومة ، مستعينا بفقرهم واستعبادهم ، فأطمعهم بالحرية ، وتمليكهم الأموال والمنازل ، وحلف لهم على نصرتهم (١) ، فثاروا وتوافوا جموعا على جموع حتى صاروا عددا كثيفا لا قبل لاحد بحربه ، ومعهم كل أهبة الحرب من سلاح ومال وخيل . وقد حازوا ذلك المال والخيل إذ كانوا يراوون البصرة وأنحاءها ويغادونها بالمناوشة والنهاب ، قبل أن يفتكوا بها فتكتهم الكبرى ، ثم ما زال العلوى يؤرث بهم نار الثورة حتى قطع بهم الطرق ، وحتى دخل بهم على البصرة فأحرق الدور ، وأنهب ما كان فيها أياما ، وأحرق أسواقها وكلاها . وكان قائده (أبو الليث) يحض الزنوج على المقتلة والمجزرة بكلمة (كيلو) (٢) حتى أفنى المدينة وقتل أهلها ، وهرب من فاز منهم إلى الدساكر والأنحاء القاصية .

وتحولت دعوته الأولى التي كانت مطالبة بالحرية للزنوج إلى سفك دماء ، وانتهاك محارم ، وهدم بلاد ، واستحلال نساء محرمات . وانتهاب أموال . مما لا يأتية البرابرة والمتوحشون . وانتهى به الأمر بعد هذا الإجرام إلى ادعاء النبوة والرسالة ، فكان قرمطيا فظيحا . فأعمل العزم في حربه (أبو أحمد الموفق أخو المعتمد على الله) فخاربه أربع عشرة سنة (٣) حتى استطاع في آخرها أن يقتله فيجز رأسه بعد تقطيع أطرافه ، ولم يستطع أهل البصرة عودة إليها ، واستقرارا فيها ، حتى استراحوا من رزيتهم (وخسر الزنوج قضيتهم) التي ثاروا من أجلها ، فظلوا أرقاء .

وقد ذكر أبو العلاء المعرى أمر العلوى في رسالته إلى ابن القارح فروى له أيبانا فقال (٤) :
 ما أدفع أن تكون قبلت على لسانه .

وكيف كان أمر هذه الأبيات فقد أوصلها إلينا أبو العلاء وهي أبيات حماسية ، نفيدها منها كنه هذا المذهب الذي نهض به صاحب الزنج ، فهو يقول :

قتلت الناس إشفاقا على نفسى كى تبقى
 وحزت المال بالسيف لى أنعم لا أشقى

(١) تاريخ الطبرى ج ١١ ص ١٧٧ .

(٢) الطبرى ج ١١ ص ٢٢١ .

(٣) من سنة ٢٥٥ — ٢٧٠ للهجرة (الطبرى ١١/٣٢٦) .

(٤) رسالة الغفران وقوف اليازجى ط مصر ١٩٠٣ ص ١٤٨ .

فمن أبصر مشواى فلا يظلم إذن خلقا
فوا ويلى إذا فما مت عند الله ما ألقى
أخلدا فى جوار الله أم فى ناره ألقى

فنستطيع أن نتبين من هذه الآيات السهلة التى قيل فى سهولتها كثير من شعر المحاربين ، أن العلوى ينبغى أن يكون قاهها فى أوائل ثورته ، وقبل ادعائه النبوة واشتراعه نهب المال وسبي العرض . ففيها تظلم وتبرير لسبب قتله الناس ، فهو قد قتل الناس من خوفه الموت على نفسه لأنه إذا ترك قتل الناس قتلوه . وما أحسب هؤلاء الناس الذين عناهم إلا العباسيين الذين قتلوا العلويين بالسيف وقتلوهم بحرمانهم حق الحكومة والمال ، وجاروا عليهم بصنوف العذاب والانتقام .

ثم فسر ثورته بأنه قام بها ليحوز المال بالسيف ، فكان له ذلك ، لأن حقه فى نعيم الحياة وبقاء العمر حملاه على عمله . ثم توقع لنفسه الموت ، فكان يرى حتفه بين عينيه ، فنصح الناس إذا رأوا مشواه الأخير أن يعتبروا بأمر ثورته ، فلا يظلموا الخلق حقوقهم . ثم يظهر فى يتيه الأخيرين خشوعا لله وخوفا من ناره . ولعل ذلك كان منه على الحقيقة أول أمره . أو خداعا للزئوج الذين هبوا معه

لست بسبيل التاريخ ، فأتبسط فى وصف هذه المذبحة من وجهة التاريخ والسياسة ، وإنما أنا بسبيل شعر الحرب . وقد نتجت هذه الفتنة صور من صورة الشعر ، إن ضن بتقديرها التاريخ ، فإن على الفن والأدب أن يعرف لها قدرها . وهى قصيدة من صنع ابن الرومى الذى كان أكثر الشعراء العباسيين طول نفس وإماما بوحدة الموضوع ، واستقصاء للكلام فى الوصف . فهو الشاعر المفتن الذى سجل هذه الثورة الزنجية فى شعره بقصيدة طويلة يكفى أن ندرس جانباً منها لتبين موضعه من شعر الحرب فى عصر بنى العباس . لأنه شعر يصور ثورة حربية لم يشهد قبلا العرب مثلها فى حروبهم الأهلية كلها .

بدأ ابن الرومى ملحمة عن مذبحة البصرة بوصف أهلها الآمنين فصور كيف بغتهم العبيد بالسيوف ولم يكن لديه أصدق فى تشبيهه العبيد من ذلك التشبيه الذى اصطاح عليه كل من رآهم وهو أنهم (قطع الليل) ثم بيت واحد أعطى صورة الحريق الأكبر فقال :

بينما أهلها بأحسن حال	إذ رماهم عييدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل	إذا راح مد لهم الظلام
إذ رموهم بنارهم عن يمين	وشمال و خلفهم وأمام

وقد أفاد ابن الرومي التاريخ . فان المؤرخين لم يذكروا أن هؤلاء العبيد الذين ثاروا كانوا عبيد أهل البصرة وخدامهم ^(١) ففسر ذلك ابن الرومي فكان قوله (عبيدهم) مؤكدا ما ذهبت إليه من أن هؤلاء العبيد إنما ثاروا على أسيادهم من طول الجور والاستعباد . ثم ينتقل ابن الرومي إلى مرحلة ثانية من قصيدته فيصف أفعال الزوج التي اجتريحوها . لقد صور الذين هربوا للنجاة كيف تلقاهم الزوج على وجوههم بالسيوف وكيف كان الأب يرى مقتل ابنه الغالي ، والرضيع الذي ضربوه وهو على ثدى أمه ، والفتيات العذارى اللواتي سبوهن فكانت وجوهن وأقدامهن ملطخة بالدماء . ثم كيف اقتسمهن الزوج بينهم بقسمة السهام . ثم صرن إماء بعد أن كن يملكن الإماء والخدام . وكل هذا لم يذكره المؤرخون بالتفصيل فقال ابن الرومي مفصلا :

كم ضنين بنفسه رام منجى	فتلقوا جيئنه بالحسام
كم أب قد رأى عزيز بنيه	وهو يُعلى بصارم صمصام
كم رضيع هناك قد قطعه	بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة مصونة قد سبوها	بارزا وجهها بغير لثام
من رآهن في المساق سبايا	داميات الوجوه كالأقدام
من رآهن في المقاسم وسط الزنج	يقسمن بينهم بالسهم
من رآهن يُتخذن إماء	بعد ملك الإماء والخدام

وهي صور تهويلية مثيرة متتابعة ، يزجها ابن الرومي بما وهب من براعة في فن التصوير الشعري ، وكأنه يريد بها أن يستل الرحمة من قلوب من يعطف على فتنة الزوج لمطالبتهم بالحرية ، وما أحسب أولئك الزوج قد اتخذوا النسوة البيض لهم إماء ، إلا ثارا للعبودية وإنتقاما .

ثم جعل ابن الرومي المرحلة الأخيرة من قصيدته وصفا لتهديم قصور البصرة وتحريق أركانها ، وانطراح القتلى والأشلاء في ساحاتها . وجعل أواخرها حضا للقوم الكرام على محاربة العبيد الطعام واشترط عليهم الغياث ، فإن قعدوا عن حرب العلوى صاحب الزنج ، فإنهم شركاؤه في اللعنة وفي الآثام فقال :

بدلت تملككم القصور تلالا من رماد ومن تراب ركام

(١) يروى بعض المؤرخين أن هؤلاء العبيد كانوا يكذبون السباخ في ظاهر البصرة لكنهم لا ينبجسون في هذه الرواية ، فلم يذكروا هلاقة هؤلاء العبيد بأسيادهم ، ولم يعرضوا لفكرة الحرية التي قامت في رؤوس العبيد .

سلط البثق والحريق عليها فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها فهي قفر لا ترى العين بين تلك الأكام،
غير أيد وأرجل بائنسات نبذت يدهن أفلاق هام

* * *

إنفروا أهباء الكرام خفافا وثقالا إلى العبيد الطغام
إن قعدتم عن (اللعين) فأنتم شركاء (اللعين) في الآثام

ويظهر من بيت (انفروا خفافا) أن ابن الرومي نظم هذه القصيدة و (الحرب الزنجية قائمة بعد خراب البصرة) . وقد ذكر غير ابن الرومي هذا الحادث الجلل لكن أحداً من الشعراء لم يحسن تصويره ووقف الشعر عليه، كما أحسن ابن الرومي ووقف . وعلى التمثيل أذكر البحترى فإنه مدح أبا أحمد الموفق وذكر علوى البصرة ، لكنه أضاع شعره في المدح والاحتيال على معاني الثناء ، تاركا لباب الموضوع وهو وصف حرب العلوى ومذبحة الزنج^(١) .

وكفى بابن الرومي أن يروح تباها بهذا الوصف ، وقد قعد عنه البحترى ، وتاريخ الأدب الأدب العربى يعرف ما كان بين الشاعرين من التهاجى والتحاسد من أجل الشعر .

الفصل الثالث

شعر الحرب الخارجية في الشرق والغرب

١ - فتنة بابك الخرمي

ليس للأدب أن يعمن في السياسة ، فبحسبه أن يعرض للحوادث والفتن التي أثارت شعرا حماسيا ذا أثر فني — وهو ما يتصل بموضوع هذه الرسالة — فاذا استطعت أن أتقرب بالدراسة والتحليل هذه القصائد والمقطوعات من شعر الحرب والحماسة ، التي قالها زعما الشعر الحماسي في عصر بني أمية أبو تمام والبحترى فقد بلغت هذه الغاية الفنية في أدب العصر العباسي التي قصدت إليها .

وإذا كان أبو تمام والبحترى هما أميري هذا الفن في العصر العباسي الأول ففي دراسة أشعارهما الحماسية كفاء لتبيان موضوعات شعر الحرب في زمنهما ، لأن في قصيد هذين الجبارين أصدق مرآة للحياة الشاعرة ، وأبدع صورة للحماسة العرباء والبطولة والفروسية التي تولى بعدهما أبو الطيب المتنبي الزعامة فيها .

وأظهر مياسم الحرب في شعر أبي تمام قصائده في الحروب التي وقعت زمنه في شرق العراق وفي غربه .

أما حروب الشرق فكانت فتنا ، كبراها حرب الأفشين قائد المعتصم لبابك الذي خلع الطاعة ، واعتصم بمجموعه في أرض (البذل) وإقليم أذربيجان . فقاتله الأفشين . وإنه ليهمني عند الكلام على شعر الحرب في هذا العصر أن أدل على ما كان للعنصر التركي من الخطر في جسم الدولة العباسية بعد العنصر الفارسي الذي ابتلى به العرب زمن بني أمية وصدر الدولة العباسية ، فصارت حياتهم السياسية منوطة بأيدي قوادهم الخطرين كالأفشين . وإيتاخ ، وبغا ووصيف ، وسواهم من الترك . وكان ذلك ذنوب خلفائهم ، فقد استعان المنصور والمأمون بالخراسانية ، واستعان بعدهما المعتصم بالترك . فقويت شوكة هؤلاء القواد الغرباء عن العربية ، وصار الأمر إلى أيديهم ، حتى بات الخليفة حاكما باسمه فحسب . ومن ههنا بدأ انهيار العهد العباسي من الوجهة السياسية .

وكان بابك الخرمي كغيره ممن نهضوا بالفتن يبدؤون ثوراتهم (بدعوة روحية) فقد تحرك بالثورة منذ عهد المأمون (١) فكان من أصحاب (جاويزان) بن سهل صاحب أرض (البذ) فادعى أن روح جاويزان دخلت فيه ، وأخذ يضرب في تلك الأصقاع بالعبث والفساد ويهلك الحرث والنسل حتى أصاب أهل خراسان والرى وأصيبان بجاعة ، فتناحروا على الطعام يدفعون عن أنفسهم الموت ، وظل بابك يؤلب الجوع على العباسيين وفيهم الترك والفرس ، وفيهم من نقم على بني العباس . وقد اعتصم بمنطقة الجبال حتى أقض مضاجع العباسيين وأعجزهم أمره زهاء ربع قرن (٢)، وهي فسحة من الزمن تسكني أن تتعب دولة في لقاء عدوها مهما تكن مصابرة وجلدة قوية .

وقد حير أمر بابك دهاء المأمون ، بعد أن عجز عن حرب قائده صدقة بن علي المعروف بزريق ، وبعد أن أسر بابك أصحاب صدقة ، الذين كان يوجههم إلى حربه واحداً بعد واحد ومات المأمون وهو عاجز عن بابك (٣)

وأعلل عجزه عن اسكات (فتنة الشرق) بما كان آخذاً نفسه به من (حروب الغرب) فإن حروبه المتوالية للروم جعلته يحارب في (جهتين) على مصطلح عصرنا ، فتشتت قوته وتوزعت هذه الساحات الحربية جنوده ، فعجز في جميعها .

ولما صارت الخلافة بعد المأمون إلى المعتصم تبصر فرأى أنه محاط من جانبيه بما أحيط به أخوه المأمون من (فتنة الشرق) و « حرب الغرب » .

وأراه قد ثقف السياسة الحربية فلم يتعرض لما تعرض له أخوه من النهوض لحرب عدويه في آن واحد ، فأملى للروم ، وجعل حربه معهم مناوشة وصدا ، لامنازة والتحاماً ، حتى استطاع أن يأخذ بابك أخذة واحدة ، فجاءه به الأفشين مغلول العنق ، مصفود اليدين ، مكسور الشوكة ، مفلول الجمع .

ولئن تسلم المؤرخون وصف معارك الأفشين ، طاوین الكشع عن بطولة بابك ، فقد سار على غرارهم الشعراء فوصفوا الأفشين سيد الحرب وبابك نذلها واعلمهم قد فعلوا مثل ذلك مع الأفشين فوصفوه بالنذالة والجبن حين حبسه المعتصم ، لخلعه الطاعة ، ومكاتبته

(١) تاريخ الطبری ج ١٠ ص ٢٤٤ .

(٢) كانت قومة بابك الخرمي سنة ٢٠٢ ومقتله سنة ٢٢٣ للهجرة .

(٣) قال أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٢٢٣ ط دار الكتب المصرية)

« إن بابك أفسد مدناً كثيرة في مدة عصيانه ، وأخرب عدة حصون وأباد العالم وعجزت الخلفاء والملوك عنه لفراره ، وطالت أيامه نحو العشرين سنة أو أكثر » .

د للماذيار ، ثائر العجم وقوله له ^(١) : « ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة ويعود الدين إلى ما كان عليه أيام العجم » .
وليس يعني أن يكون الأفشين تارة في رأى التاريخ بطلا ، وتارة ندلا ، وإنما الذى يهمنى أن زى إلى صورته في إطار الحماسة العباسية على لسان الشعر ، ومن أجدر من أبى تمام حبيب بن أوس الطائي ، أن يصف لنا حرب الأفشين لبابك ، وكان منها مكشبا ، وبها عليا ، وعند الخليفة أميرا .

لأبى تمام شعر كثير في هذه الفتنة ، ولكن أجمعه لوصف وأوعاه لبيان ، هو قصيدته الكبرى التى يهنيء فيها المعتصم بعد صلبيه بابك في سامرا .

✱ ✱ ✱

إن الأفشين ليعود من حربه فيوجه اليه المعتصم أخاه هرون ليتلقاه بالترحاب ثم ينزله قصره في (الخطيرة) ويخلع عليه ما أثقله بالذهب والجوهر ، ويغنى أهله وأعوانه ثم يتوجّه ^(٢) ويلبسه وشاحين بالجوهر ويصله بمليونى درهم ، ثم يعقد له على السند ويدخل الشعراء عليه يمدحونه .

ولعل شاعرنا أبى تمام كان خير هؤلاء الشعراء . أما قصيدته الكبرى هذه فيصور فيها أبو تمام ، أول الأمر ، خوف الناس من بابك وسيادة الفوضى الاجتماعية ، إذ عدا الضعيف على القوى ، وعجز الأبطال عن حرب هذا الفاتك فقال ^(٣) :

خاف العزيز به الذليل وغودرت نبعات نجد سجداً للضال ^(٤)
قد أترعت منه الجوانح رهبة بطلت لديها سورة الأبطال

وكانت « أرشق » مكانا جرت فيه الواقعة الأخيرة بين الأفشين وبابك ، فجعل أبو تمام أرشق « يوما » سيرا على غرار العرب في تسمية الوقائع ، وكان يكثر منه ذلك في شعره الحربى ، فوصف في هذا اليوم المسلمين كيف ساروا إلى حرب عدوهم وهم رجال في جسومهم أسود في قلوبهم .

(١) الطبرى ٣٦٧/١٠ .

(٢) الطبرى ٣٣٤/١٠ .

(٣) ديوانه الطبعة الوهية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ ص ١٣٠ .

(٤) النبع شجر صلب كان العرب يتخذون منه القسى والضال شجر طرى لين وهو تعبير بلاغى أراد به الشاعر تمكين المعنى السابق في خضوع الرقيق للوضيع والقوى للضعيف ، وذكر الشاعر كلمة نجد على التمثيل لأن الضال والنبع من نبات نجد .

فطلع إليهم بابك وعائنه فارتاع ولاذ بالفرار ، واتخذ خدع الحرب فلاحقوه في البلاد
التي اعتصم بها بعد فراره ، فقال الطائي :

يا د يوم أرشق ، كنت رشق منية للخرمية صائب الآجال
أسرى بنو الإسلام فيه وأدجلوا بقلوب أسد في صدور رجال
لما رأهم د بابك ، دون المنى هجر الغواية بعد طول صيال
تخذ الفرار أخا وأيقن أنه صرى عزم من أبي سمّال (١)

ثم صدمته الجنود بعد عسر تعقب وطول جهد فروخته الفوارس وعليها خير السلاح في
هضبة (أبرشتويم ودروز) فكان ذلك تألق الزمان بيوم الضر وكانت الوقعة (بيانا) فصر
عليها المسلمون حتى كسبوا المعركة . وقد حدد أبو تمام زمن المعركة بأنه كان ليلا ثم طول
النهار حتى الزوال ، وعين يوم اللقاء فكان الخنيس ، وكل ذلك زيادة منه في حفاوة الوصف
والإحاطة بالصورة ، مما أعده مساعفة في الشعر لحوادث التاريخ ، ودليلا على تحديدها .

ثم يجعل أبو تمام ملائكة السماء تحارب مع المسلمين . وقد امتاز شعر الإسلام بهذه المعاني
الدينية يدعم بها الشعراء إيمان الجنود

ويروع من أبي تمام وصفه لكتائب الأفشين ، وقد أخذتهم جموع بابك ففتحهم محوا
بسيوفها الرقاق وعطفت عليهم الرماح ، فطافت بهم كأنها الرياح .

وقد كان أبو تمام كريما مع الفتيان الذين حارب بهم بابك فوصفهم بأنهم وإن كانوا كلابا
لأنهم حاربوا مع بابك ، لكنهم ماتوا موت الأسود ، وفي قوله هذا أثر من آثار المصانعة
في الشعر الحربي مما ورثه شعر العباسيين عن شعر الأمويين لكنه كان قليل الخطر في تغيير
الحوادث السياسية في العصر العباسي .

وقد أنصف أبو تمام أبطال بابك ، فوصف بأسهم وفروسياتهم مما لم يكن يجرؤ عليه شعراء
العصر الأموي في التمدح ببطولة أعدائهم .

فقال الطائي في بقية ذلك عن بابك :

هيمات روع روعة بفوارس في الحرب لا كشف ولا أعزال
يوم أضاء به الزمان وفتحت فيه الأسنة زهرة الآمال

(٤) صرى بوزن جنى . وصرى عزم أى ثابت العزم وأبو سمّال ، أمرأى شرده له بعير فقال
يخاطب الله « لئن لم تردّها على لاعتدتك » فأصابها وقد تعلق زمامها بعوسجة فقال : « علم ربّي أنها منى
صرى » أى عزيمة قاطعة وعين لازمة (اللسان) فيجىء معنى البيت إن بابك فر فراراً أقسم فيه لا يلوى .
وكان قسمه في العزيمة والتأكيد كقسم أبي سمّال .

وسروا بقارعة (البيات) فزحزحوا بقراع لاصلف ولا مختال
 نزلت ملائكة السماء عليهم لما تداعى المسلمون نزال
 لم يكس شخص فيه حتى رمى وقت الزوال نعيمهم بزوال
 فالبد أغبر دارس الأطلال يسد الردى أكل من الأكال
 ألوت به (يوم الخميس) كتائب أرسلته مثلاً من الأمثال
 كم صبارم غضب أناف على فتي منهم لأعباء الوغى حمال
 سبق المشيب إليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقدال
 قاسى حياة الكلب إلا أنه قد مات صبرا ميتة الرئبال
 وقبل أن يصور أبو تمام خاتمة بابك أرخ زمن أسره ومقتله ما بين رمضان وشوال ،
 وجعل الظفر طالع مغارس الرماح فقال :

إن الرماح إذا غرسن بمشهد فجنا العوالى فى ذراه معال
 لما قضى رمضان فيه قضاءه شالت به الأيام فى شوال
 ثم وصفه مغلولاً منصوباً على (الفيل) يطاف به للتحقير ، ثم صورته مصلوباً .

٢ - ممدود الطوسى

لما أنشد الطائى أبا دلف العجلى بائيته التى مدحه بها فاحتاز إعجابه ، واختلب لبه بمعانيها
 قال أبو دلف :

ادفعوا لاني تمام خمسين ألف درهم . ثم قال له : ما مثل هذا القول إلا مارثيت به
 محمد بن حميد الطوسى بالرائية ، وددت والله انها لك فى* ، فقال الشاعر :
 د بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم قبله ، فقال له الأمير : وأنشدنى القصيدة ،
 لأنه لم يمت من رثى بمثل هذا الشعر ، (١) .

وليت شعرى لو رد محمد بن حميد الطوسى الى الدنيا ، وقرأ ما قاله أبو تمام فى وصف بطولته
 وذكر حربه لأكب على قبر شاعره فى الموصل فبلل بدمعه ثراه . ولودّ لو كان له مقول الطائى
 بديل سيفه ورمحه فيحسن له الشكر ، بعد أن أحسن به الفخر ، ويعد قليلاً ما فعل ابنه

(١) أخبار أبى تمام للصولى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٣٧ ص ١٢٥ .

(أبو نهشل) من بعده حين بنى على الطائي قبة على باب الميدان في الموصل (١) إكراما له لريثائه أباه .

أما الرائية التي تمنّاها أبودلف أن تكون قد قيلت فيه فقد كثر بها من نشر ديوان أبي تمام فقالوا إنها رثاؤه (لمحمد) ، وقحطبة ، وأبى نصر بن حميد الطوسي (٢) . وكأنهم كانوا يريدون أن يجلّوا بأردية الخلود بنى الطوسي الأبطال المناجيد الذين اشتركوا في حروب زمهم ، فكان منهم نفر في حرب بابك ، ونفر في حروب الروم ، وكان من نصيب (محمد بن حميد) أن يقتله بابك الخرمي (٣) . ولولا أن في القصيدة ذكرا لمحمد وحده لعدتها قصيدة قيلت في الجندى المجهول الذي قتل في سهوب خراسان ، يتنازع شرفها ألوف من الأبطال الشهداء . فلتنهأ إذن روح محمد ، ولتقر عيننا في محشرها عند الشهداء ، فإن أبا تمام خلع عليها حلة لا تبلى :

ان محمدا هذا الفتى ، مات في حرب جبارة . ولعله فاته فيها أن يكون منصورا فقهرته السيوف وهي تقطعه ، والرماح وهي تطعنه ، لكنه مات ميتة الأبطال ، منصورا في زحام قهره ، وفوات نصره ، وما مات محمد حتى تكسر سيفه بيده ، وأحاطت به القنا فمات شريفا ، وإنه لبين شدى الموت فيبصر بمنجاة وفرار ، لكن عقله يزجره عنهما ، فيرده إلى الحرب وإلى الموت ، وذلك هو الحفاظ المر والخلق الوعر ، اللذان ركبا فيه . وإن نفسه لأية ، فن شمائلها أنها تعاف العار يوم المعركة ، وترى الإقدام إيمانها ، والفرار الذى هو العار كفرا فماذا فعل محمد بن حميد وهو في شدى الردى ؟

انه ضرب برجله الثرى فائبتها في مستنقع الموت ، ولم يزحزحها عنه ، وكأن رجله تكلمت وحاورته فقالت : « علام وقفتى في حومة الوغى ومبرك الجراح ، فقال لها : « من تحت أخمصك الحشر ، .

وكيف يكون من تحت أخمصها الحشر ؟

ان مستنقع الموت هو الجثث التي تكدست حتى نفعها ثراها في حماة من الدم ، فهناك أثبت المغوار قدمه ليسلك ذلك السبيل فيرتد في أطباق الثرى بين جثث قتل هو أصحابها ، وترم عظامه ، وتجول الأدهار ، فنبت يوم الحشر من مكان قدمه .

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام للبديعى ط مطبعة العلوم عصر سنة ١٩٣٤ م ص ٤٩ . وقد أقامت حكومة العراق في زماننا حديقة في الموصل حول قبر الطائي وجعلته في ضريح جليل مثل شعره .

(٢) ديوانه ط بيروت ١٨٨٩ م ص ٣٢٩ و ط مصر ١٢٩٢ هـ ص ٢١٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ، حوادث سنة (٢٢٣) ج ١٠ ص ٣٣٣ .

وعجبي للطائي أكان يريد أن يقول إن محمداً دفن وهو بطل ليبعث في لأمته ومفاضته ، عليه سلاحه وييده حسامه فيعيد الحرب جذعة كما كانت . (فيكون الطائي أشعر الناس في الحماسة) ؟
وملك الطائي سحر الصور ، وافتن بالألوان ، فأرانا محمداً سقط مضرجاً بدمه في ساحة المعركة ، وجاء عليه الليل فأحال ثياب موته الحمر التي يلبسها الأبطال سكان الدنيا ، إلى ثياب زاهية خضر من سندس وهي لباس الشهداء في أهل الخلود .

فيا لهفة عليه من بطل دار القدر بخيله وحربه ، فسلبته الخيل بعد أن كان يحميه ، وأحرقتة نار الحرب وكان يصلها .

وإن السيوف البيض ، وكانت زمنه باترة ، صارت بعده مبتورة حزنا عليه !

* * *

فقتى مات بين الضرب والطعن ميتة	تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه	من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده	إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما	هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله	وقال لها من تحت أخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمرا فما دجا	لها الليل إلا وهي من سندس خضر
فقتى سلبته الخيل وهو حمى لها	وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثر في الوغى	بواتر فهي الآن من بعده بتر

لقد حق لأبي دلف أن يتمنى لو قيل هذا الشعر الحماسي الرائع فيه ، فسد عليه وهو حي ، صاحبه وهو ميت . وكان أبو دلف عظيم قواد ومدره حرب ، في زمن المأمون والمعتصم (١) فما نفعه مديح يقول الطائي مثله كل يوم في غيره . فلقد مدحه بكرم الوفادة وطيب الأصل وأطال وما فيهما لمثله غنى . إن أبا دلف كان يريد أن يخلده الطائي بذكر حروبه وشجاعته وإقدامه وبأسه ، وهو الذي طعن في حرب من حروبه فارسا فأنفذ الطعنة إلى فارس آخر من ورائه .

هذه هي المآثر التي كانت أشفى لروح أبي دلف لو لحظ الطائي وفهم ، وأحسب أن الحياء غالب أبو دلف عن التصريح ، وشغل عطاؤه أبا تمام عن معاني التلميح .

٣ - فتح عمورية

كانت فاجعة (زبطرة) على أيدي الروم سبباً في فتح عمورية ، بل كانت جواب انتقام صاعق رد فيه (المعتصم) على « تيوفيل » ،

وكان كل من الخليفة العباسي أمير المؤمنين ، وعاهل الروم ، يرى الآخر ألد الخصوم . فالبلاد وقد كانت للروم قبل فتح الإسلام ، تركت الروم بعده ناقلين على ضيعة الأرض ، مرتاعين من سطوة أهل الدين الجديد . والمسلمون وقد فتحوا الأمصار وأقاموا شعار الدين لزمهم الجهاد لنشره وتثبيت أركانه ، فكان حتماً لازماً أن يظل الصدام بينهم وبين الروم زمناً متطاولاً ، أرخى كلاكه على شواطئ الحوض المتوسط منذ سار « الصحابي » ، « ميسرة بن مسروق » ، وهو أول مجاهد في الإسلام ، « أطلع درب الروم من المسلمين » ، (١) .

وكان من أوليات الشعر الحماسي ، الذي قيل في حرب العرب للروم ما قاله أسعد الكامل ، في رواية عبيد بن سرية وكان من الفرسان الشعراء (٢) .

وغسان حازوا بلدة الروم كلها وفي الروم صيرنا الملوك الأقالوا
فدوخت أرض الروم حتى تركتها ثنايا طحون علوها والأسافلا

وليس على من حرج إذا ارتأيت أنه كان على المسلمين في فاتحة الفتوح أن يتموا الجهاد في اكتساح البلاد حتى شواطئ بحر اليونان فتكون القسطنطينية في حوزتهم وما والاها من جوار البلاد في الأناضول فلا تقوم للبيزنطية نأمة في بواقي العهود ، وينقطع دابر التناوش الذي ظل بين بلاد الإسلام وبلاد الروم على الثغور منذ عهد الراشدين إلى أواخر الحروب الصليبية . وكانت ضحاياه لا تحصى ومباؤه ونهايه في حدود التهاويل غير التحريق والتدمير .

(١) جاء ذكر ميسرة بن مسروق في تعليقات ولیم ناسوليس الإارلندی على فتوح الشام للواقدي طبعة كلكتة سنة ١٨٥٤ ص ١٥ نقلاً عن كتاب الإصابة .

وقد غلط ناسوليس فليس في الإصابة ذكر لميسرة بن مسروق وإنما الذكر لمسروق وحده فقد أرسله أبو عبيدة ومعه علقمة بن حكيم إلى دمشق وفلسطين وشهد حرب اليرموك وكان أميراً على بعض الكراديس (الإصابة الطبعة الشرقية بمصر سنة ١٩١٧ ج ٥ ص ٨٨) .

ولكن الذي ذكر ميسرة هذا هو صاحب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) طبعة جمعية المعارف المصرية سنة ١٢٨٦ (ج ٤ ص ٤٢٦) فقال إن ميسرة بن مسروق العبسي أحد التسعة الذين وفدوا على الرسول صلى الله عليه وسلم من بني عبس وقد خاطب الرسول لما حج حجة الوداع وحسن إسلامه وكان له من أبي بكر منزلة حسنة .

(٢) ص ١١ من تعليقات ناسوليس على الواقدي (السابقة) .

يلخص « قاسيلييف » فاجعة « زبطرة » (١) مستعينا بمؤرخى العرب كالطبرى وابن الأثير (٢)، لكنه يذكر أمورا فيها زيادة خطرة قد استقها من المصادر البيزنطية ، فقد روى أن تيوفيل امبراطور الروم — وكان القائد الأعلى للجيش البيزنطى — جهز جيشا فى سنة ٨٣٧ للميلاد من مائة ألف مقاتل فيهم بلغار وروس ، وفيهم فرس أتباع « بابك الحرمى » فجاء هذا الجيش إلى « زبطرة » ، وكانت زبطرة على الخط الذى يفصل بين الامبراطوريتين العربية والبيزنطية ، على مقربة من بلدة « الحدث » ، وكان فيها المسلمون ففتحها تيوفيل وأهلك أهلها وسبهاها ، ثم أحرقها واسترق نساءها وصبيانها فساقيهم إلى القسطنطينية ، وكان فى جيشه جماعة من الأكراد ففتحوا فتكا ذريعا بالمسلمين ، وكان اسم قائدهم « نصرا » (٣) وأنه لما قفل تيوفيل بالغنيمة إلى بلاده ، هرب من زبطرة جمع من المحرقة دورهم والمسلوبين ، وساروا حتى بلغوا قصر الخليفة المعتصم فى سامرا ، فلما بلغ الخليفة الخبر قفز إلى ظهر جواده ، وأعطى الأمر بالنفرة من ساعته .

وتوارىخنا على شبيه ذلك من الوصف ، إلا أنها تزيد فى هذه الحادثة فتذكر امرأة عربية من أهل زبطرة صاحت وهى أسيرة فى أيدي الروم (٤) .

— وامعتصماه !

فلما بلغ المعتصم استغاثتها وهو جالس على سرير صرخ .

— لبيك لبيك . .

وصاح فى قصره ، النفير النفير « ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وحديدا وحقبة فيها زاده ، ثم عبأ العسكر وجمعهم فى دار العامة » وأحضر قاضى بغداد وثلاثمائة وثمانية وعشرين رجلا من « العدول » فأشهدهم على ماوقف من الضياع ، وما يجب أن يصير بعده من أدر الخلافة ، وهذا دليل على صدق إغاثته ، ووثبته الخالصة لنصرة العرب والمسلمين . وقد طاف خيالى بهذه المرأة التى صاحت فى أرجاء زبطرة وهى تساق مع السبايا والرجال

(١) Sozopetra .

(٢) تاريخ الطبرى الطبعة الأوربية ج ٢ ص ١٢٣٤ . الكامل لابن الأثير الطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ ج ٦ ص ١٩٥ .

(٣) يشير قاسيلييف وشارحوه إلى أن اسم « نصر » هذا قد اختلف فيه فقد كان العرب الذين معه ينادونه برسيس أونرسيس وهو théophobe بالرومية وان اسمه فى الفارسية المزدوجة بالأرمنية (نرس) . هامش ص ١٣٨ رقم ٣ من كتاب Byzance et les Arabes وفى هذا لإيضاح لتحقيق شخصيته التى أذكرها فى البحث المقابل .

(٤) تاريخ أبى الفداء المؤيد الطبعة الأولى الحسينية بمصر ج ٢ ص ٣٣ .

المصفودين ، في صف طويل نحو بلاد الروم ، يحرسه فرسان بيزنطيون شداد جلال ، وبأيديهم السياط ، بحث عنها فلم أجد شفاء لغليل ، فان اسمها عند ياقوت بمعجم البلدان^(١) (شراة العلوية) وهي عند أبي الفداء في تاريخه وعند ابن الأثير في الكامل د امرأة هاشمية . ولم يأبه لها فاسيلييف وسواء ممن رأيت تاريخهم للمعارك العربية الرومية .

* * *

وشاء المؤرخون البيزنطيون — كما يقول فاسيلييف — أن يصبغوا ثار المعتصم حين فتح عمورية (صبغة شخصية) صبغة انتقامية لنفسه لا للعرب ولا للإسلام . فزعموا أن زبطرة بلد المعتصم التي ولد فيها ، وأنه قوض مدينة عمورية لأنها كانت دارة الأباطرة الروم وبيت كرسيم ، وحى بطارقهم ، ولأن الأسرة العمورية البيزنطية التي حكمت قسطنطينية وكان منها د ميخائيل الثاني وتيوفيل وميخائيل الثالث ، ولدت في عمورية مثلها ولد المعتصم في زبطرة .

وفات فاسيلييف أن يدعم رده على المؤرخين البيزنطيين بمحادثة المرأة الهاشمية ، وبأن المعتصم داهية السياسة كان يتبها للفتك بالروم منذ استراح من بابك ، كما أسلفت الإشارة إلى ذلك ، فقد سأل بعد ظفهره ببابك^(٢) د أى بلاد الروم أمنع وأحصن ، فقيل عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام وهي عين النصرانية وبُنسكها د٣ ، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية .

* * *

عرّف المعتصم التاريخ بحذقه في السياسة وفن الحرب فجهز جيشه وأحسن تعبئته ، وكان معه أقوى قواده وأبرعهم . فكان معه : الأفشين ، بغا ، أشناس ، عمر الفرغانى . أحمد بن خليل بن هشام ، عبد الوهاب بن على ، عجيف بن عنبسه ، جعفر بن دينار ، عبدالله بن الحياط ، وصيف ، محمد كوتاه .

وقد قسم جيشه كراديس على كل فريق واحد من هؤلاء القواد ، وجهزهم بالأنقال والزاد والسلاح ، وجعل نفسه على فريق ، وسير بين يديه الطلائع ، وكانت خطته الحربية أن يهدم

(١) مادة عمورية

(٢) تاريخ الطبرى ٣٣٥/١٠ .

(٣) بنسكها أى أصلها .

(أنقره) قبل (حصار عمورية) إذ كانت عمورية في بهرة الأناضول ، وأنقره في شمالها إلى الشرق ، بمثابة حصن لها وملجأ .

ولولا أن حق الكلام لأبى تمام في وصف حصار عمورية وفتحها ، لأرسلت الوصف على أسوار عمورية وأبراجها ، فصور كيف دكها المعتصم بكتائبه وجيوشه ، وكيف ذل له كبير قوادها « البطريق ياطس » ، وكيف ألح عليها أمير المؤمنين بالمجانيق والعرادات والحملان والدبابات (١) حتى دك حصونها وثل بروجها وأحسن التأديب والانتقام من الروم ، ثم عاد إلى سامرا عود المنقذ الأعظم والقاتح المنصور .

ولست أفسح المجال لأبى تمام في وصف فتح عمورية قبل أن أذكر أسرى الروم وما حدث في الحصار (مما لم تذكره كتب العرب البتة ، وإنما ذكرته كتب البيزنطيين ونقله فاسيليف)

وقد دام حصار المسلمين لعمورية خمسة عشر يوماً (٢) في شهر آب سنة ٨٣٨ للميلاد (٣) . ويقول فاسيليف (٤) كان يدافع عن عمورية (خمسون قائداً بيزنطياً) قتل أكثرهم منهم :

يا طس Aetius

البطريق تيوفيل Théophile

الخصى القائد تيودور المعروف بالقوى Téodore

(١) الحملان Beliers وهى آلات من خشب مخين رأسها رأس خروف كان يستعملها العرب والروم بدك الحصون يحملها أفواج أثر أفواج ، فيتأخرون بها عن السور خطى ، ثم يهجمون هجمة رجل واحد راكضين وقد سددها إلى حجارة في صدر السور فلا يزالون كذلك يلحون بالنطح وبالصدم حتى يتداعى السور وينتثر . والدبابات استعملها المعتصم في هذا الحصار ووصفها الطبرى (ج ١٠ ص ٣٤٠) فقال « وعمل المعتصم دبابات كبارا تسع كل دبابة عشرة رجال وأحكمها على أن يدحرجها على الجلود المملوءة ترابا حتى يعتلى بها الخندق . والظاهر من وصف الطبرى أن الدبابات حصون مغلقة سيارة وهو وصف يطابق مصطلح عصرنا في دبابات حروبه المسماة (tank) .

(٢) يقول الطبرى (ج ١٠ ص ٣٤٣) وغيره من مؤرخى العرب إن المعتصم قتل بعد إناخته على عمورية بخمس وخمسين يوماً وذلك في رمضان سنة ٢٢٣ للهجرة (ولم يذكروا أيام الحصار) .

(٣) في المصادر البيزنطية التى كتبها ميخائيل السورى Michel le Syrien والمؤرخ الرومى جينسيوس Génésius فيما يروى فاسيليف ولم يروه أحد من العرب : أن رجلا من الروم يرفده آخر يسمى مانيقوفاغوس المنجم Manikophagos تلميذ (لايون) الفيلسوف قد شك رسالة فى سهم وأرسله الى عسكر المعتصم ، فوجد المعتصم فى هذه الرسالة أن اخبطوا السور من صورة الثور الحجرى المنحوت على وجه من وجوهه ومن جهة الأسد الرخامى ، ففعلوا ذلك فتداعى السور . (هامش ص 169 من كتاب

فاسيليف Byzance et les Arabes .

(٤) ص ١٧١ من كتابه السابق .

القائد قسطنطين Constintin

القائد بازوئيس Basoés

الرئيس كاليستوس ميليسينوس Kallistos Mellissenos

وأن الذين قتلوا من الروم بلغوا سبعين ألفاً . وأن الكتاب البيزنطى المسمى ، حياة القديس آغورس Agauros وكتاب ، نيقيتان ، المسمى الصك الثانى والستين لشهداء عمورية ، يذكر أن أهوالا مما لقي الروم فى عمورية (١) ، وما ذاق أسراهم من عذاب وتشكيل ، وأن القائد اليونانى ديجينيس آقريبطاس Digenis Akritas نظم أشعارا يبكى فيها مصرع أنقرة على أيدي العرب ويذكر نسكة عمورية .

* * *

والآن فلأدع شاعر الحروب الرومية فى عصره أبا تمام الطائى يصف لنا بقوله العبقري وفنه المصور ، كيف كان أمر عمورية بين المسلمين وبين البيزنطيين .

وصف أبو تمام ما كان من أمر المنجمين الذين رأوا طوابع حرب عمورية قبل أن يشب المعتصم إليها ، وقد حقق المؤرخون ذلك التنجيم ، فروى السيوطى أن المعتصم لما تجهز لغزو عمورية ، حكم المنجمون أنه طالع نحس (١) ، فلم يعبأ بذلك المعتصم ، كما يدلنا شعر أبى تمام الذى بدأ باثيته الكبرى به فتمكم بطوابع المنجمين يعلمهم أن القول للوامع الراح لا لسواطع النجم :

والعلم فى شهب الأرماع لامعة بين الخيسين لا فى السبعة الشهب
وكر على المنجمين بأبيات تهدم شعبذتهم ، وأحاديثهم الملفقة ، وكذبهم على الناس : بما يزخرفون من القول فى أبراج الكواكب .

استفتح الحماسة الرومية بوصف الفتح الذى تنعابا عليه الخطب ولا يحيط به الشعر :
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
وانطلق يرسم بمياسمه الفنية مراحل هذه الواقعة فأجمل الحكم بفوز المسلمين واندحار المشركين فقال :

يا يوم (وقعة عمورية) انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الخلب

(١) يحقق فاسيلييف أن عمورية Amorium قد أصبحت اليوم ضائعة الأثر إلا بقايا منها تسمى (القصر) وأن عن يمينها وشمالها تقوم قرىتان إحداهما (حاجى عمر) والثانية (حاجى حمزة) .
(٢) تاريخ الخلفاء لجلال السيوطى طاباى الحلبي بمصر سنة ١٣٠٥ ص ١٣٢ .

أبقيت جد بنى الإسلام في صمد والمشركين ودار الشرك في صلب
ثم مثل عمورية بغادة سافرة الحسن تأبت على الأزواج والخطاب ، فلم ترض بكسرى بعلا
ولا بملك التبابعة ، وما تزال من عهد الإسكندر في ميعة الصبا وذلك كناية عن أن عمورية
كانت — كما سلف ذكره — بيضة الروم ، ووكر ملوكهم ، وكانت حين وصفوها للمعتصم في
معزل ، فلم يقصدها أحد من الفاتحين .

وأتبع أبو تمام وصف هذه المرأة التي مثل بها عمورية ، بأن أختها (أنقرة) قد عدتها فلم
يكد الخراب يدب إليها حتى دب إلى عمورية ، فكان لها أعدى من الجرب :

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب (١)
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
جرى لها الفأل نحسا يوم (أنقرة) إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب

ونحن نسأح شاعرنا العظيم ، فقد كان قبل حين ، يتهم بالمنجمين ويرميهم بالتخرص ، فما
باله الآن يقول بالفأل وأنه جرى نحساً لعمورية فهدمت كما تهدمت أنقرة ؟

لكنه بعد ذلك يعرض علينا تهاويل من الصور فإن عمورية أحرقتها أمير المؤمنين يوم
لاهب ، ذليل الصخر والخشب ، فإذا ليلها الأخم ناصل اللون ، أو أن الشمس طلعت في
سواده ، ثم يضاعف هذه التهاويل ، فيلف الظلام بالدخان ، والنار بالضياء . كل هذا تصوير
للحريق الذي أخذ عمورية فبدل ليلها نهارا :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب
حتى كأن جلايب الدجى رغب عن لونها أو كان الشمس لم تغب

وبعد أن نفدت تلاوين أبي تمام في الليل والنهار ، والشمس والظلام ، وصف تهدم عمورية
وصغارها ، وسماجة منظرها ، وخط فكرة هذا المصير في هذا البيت :

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له المنية بين السمر والقضب
ثم غالبه فنه الخاص فقال :

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب

وبذكر المعتصم يصب الطائي عليه كل صفات الحماسة فيجلوه بطلا غدى الحروب ، وبقاعة
الجوش . جيش الرعب يسبق إلى البلاد جيشه ، وهو وحده جيش .

(١) أبو كرب هو أسعد بن مالك الحميري اليماني وكان ملكاً من ملوك التبابعة .

لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد
إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفاً يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها في جحفل لجب
وقد تمهل الطائي فأبطأ ، فأين حصار عمورية ؟ وأين البطارقة على أبراجها ؟ وأين عديد
الروم وعدتهم فيها ؟ إن أبا تمام يجعل كل هذا فيقول للمعتصم :

رمى بك الله برجيها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما أشبوها واثقين بها والله مفتاح باب المعقل الأشب
والطائي يأبى أن يخلى الشعر من الحكمة ، فقال بعد ذلك :

ان الحمامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب
وهو معنى لا يجود بمثله إلا صبور على الحكمة ، متمرس بالعقل والخيال ، يجعل
الرماح والسيوف أشطان بثر يتدلى منها دلوان يمتاحان الماء ، وبسبيلها يكون العشب النابت
بعد الإرواء .

وليس من عجب — على الرغم من صنعة أبي تمام — أن يكون الحمام سبب الحياة في
الموت الحياة .

وتهتف (المرأة الهاشمية) التي صاحت بزبطرة ويبلغ صداها إلى مسامع أبي تمام ، فيلبسها
بشعره ، واصفا أمير المؤمنين كيف لبأها بإهراق كأس الكرى ، والصدوف عن مراشف
الغيد العراب .

لبيت صوتا زبطرياً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

وبعد أن لبي صوت الزبطرية فعاف من أجلها ثغور الغيد ، مؤثرا ثغور الروم ، مصلتا
سيفه الذي أجاب به النداء ، دك بيضة الشرك وقوض خيمته فترك عمودها منعقرا ، ولم يعرج
على أوتاد الخيمة وأطنابها ، لأن الخيمة بعمودها ، وإذا تقوض لم يبق بعده للأطناب والأوتاد
من ذكر . وهي (معان رمزية) في حماسة أبي تمام يريد بها أن المعتصم عمد إلى عين الشرك
وَبَنِكَ النصرانية فهدمها ، ولم يعرج على قراها التي حولها أو دساكرها فقال :

حتى تركت عمود الشرك منعقرا ولم تعرج على الأوتاد والطنب

وأعتقد أن أبا تمام كان يعبأ بمحادثات التاريخ في شعره ، ولم يكن ليتساح فيها ، إذ كان يتخذ
منها وسائل لتلوين معانيه ، وتخليد شعره ، فيربطه بالقيم التاريخية التي لا تنسى . فهو يذكر أن
(تيوفيل) صاحب الروم حين رأى جد الحرب بذل المال لوقف جريها ، ولكن الحرب ذات
التيار والعب قد غلبته وكانت الجارفة .

ولم يذكر أبو تمام وقت هذا (البذل) وأراه ليس واقعا في إبان الحصار والفتح ، وإنما كان بعد ذلك ، أى بعد فراغ المعتصم من عمورية ، وعزمه على الرحيل ، لأن مؤرخي العرب لم يذكروا أن تيوفيل حاول الصلح أثناء الحصار ولا روى ذلك البيزنطيون ، فأنا أجد فاسيلييف يذكر (١) أن المعتصم بعد إنزاله الرزية (٢) بعمورية عرض عليه تيوفيل صلحا ، فوجد نفسه مضطرا لقبوله ، لأن الأفشين كان بدأ بعصيانه ، وقد (تبودلت الأسرى) بعد ذلك بين الروم والمسلمين سنة (٨٤٥ م ٣٤١ هـ) واقتدى تيوفيل قريبه (قسطنطين بابوتزيكوس) ويزيد فاسيلييف فيقول ، إن تيوفيل ملك الروم أرسل في تلك الفينة المحزنة إلى المعتصم ، سفيرا من قبله ، هو (بازيل) بطريق خرشنة يطلب السلام وفكاك (ياطس) وقدم للمعتصم جزية لكل أسير عمورى مائتى (ساتوناريا) (٣) فرفض المعتصم طالبا أجزل من ذلك ، وطلب تسليم (نصر الكردى) (٤) الذى تنصر وحاربه معهم ، وتسليم (مانويل) وكان مانويل قائد جيوش البيزنطيين فى حرب العرب .

ويذكر الطبرى (٥) ، أن ملك الروم وجه رسولا فى أول هجمة المعتصم على عمورية فأمر المعتصم أن ينزل الرسول على موضع الماء الذى كان الناس يستقون منه ، وكان بينه وبين عمورية ثلاثة أميال ، ولم يأذن له فى المصير إليه حتى فتح عمورية ، فلما فتحها أذن له فى الانصراف إلى ملك الروم فانصرف وانصرف المعتصم يريد الثغور .

فيتبين من رواية الطبرى أن رسول ملك الروم لم يتسن له أن يكلم المعتصم قبل الفتح وقفل بعده من حيث جاء ، ويظهر من رواية فاسيلييف ، أن تيوفيل (عرض صلحا) بعد فتح عمورية ، وأن المعتصم قبل هذا الصلح مضطرا . وقد توسط أبو تمام بين الروايتين فقال :
لما رأى الحرب رأى العين (توفلس) (٦) والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال جريتها فعزه البحر ذو التيار والعيب
ويتضح بعد ذلك من قول الطائى أن تيوفيل بعد أن خاب فى بذل المال لوقف الحرب هرب وهو أخرس الحجة فقال عنه :

ولى وقد أجم الخطى منطقته بسكته تحتها الأحشاء فى صخب

(١) ص ١٧٤ ، ١٧٥ من كتابه السابق .

(٢) يسمى الفرنجة غزوات المسلمين للروم فى هذه البرهة Razia رزية .

(٣) عملة بيزنطية .

(٤) وهو رأس الحمرة الذين فروا الى الروم وكانوا يحاربون المعتصم مع بابك فى منطقة الجبال

(٥) ٣٤٣/١٠

(٦) ورد ذكر اسم (تيوفيل) فى شعر الحماسة العربية (توفل) و (وتفل) وأبو تمام يورده هنا

على أصله théophilos .

وبعد أن ذكر الطائي صورة تيوفيل الهارب ذكر عدد القتلى في وقعة عمورية :
تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
وكان الموسم موسم دخول على الصيف — كما يظهر — من نضج التين والعنب .
وعاد الشاعر الشامي إلى ذكر الحرب ، وقد عاوده خاطر المرأة الهاشمية (المخدرة العذراء)
التي كان لإنجادها سببا في هذه المعركة التي جثا فيها الرجال على الركب من الهول ، والحرب
قائمة في المأزق الحرج :

والحرب قائمة في مأزق لجب تجثو الرجال به صغرا على الركب
كم كان من قطع أسباب الرقاب بها إلى (المخدرة العذراء) من سبب
ولئن كان من عادة شعراء الحماسة أن يمزجوا الحماسة بالمديح ، فإن الطائي قد يترك المديح
إلى أواخر القصيدة ؛ كمدهه المعتصم في آخر هذه البائية الخالدة ، وقد أبت عليه حكمته
المتعددة إلا أن يحط في هذه الأواخر درة من دررها (فجعل الراحة الكبرى لا تنال إلا على
جسر من التعب) فقال :

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
وترك أعين الزمان رواصد لهذا المعنى حتى جا شوقي فتناوله — وهذا دليل خلود الطائي
ومعانيه — فقال (أعدت الراحة الكبرى لمن تعب)
وربط الطائي حروب المعتصم بحرب بدر ، كدأب غيره من الشعراء السابقين في مثل
هذه الرابطة فقال :

فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
وتمنى وهو يتم القصيدة أن يجثم الصغار على أوجه الروم ، وأن تتلاها بالبياض
وجوه العرب .

٤ - أسر الثغور

كان أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، وأسميه (أسد الثغور) عاملا للعباسيين على أرمينية ،
وسائر ثغور الروم في شمالي سورية .
وقد تفصيت عمال المسلمين على أرمينية — وهي أكثر أقاليم الثغور خطرا ومنها باب
الروم ومسيرة (الدرب) ^(١) — منذ عهد الرشيد الى زمن المتوكل على الله لكي اعرف
خطر أبي سعيد بينهم فوجدتهم :

(٦) سمى العرب منذ جاهليتهم الطريق إلى الروم خاصة (دربا) ، فلم يكن الدرب في لغتهم إلا =

- (١) سعيد بن مسلم بين قتيبة الباهلي)
 - (٢) يزيد بن يزيد)
 - (٣) خزيمه بن خازم (زمن الرشيد سنة ١٩٠ هـ)
 - (٤) أسد بن يزيد بن يزيد)
 - (٥) ثابت بن نصر بن مالك (سنة ١٩٣ هـ)
 - (٦) صدقة بن علي المعروف بزريق (زمن المأمون سنة ٢٠٩ هـ)
 - (٧) العباس بن صدقة بن علي (سنة ٢١٤ هـ)
 - (٨) (أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري المروزي) (زمن المعتصم كله)
 - (٩) احمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة (زمن المتوكل سنة ٢٣١ هـ)
 - (١٠) يوسف بن محمد وهو ابن أبي سعيد الثغري (زمن المتوكل سنة ٢٣٧ هـ)
- ووجدت أشدهم بأسا على الروم وأخطرهم حربا هو أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، فقد سلخ أيامه منذ ولاه المعتصم على أرمينية في سنة ٢٢٠ للهجرة (١) إلى موته في خلافة المتوكل سنة ٢٣٧ (٢) فعرف تلك الثغور وبني كثيرا من الحصون التي هدمها الروم وكان الأسد القائم على أرباض العواصم (٣)

ورأيت أن حظ أبي سعيد من المؤرخين السياسيين — كما أشار اسكندر فاسيلييف (٤) — كان حظا سيئا فقد كانوا يذكرونه بغير حفاوة ، وكانوا يرون به لماما دون أن يشيروا الى غزواته للروم ، ودفعه لجيوشهم المناوشة والمهاجمة ، وكان شأنه مع هؤلاء المؤرخين شأن غيره من عمال الخلفاء على أرمينية ، فاستسر قدره في تضاعيف الحوادث التاريخية ، وبات

== طريق بلادهم الى ديار الروم . وكان أول من أشار الى هذه التسمية أمرا القيس حين بكى صاحبه عمر بن قميئة لانقطاعهما في طريق الروم فقال الملك الضليل :

بكى صاحبي لما رأى (الدرب) دونه وأيقن أنا لاحقـان بقيصرا

يسمى المؤرخون الغربيون هذا الدرب (Lagrande Route Imperiale) وكان هذا الدرب يمتد من القسطنطينية الى ديار الشام . وقد رأيت آثاره بين أنطاكية وحاب ما تزال الى اليوم وهو في عرض ثلاثة أمثار مفروش بالحجارة العراض الملساء ، قد أثرت فيه الزلازل فأزالت كثيرا منه .

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٣٠٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١١ ص ٤٤ .

(٣) سمى العرب العواصم بذلك لأنها كانت تمصهم من الروم وغيرهم ممن يجاورونهم فهي كالثغور التي أقاموها مقام الأفواه من الجسوم .

(٤) (Vasiliev (Byzance et les Arabes الترجمة الفرنسية طبع معهد التاريخ المرقى في

خطره مثل سواء من العمال والقواد ، يذكره المؤرخون بسطور ، ثم يغيبونه في صفحات فمكأنه ضائع أو غريق بين تلك الحوادث الزاخرة .

لكن الشعر أنصفه ، وكانت نصفته على أيدي شاعري بني العباس أبي تمام والبحتري اللذين استوليا على أمد الشعر في زمنهما فإن هذين الشاعرين — وأحفاهما به أبو تمام — سجلتا في شعرهما وقائعه وحروبهم في قصائد كثيرة جعلناها وقفا عليه ، حتى كانت قصائدهما هذه فيه شاغلة جزءا كبيرا من ديوانيهما .

وإني أجعل هذه القصائد الحماسية مصدرا لتصوير بطولة أبي سعيد ، ورسم بأسه في الثغور وسلطانه على الروم ، فمن خلالها يتبين أن أبا سعيد كان البطل العظيم في حروب عصره ، وأنه لم يكن كما أشار إليه المؤرخون ، عاملا من العمال على الثغور ، وإنما كان سورا إنسانيا منيعا حصنت به الخلافة العباسية نفسها من الروم ، طول سبع عشرة سنة حتى غلب عليه لقب الثغري ، نسبة إلى الثغور ، وهذا ما أذهب إليه ، وكان لقبه من قبل (المروزي) ولعل أبا سعيد بما كان موصوفا به من الكرم والسماحة والمعروف ، قد اجتذب إليه شاعري عصره ، فأكثر فيه المدائح ، حتى لو أحصينا ما قاله أبو تمام والبحتري في المعتمصم أو المتوكل لأربت قصائدهما في أبي سعيد على عدد ذلك ، وهذا فضل الشعر على التاريخ ، فلولأبو تمام وأبو عبادة لما عرفنا صور الحماسة الرائعة التي كان أبو سعيد الثغري متجليها ، ولاستسر خبره مثل غيره من القواد والمحاربين الكثيرين

كلا الشاعرين ذكر في شعره حروب الروم ، وأعطاهما من أبياته النصيب الأوفى ، وكلاهما نظر إلى بطولة أبي سعيد ، وكلاهما صور هذه البطولة في شعر حماسي كثير رائع (وفي الكلام على شعر الحماسة عند البحتري — فيما يلي — بحال لوصف صور من شعر البحتري في أبي سعيد)

أما أبو تمام — وهو أكبر شاعر في عصره — فكان عليه ألا يكون في معزل عن حروب العرب والروم فإن بينظة كانت دائمة القيام في وجه العرب ، وجميعوشها كانوا لا يفارقون ظهور الخيل ، ولا يغمدون السلاح من حدود القسطنطينية إلى أرمينيا في العصر العباسي كله . ومنذ ظهرت في شعر الطائي هذه الحوادث الحماسية كانت دليلا على حياة هذا الشعر كان البيزنطيون يغيرون على ثغور العرب فيهدمون حصونها ، ويذبحون رجالها وشيوخها ويسبون نساءها ، ثم يعملون أيدي الحريق والنهاب في متاع المسلمين فإذا انفضوا من ذلك عادوا إلى بلادهم ، معهم أسرى العرب وسبايا نساءهم وقد زادوا على الألوف . ولم يكونوا يتركون الصبية ، فلطالما أسروا منهم الألوف في بغاتهم الكثيرة ، وقد يبقى هؤلاء الأسرى في تلك البلاد الرومية وراء الثغور — إن لم يقتلوا — سنين وأياما حتى يفادي بهم ، أو

يغزو العرب تلك البلاد منتقمين وحين ذلك يكيلون للروم بالصاع صاعا فيخربون ديارهم، ويهدمون حصونهم، ويسبون النساء، ويأسرون الرجال.

وقد ذكر مؤرخو العرب كافة تلك البغثات وهاتيك الانتقامات بشيء من التفصيل، غير أن الكتب الرومية كانت أكثر دقة في وصف الحوادث. ومن هذه الكتب استقى بعض المؤلفين المعاصرين في الغرب كتبهم التي ألفوها عن علاقة العرب والبيزنطيين أمثال (فاسيافيوف وماريوس كانار، وشارل دييل، ورونسيان، وكارادوفو، وخاصة المؤرخ شلبرج) وغيرهم في دراسة هذه الكتب الغربية ومقارنتها بتواريخنا كتاريخ ابن خلدون وابن الأثير وتاريخ الطبري والمسعودي وغيرها من عيون كتبنا التاريخية، نتوصل إلى استجلاء حقائق حروب العرب مع الروم، وعلاقاتهم السياسية بهم، وهذا ما حاولت هنا في رسالتي دراسته في حروب العرب مع البيزنطيين من أيام المعتصم إلى عهد سيف الدولة، ليكون بداية لهذا الضرب من الدراسة الأدبية التاريخية التي كانت مازال تنقص أدبنا المعاصر، وتفتقر تاريخنا الكبير.

لقد كانت الفروسية هي الصدى الأدبي للحرب البيزنطية العربية، وإن في جميع الشعر الذي قاله أبو تمام والبحتري في حروب العرب مع الروم وفي ترتيبه بإضافة ما قاله أبو الطيب المتنبي وأبو فراس الحمداني في حروب سيف الدولة وما نظمته الشعراء في حروب الصليبيين زمن الملكين نور الدين العادل والبطل صلاح الدين الأيوبي (الملحمة) أية ملحمة لحرب العرب للروم، ما زال أدب العرب يحن إليها حنين المحروم.

لقد حررنا المؤرخون ذكر غزوة أبي سعيد النخري للقسطنطينية فلم يذكر أحد منهم أنه بلغ أسوارها، لكن أبا تمام خلد لنا هذه الغزوة التي مد فيها أبو سعيد رماح فرسانه إلى حدود القسطنطينية، فوصفهم في الشطر الأول من قصيدته الرائية — التي قالها فيه — وصف جيشه بأنه كان جيش فرسان... وهل يستطيع غير الخيول سيرا في أرض الأناضول الوعرة المثلجة؟

حمل أبو تمام قصيدته في وصف هذه الغزوة كل ما ينبغي أن تحمل من مياسم الوقائع فذكر القسطنطينية وأسوارها. وذكر أن أبا سعيد بلغ الخليج.

وأرى الخليج هو خليج البوسفور لا غيره من الخلجان، والظاهر من قصيدة أبي تمام أن أبا سعيد لم يفتح القسطنطينية. وإنما رجع دون حصارها، وأنه طرد أمامه، في مسيره إليها جيوش الروم حتى التجأت إلى الأسوار. فقد فصل من الدروب من جهات أرمينية. ومعه جيشه العرمرم الجرار، حتى بلغ بعض الحصون البيزنطية، وكان قائد جيش الروم

(منويل) (١) ففر والتجأ الى مكان خفي ، وجعل يعاين فلول جيشه مارة به فيتلقاها بتسكاب الدموع على الخذلان .

ثم جعل أبو تمام الشطر الثاني من قصيدته هذه مدحا لشجاعة أبي سعيد ، وتصويرا لحسنة وصورته ، وخصاله النبيلة ، وأنه كوكب الإسلام ونصير الدين وحامي الثغور فقال (٢) :

لولا جلاد أبي سعيد لم يزل	للشعر صدر ماعليه صدر
قدت الجياد كأنهن أجادل	بقري (دُرُولِيَّة) لها أوكار (٣)
حتى التوى من نقع قسطلها على	حيطان قسطنطينية إعصار
أوقدت من دون الخليج لأهلها	من خوف قارعة الحصار حصار

وسكب أبو تمام على هذه الأبيات من صناعته الفنية التي صاذا كرها في كلام خاص يتعلق بفن حماسه — بعد هذه البحوث — فتنبه الخيل بالأجادل وجعل بلاد (درولية) أوكارها . ولم يترك هذه الصورة مقصورة على البيت ، وإنما عداها الى البيت الثاني ، فجعل غبار الأرض تحت سنايك هذه الجياد أعاصير تهب على أسوار القسطنطينية .

ثم وصف النار التي أوقدها أبو سعيد في القرى على مقربة من الخليج فحمل الهواء شررها الى البسفور وعلل رجوعه عن حصار القسطنطينية بأن أهلها قد كفاهم ترويعه حصارا ، وهم الذين تولاهم سلطان صولته فكان لهم بمكانة الموت من النفوس كما أتبع قوله :

أوقدت من دون (الخليج) لأهلها	نارا لها خلف الخليج شرار (٤)
إن لاتكن حصرت فقد أضحى لها	من خوف قارعة الحصار حصار
فهناك نار وغى تشب وهاهنا	جيش له لجب وثم غبار
خشعوا لصولتك التي هي عندهم	كالموت يأتي ليس فيه عار

ثم مثل كيف سار جيش العرب من درب الروم ، وكان لجبا تصيح منه الأرض فيسمع له صوت وكأنه خوار الثيران ، فمضى مبكرا في النهار ساريا في الليل حتى بلغ (حصن الحمة البيضاء) وحصن (الفقل) والخليج الذي هو من جسم القسطنطينية بمنزلة الشعاع على البدن وفرت جيوش الروم أمامه ساكنة تخفق أنفاسها خوفا منه ، وعلموا بسطوته وبأسه : ولقد فصلت من الدروب إليهم بعمرم للأرض منه خوار

(١) مانويل Manuel قائد بيزنطى عظيم أعجز العرب في كثير من المعارك .

(٢) دبوته الطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ ص ٧٢ .

(٣) درُولِيَّة Dorylee إقليم في درب الروم واسم البلدة البيزنطية وهو اليوم (أسكى شهر) .

(٤) يريد بأهلها ؛ القسطنطينية .

أن يبتكر ترشده أعلام الصوى أو يسر ليلا فالنجوم منار
(فالحة البيضاء) ميعاد لهم و(القفل) ختم و(الخليج) شعار (١)
والمشى همس والنداء إشارة خوف انتقامك والحديث سرار
بعد هذه الآيات صور الطائي هروب (منويل قائد الروم) وبكاهه على جيشه المهزوم —
كما تقدم — فقال :

أن لاتنل (منويل) أطراف القنا أو تن عنه البيض وهى حرار
فلقد تمنى أن كل مدينة جبل أشم وكل حصن غار
إن لانقر فقد أقت وقد رأت عيناك قدر الحرب كيف تفار
لما أتتك فلولهم أمددتهم بسوابق العبرات وهى غزار
ذاك الوصف الحربى الممزوج بالمدح ، يجعله الطائي نظاماً حماسياً وكأنه وحده ، ثم يتم
أمداحه بلون آخر وهو مدح الكرم والمودة وعون الإسلام .
أكثر حبيب مدح أبى سعيد ، وقد أحصيت مدائحه فيه فوجدتها أربعاً وعشرين مدحة ،
لم يبذل الطائي مثلاً لأحد كثرة وتحسيناً ، وإن شعره فيه سحر ، وشعره فى غيره شعر . وهو
كالمتنبى فى مدح سيف الدولة ، وحروبه التى سجلها أبو تمام والبحترى جديرة أن تقرر اسمه باسم
سيف الدولة . وما أحسب المتنبى فى وصفه لحروب سيف الدولة مع البيزنطيين إلا مشابهاً
وتالياً لوصف أبى تمام والبحترى لحروب أبى سعيد الثغرى .

* * *

لم أجد فى شعر أبى تمام ما يشير إلى أنه كان يزور أبا سعيد فى أرمينية وينزل عليه ضيفاً
كما وجدت ذلك عند البحترى — وسأذكره فى مكانه من قابل الكلام — وإن فى إقبال
الشاعرين على مدح هذا الفاتح العظيم الذى لم يعبأ به المؤرخون السياسيون ، دليلاً على كرمه
وبسطة يده ، وارتياحه للمعروف والبذل ، وحبه للشعر والشعراء .

وقصائد أبى تمام فى أبى سعيد كثيرة مثبتة فى ديوانه ، أكثرها عن حروبه مع الروم ،
وبعضها عن سائر وقعاته ، فقد كان لأبى سعيد مشاركة فى حروب بابك تحت إمرة الأفشين
ابن كاووس ، حتى كان هو الذى أمسك بابك آخر أمره يوم التجأ من أذربيجان إلى تخوم
أرمينية فكان تسليمه على يديه ، فقيده أبو تمام كل ذلك فى شعره . يقول (كانار) (٢) إن

(١) وردت كلمة (حتم) بالحاء المهملة وأراها بالحاء المعجمة بفوقية لأن القفل وهو اسم ذلك
الحصن كان مختوماً أى مقللاً كل الإقفال . والحمة عند العرب : جمع الماء الساخن .

(٢) كتب ماريوس كانار فى أواخر كتاب (Byzance et les Arabes لفاستيليف) فصلاً جاء فيها
قوله ذلك فى ص ٤٠٠ من الكتاب المتقدم ذكره .

وقعة (عقرقس) كانت أشهر وقعات أبي سعيد وأضرها على الروم وأشرها ، ولذلك نرى أن أبا تمام قد ذكرها ثلاث مرات ، وقد ذكرها البحترى مرتين ، وأرى أحسن صورة لها عند أبي تمام في قصيدته القافية التي أولها (١) :

مأهنا كذا بكاء المشوق كيف والدمع آية المعشوق

ذكر في أولها أبا سعيد بأنه رمية نزلت على الروم بالداهية الدهياء . صور جنوده وعليهم الدروع السلوقية . ثم جعل يذكر الضواحي الرومية ويسمى أسماءها واحدة إثر واحدة ، وفي أكثرها حصون وحواليها أسوار — وكان ينحت تلك الأسماء في العربية فحتماً — فإذا فتح أبو سعيد حصناً أو مدينة احتوى على ما فيها من المال والسبي ، ثم غادر الموت فيها ، وترك الأهليين هارين ، تأخذهم حداد السيوف ، ولهب الحريق .

وقد حصلت معركة (شوارع) في مدينة قسطنطين (٢) — كما يعبر أهل عصرنا في الحروب الكبرى التي عرفوها — فرجت لهولها أسوار القسطنطينية وهي مدينة (فروق) (٣) .

فاز الأسرى أبو سعيد ، وأمر البطريق ، حتى إذا بلغ وادي عقرقس حدثت (المعركة الفاصلة) فاستبسل الأبطال واستماتوا ، وصاح الإسلام صيحته الكبرى مستعينا بأبي سعيد استعانة الغريق ، وقد بلغ أبو سعيد في هذه الغزوة خليج البوسفور مرة أخرى .

ومن غرائب التقصير في تاريخنا أن مؤرخي العرب يحملون القول ويعممونه في فتنة رجل يقال له (نصر) وكان من أصحاب بابك الخرمي ، ليعبر هؤلاء المؤرخون أن نصرأ اعتصم بإقليم الجبال ، فخاربه المعتصم بإسحاق بن إبراهيم بن مصعب (٤) ، فأمن إسحاق بجمعه تقتيلاً ، وبلغ من قتل منهم نحواً من مائة ألف سوى النساء والصبيان ، فلم يجد نصر بداً — بعد الحاح القتل عليه — سوى الفرار إلى الروم بجيش كبير . وكان هذا القليل يدعى (بالحمرة) .

هذا كلام ابن جرير الطبري الذي يقول أيضاً إن صاحب الروم (تيوفيل) خرج لحرب المسلمين ومعه مائة ألف وأكثر، منهم الجند نيف وسبعون ألفاً وبقيتهم دأتباع من الحمرة (٥)

(١) ديوانه السابق ص ١٠٧ .

(٢) مدينة قسطنطين من بلاد بيزنطة وهي غير حاضرتهم القسطنطينية .

(٣) الصفحة نفسها من الذيل السابق لماريوس كنار .

(٤) الطبري ١٠/٣٠٥ .

(٥) ينسبهم الشهرستاني إلى طائفة من الغلاة ، وأنهم خرميون من جهات أصفهان سمو بالحمرة ثم سمو وراء النهر بالمبيضة . وذكر صاحب النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٤٢) أنهم أول ما ظهروا بمرجان . وأرى أن اسمهم كما يدل لوتاه أنهم كانوا فريقاً يلبس الثياب الحر، وآخر يلبس الثياب البيض .

الذين كانوا خرجوا للجبال (فلحقوا بالروم) حين قالهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ،
وجمجم ابن الأثير هذا الخبر وجاء به أكثر اقتضاباً (١) .

إلى هنا يطلعنا مؤرخونا طلع هذا الأمر لكن المؤرخين الغربيين ودارسو آدابها من
المستشرقين يكملون وصف هؤلاء المحمرة الخرمية ، فيقول ماريوس كانار (٢) مستعيناً بتاريخ
(ميخائيل السورى) المكتوب بالرومية أن أحد قواد بابك الخرمى ويسمى (نصراً) فر
بجمع من الخرمية ملتجئاً إلى الروم سنة ٨٣٣ للميلاد ، ثم يذكر أن اسمه بالرومية (الياس
تيوفوب) (٣)

ولم يكن ماريوس وحده الذى أشار إلى هذا ، وإنما شاركه فى هذه الإشارة المستشرق
الرومى فاسيلييف ، (٤) فقال إن جيشاً فارسياً كان حليفاً للبيزنطيين وعلى رأسه تيوفوب
حارب المسلمين مع تيوفيل امبراطور الروم ، فلما دحر الأفشين تيوفيل ، بلغ الخبر
القسطنطينية بأن عاهل الروم قتل ، فخاف تيوفيل على ملكه ، وخف إلى القسطنطينية وقد
خلف مكانه على الجيوش تيوفوب هذا فثار جنده يريدون أن ينصبوه مكان تيوفيل ، فأبى
تيوفوب (أى نصر) ، ففعلوا بالرغم عنه ، وجاؤا إلى مدينة (سينوب) ليقوموا بذلك .
ويقول المؤرخ الرومى (ميخائيل السورى) إن الامبراطور حين هم بأخذ تيوفوب على
جريرته هذه نفى له تيوفوب حقيقة حاله . وأنه برىء مما قام به صحبه .

ثم يعود فاسيلييف مستنداً الى المصادر البيزنطية فيذكر (٥) أن تيوفوب (ويسميه نصراً)
قد حارب مع الروم (أبا سعيد الثغرى) وقتل فى معركة من تلك المعارك .
وحسبما يقول ميخائيل السورى (٦) ان النصوص البيزنطية تذكر أن رأس (نصر)
هذا أهدى الى تيوفيل ملك الروم ، وأن الخليفة حينما بلغه مقتل نصر فرح فرحاً عظيماً .
قلت ينبغى أن يكون هذا الخليفة هو المتوكل . وينبغى أن يكون تيوفيل صاحب الروم
قد فرح أيضاً بمقتل (نصر — تيوفوب) اذ كان قد حاول حين غيابه فى القسطنطينية أن
ينصب نفسه مكانه على الروم امبراطوراً .

* * *

(١) التاريخ الكامل الطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ ج ٦ ص ١٨٥ حوادث سنة ٢١٩ هـ .

(٢) صفحة ٤٠٠ السابقة من ذيل كتاب فاسيلييف .

(٣) Alias Théoprobe .

(٤) Byzance et les Arabes p. 159 .

(٥) المصدر السابق . p. 176 .

(٦) هامش رقم ١ فى هذه الصفحة السابقة من كتاب فاسيلييف .

كذلك ساعف شعر أبي تمام الحماسى فى تحقيق هذا الحادث الجليل الذى ليس له ضريح فى تاريخنا ، ولا وضوح لذكره ، فإن جيشا من جيوش المسلمين يفر بقائده ، ويلتجئ الى الروم فيحارب معهم المسلمين أمر لم يشرحه تاريخنا شرحا مستفيضا ، وكان بحسب التاريخ البينظلى أن ينير لنا هذا الحادث فى شكله المتقدم ، وأن تلتجئ الى شعر أبى تمام فنستوضح به المعالم فلطالما كان شعر أبى تمام فى حروب الروم منيرا للصورة وموضحا لآلوان الحوادث وهذا فضل الشعر العربى على التاريخ فإنى رأيت ما أضاءه التاريخ حفظه الشعر فى كثير من الحادثات . ففى قصيدة الطائى القافية التى تقدم مطلعها ، يصل فيها إلى ذكر هؤلاء الحمرة وعلى رأسهم صاحبهم (المحمر الزندىق) وقد حاربوا المسلمين مع الروم فدحرم أبو سعيد وجاس خلال ديارهم .

وصف الطائى تلك الغزوة فى ديار الروم خلال القرى ، وما لنى الروم من وبل بأيدى المسلمين بادئا بأن أبا سعيد الشغرى سار إلى الروم :

فى كفة يكسون نسج السلوقى	وتعدو بهم كلاب سلوق (١) ،
يتساقون فى الوغى كأس موت	هى موصولة بكأس الرقيق ...
وطئت هامة النواجى فلما	أن قضت نجبا من (القبذوق) (٢)
ألهبتها السياط حتى إذا أشفت	بإطلاقها على (الناطلوق) (٣)
شنها شرباً فلما استباححت	(بالبقلار) كل سهب ونيق (٤)
سار مستقداً إلى البأس يزجى	رهجاً باسقا إلى الأبيق (٥)
تم ألقى على (درولية) البرك	محلا باليمن والتوفيق (٦)
فخوى سوقها وغادر فيها	سوق موت طمت على كل سوق
فهم هاربون بين حريق	السيف صلتا وبين نار الحريق

-
- (١) شبه خيولهم العادية بهم بالكلاب السلوقية لشدة عدوها وحبا بفنه الذى سيأتى بمحنته .
 (٢) وردت فى الطبقات الثلاث من الديوان (القيدوق) بالياء وصوابها بالياء (القبذوق) وهى مدينة محصنة واسمها بالرومية Cappadoce وهى من (سيواس) اليوم .
 (٣) فى نسخ الديوان (حتى إذا استفت) وأراه (إذا أشفت) لوجه المعنى . وفى النسخ (الباطلوق) بالياء وصوابه بالنون وهو أرض الأناضول واسمها بالرومية Anatoliq ue .
 (٤) البقلار Bucelaire اسم منطقة فى ديار الروم .
 (٥) الأبيق Opsikion اسم بلدة رومية ذات حصون .
 (٦) ألقى البرك أى برك الجمل ، وأراد به إقامة الجيش وراحته بعد السير .

واجدأ (بالخليج) مالم يجد قط — (بماشان) لا ولا (بالزريق ^(١))
 وقعة زعزعت مدينة قسطنطين — حتى ارتجت بسوق فروق
 كم أسير من سربهم وقتيل رادع الثوب من دم كالخلق ^(٢)
 يستغيث البطريق جمـلا وهل — يطلب إلا مبطرق البطريق ^(٣)
 ثم ناهضت في الفلول رجالا ورجالا بالضرب والتحريق
 وبوادي عقرقس لم تعرد عن رسم إلى الوغى وعنيق ^(٤)
 جأر الدين واستغاث بك الاسلام — من ذاك مستغاث الغريق
 يوم بكر بن وائل (بقضات) دون يوم (المحمر) الزنديق
 يوم حلق اللات ذاك وهذا — اليوم في الروم يوم حلق الخلق
 أورثت (صاغرى) صغاراً ورغما وقضت (أوقضى) قبيل الشروق ^(٥)
 كم أفاءت من أرض (قره) من — قره عين ورب رب موموق
 إن أيامك الحسان من الروم لحر الصبح حمر الغبوق
 معلمات كأنها بالدم المهرق يوم للنحر والتشريق ^(٦)

وهي قصيدة كبرى في أربع وسبعين بيتا تكاد تكون (نشيداً من الملحمة الخطيرة في الحرب الرومية) قالها أبو تمام الطائي في أبي سعيد الثغرى وختمها على عادته بالمديح والثناء وطلب العطاء .

وذكر أبو تمام (نصرا الخرمى) مرة ثانية في شعره بأبي سعيد الثغرى في قصيدة ميمية

(١) الخليج يريد به البوسفور و (ماشان) و (الزريق) بلدان روميان (ماشان Nicheia) و (الزوريق Isauric) .

أنظر هذه البلدان في الخريطة المثبتة في آخر الرسالة وهي منقولة عن رسالة . Arabic lists of the Byzantine thèmes .

تأليف E.W. Brooks طبعة جمعية الدراسات الهيلينية سنة ١٩٠١ .

(٢) في نسخ الديوان (من سربهم) وأرى صوابه (من سربهم) .

(٣) يريد أن يقول : إن بطريق الروم كان في الأسمى فهو يستغيث ولكن ما أجمله فيمن يستغيث وإنما نحن نطلب بحرنا الذى بطرقه أى جملة بطريقا وهو ملك الروم نفسه .

(٤) عقرقس Aqarpos ، العنيق ضرب من سير المطايا كالرسم .

(٥) صاغرى (صقارية بالتركية) ، واسمها بالبيزنطية Sangarios وأوقضى بلدتان في الروم .

— وقرة Koron .

(٦) في نسخ الديوان (يوم النحر والتشريق) وأراه كما ذكرته لإقامة الوزن .

فذكر فيها معركة عقرقس وسابقتها وحرب أبي سعيد للروم الكافرين و (للخرمية الغاوين)
فقال يخاطب أبا سعيد :

جدعت لهم أنف الضلال بوقعة	تخرمت في غمائها من تخرما (١)
لئن كان أمسى في عقرقس أجدعا	فمن قبل ما أمسى (بميمذ) أخرما
ثلثهم بالمشرفي وقلبا	تسلم عز القوم إلا تهدما
قطعت بنان الكفر منهم (بميمذ)	وأبعتها بالروم كفاً ومعصما (٢)
وكم جبل (بالبد) منهم هدرته	وغاو غوى حليته فتحليبا (٣)
فان يك نصرانيا النهر (آلس)	فقد وجدوا وادي (عقرقس) مسلما (٤)
به سبتوا في السبت بالبيض والقنا	سباتا ثووا منه إلى الحشر نوما
ولم يبق في أرض البقلار طائر	ولا سبع إلا وقد بات مولما
ولا رفعوا في ذلك اليوم أثلباً	ولا حجراً إلا رأوا تحته دما (٥)

وسائر القصائد الحماسية التي قالها الطائي في أبي سعيد الثغري من هذا الضرب تجمع معانيها
بين تنكيل بالروم وكسر شوكتهم ، وتفنن في أداء هذه المعاني التي تدل على قهر (توفيل)
امبراطور الروم وترويع بلاده ، حتى شبه الردى بعاشق يحشقه فهو انى هرب فالردى
يلاحقه ، كقوله :

ولما رأى (توفيل) رايتك التي	إذا ما استقامت لا يقاومها الصلب
تولى ولم يأل الردى في اتباعه	كأن الردى في قصده هائم صب
كان بلاد الروم عمت بصيحة	فضمت حشاها أورغا وسطها السقب (٦)
(بصاغرة) القصوى (وطمين) واقترى	بلاد (قرنطاؤوس) وابلك السكب

-
- (١) أراد بجناس تخرمت الإشارة إلى الخرمية .
(٢) ميمذ مكان في ديار بابل الخرمى في إقليم الجبال من بلاد فارس . وكان قد حارب الحمرة
إسحاق بن إبراهيم بن مصعب في هذا الموقع وجز آذانهم حتى وجه إلى المعتصم بستين ألف أذن . وقد
قال أبو تمام في ذلك قصيدة على النون (ديوانه الطبعة السابقة ص ١٦١) .
(٣) البذ موطن بابل الخرمى .
(٤) نهر آلس Halys ، وهو اليوم يسمى بالتركية (قزبل إيرماق) ومعناه النهر الأحمر .
(٥) الأثلب التراب .
(٦) رغا صوت ، والسقب ولد الناقة .

وسنجد البحترى — عند الكلام على حماسياته في حروب الروم — محتفيا بفروسية أبي سعيد الثغرى وتخليد معاركه ، لكنه يحىء تاليا لأبي تمام .

وتوفى أبو تمام قبل أبي سعيد بتسع سنين . فأورثه في حياته وفي مماته ذكر بطولة لا تمحى وخلد معاركه مع الروم في شعر كتب له الخلود ، ولئن كان أبو سعيد قد أحسن الى أبي تمام في العطاء — كما يروى أبو بكر الصولى — فإن الطائى قد أحسن له الثناء . فقال فيه يذكر إكرامه إياه ولا ينسى أن يمن عليه بشعره :

وحفت بى العشائر والأفاصى	عيالا لى وكسنت لهم عيالا
فقد أصبحت أكثرهم عطاء	وقبلك كنت أكثرهم سؤالا
فأين قصائد لى فيك تائبى	وتأف أن أمان وأن أذالا
من السحر الحلال لمجتنيه	ولم أر قبلها سحرأ حلالا

وهو وإن فاته أن يرثيه اذ سبقه الى الموت ، فإن البحترى لم يفته ذلك فوصف بطل الثغور في حياته وبكاء في مماته .

وطالما كان البحترى (متمما) لأبى تمام وتلك سنة الفن في بعض الشيوخ الأدبية ، اذ يكون أحد الأدياء ناقصا فلا يتم الا بأديب آخر يتقيل ظلاله ، فيمضى على غراره ، ويعزف على قيثاره .

٥ — زوجهات البحترى

ظل (أبو سعيد الثغرى) هو البطل الميمى على الثغور ، وهو الحارس الجبار للحدود الإسلامية بين ديار الروم وملك الإسلام . وكانت (أرمينية) سلسلة الحصون الدفاعية والهجومية غربى أرض العراق (كما قدمت فى الكلام على شعر الحرب عند أبى تمام) . وكان حتما لزاما على شاعر مثل البحترى — وقد تقيل ظلال أستاذه أبى تمام — أن يحذو حذوه فى امتداح (أسد الثغور) وأن يجرى على غراره فى صناعة الفن والاكثر من الألفاظ الموسيقية ذوات الجرس .

لكن فنه يدق فى وصف بطولة أبى سعيد أكثر مما عند أبى تمام من دقة وفن ، فكفاه أن يذكر بيتا واحدا فيه شوكة أبى سعيد وبطشه فى ديار الروم ، ذلك أن الروم كانوا من هول النكبات التى أنزلها فيهم الثغرى يكفى أن يذكر اسمه لديهم حتى تأخذهم الراجفة وحتى صارت الأمهات تفرع أطفالها باسمه ، فكان إذا بكى الطفل وألح بالعسر قالوا له :

— أتى أبو سعيد ، أتى أبو سعيد . . .

فيكبت بكاءه ويسكن شغبه .

وذلك حيث يقول عنه البحترى فى قصيدة على النون :

فزعوا باسمك الصبي فعاتت حركات البكاء منه سكونا

وإني أرى فى هذا البيت وحده غنية عن قصائد فى تصوير بطولة أبى سعيد الشغرى وبطشه

فى ديار الروم ، وحماية حدود المسلمين .

وفى هذه القصيدة يصف البحترى وقعة (عقرقس) التى وصفها أبو تمام فى صور إذلال

أبى سعيد لسل الروم ، ويذكر أنهم ليسوا ناجين منه ولو اعتصموا بالنجوم فيقول :

ربما وقعت شملت بها الروم — فباتوا أذلة خاضعيننا

قد أمنا أن يأمنوك على حال — ولو صيروا النجوم حصونا

ثم يذكر (فريق خيوله) . والظاهر أنه كان فى هذه الوقعة فرق فرسانه فرقتين ، موجهاً

كلا منهما فى وجهة ، ليحيط بالشغور التى يريد بها من وجهتين . وإنه لوصف جميل للخيال العوالب

فى اليوم العبوس وعليهن الدارعون يحوسون خلال بلاد الروم ، وقد أهزلهن طول السير

فكن خفافاً ضئيلات اللجوم كوعول الجبال ، ولا قرون لهن سوى الرماح فيقول .

وتوافت (خيالك) من أرض — (طرسوس وقاليقلا بأردندونا)^(١)

عابسات يحملن يوماً عبوساً لانس عن خطبه غافليننا

زرن بالدارعين أرض (البقلار) — فأجلوا عن (صاغرى) صاغريننا

قد طواهن طيهن الفيافي واكتسين الوجيف حتى عريننا

كوعول الهضاب رحن وما يملكن — إلا صم الرماح قرونا

ويلاحظ أن البحترى يمشى على غرار أبى تمام فى الجناس بين مدينة (صاغرى) وكلمة

صاغرين ، وكذلك يفعل فنه فى مدينة (طمين) وكلمة (يطمئن) فى بقية الأبيات التى يصف

بها ظفر أبى سعيد بعقرقس ، وتقليقة الهام فى قرى الروم ، وأنه استساغ شراب دم الروم فكان

عنده كاء زمزم فى التبرك والتماس طاعة الله فيقول :

ونفير إلى عقرقس انفرت فكنت المظفر الميمونا

ثم يقول :

همه فى غد بتقليق هام فى قرى (العازرون والمازرونا)

(١) قاليقلا هى Cilicie والمعاصرون يسمونها قلقيليا أو كيليكيا وهى أوائل الأناضول من

الجنوب واسم بلدة أردندون بالرومية Rhodandos .

ولعمري ما ماء زمزم أحلى عنده من دم (بزارمينا)
غيروان في طاعة الله حتى يطمئن الإسلام في (طمينا)

كذلك كان نصيب حامى الثغور من الشعر العربى أن يخلده فيه جباران من جبابرة الشعر فى العصر العباسى وهما أبو تمام والبحترى وكان محتوما على الشعاعين أن يأبها إلى حروب الروم ، لأنها أعظم الحروب التى شغلت العباسيين ، وكانت ديننا لهم فى زمن المعتصم والمتوكل وأعقب الاهتمام بهذه الحروب المتوالية بين الروم والمسلمين أن يتتبع البحترى بشعره ابن (أبى سعيد) فيصف حروبه وصفه لحروب أبيه ، وكان (يوسف بن أبى سعيد الثغرى) كأبيه ضائعة منقضة على الروم ، وقد بلغ فى بعض حروبه خاليج البوسفور ولولا أن عاجلته منيته بأيدى بطارقة أرمينية لاستأصل شأفة البيزنطيين من الغرب كله حتى حدود البلقان .

وقد عنى البحترى بحروب الابن ، كما عنى أبو تمام بحروب الأب ، فكانت له قصائد غر يصف بها غزوات بن أبى سعيد فى حرب الثغور ، منها قصيدته التى يشير بها إلى عبوره الدرب ومسيره فى أرض الأناضول ، وهدمه الحصون التى فى طريقه ، وإيقاده النار فى قرى مسيره حتى بلغ (مجمع البحرين) ويقصد بهما البحر الأحمر والبحر الأبيض ومجمعهما ما ندعوه اليوم بحر مرمرة ، فقال فى شعر ينبض حماسة وشجاعة وتنسكب ألفاظه ومعانيه على فن يصرفه البحترى فى سبيل الحرب ووصفها ، ولا ضير عليه أن يبدأ مثل هذا الشعر الحربى بغزل وصبوة وحنين إلى علوة فيقول شاعر الطيف والخيال :

وطيف سرى حتى تناول فتية	سروا يلبسون الليل حتى تمزقا
وما قصرت فى (درغنون) رماحنا	فيرجع منها الطرف غضبان محنقا
أظالمه العينين مظلومة الحشا	ضعيفته كفى الخيال المؤرقا
ولا وصل حتى تقضى الحرب أمرها	بمفترق أو فضل عمر فملتقى
وما هو إلا يوسف بن محمد	وأعدائه والموت غربا ومشرقا
وعارضه المستمطر الجود إنه	تجهم فوق (الناطلوق) فأطرقا
وأضعف (بالقباذقين) سجاله	وأرعد (بالأبسيق) شرافا برقاً (١)
ففرق ما بين الدروب أتبه	إلى (مجمع البحرين) حتى تحرقا

ويظهر من هذه القصيدة أن البحترى (كان حاضرا فى هذه الغزوة ومصاحبا) ، لابن

(١) ننى البحترى القبذوق وهو إقليم Cappadocia

انظر الخريطة التى عربتها فى آخر الرسالة .

أبى سعيد لتكون مشاهدة الشاعر لهذه المعارك الرومية المتتابعة والحصار المضروب على بلد بعد بلد ، سجلا باقيا في الشعر وخبرا مذاعا يسير في البلاد (١) على نحو ما عهدنا في عصرنا من عناية المحاربين في الحرب الكبرى أمس باصطحاب الخبرين الصحفيين ، والمراسلين العسكريين في المعارك ليكونوا شهودا عدولا على الظفر ، وليذيعوا الأخبار في عرض الدنيا وطولها ، وقد بلونا خطرهم ، فكان لهم في نشر الدعوة أبعد أثر وأوفى نصيب .

كذلك ذكر البحترى أنه كان حاضرا هذه السفارة الحربية في الخريف وقد سلخوا فيها ثلاثة أشهر فقال :

وبرد خريف قد لبسنا جديده فلم ننصرف حتى نزغناه مخلقا
وبدرين أنضيناها بعد ثالث أكلناه بالإيجاف حتى تمحقا

ويذكر بعد ذلك الخيل ، فتحنو عليها حوانيه ، بنبيل الشعور وحب لهذه البهم اللواتي يحبهن الفرسان ، وسرى مثل هذا الحب للخيل عند صديق الخيل المجرب لها أبى الطيب المتنبي ، والبحترى يعرف مواطن الحسن منها وفضلها على الفرسان والترحال فيقول :

فلم أر مثل الخيل أبقى على السرى ولا مثلنا أحنى عليها واشفقا
وما الحسن إلا أن تراها مغيرة تجاذبنا حبلا من الصبح أبرقا
فكم من عظيم أدركته صدورها فبات غنيا ثم أصبح مملقا
إلى أن يقول عن بطله ابن أبى سعيد :

حوى كل ما دون الخليج ولم يدع فؤاداً بما دون الخليج معلقا (٢)

وبعد طویل من المدح والثناء يختم قصيدته معرضا بطلب النوال والثواب . وما أحسب البحترى قد شخّص إلى الثغور طامعا في المشاركة بحرب الثغور ، بأكثر مما كان طامعا في احتواء المكافأة والعطاء .

وكان هذا فعله معه ومع أبيه ، فقد كان يشخص إلى الثغور فيزورها ويمدحهما ، ويحصل منهما على مال كثير — وكانت زيارته لابن بعد الأب ، وكان المال الذي يجودان به عليه لا يجود عليه بمثله الخليفة المتوكل ، فهو يقول للأب ويمن عليه بمفارقة العراق ، وفيه دجيل وروضة (غمى) سعيأ اليه .

(١) وعلى هذا النحو ما أثر عن الشاعر الإنكليزي الحديث (رديارد كبلنج) من اصطحاب

بعض الجيوش الإنكليزية له في غزواتها في الهند وذكره ذلك في شعره .

(٢) أراد بالخليج البوسفور (خليج القسطنطينية) .

ولولاك ما اسخطت غمى وروضها ونهر دجيل بالذى رضى الثغر
ولا كان غزو الروم بعض مآربى وهى ولا مما أطلبه الأجر
وأذكر أيامى لديك وحسنها وآخر ما يسقى من الذاهب الذكر
وأقرر أن آخر قصيدة قالها البحترى بابن أبى سعيد — قبيل مقتله — هى الرائية التى أولها :
لك الويل من ليل بطاء أوأخره ووشك نوى حى تزم أباعره
لإذ كان مصرعه بعد وقوع حوادث ذكرها المؤرخون ، وذكرها البحترى فى هذه القصيدة ،
وقد كانت هذه الحوادث أسباب قتله .

ذلك أن المتوكل لما استعمل (ابن أبى سعيد) على أرمينية — بعد وفاة أبيه — نشر عليه
(بقرات بن آشوط) بطريق بطارقة أرمينية فخاربه ابن أبى سعيد وأخذه فقيده ، وبعث به
إلى باب الخليفة فأسلم بقرات وابنه . فغاض ذلك ابن أخى بقرات فتألب هو وليفيه على ابن
أبى سعيد ، وكان الثلج واقعا فحصره والمسلمين الذين معه فى مدينة (طرون) ، فخرج إلى
باب المدينة فقاتلهم حتى كل أصحابه وأسروا ، فطلب أصحابه النجاة فشرط عليهم الروم أن ينجوا
عراة ففعلوا ، فهلكوا من البرد ، وتساقطوا هلكى فوق الثلوج ، وسقطت أصابع قوم منهم
فنجوا . ولما ضاق الحصار على ابن أبى سعيد ويثس من المدد بعد أن حال الروم بينه وبين
أعوانه ، خرج إلى الروم بما بقى معه من الجمع الضئيل فقاتلهم حتى قتل ، فوقع قتله ، من نفس
المتوكل موقعا أليما ، فأرسل د بعا الشراى ، فى سبيل النعمة له ، فجاء بعا ديار الروم ، وفك
فيها الفتك الذريع فقتل نحو من ثلاثين ألفا من الروم وسبى الخلق الكثير .

فكانت قصيدة البحترى تلك ، هى الأخيرة فى حياة البطل الثانى فى حروب الثغور . فقال
يذكر الحوادث التى ذكرها التاريخ خالعا عليها حلة شعره وتزاويق فنه ، وناخأ فى أبياتها روحا
من الحماسة تنطق الحديد بزجرة وهزيم . وذكر أسر المسلمين د لبقرات بن آشوط ، بعد أن
شاغب الإسلام خمسين عاما يعيث خربا أيام لا ناه له ولا زاجر فقال :

إذا خرس الأبطال فى حمس الوغى	علت فوق أصوات الحديد زماجره
ولا عز للإشراك من بعد ما التقت	على السفح من عليا (طرون) عساكره
وما كان (بقرات بن آشوط) عنده	بأول عبد أسلته جرائره
وقد شاغب الإسلام خمسين حجة	فلا خوف ناهيه ولا الحلم زاجره
ولما التقى الجمعان لم تجتمع له	يداه ولم يثبت على الخوف ناظره
ولم يرض من (حرزان) حرزا يحيره	ولا من جبال الروم ريذا يحاوره (١)

ثم وصف البطريق وقد جاء مكبلا بالحديد فقال :

تضمنه ثقل الحديد وأحكمت	خلاخله من صوغه وأساوره
ولم يبق (بطريق) له مثل جرمة	(بارتان) إلا عازب اللب طائره (١)
كسرتهمو كسر الزجاجة بعده	ومن يجبر الوهى الذى أنت كاسره
وقد علم العاصى وإن أمعنت به	محلته فى الارض أنك زائره
حسام وعزم كالحسام وجحفل	شداد قواء محكات مرائره

* * *

وقف البحترى كثيرا من شعره على الروم فى حروبهم مع المسلمين حتى صحبت به حوادث من التاريخ ووضحتها ، ولو اقتصر المحقق على التاريخ وحده لرأى عصر المتوكل عصر تنازل على الثغور وانكفاء أمام الروم . ولكن قصائد البحترى ألحقت عندى عهد المتوكل بعهد المعتصم فى غلاب المسلمين للبيزنطيين وصمودهم فى وجوه غزواتهم ، ولو كان المتوكل مثل المعتصم قووما بالخلافة ، بعيداً عن الزلل واللو ، لأكل ما بدأ به المعتصم من (حروب الغرب) ، ولكن بطانة السوء التى كانت عنده قصرت أمد حكمه فتقاوى الروم بعد مصرعه واشتدوا ، وكثر عدوانهم على ثغور المسلمين .

وقد وصف البحترى — فى إحدى قصائده فى المتوكل — وفد الروم وحضورهم مأدبة المتوكل ، وقد قدموا للبخاطبة فى مفاداة الأسرى ، فاقتصر من وصفه على طعامهم ومجلسهم إلى الموائد ، وذهل عقولهم من هول ما طالعوا فى قصر الخليفة وما عاينوه وسمعوه وكانت (مفاداة الأسرى) معروفة بين العرب والبيزنطيين منذ كانت الحروب بينهما ، وكان يقوم بأمر الفداء زمن المتوكل رجلان من دهاة الساسة وهما نصر بن الأزهري الشيعي ، و د شنيف الخادم ، وقد شخص نصر هذا إلى القسطنطينية سفيرا فى أمر الفداء من قبل المتوكل على الله ، فلبث هناك أربعة أشهر ، وكان د موضع تبادل الأسرى ، على د نهر اللامس ، فى مدينة د سلوقية ، (٢) .

وكانت طريقة المفاداة من أطرف ما عرف عن الأقدمين ، وذلك أن يعقد المسلمون

(١) كان البيزنطيون يطلقون لقب البطريق على قوادم . فليس البطريق رجل دين عندهم فحسب وإنما هو رجل حرب . وكان عندهم الامبراطور نيسيفور فوكاس أخطر قائد لحروبهم مع المسلمين بطريقا كذلك — وأران لإقليم قريب من مملكة الحزر شمال الجزيرة Aran .

(٢) نهر اللامس هو Lamos بالرومية و (فوق صو) بالتركية . وسلوقية (سلفكر) بالتركية .

جسرا على النهر ويعقد الروم جسرا آخر ، فيرسل المسلمون الرومى على الجسر ، ويرسل الروم المسلم على جسره ، ويكون المشرف من جانب الروم بطريقاً من البطاريق . وقد كانت الامبراطورة (تذورة theodora) أم ميخائيل الثالث معاصرة للمتوكل ، كما كان تيوفيل معاصراً للمعتصم .

ويقول « فاسيلييف » ان الحرب لم تكن على الدوام بين العرب والروم ، وإنما كانت تنقطع حيناً فيحدث بين المملكتين مصادقات ، وألفة وسفارات ، ويكون بينهما التهادى ، فلقد أرسل الملك تيوفيل أحد علماء النجوم إلى قصر المأمون لأمره بتعلق بعلم الرياضيات كان يبحثها المأمون .

وأن مجلس العرب في المآدب الملوكية البيزنطية كان قبل مكان « الفرانك » وأن مسلمى الشرق كان لهم المسكنة العليا في هذا النظام ، وكان البيزنطيون يسمونهم (الأصدقاء) (٢) وقد أثر العرب بنظام حكمهم في نظام الحكم ببيزنطة فكانت الطريقة العامة للحكومة العربية مثل طريقتهما عندهم (٣) ، وقد شبه فاسيلييف استبداد الترك بالخلافة حتى صيروها اسمية في يد الخليفة ، وفعلية في أيديهم زمن المتوكل ومن بعده ، بما كان مثل ذلك عند الزعماء والقواد الرومانيين الشرقيين واستبدادهم بالمملكة دون الامبراطور وكان يعرف هؤلاء المستبدون باسم (الحكام Les Pretoriens)

وسرى في الكلام على شعر الحرب لدى المتنبي المقارنة والموازنة بين الجيشين العربي والبيزنطى في القيادة ولبوس العسكر وعتاد الحرب وغير ذلك . وقد وجدت ابن الأثير (٤) يذكر عادة قطع الرؤوس عند الروم ، وحملها والطواف بها كما عند العرب ، فقد روى أنه في عهد قسطنطين بعد المملكة تزورة خرج خارجي من الروم يقال له ارميناس ودعا إلى نفسه فكثرت جمعه حتى زاد على عشرين ألفاً ، فأهم قسطنطين أمره وسير إليه جيشاً كشيافظفر به وقتله ، وحُمل رأسه إلى القسطنطينية .

ومن كل ذلك يتبين أن العرب والروم في العصر العباسي كانوا متشابهين في أمور الحرب وقوام الحكومة وطريقة العاقب .

(١) انظر الخريطة المعربة عن (بروك) في آخر الرسالة ، وراجع تاريخ الطبرى ١٩/١١ .

(٢) كتاب فاسيلييف (Byzance et les Arabes) ص ١٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣ .

(٤) السكامل في التاريخ ط أوربا ج ٩ ص ٣٤٢ .

كذلك كانت الحروب بين العرب والروم زمن العباسيين ، تنقطع قليلا لتتصل طويلا ، وقد حرص العرب على إعداد جيش منظم فائق التعبئة ، له زعماء وله قواده ، وفيه فرقه ، وله عطاؤه وجراياته . وقد كان معدا على الدوام لكل وجهة ، ورهنا للعمل في كل حرب ، وقد قدر فاسيلييف جيش المعتصم المؤلف من الترك والبربر بسبعين ألفا (١)

٦ — خاتمة أسد الثغور

ينسحب البحترى على آثار أبي تمام في كل شعره ، وأراه ظلا لشخص أبي تمام على الرغم مما لزم الأمدى من تفضيله في موازنته ، ولم يكن أبو تمام معلما للبحترى فحسب ، بل كان قدوة لكل من قال الشعر العربي بعده إلى اليوم .

روى صاحب معجم الأدباء أن البحترى صار إلى أبي تمام وهو بحمص فعرض عليه شعره ، وكان يجلس للشعراء فيعرضون عليه أشعارهم (٢) .

وقد لزم البحترى أبا تمام فعليه الصناعة وهذاه السبيل في أساليب النظم ، وأغراض الشعر وفنونه وأوقات وحيه ، فرأيت طبيعيا أن ينسحب البحترى على آثار أستاذه في المعاني والموضوعات ، حتى في شعر الحرب فيمدح بطولة أسد الثغور (محمدا أبا سعيد بن يوسف) ويخلد ذكر حروبه بقصائد كثيرة ، تقارب في عددها قصائد أبي تمام في حارس الحدود الإسلامية تلقاء الروم ، وزاد عليه فيها أن مدح ابنه (يوسف بن محمد) من بعده وامتد عمره حتى رثى الأب وابنه ، وبكى عليهما ! راثيا الفروسية والبأس ، وبا كيا على المكرومة والجود .

وقد أفادنا في شعره بأبي سعيد ما لم يذكره المؤرخون ، وما جمجموه إذ ذكروه . فلقد كنت أتقصى أخبار أبي سعيد فوجدت الطبرى يقول عن خاتمته في سطر واحد : إنه هلك (٣) ، فولى المتوكل ابنه يوسف بن محمد مكانه في حروب الروم ، فضبط أرمينية ووجه عماله فيها . فكانت كلبة (هلك) — وقد عودنا الطبرى أن لا يستعملها إلا للصادر من والمقتولين ، والمغصوب عليهم من أعوان السلطان — باعثة عندى القول بنكبة وقعت بأبي سعيد شأن النكبات التي كانت تقع حينما بعد حين بالولاة والحكام في زمن العباسيين دسيسة وكيدا ، وانتقاما وقهرا ، فنقبت في شعر البحترى فإذا هو يرثى لأبي سعيد وقد (سلم) إلى

(١) كتابه السابق ص ٤ .

(٢) معجم الأدباء ط دار المأمون بمصر ج ١٩ ص ٢٤٩ .

(٣) ج ١١ ص ٤٤ .

كاتب نصراني (لسعيد الحاجب) ، وأمر بتعذيبه والغلظة عليه في المطالبة والاستخراج (١)
فيقول فيه :

هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يحزى على الأيام بالأيام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لو رعت بنيام
فيكون من هذين البيتين أن أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري قد اتهمه أعداؤه وحساده
باحتيال مال الدولة ، فسله المتوكل إلى حاجبه الكبير ، وسله هذا إلى كاتبه النصراني ليعذبه
ويغلظ عليه بالعذاب فيستخرج منه أموال الدولة التي احتجتها في ولايته على الثغور .

وقد وجدت أن هذه الطريقة في المصادرة والتعذيب وتكليف بعض الأمراء والحكام
بمصادرة بعض وتعذيبهم ، مما انفردت به الدول العربية القديمة دون دول الغرب ، وكانت
هذه الطريقة معروفة ومتداولة في عهود الدول الإسلامية القديمة ، كما جرى أيام المتوكل
لنجاح بن سلة ، وكان على ديوان التابع على العمال ، فأراد الإيقاع بخصومه فوجد نهضة
ذلك حين اعتزم المتوكل بناء قصره الجعفرى ، ووجد الإنفاق عليه معسرة ، فقال له (نجاح)
لو سمعت نصحي في مصادرة رجال أذكركم لك لأخرجت منهم كل الإنفاق على قصرك . فقال
الخليفة سم من شئت ، فذكر له (الحسن بن مخلد) وكان على ديوان الضياع ، و (موسى بن
عبد الملك) وكان على ديوان الخراج . فليجأ هذان المحتجنان لزعيمهما الوزير عبيد الله بن يحيى
فسعى (بنجاح بن سلة) إلى المتوكل وقلب عنده الآية ، فإذا المتوكل يأمر الوزير بمصادرة
(نجاح) وإذا الوزير يسلم (نجاحا) إلى خصمه الحسن وموسى ليقتلاه — ولا يسلمه لصاحب
الشرطة — فيجوران عليه بالحبس ويقتلانه شر قتلة بعد أن يحمله بصنوف الضرب والعذاب
على الإقرار بالمال الذى عنده ، وقد ظهر أنه الألوف الكثيرة من الدنانير .

فيكون إذن واضحاً أن ساعياً بهم (أبا سعيد) عند المتوكل بأخذه مال الثغور ،
فصادره المتوكل على ذلك النحو المتقدم ، وعزله عن حرب الثغور وأطاع فيه حساده ، فقال
البحترى :

صرفوك عن حرب الثغور بقدر ما عرفوك يا ابن محمد بسواكا
والروم تعلم أن سيفك لم يزل حتفا لصيد ملوكها وهلاكها
لن يأخذ الحساد مجداك بالمنى الله أعطاك الذى أعطاك
ثم لا يلبث بطل الثغور — كما يظهر من قول البحترى فيه وقد رثاه مرتين — أن يموت

بعيدا في البلد المنقطع ، حيث لا يزار ولا يلم به أنيس ، في قبر إذا مر به الأبطال ، ذكروا بطولة صاحبه فكسروا فوقه رماحهم ، وشققوا عليه الرايات .
وقد استراح الروم من حروبه فناموا ملء جفونهم ، بعد أن أيقظتهم سيوفه طوال عهده على أرمينية فيقول (١) :

لا يهنيء الروم استراحتهم فقد	هدؤوا بأفواه الدروب وناموا
أمنوا وما أمنوا الردى حتى انطوى	في الترب ذاك الكر والإقدام
يا صاحب الجدث المقيم بمنزل	ما للأنيس بحجرتيه مقام
قبر تكسّر فوقه سمر القنا	من لوعة وتشقق الأعلام

ثم يصرح البحترى بنكبته وأسبابها ، فيصوره قد توسد يده في لحدّه وبقي شامتوه أحياء فيقول :
وبرغم أننى أن أراك موسدا يد هالك والشامتون قيام
ولا شك أنه بعد مصادرته وتعذيبه ، قد عاد إلى أرمينية وفيها أهله ، وجمعه ، مؤثرا
الابتعاد عن دار الخلافة التى أصبح فيها مهانا ، وكان من أعظم الأبطال ويدعى بالأمير أيام
المعتصم ، فمات هنالك حزنا ، وكان قد عود ابنه يوسف الحرب وجعله يألف مداخل ديار
الروم ومخارجها ، فلذلك أرى أن المتوكل قد اضطر بعدمملك الأب إلى عقد ولاية الثغور لابنه
لكن هذا الفتى لم يلبث أن لحق بأبيه ، إذ وثب عليه بطارقة أرمينية — كما ذكرت —
فقتلوه وقطعوه ، وبلغ المتوكل أمره فانتقم له أروع انتقام (٢) .

(١) كانت وفاة الثغرى سنة ٢٣٧ هـ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٠ .

الفصل الرابع

الحرب البحرية

(١) الحرب البحرية عند العرب

حاول العرب منذ أيام عمر بن الخطاب أن يكتسبوا (الحرب البحرية) ويعرفوا خطرها وكانت السياسة والفتح يقتضيانهم معرفة أخطار هذه الحرب واكتناء البحار من أجلها ، لأن سواحل الشام التي أخذوها من أيدي الروم ، كانت مرتبطة التجارة والحكومة بالقسطنطينية وسواحل أوربا الجنوبية . وكان للروم أسطول ، وهم أمة قبل المسلمين عرفوا البحار ومخروا عباها .

فلما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامله عليها أن صف لي البحر . وكان عمر يقصد (بحر الروم) فكتب إليه عمرو بن العاص (١) : « إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود ، .

فأوجس عمر خيفة على المسلمين من البحر وأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه وهو يقول : « والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما وتالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم ، .

ولما بلغه أن (عرجة بن هرثمة الأزدي) سيد بجيلة غزا عمان في البحر أنكر عليه ذلك وعنفه إذ ركب البحر للغزو .

ولم يكن المسلمون أمة حرب في البحر حتى عصر معاوية ، وكان معاوية محبا لآثار الحضارة يغري العرب بها ويحملهم عليها ، وأعدّه أول من فتح باب التطور للأمة العربية منذ كان عاملا لعمر على ديار الشام ، فقد كانت طقوس حفلاته مشابهة لطقوس الحفلات عند الروم من حشد العسكر على جانبي الطريق وقرع الطبول . وقد أنكر عليه عمر ذلك لما زاره

(زيارته التفنيدية) التي جاء بها إلى ديار الشام وبيت المقدس (١) فقال له : يا معاوية أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف الناس ببابك ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين إننا في بلد قريب من العدو الرومي وبيننا جواسيسه ، فلا بد لنا من إظهار مثل ماترى ليحسن وقع خطبنا عنده . فأعجب بفعله عمر وتحفظ في إقراره عليه ، ولم ينهه .

فلا غرابة إذن من معاوية أن يدخل الحرب البحرية على الجيش العربي زمن خلافته ، فيخرج العرب من بداوتهم إلى الحضارة ويجعلهم أنداداً للروم في حرب البحر ، ولم يكن على الماء من عدو لهم غير الروم . وإن بلاد الشام والأناضول وسواحل مصر كانت يومئذ خطاً محيطاً بحوض الروم ، وأسطول البيزنطيين يعبر ذلك البحر من القسطنطينية إلى السواحل الأفريقية جيئة وذهوبا ، دون أن يجد في طريقه معارضا . وكانت أمم الفرنجة والصقالبة والروم مهرة في ركوب البحر وأهل تجارات ، وقد عرفوا الحرب البحرية من طویل الزمان . وما راع الروم إلا معاوية وقد عبأ أسطولا عربيا يرسل فيه المسلمين ليجاهدوا على أعواده وليركبوا البحر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ،

ولم يكن عمرو بن العاص ليخاف من البحر مثل عمر ، فلما استقر أمره في مصر بعد فتحها أبه للبحر ، وعرف أنه عين الخطر من جهة الروم فعنى بالحرب البحرية ، وكان لديه أسطول جسيم . فقد ذكر المقرئ (٢) أن عبدالله بن سعيد بن أبي سرح كان أمير البحر في شواطئ مصر سنة ٣٤ للهجرة وكانت مراكب المسلمين نيفاً ومائتي مركب ، وكان (بسر بن أرطاة) أميراً للبحر ، معيناً لعبد الله بن سعيد ، وكان خصمهم في أحد المواقع البحرية مع الروم (ابن هرقل) فقاتلهم بالنبال والنشاب ثم التحمت المراكب وعددها من قبل الروم ألف مركب فاقتتلوا باسيوف حتى هزموا الروم وشتوهم ، وسميت هذه المعركة البحرية (بغزوة ذي الصواري) في مياه الاسكندرية بعد فتحها أيام عمرو بن العاص وكان مع عبدالله (علقمة ابن زيد) و (كريب بن أبرهة) من أمراء البحر ، وقد كان للنساء العربيات نصيب في هذه المعركة البحرية . فقد روى المقرئ أن أمير البحر عبدالله بن سعيد كانت معه امرأته (بسيسة ابنة حمزة بن يشرح) وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب ، وكانت بسيسة تشارك في القتال وتعطى رأيا فيه ، وهلك عنها عبدالله فتزوجها علقمة بن زيد ، وهلك عنها هذا ، فتزوجها كريب بن أبرهة

(١) قال عمر : لأسيرن في الرعية حولا فإني أعلم أن للناس حاجات تقطع دوني أما علمهم فلا يرفعونها إلى وأمام فلا يصلون إلى (التاريخ الكامل لابن الأثير ط أوربا ٤٣٩) .

(٢) الخطاط المقرئ ط مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ ج ١ ص ٢٧٣ .

وقد تقصى أخبار (معركة الصواري) هذه (جاستون فييت)^(١) فذكرها في الجزء الذي ألفه عن (تاريخ الوطن المصري) في مجموعة (جبرائيل هانوتو) وقال ان (ماريوس كانار)^(٢) تعقب ذكر هذه المعركة في (كتب الروم) و (العرب) فتوصل إلى أن قائد الأسطول الرومى في هذه المعركة كان البطريق (مانويل) وأن الجنود البيزنطيين خرجوا من الأسطول إلى البر ودخلوا الاسكندرية فخف إليهم (عمرو بن العاص) بجيش برى ، وكان يعينه أسطول عربى فهزم العرب الروم في البر ، ورمى الروم بأنفسهم على مراكبهم ، وقتل رئيسهم البطريق (مانويل) في معركة جرت في شوارع الإسكندرية بين العرب والروم
وإن العرب منذ تلك المباغثة فكروا ببناء أسطول ضخم يناظر أسطول الروم^(٣) .
وكان المصريون من أبرع البحارة أيام البيزنطيين قبيل الفتح العربى لمصر ، فساروا لدى العرب بناة أسطولهم الجديد .

وذكر (جاستون فييت) أن معاوية في سنة ٦٤٩ لليلاد قاد أول أسطول في البحر وكانت معركته الأولى مع الروم ظافرة فبشرت بنجاح حربى قابل .
وناقش جاستون فييت نفسه في اسم هذه المعركة فقال إن العرب تسميها (معركة الصواري) لأن أعمدة المراكب البيزنطية والعربية قد التحم بعضها ببعض من هول القنابل . أما ماريوس كانار فيدعى (أن الصواري) اسم قرية على البحر في ساحل مصر بالقرب من مكان يسمى (Phoenix) أى العنقاء .

وقد هد انزام الروم في هذه الواقعة جيشهم البحرى حتى كان (تيوفان البيزنطى) المؤرخ ، يقرن هذه الحثية التى منى بها الروم ، بخيبة واقعة اليرموك ، .
وفات المسيو جاستون فييت أن المقرئى صاحب الخطط قال : إن الصواري اسم مكان في مياه مصر وأنه ليس ماريوس كنار أول من قال ذلك^(٤) .
وكان أمراء البحر في خلافة عثمان بن عفان^(٥) عبد الله بن نافع بن الحصين ، وعبد الله

(١) جاستون فييت كان أستاذ اللغات الشرقية في جامعة باريس وهو اليوم مدير للمتحف الوطنى في القاهرة ، ألف كتابا جليلا عن مصر في عهد الإسلام منذ الفتوح إلى حملة نابوليون ونشر هذا الجزء في المجموعة التاريخية الكبرى المسماة (Histoire de la Nation Egyptienne, Par Gabriel Hanotaux) طبع بلون بباريس سنة ١٩٣٧ tome IV .

(٢) ص 28 من هذا المصدر .

(٣) ص 29 من المصدر السابق .

(٤) الخطط للمقرئى الطبعة السابقة ج ١ ص ٢٧٣ .

(٥) التاريخ السكامل لابن الأثير ط أوربا ج ٣ ص ٧٢ .

ابن نافع بن عبد القيس ، وعبد الله بن قيس الجاسي ، وكان لهذا الأخير نحو من خمسين غزوة في البر والبحر ، ولم يفرق في غزواته في البحر أحد من جمعه .

وذكر (آغايبوس المنبجي)^(١) في (كتاب العنوان)^(٢) ، أنه في السنة الثالثة لعثمان ، ركب معاوية البحر وصار إلى قبرس ، فافتتحها وكان معه ألف وسبعمائة سفينة مملوءة سلاحاً وأموالاً . وأن معاوية^(٣) غلب في البحر (قسطنطوس) ملك الروم وأحرق سفنه وهزمه . ولحقه إلى الروم فلجأ (قسطنطوس) إلى صقلية ، وفي السنة الرابعة عشرة لمعاوية^(٤) غزت العرب الروم في البحر فانهمز أسطول معاوية وأحرقه الروم . ثم غزوا سواحل سورية فجأؤوا إلى صور وصيدا في السنة نفسها .

فيتين من روايات آغايبوس المنبجي^(٥) أن الحرب البحرية كانت سجالاً بين المسلمين والروم في عهد معاوية ، ويقول ابن خلدون^(٦) : « لأنه لما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، استخدموا من (النواتية) في حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافتهم وشغفهم الجهاد فيه ، فأنشؤوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، والعساكر والمقاتلة ، لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر على حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس . »

(١) كتاب العنوان لآغايبوس المنبجي من المصادر النفسية للتاريخ الإسلامي وأول من ذكره المستشرق (Assemanie) سنة ١٧٤٢ في جدول نشره لمجموعة المخطوطات الشرقية في مكتبة فلورنسا ثم عقب بعده المستشرق (هوار) فأشار إليه سنة ١٩٠٢م حتى جاء (أسكندر فاسيلييف) المستشرق الروسي فنقله من العربية إلى الفرنسية ونشرته على أجزاء متفرقة (مجلة) آباء الكنائس الشرقية التي تصدر عن باريس باسم (Patrologia Orientalis) .

(٢) كتاب العنوان Fascicule 3 tome VIII بإشراف فاسيلييف طبع باريس ١٩٠٨ (220) P.

من مجموعة (Patrologia Orientalis)

(٣) المصدر السابق ص (224) .

(٤) المصدر نفسه ص (232) .

(٥) أما آغايبوس المنبجي مؤلف كتاب العنوان (Kitab al-unvan) فهو مؤرخ عربي روى يقال له (Agapius) بن قسطنطين المنبجي وكان أسقف منبج في القرن العاشر للميلاد وكان للحوادث التي ذكرها في كتابه أثر بعيد في توضيح المعالم التاريخية لدى المؤرخين الروميين ، ولم يأبه له العرب كثيراً ، وقد عني في كتابه بتاريخ الروم وحوادث الفرس كما عني بحوادث التاريخ العربي (من مقدمة فاسيلييف على الجزء الأول من الكتاب) .

(٦) مقدمة ابن خلدون الطبعة السابقة الصفحة نفسها .

وما جاء عبد الملك بن مروان حتى كان العرب قد تمرسوا بأفات البحار . ولم يعد يذعرهم فيها الذعر ، مما دعا عبد الملك أن يكتب إلى عامله على أفريقية حسان بن النعمان ، بأن يتخذ دارا لصناعة الآلات البحرية والسفن ، (وهو ما يعبر عنه في زمننا بترسانات) وكانت استجابة عامله إلى ذلك وسيلة إلى فتح صقلية .

ثم أخذ العرب في الأندلس بهذه الضرورة البحرية فأنشؤوا الأساطيل . ولا ريب في أنهم كانوا أقرب إلى تجويدها من المشرقين ، لوجودهم في الغرب ، ولأن الأمة الإسبانية كانت أمة بحار ، وصاحبة أساطيل ، فكان تقليدهم واقتباسهم في ذلك أسهل وأجدى لكن الأسطول العربي بقي ضعيفا تلقاء الأسطول الرومي في الحوض الأبيض ، لحداثة عهد العرب في ذلك ، ولاشتغالهم في حروب الشرق مع فارس ، وما وراء النهر ، وبالفتن الداخلية في أرجاء العراق وديار الشام .

ولم يكن بدعا من العباسيين أن يحصنوا الإسكندرية من جهة البحر ^(١) ، وأن يكلفوا من كان في سيف البحر في الشام ومصر من الصناع والنوذية ، أن يصنعوا السفن البحرية ، لا سيما اللبنانيين القدامى ، فإنهم كانوا بحريين من سوائف العصور ، والأمة الفينيقية التي كانت على سواحل لبنان هي التي علمت الأمم القديمة فن السفن ، وشق البحار ، وكان شجر الأرز في لبنان وهو الذي تصنع منه أخشاب السفن معوانا على ذلك .

فلم يلبث العباسيون أن أوجدوا لجيشهم أسطولا ضخما يسكاد بيد الأسطول البيزنطي ، ولا شك أن هذا الأسطول كان في إبان عظمته وقوته . أيام الرشيد والمعتصم ، ثم تخاذل وتضائل بعد عهد المتوكل . ودليل على أن البيزنطيين قد اجتروا في عهد المتوكل على أن يشقوا البحر الأبيض من شماليه إلى جنوبيه ليغزوا مصر ، فقد روى صاحب (النجوم الزاهرة) الذي عني خاصة بالحوادث التي لابست تاريخ مصر . أنه في سنة ٢٣٨ هـ ^(٢) وهي موافقة لخلافة المتوكل قصد الروم دمياط في ثلاثمائة مركب فكبسوا البلد ، وسبوا ستمائة امرأة ، ونهبوا وأحرقوا وبدعوا ، ثم فصل هذه المباغنة الرومية ، ^(٣) فقال ، إنهم تركوا دمياط بعد أن حاربهم أهلها ، إذ كان الجند الموكل إليهم حراسة دمياط ، غائبين في القاهرة ، حفاوة بحفل كان أقامه ليلة العيد عامل المتوكل (أبو رجاء عنيسة بن اسحق) ثم

(١) مقدمة ابن خلدون الطبعة السابقة ص ٢٩٣ .

(٢) ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٣) ص ٢٩٥ .

إن الروم الذين نزلوا من الأسطول ذهبوا من دمياط إلى بلدة (أشموم) (١) ، فلم يقدرُوا عليها فعادوا إلى بلادهم ولحقهم أبو رجاء بجيوشه فلم يدركهم ، وقد ذكر هذه الحادثة الطبرى (٢) ، وذكر أسماء الربابنة الذين قادوا الأسطول ، وكان ثلاث فرق ، كل فرقة مائة سفينة فارسي (ابن قطوانا) بدمياط ، فأحرق سفن المصريين التي كانت في شطها ، وسبي نساء قبطيات مع المسلمات ، وأحرق المسجد الجامع بدمياط والكنائس ، وحاز المال الكثير والسلاح .

* * *

يقول دستيغان رونسيमान (٣) في كتابه (الحضارة البيزنطية) عند كلامه على (البحرية البيزنطية) أن البيزنطيين لم يكونوا يعبثون بحرب البحر ولا (يعطونها كل أنفسهم) قبل أن يستفحل أمر العرب ، فلما أنشأ العرب أسطولهم قضت الضرورة على البيزنطيين أن يبذلوا جهودهم في تنظيم أسطولهم وإعداده على الدوام ، للصادمات العربية ، وأن أسطول البيزنطيين أبعد أسطول العرب عن القسطنطينية مرتين وحافظ على جزيرة صقلية من غزوات العرب .

وكان أسطول البيزنطيين يهمل أمره كلما ضعف أسطول العرب وكان العرب يفرغون كل ما في وسعهم على أن يأخذوا منهم صقلية ثم كريت ، وأن يجعلوها قاعدتين للهجمة الدائمة على بزنطة واليونان في بحر (إيجه) حتى كان عهد (تذكورة وميخائيل الثاني) ثم من بعدهما (بازيل) فنفيخ هؤلاء روحاً جديداً في الأسطول البيزنطي ، وأنشؤوا دور صناعة السفن على شواطئ بحر الروم ، وكان أعظم أمير للروم على البحر يوم ذلك (أوريفاس Oryphas) ويقول رونسيमान إن المؤرخ الرومي (تيوفان قونطينواطوس (٤)) يصف غزوة بحرية قام بها سنة ٩٠٤ للميلاد أحد أبطال البحر عند المسلمين وهوليون (الطرابلسي) (٥) ، فبلغ تساليا (٦) ، فنهبها وأقام فيها زمناً ولم يستطع الأسطول الرومي أن يقف في سبيله ، أو أن يجلبهم عن تساليا إلا بعد سنين إذ حاربه وقتله .

(١) يسميها الطبرى (اشتموم) وهي اشتموم على ما ورد في معجم ياقوت .

(٢) تاريخه ٤٨/١١ .

(٣) La civilisation Byzantine

تأليف Stevan Runciman الأستاذ بجامعة كامبردج ، الترجمة الفرنسية طبع بابو بباريس سنة ١٩٣٤ ص (157) .

Théophan Continuatus (٤)

Leon de Tripoli (٥)

Théssalonique (٦)

وفي عهد (نيسيفور فوكاس) سنة ٩٦١ لليلاد أصبح الأسطول العربي (في حين العدم) واستطاع هذا الامبراطور الجبار أن يقول نفورا : « أنا وحدي سيد البحار » (١) ، لكن الحروب السلجوقية لم تلبث أن عفت على آثار الأسطول البيزنطي ، وهدمت دور الصناعة البحرية على ساحل البحر ، ثم عاد الروم الى النهوض حينما بعد حين ، بحرب البحار حتى كانت الحروب الصليبية .

أما المعتصم الذي كسر شوكة الروم في البر ، بعد خراب عمورية ، حتى لم تقم لها قائمة في البحر في زمنه ، فكان ذا نزعة للحرب البحرية فقد بنى سفينة كبرى سماها (الزو) وكان يحسب أن يشهد العسكر في البحر ، كما فعل ذات مرة إذ أمر بعرض عسكري بحري (وذلك أن (الزط) وكانوا ألوفا وقد شمسوا عليه ، ثم أطاعوا وسلبوا ، فأمر بعرضهم في دجلة وكان عددهم سبعا وعشرين ألفا فيهم اثنا عشر ألف مقاتل ، فأمر بقائده (عجيف) الذي كسر الزط أن يمر بهم (٢) (وهم في زواريقهم على هيتهم في الحرب معهم الأبواق ، حتى دخل بهم بغداد) وكان المعتصم يشاهد هذا العرض وهو في سفينة الزو حتى مر به الزط على تعبثهم وهم ينفخون في الأبواق

ففي تسريح الخيال نحو هؤلاء الزط وعددهم اثنا عشر ألفا . يمكن للذهن أن يحسب عدد سفنهم ، وأن يتمثلهم وعليهم دروعهم ، وبأيديهم سيوفهم ورماحهم ونشابهم ، والأبواق في أفواه النافخين ، تملأ سماء (الشامية) (٣) التي كان يعرضهم فيها المعتصم ، وأحسب أن هذا أول عرض بحري عرفه العرب . وكان الأمين قبل المعتصم ، معتزيا بالسفن البحرية ، وكان يجعل بعضها للنزهة ، فقد بنى سفينة (الدلفين) وقد وصفها (أبو نواس) بقصيدة .

وذكر أبو الفداء المؤيد (٤) أن الأمين عمل خمس حراقات في دجلة على صورة أسدو على صورة الفيل والعقاب والحية ، وعلى صورة الفرس ، وانفق عليها مالا عظيما ، حتى قال أبو نواس يصف هذه السفن ويعجب لما فيها من الهيئات والأشكال بما لا يعرفه العرب وإنما كان معروفا عند الروم :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برا سار في الماء راكبا ليث غاب

(١) المصدر السابق من كتاب رونسيان La cirileation ص (359) .

(٢) تاريخ الطبري ٣٠٦/١٠ Byzantine .

(٣) مكان بسامرا .

(٤) تاريخه ج ١ ص ٢١ .

عجب الناس إذ رأوك عليه كيف لو أبصروا فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحين تشق العباب بعد العباب
والظاهر من قول أبي نواس أن (العقاب) كان (قطعة) جبارة من قطع الأسطول عند
الأمين وكان يركبها في حروبه للبحرية، وكانت ذات منسر ومقدم وجناحين، والمراكب
ذوات الأسوار من اختراع العرب كما يرسم ذلك المؤرخ الفرنسى (شليبرج) في كتابه عن
الامبراطور (نيسيفور فوكاس) (١) فقد أثبت فيه صورتين للسفن الحربية العربية في العصر
العباسى؛ وهى سفن مسورة فيها بروج مبنية على طريقة أبراج الحصون بشرفاتها المكشوفة
المحيطة بوسطها التى يسميها الفرنجة (Crèneau) وفيها مقاذف جسسام ومنجنقات. كما أثبت
شليبرج صوراً ثانية للسفن العربية البحرية التى كانت تحمل قذائف النار.

(٢) أسطول المتوكل والمهركة البحرية

لئن تغفلت المتوكل (تدورة) (تيودورة) (٢)، فأرسلت أسطولها الى غزو دمياط
— كما قدمت — فإنه كان يملك أسطولاً جراراً ثقيلاً. لم يصفه المؤرخون — جريباً على
عاداتهم فى اقتضاب بعض الحوادث القيمة الخطيرة — وإنما الذى نهض بوصفه وحده هو
البحرى والمؤرخون البيزنطيون الذين نقل عنهم المستشرقون المعاصرون، فقد ذكر
(ماريوس كانار) (٣) أنه لم يصف أحد من مؤرخى العرب هذه الحملة البحرية أيام المتوكل
الذى سار فيها الأسطول العربى نحو بيزنطية وأن البيزنطيين يسمون قائد أسطول المتوكل
(Apodenar) وهم يعنون (أحمد بن دينار)، وأن المؤرخين البيزنطيين يذكرون هذه
الغزوة البحرية التى انتهت بهلاك الأسطول الرومى، بسبب الإعصار والعواصف البحرية
ذلك ما لاحظته (ماريوس كانار) على تاريخ الغزوة البحرية أيام المتوكل، لكن البحرى
قد وصف هذه الغزوة وصفاً رائعاً حتى قال عنه النويرى صاحب نهاية الأرب (٤): لم يصف
أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال فى المراكب إلا البحرى، فكانت هذه القصيدة من

(١) سأصف هذا الكتاب عند الكلام على شعر الحرب لدى أبى الطيب المتنبي وعصر الحمدانيين فى
حروبهم مع البيزنطيين.

(٢) theodora وكانت تسمى (تيودورا الغاصبة) وهى من الأسرة العمورية حكمت بيزنطية من
سنة ٨٤٢ الى سنة ٨٥٦ للميلاد. فهى معاصرة المتوكل اذ كانت خلافته حسب أعوام الميلاد من سنة
٨٤٧ الى سنة ٨٦١ الموافقة للهجرة من سنة ٢٣٢ الى سنة ٢٤٧.

(٣) فى أعقاب كتاب (فاسيليف) (Byzance et les arabes) المتقدم ذكره ووصفه.

(٤) ح ٦ ص ١٩٧.

البحترى (١) نفيسة القدر ، في شعر الحماسة العربية لاسيا وقد قيلت (في الحرب البحرية) عند العرب ، التي غزا فيها (احمد بن دينار بن عبد الله) بلاد الروم ، وقد ذكر البحترى اسمه في هذه القصيدة وفضله على البحر . بعد أن تولى الامرة عليه وتديره فيه ، وحمله الرماح العوالى على الماء ، فكأنه ليس يبحر في البحر فقال :

بأحمد أحمدنا الزمان وأسهمت لنا هضبات المطلب المتوعر
ولما تولى البحر والجود صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
أضاف إلى التدبير فضل شجاعة ولا عزم إلا للشجاع المدبر
إذا شجروه بالرماح تكسرت عواملها في صدر ليث غضنفر

ثم يصف البحترى أوان سفره بالأسطول ، وقد ركب (أمير البحر) احمد بن دينار (قطعة البحرية) الخاصة وأسمها (الميمون) (٢) وكان الوقت صباحا .

ولا يفتر أبو عبادة — على عادته — عن التلاعب بالمعاني وقلب الألفاظ فقد جعل ابن دينار هو المظفر والميمون غدا تحته بعد أن غدا هو فوقه . ويظهر من وصف البحترى أن ابن دينار مضى في أسطوله بادیء السير على هيئة عرض بحرى ، ؛ فوصفه وقد (أطل) ثم (مر) وكأنه فارس على حصان مشر ، ثم كانت بعد هذا العرض (زجرة النوق فوق العلاء) (٣) وقصد بها البرج المرتفع في وسط السفينة الذى يمر الصارى الكبير من أسفله إلى أعلاه ، ومنه يستكشف النوق طريق البحر ، وما زجرة النوق إلا (الأوامر العسكرية) للجنود البحرية ولم يترك البحترى نظامهم واصطفاقهم لتلقى الأوامر من رئيسهم (الإشتيام) (Ichtyame) (٤) فصوره في وصفه بأن النوتين وهم في حضرته كانوا يغضون أبصارهم وكأنهم وقوف في سماء انتظارا لمرور الأمير العظيم فقال :

(١) ديوان ط هندية بمصر ج ٢ ص ٢٣ .

(٢) أعيدتها من سوابق العرب في فن البحار إذ كانوا يسمون (قطعهم البحرية) بأسماء خاصة كالعقاب التي سماها الأمين ، والميمون هذه وقد جرت على ذلك الأمم الحديثة حتى معنا في هذه الحرب القرية مسميات كثيرة لقطع الأساطيل مثل (أجاكس) و (آرك رويال) عند الانجليز و (الجزائر) عند الفرنسيين .

(٣) العلاء في اللغة سندان الحداد . ومن شكله ذهبت الى أن البحترى أراد به (برج الصارى) في السفينة الذى يكون فيه المرصد ومكان النوق الأمر ودليل على ذلك أن البحترى شبه وقفة النوق فيه كوقفة الخطيب في رأس المنبر .

(٤) الإشتيام كلمة معربة ولفظها في الفرنجية (Lktyame) وقد ورد في معجم (Ouge) الفرنسى أن (إشتى) كلمة يونانية معناها المسيح المنقذ (Christ soveur) و (آم) من معانيها الروح والحرارة فكلمة إشتيام التي أوردها البحترى في وصف من يسمى بها بأنه ذو أمر ونهى ، =

غدوت على الميمون (صبجا) وإنما
 (أطل) بعطفه (ومر) كأنما
 تشرف من هادى حصان مشعر
 رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر
 يغضون دون (الإشتيام) عيونهم
 وقوف السباط للعظيم المؤمر

ثم قفز البحرى من هذا الوصف الهادى المطمئن إلى مقدمة المعركة البحرية وهى قفزة مالوفة فى عادة شعرائنا الأقدمين ، فى ضيق الذرع وقصر النفس فى الشعر فصور كيف اهتز الأسطول لهبوب الريح . فتسلق الإشتيام أعلى الصوارى (لشدة القلاع) صموداً لريح الجنوب العاصفة ، فكأنه على جناح عقاب ، ذاهب فى السماء . ثم ينكشف هذا الأسطول فى الماء ، فيندفع متلفاً بعبابه ، فكأن الماء أبراد بحبة تلفع بها جسمه .

ويلتفت البحرى بعد ذلك إلى جنود البحر ، فيصفهم بأنهم ملتفون حول ابن دينار ، وهم ركابون للهول معاقرون لكووس المنايا ، فيهم دارعون وفيهم حرس قادة الآلات الذين ليس عليهم الحرب : وإنما هم متخفون من الدروع ومن عائق الثياب ، أمام آلاتهم يديرونها وكان الدارعون ضاحين للعدو والحاسرون فى غير ذلك .

فقال فى هذا الوصف وهو يعنى المركب (الميمون) :

إذا عصفت فيه الجنون اعتلى لها
 جناحا عقاب فى السماء مهجر (١)
 إذا ما انكفا فى هبوة الماء خلته
 تلفع فى أثناء برد محبر
 وحولك ركابون للهول عاقروا
 كووس الردى من دارعين وحسر

وآذن البحرى بوصف (المعركة البحرية) فصور الجنود وهم يميلون (بالنشاب) ، خفيماً مالت أكتفهم بحمد الحديد مالت المنايا

ثم باشروا (قذف اللهب) (٢) ، فرشقوا بالنار فأحرقوا السفن وجسوم من فيها ، حتى (شم القطار) وهو اللحم المشوى ، وقد خاطب البحرى ابن دينار كيف صدم بجنوده هؤلاء الصلاد جنود البيزنطيين ، أصحاب اللحي الشقراء (صهب العثانين) فكان ضرب جنود المسلمين عليهم كإيقاد النار المشتعلة :

== يذنبى أن تكون وصفا لرئيس المركب الذى ينقذه ويكون له فى البحر بمنزلة المسيح . والكلمة فى أصلها رومية . وذكر معناها صاحب (لسان العرب بمادة شتم) فقال (الاشتيام رئيس المركب) .

(١) عصف هذا الريح على أسطول ابن دينار مصداق لما ورد عند المؤرخين البيزنطيين كما نقل ماريوس كنيار من أن المعركة كانت محفوفة بالعواصف المهلكة .

(٢) وهو ما يعبر عنه بلغة الفرنجة فى عصرنا (Projectile de feu) وفى لغتنا اليوم (صواريخ نارية) وكان يسمى عند الروم الأقدمين (feu Grégeois) .

تميل المنايا حيث مالت أكفهم إذا أصلتوا حد الحديد المذكر
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع إلا عن شواء مقتر
صدمت بهم (صهب العشائين) دونهم ضراب كإيقاد اللظى المتسعر

وقد وصف (شلمبرجة) البيزنطيين والمسلمين في الحرب فذكر القذائف النارية التي كان العرب يستعملونها في أساطيلهم في العصر العباسي وقد نقل هو هذا الوصف عن المؤرخ المسيو (Saulcy) بأن العرب افتنوا فنا في القذائف النارية ، لم تعرفه الروم . وذلك أنهم اخترعوا (الرمانة العربية) يصنعونها من الفخار . وكان عندهم ثلاثة أسماء لها . الزيت المحرق النار البحرية ، الشعلة الذائبة

وكانت هذه (الرمانة) تشتعل وهي على سطح الماء وقد تلحق بالجنود السابحين الهاربين (٢) ويقول (شلمبرجة) إن هذه الرمانة قنبلة كانت تحشى بالنفط يرميها العرب على الأساطيل البيزنطية أو على الحصون المحاصرة ، وهي حين تنفجر تنفذ شعلتها من كل الجهات في الأسفل كما في الأعلى فتصدع كل شيء حتى الحجارة ، وأن البيزنطيين صاروا يستعملونها وقد أثبت هذا المؤرخ صوراً ثانية لهذه (القنبلة العربية) وهي على شكل الجرة الصغيرة ذات فروع وفي كل فرع ثقب . وأثبت في كتابه صوراً لسفن من الأسطول العربي ، وقد صفت هذه القنابل على أخشاب فيه ، معدة لحملها ، واحدة بجانب الثانية ، وفي كل سفينة عدد كثير منها (٣) .

ثم يصف البحري الروم بأنهم أصحاب اللحي الشقراء ، كانوا يسوقون أسطولا لم تلبث سفنه أن تقشعت وتكشفت (كسحاب الصيف) بعضها كان سفناً قوية صلبة ، كالسحاب الممطر ، وبعضها كان سفناً سخيفة كالسحاب الجهام الذي ليس فيه مطر .

وضع البحر بين الرماح المشجرة والسيوف المتراطمة على الحديد ، فكانت هذه الأصوات في الأسماع مثل أصوات الإبل الهادرة المجرجرة ، وكانت السفن المتقارعة في هذه المعركة الهائلة تتداني رؤوسها فكأنها أعناق وحوش نافرة ، كان يؤلف بينها ، ويروض شماسها (أحمد بن دينار) ذلك سحر البحري في تصويره للمعركة البحرية حيث يقول عن الروم .

(١) قلت لعمري هذا هو وحى (الطوريد) torpille عند الأمم الغربية المعاصرة . انظر هذه الصورة الأصلية للرمانة العربية المنفجرة في ص ٥٩ من كتاب شلمبرجة .
(٢) الصفحات 56 ، 58-85 ، 87 من كتاب (شلمبرجة عن الامبراطور البيزنطي) نيسيفور فوكاس .

يسوقون (أسطولا) كأن سفينه
سحاب صيف من جهام ومطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم
إذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تقارب من زحفهم فكأنما
تؤلف من أعناق وحش منفر

فكان البحترى فى تشبيه ضجيج البحر والرماح بالفحل الصائح ، وتشبيه تلاقى المراكب من رؤوسها بأعناق الوحش النافر ، بدوى الخيال لم تصقل الحضارة خياله ، وهو الذى عرف البداوة فانطبعت عليها حدائته .

ويظل البحترى يخاطب فى القصيدة أحمد بن دينار بما يبعث على الحسك أنه أنشده إياها بعد عودته من المعركة ظافرا ، وفى حفل استقباله عند أوبته من غزوة الروم فى البحر .
فيذكر أنه لم يترك المعركة البحرية حتى انتهت الحرب عن أعناق مقطعة ورؤوس مطيرة ، والهام المقطعة تدلنا على أن العرب خالطوا بسفنهم سفن الروم ، فقفزوا إليها وأعملوا السيوف فى رجالها ، فقطعوا رقابهم ، ودليل هذا التقارب قول البحترى بأن ابن دينار كان (يقارب الزحفين ويؤلف بين أعناق السفن) والهام المطير هو أثر القنابل الفخارية التى كانت تنفجر فتطير الهام عن الأجسام ،

ثم يعلمنا البحترى فى آخر القصيدة ، بأن أحمد بن دينار بن عبد الله فارسى الأصل (ابن كسرى) قديما وحديثا ، (فهو يستحق لقب سليل الملوك) وهو بذلك اللقب جدير بأن يصدع صخرة ابن قيصر (ملك بزنطية) وهو دليل على أن أسطول الروم ، كان بقيادة ابن صاحب القسطنطينية ، وأرى أن هذه الغزوة البحرية التى كانت فى خلافة المتوكل قد حدثت فى أوائل خلافته ، وإبان قوته على الروم تلك القوة التى ورثها عن المعتصم ، ثم عن الواثق فى حوالى سنة (٨٥٠ للميلاد) زمن تيودورة على عرش القسطنطينية أى بعد حكم تيوفيل (١) المعاصر للمعتصم ، والذى كانت فى أيامه وقعة عمورية . وقد ذكره أبو تمام فى رومياته الحربية .

وفى نهاية القصيدة وصف البحترى فرار (ابن قيصر) طائرا على ألواح خشب طويلة مسمرة ، ويعنى البحترى بذلك مركبه المصدوع بعد المعركة وقد ساعدته الريح العاصفة فنجاه من الهلاك . وإنه لمحتمل فى التفسير لشعر البحترى أن تكون الريح قد عصفت فى إبان المعركة أو عند انتهائها ، فرضى ابن دينار بهذا القسط من النصر ، فأوقف الحرب وتركها خشية من متابعة الالتحام مع الأعداء ومايجر ذلك من سوء العقبى ، أو أن ابن قيصر نفخت شراره الريح فطار به مركبه ، فكان بذلك مولى للريح التى أطلقته .

(١) حكم تيوفيل (Theophile) من سنة ٨٢٩ الى سنة ٨٤٢ للميلاد وهو من الأسرة العمورية .

وراح هذا المهزوم الرومى يرمى الموج بنظرة المصعوق المرعوب ، إذ كان يود أن يراه
متدفقا متدافعا فى ظهر سفينته الهاربة ، يزجها على يد الريح ، حتى فاز فى فراره متعلقا بأرض
الروم الكبيرة ، وفاته الردى الذى كان مسرعا إليه .

وقول البحترى (الأرض الكبيرة) يدلنى على أن المعركة البحرية جرت فى مياه الروم
البعيدة عن القسطنطينية ، أى فى مياه الإسكندرونة وما جاررها ، إذ تمكن (ابن قيصر)
من أن يفر من المياه التى فى أرض الروم الصغيرة ، إلى أرض الروم الكبيرة ، وينبغى أن
يكون ابن قيصر هذا هو البطريق الذى كان أمير البحر على أسطول الروم فى معركته مع العرب
ففى ذلك يقول البحترى لابن دينار :

فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلى	تقطعها فيها وهام مطير
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده	مليا بأن توهى صفاة (ابن قيصر)
جدحت له الموت الزعاف فعافه	وطار على ألواح شطب مسمر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها	عليه ومن يول الصنينة يشكر
إذا الموج لم يبلغه إدراك عينه	ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما	تنقصه جرى الردى المتمطر

ولولا ما أعرف من براعة البحترى فى التصور والتخيل ، لجزمت أنه كان فى هذه المعركة
البحرية ، كما كان فى وقعة (عقرقس) بأرض الروم .

الفصل الخامس

خصائص شعر الحرب في العصر العباسي

١ - فهم أبي تمام في شعر الحرب

يقول (پول قاليري) : « أنا لا أقول الشعر ولكني أصنعه وأبنيه » . وما أجدري بأن أصف أبا تمام بما وصف قاليري به نفسه ، فأبو تمام في الشعر صناع بناء ، بل هو في الألفاظ والمعاني (معماري ومهندس) .

انظر إلى أبياته ، أي بيت شئت . من أية قصيدة ، تجد ميسمه باديا ، وطريقته في النظم متجلية . وفكر في التصوير الإسلامي إلى عهده تجد (الزخرف العربي Arabesque) يملأ جدران المساجد ، ويزوق المحاريب ، ويلتف حول الكوى والنوافذ ، في القصور والدور . وإنك لتعلم أن فن التصوير في الإسلام ابتلى بعوائق التزمّت ، فوجد العرب المصورون منجاة لهم من ذلك بالزخرفة والتلايف ، والتشجير والفسيفساء ، فكان (التناظر) أساس هذه الفنون فاذا صور مصورهم مربعا ومسدين عن يمين ، كان عليه أن يصور مربعا ومسدين مثلها عن يسار ، وإذا خط دائرة من فوق ، لزمه أن يخط دائرة من تحت ، وأن يكون بين الدائرتين من فواصل التلايف ما يتناظر حول خط واحد ، وما يتحاكى في نطاق الصورة .

من هذا (الفن التناظري) ، ومن ذلك المذهب في محاكاة الخطوط كان الطائي صاحب طريقة البديع في الشعر العربي ، والباعث عليها منذ عهده ، على أن العرب في جاهليتهم وإسلامهم وإن عرفوا هذه الطريقة ، فإنما كانت تأتهم على رسلها بغير تكلف ، وكان في القرآن مضرب أمثال لها ، لكن أبا تمام جعلها دأبا في صنعه ، وتعهدا في القريض فصارها معروفا واتخذ فيها أستاذا لمن بعده من الشعراء ، وتلك سنة في أكثر المذاهب الأدبية أو الفلسفية ، فإنها تنسب إلى من يتخذها دأبا ، ويعتنيها كالدين ، ومثال ذلك فيكتور هوجو فقد نسب إليه مذهب (الرومانطيقين) والمتقصى لعروق هذه النزعة في الأدب العالمي ، يجد أصلها في الشعر الروماني عند (كاتولوس) . ثم يراها في الأدب الفونسي متسربة في فن (مدام دوستال) و (شاتوبريان) قبل أن تصير إلى زعامة (فيكتور هوجو) فيحمل لواءها ، ويهجم بها على المذهب الكلاسيكي حاطا مياسمه القديمة .

وقد ناقش مثل هذه الفكرة أبو القاسم الآمدى فى موازنته ، بين أبى تمام والبحترى (١) فقال يزعم المحتجون بأبى تمام ، أنه انفرد بمذهب ابتدعه وصار فيه أولاً وإماماً متبوعاً ، حتى قيل هذا مذهب أبى تمام ، ثم قال ويزعم أصحاب البحترى أن هذا الأمر ليس من اختراع أبى تمام ولا كان سابقاً فيه ، بل سلك مذهب مسلم بن الوليد ، واحتذى مثاله ، وأفرط وأسرف . ثم أتبع الآمدى قوله ، بأن مسلماً أيضاً غير مبدع لهذا المذهب وإنما هو موجود فى أشعار المتقدمين .

وإذ كان أبو تمام من طلع الشام فإن طريقته سميت بالطريقة الشامية ، فى الشعر العربى عصر بنى العباس وطبع على غرارها ، الشاميان البحترى وأبو العلاء . ذلك ميسم أبى تمام ، وقد كان يطبعه فى كل شعره ، وفى فنون قوله ، فإذا درست فنه فى شعر الحرب ، فإنما أدرس إذن فنه فى كل شعره . ولعل أجد من جرس الكلام فى حرييات أبى تمام ، ما يوافق خرس السلاح وصليل الدروع وخفق البنود والموسيقى العسكرية . وليس عندى أفضل لدراسة فن أبى تمام فى شعر الحرب من أشعاره التى جعلتها شواهد للكلام عليه .

فن فنه فى الشعر الحربى فى بابك أنه جعل يوم أرشق وسيلة (للتناظر اللفظى) الذى دلت عليه فى مذهبه فيقول :

يا يوم (أرشق) كنت (رشق) منية (٢)

ويجعل هذا دأبه فى أكثر الألفاظ التى سميت بها البلاد البيزنطية ، فيقول فى قصيدته عن معارك أبى يوسف الثغرى فى ديار الروم ، وقد ذكر البلدين — (صاغرى وأوقضى وأرض قرّة) :
أورث (صاغرى) صغاراً ورغماً وقضت (أوقضى) قبيل الشروق
كم أفاءت من أرض (قرّة) من قر — ة عين وربرب موموق
وليس هذا لعباً بالألفاظ كما زعم ناس من الناقدين ، وإنما هو (موسيقى لفظية) و (إيقاع بالحروف) ، فبين أرشق والرشق ، وصاغرى والصغار وما فى شبه ذلك تألف ناغم ، ولحن للكلام ، صاغ أبو تمام أشعاره فيه وساق عليه معانيه وكانت معانيه خالصة فزادت خلافتها . وطال ما تشوف نفر من النقاد إلى شعر الغربيين ، وعجبوا للموسيقى التى فيه فلاموا شعرنا ورأوه — كما حسبوا — محروماً هذه الموسيقى ، وفاتهم أن الموسيقى زينة شعر أبى تمام وأضرابه ، وأن العرب عرفوا قبل أولئك الغربيين المعاصرين هذه الموسيقى اللفظية بألف عام .

(١) طبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٢٨٧ هـ ص ٦ .

(٢) أرشق جبل عند البذ . مدينة بابك الحرمى (ياقوت) .

وكما تكون اللحون متألفة بالوتيرة ، فإنها تكون متخالفة ومتقابلة . فهي تارة بين صعود وحيناً بين هبوط ، وهي تنساق خلال ذلك بين الدقة والرهاقة ، والجسامة والجهارة . كذلك فن أبي تمام في شعره الحربي ، فقد يأتي بنغمة على (السينات) يؤلف بين أجزائها بالطباق والمقابلة وبالجناس ، فيقول إن أباسعيد الثغرى :

في كياة يكسون نسج السلوق — وتعدو بهم كلاب سلوق
يتساقون في الردى كأس موت — هي موصولة بكأس الرحيق
ثم يقول :

سار مستقداً إلى البأس يزجى رهجا باسمقا إلى (الأبيق)
خوى سوقها وغادر فيها سوق موت طمت على كل سوق
فهذه خمس عشرة سينا في أربعة أبيات ، تسرى في السمع مثل لحن حربي ، وتنزلق على اللسان في أنشودة حماسية .

أما فن أبي تمام الولوع (بالأضداد) في المعنى وفي اللفظ ، فما أحب إلى نفسي أن أبحث عن مرده ومنبعه في شيء من خلقه وقوام شخصيته فقد روى عن مستهل عيشه أنه كان يخدم حائكا ويعمل عنده بدمشق^(١) فوجدت من ههنا عدوى مذهبه في الصناعة ، فإن صناعة الحائك عمل فني يقوم على هندسة الأشكال ، وقد يعتمد إلى تصوير الأضداد في الوضع والتقسيم ، وإذا جرينا مع علماء النفس المحدثين ، وجدناهم يردون أعمال المرء إلى أوائل ما يتمرس به في صغره ، فكان لنا من نظريتهم هذه مساعد على تحليل السبب في فن أبي تمام في الصناعة اللفظية والطباق المعنوي ، وما إلى ذلك من فنون البديع ، ومن هذه الفنون ذكر الشيء وضده ، وتكاد تكون الأضداد أكثر أنواع البديع عند أبي تمام .

وإذا انسابت في السمع باثيته في فتح عمورية ، تملك أبو تمام من النفوس الشاعرة فصرها كما يشاء فنه ، إنه لا يشعرها حيناً بحصار عمورية ويهدمها مستغلا ما عندها من الإيمان بالدين ، فيقابل بين معنيين ويجعل الأول علة للثاني ، فيقول المعتصم :

رمى بك الله برجها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم تُصَب
ويهدد السمع حيناً آخر بازدواج اللحن ومزاوجة اللفظ على أنغام الطاعة لله فيقول :
تدير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب
(وقد أشرت إلى هذه الظاهرة فيما سبق) .

ولا يظهر منه الحماس في اللفظ وحده ، وإنما يتجلى في المعاني أيضاً ، وكان أبو تمام صانع

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان تصحيح البارون أوسلان ط باريس سنة ١٨٣٨ ج ١ ص ١٨٠

اللفظ وصيقل المعاني ، ومتى لف معانيه بالحكمة بالغ في سحر النفوس ، إنه يقول في أبي سعيد والروم :

ثلثتمو بالمشرفي وقلما تلم عز القوم إلا تهتما
فطرح في مطارح الحماسة هذه الحكمة التي لا تنفى ، فما من أمة شق الدهر شقاً في عزها
إلا آل ذلك إلى هدمه وزواله .

وحين ذكر أن أباسعيد حارب الخرمية في (البند) في بلدة (ميمند) قبل أن يفر منهم فريق إلى
الروم ، أتبعهم بمركة الروم ، فكفى عن الأمر الأول بالبنان وعن الأمر الثانى بالكف
والمعصم ، وهو في ذلك يذكر الشيء وما يلزمه من فن البديع فيقول :
قطعت بنان الكفر منهم (ميمند) وأتبعتم بالروم كفا ومعصما
وحين يقول :

يتساقون في الوغى كأس موت هى موصولة بكأس الرحيق
يذكر الكأس بعد التساقى ولو أنه قال يتساقون في الوغى الموت لقصر قوله في حلبة فنه .
وزاد في أحكام هذا الفن أن وصل كأس الموت بكأس الرحيق فجاء بمعنى حماسى لم يسبق
إليه ، وهو أن الأبطال وهم يحتسون كؤوس الموت يسكرون بها ، فهم هيام بالردى ،
سكارى بالقتال .

ثم أتبع قوله عن الخيل : وطئت هامة الضواحي ... ثم ألهبها السياط .
فالضواحي مثل شخوص لها هامات ، قد مرت الخيل على هاماتها فداستها ، وفي هذا
تهويل للصورة وتجسيم للخيال ، يزيد أثر هذه الخيل التي تشبه في جريها الكلاب السلوقية ،
عادية ممعنة في عدوها ، تحقق سناكبها على الحجر كطارق الحدادين ، وفوقها فرسانها الحكاة ،
بأيديهم السياط ، نازلين بها عليها ، فتثور ممعنة جارية ، وكأنها السهام المرسله ، فهي شعلة
لاهبه من النار .

وحين بلل أبو تمام حماسته بالدمعة المحرقة ، وراح يسكبها على بطولة الطوسى ويخلع عليه
جلابيب الخلود وهو فقى ، قال : إن البواتر اليوم من بعده بتر . ففى كلمتين من حروف
واحدة يصف أبو تمام الحزن الخالد على البطل الطوسى ويلبس السيوف البواتر حداد التلم
في الضريبة ، والانكسار والخذلان في الحرب .

ومن يدرى كيف أنشد أبو تمام قصيدته فيه ؟ وأين أنشدها ؟ ، فإن المداد الذى
غمس طرف رداؤه فيه ثم ضرب به كتفه وصدره ، (١) ، لما بلغه مقتل محمد بن حميد ، يدلى

على أن أبا تمام قام عليه مثل (نواحة) فإن تعداد كلمة (فتى) خمس مرات في أول كل بيت ، هو من بكاء الوالدين ، وعويل النائحين .

٢ — مياسم عامة لشعر الحرب

لم يحد شعر الحرب في أدب العصر العباسي الأول ، وفي الأعراس التي تلتها حتى أواخر عهد سيف الدولة ، عن جوهر خصائصه التي عرفت له في العصر الأموي ، فإن آلات الحرب لم يطرأ عليها تغير ولا تطور ، وبقيت المشابهة رابضة على أكثر المعاني ، مما كان مألوفاً قوله في الحروب السابقة ، لكن حضارة العصر وتمازج العرب بالأمم الفارسية والتركية والرومية ، وفيض الأدب والعلم وعناصر الفلسفة أدى إلى تطور بعيد في طريق الأداء والتلاعب بتلك المعاني الحربية التي جاء بها الجاهليون والأمويون ، وأفضى ذلك التطور إلى ابتكار معانٍ حديثة وإن تكن قليلة لكنها تعد تجديداً في أدب العصر الجديد ، وفي اتباع أساليب مبتكرة في الصنعة ، تكثر عند فريق وتقل عند آخر ، ولم تكن في العصور السابقة مقصودة لذاتها ، مثال ذلك :
١ — المعاني الحماسية التي جاء بها حبيب بن أوس الطائي ، فإنه مزج الحكمة بالتصوير الفني ، وألف بين الوصف وحسن التعليل ، (ويظهر فنه هذا في كلامي على شعر الحرب عنده فيما سلف) .

٢ — (الصياغة) في فن البلاغة ، وهي المزاوجة اللفظية والمطابقة بين الكلام ، والمجانسة بين التراكيب ، مما سنه أبو تمام فجعله صنعة مقصودة لذاتها ، أي أن أبا تمام جعل هذا الفن غاية لفظية في أكثر أبياته ، مع الحفاظ على المعاني من الابتذال وابتكار معانٍ جديدة قاضاه عليها الناقدون بعده كالصولي والآمدي ، ودليل هذا ورد عند الكلام على شعره الحماسي .

٣ — (التزييق) في الوصف كما عند البحترى — إذ أن أبا عبادة زخرف شعره كله ، فكانت حماسياته — وهي من جملة شعره — مطرزة موشاة بهذا الفن الوسيم .

٤ — (التهويل) في الصورة ، وهو فن أبي الطيب المتنبي ، فإنه حشر تهويل الصور في أكثر شعره الحربي ، ومزجها بالحكمة وفصل الخطاب ، كدأبه في كل فنه .

٥ — طغيان الحماسة الرومية في شعر العصر العباسي ، وذلك لضرورة الموضوع ، فإن حروب العباسيين مع الروم كانت شغلهم الأكبر ، على خلاف ما كان في عصر بني أمية ، وقد التحم العباسيون بالروم في هذا العصر بحروب متداولة شغلت شعراءهم جميعاً ، وكانت لهم موضوعاً ثاراً ، بينما كان ذلك الشاغل قليلاً في شعر الأمويين .

كانت حروب العرب مع الروم في زمن العباسيين سجلاً ، فقال شعراؤهم فيها شعراً كثيراً يصفون فيه وقعاتها بتفصيل وإحكام وتاريخ ، وقد تناولت وصف هذه الحروب الإمارات

التي انقضت من حول العباسيين حين ضعفوا ، فكانت دولة الحمدانيين زعيمة هذه الحرب المستعرة مع الدمستق وسائر الروم أكثر من نصف قرن ، فقال أبو الطيب قصائد جمة في الروم ، ووقف الشعراء الحمدانيون شعرهم على غزوات سيف الدولة ، فحمل أكثر حماسها أبو فراس الحمداني .

ثم امتد تلاحم الحرب بين العرب والروم ، فجاوز حدود الجوار ، ولم تعد القسطنطينية آخر تخومه الغربية ولا فيها قيادته ، وإنما تجاوز إلى أوربا فجر (الحروب الصليبية) أيام نور الدين وصلاح الدين الأيوبي ، وكان ذلك موضوعا حماسيا زاخرا (ممزوجا بالدين) عم للشعراء المتأخرين (١) .

٦ — لئن كان (الخوارج) زمن بني أمية ضرام الفتنة ، فإن (القرامطة) في عصر العباسيين كانوا نامة العدوان ومنبع الفتن ، فكانت حروب العباسيين وحروب الأمراء المنفردين لهؤلاء القرامطة ، موضوعا غزيرا لشعر الحرب في هذا الزمن وفي أيام هؤلاء الأمراء ٧ — وجود (الشعر الحربي المذهبي) وأعنى به الشعر الحماسي الذي قاله القرامطة وبثوا فيه نزعاتهم الدينية الخاصة — وقد ذكرت ذلك في فصل خاص عنهم .

٨ (ضعف النزعة العصبية السياسية في شعر الحرب زمن العباسيين ، بل زوالها في بعض الحماسة الماثورة ، خلاف ما عهد في العصر الأموي إذ كانت السياسة هي التي تسيطر شعر الحرب فقصاصد أبي تمام وأبي الطيب وغيرهما من الشعراء في العصر العباسي اتخذت شعر الحرب (غاية لا وسيلة) فكان لأبي تمام وللمتنبى روائع في شعر الحرب خاصة ، بوصف البطولة وتصوير الفروسية ليجعلها سجلا شعريا للحرب ، فكأنهما مضيا في هذه النزعة على مذهب من يقول (الفن للفن) .

ذلك أهم خصائص الشعر الحربي في أدب الشعر العباسي ، مما زاد على جوهره الأصل ، الذي كان معروفا لدى الأمويين ، وثابت الأصول عند الجاهليين .

ملحق

الرمزية والحرب

— ١ —

لا يتباعد معنى الرمزية المذهبية في مفهوم لغات الغرب عن معاني الإيمان والإشارة في مفهوم لغة العرب ، والفرق بين الرمزيتين زهيد في أصوله ، وإن تشعب في فروعه ، فإذا رددنا كلا

(١) راجع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسي .

الرمزيتين الغربية والعربية إلى منابتهما ، تبين لنا أنهما صدرا عن نبع طبيعي واحد ، هو عدول الإنسان عن التصريح ، إلى التليخ والتلويح ، وتلك طبيعة في كل بيان ، فلقد تكون كامنة حتى يحركها من مكانها ، لسان أو قلم ، فتبدو من خلال الكلام والكتابة في أبراد شتى . بل الرمزية ظرف كان فطريا في الأدب دعا إليه التشويق للأسماع والتملك للأفهام ، ثم صار لونا من الترف في الأدب الحديث دعا إليه التعمق في المعاني والتفنن في إيراد الصور الشعرية وقد كانت الرمزية العربية فطرية في الجاهليين فكان في ضرورة بيانهم وعبارات لغتهم ، أن توجد التشايبه وتراكيب البلاغة الأولى السليمة من التكلف لتخلع على تلك الرمزية الفطرية حلال البهاء والرواء . ولقد كان بمستطاع امرئ القيس أن يقول عن (عنيزة) إنها طويلة العنق ، فعدل عن هذا التصريح الجاف الى رمزية كنائية محبة للذوق ، مشوقة للفهم فقال : (بعيدة مهوى القرط) ، ولم يكن في وسع امرئ القيس وكل شعراء الجاهلية وخطبائها أن يفضوا بعباراتهم عارية جافة ، غير كاسية ، لأن الرمزية كانت فطرة فيهم ، وهي وإن استسرت في كثير من عباراتهم ، فإنما كانت كالقوة الكامنة في الفعل ظهرت صاحبة مجلجلة عندما مد إليها أبو تمام يده السحرية ، فأخرج تلك القوة الكامنة من حيز فعلها حركة ومدوية ، وخلع على البيان العربي من بعده أحلى جلايب الرمزية التي سماها العلماء بلاغة ومعاني وبيانا وبديعا .

وقد كان رمز الكلام منذ زهد الإنسان باللفظ الصريح . وليس لأدب الغرب أن تدعى في مواجهة الأدب المقارن ، أنها بدأت باستعمال الرمز مكان العبارة ، فإن العرب عرفوا الرمز في لغتهم منذ نطقوا بها في البادية من أعماق الجاهلية ، بل أقول إن في لغة العرب من الرمز ما لا وجود لمثله في لغة ثانية ، قديمة أو حديثة ، فكل عبارات العرب التي أغنى بها علماء البلاغة باب المجاز والاستعارة والنسكاية ، داخلية في باب (الرمز الصرف) فإن طول الفارس حين يقف بقامته السامقة رمز له العرب بعبارة (طويل النجاد) ، ورمزوا لكرم الجواد بقولهم (كثير الرماد) ، وبذلك رثت الحنساء صخرأ أخاها ، وإذا قلت رأيت شمسا ، وقصدت بها الحسناء ، أو قلت أبصرت فيلا ، وأنت تعني رجلا ضخما ، فإنما أجريت الرمز في أدب كلامك من حيث لا تدري .

إن الذين يؤثرون في نهضة أدبنا المعاصر أن يدخلوا على هذا الأدب الرمزية مخطئون ، لأن الرمزية بين أيديهم في شعر العرب وأدهم ، وكان الرمز طرفة التجديد منذ استعمله الإنسان . إن أهل فلورنسا حين ملوا من اسمها القديم أسموها (الزنبقة) ورمزوا إليها بزنبقة حمراء ، فلما كتب أناطول فرانس روايته عنها ، ووصف فيها وآثارها ، وأجرى قصته فيها ،

وسمى بهذا الاسم أيضا . وكان الفرنسيون يرمزون لمدينة باريس (بمركب) كناية عن أنها أبدا تجرى في بحر الحضارات .

وليس يبعد عن هذا الرمز الغربي ، ما عرف العرب من رموز في تسمية مدنها ، فدمشق سموها (الفيحاء) لأن فيها الغوطة والأنهار ، وسموا حلب (الشهباء) ، وأراد الأندلسيون مثل ذلك عندما قالوا (الزهراء) وكان العرب في هذه الرموز التي خلعوها على مدائنهم وقصورهم ، (خياليين أصحاب معان) ، ولم يكونوا كالأغربيين في تلك التسمية الرمزية لمدنها وقد سموها بـرموز (مادية) .

يقول (بيير كورنيه) بلسان أحد الأبطال في رواية meut ، وأخيرا تركت الثوب في سبيل السيف ، وهذا رمز معناه في لغته (تركت لباس الحكم لأكون من رجال العسكر) وكان اليونانيون يعنون بكلمة (Sumbolon) ^(١) الكلمات والإشارات المستترة ، وكانوا يستعملون الصور والأشكال رمزا للشبهات بها وهذا ما صنعه لافونتين حين أشار إلى الجاحد (بشعبان مقطوع الرأس) في القصيدة العاشرة من مجموعة قصائده الخرافية .

ولم يمس العرب عن ذلك بعيدا في فن الرمز ، فرمزوا (للفتنة المستكنة بشعبان نائم) ولا أرغب في الاستقصاء فإن الرمز في كثير من كلامنا وكلام الأمم . وأراه في منبته من وحى الدين ، فقصة إبليس في دخوله إلى الجنة متمثلا بالآفمى رمز لاسابق له ، وما يقوم في الأذهان معنى لكلمة إبليس إلا أن تكون الآفمى الصورة الأولى من هذه المعاني ، وقد استقر في مصطلح الرموز أن يكون المنجل رمز الحصاد ، والميزان رمز العدل ، والعلم رمز الأمة ، وراحت الألوان تحمل في ملاحظها كثيرا من الرموز .

أخذ العرب نصيبهم من كل ذلك فكان لهم العقاب في الجاهلية وهي راية عهد بها إلى أبي سفيان ليحملها على رؤوس قریش في زحمت القتال ، وكان اللون لهم رمزا ، فالأحمر رمز المضرين ، والأسود رمز العباسيين .

وكثر الرمز في كلام الشعراء وأعمالهم ، فكان (برناردان دوسان بيير) يقول ، « إني أحمل زرا من الورد مع شوكة ، وهو يرمز إلى أمله الممزوج بكثير من المخاوف ، .

فأذكرتني هذه المخاوف بطيرة ابن الرومي . فقلت إن طيرته (رمزية خاصة) دبت ألوانها في شعره ، فلم يسكب رمزيته الفنية على العود في حصن المغنية (وحيد) فجعله طفلا يرتضع منها ، وكانت رمزيته هذه لا تفارقه في شعره وفي قوله وفعله ، حتى مات فكان

وهو يجود بنفسه يسمع العصفير في دوحة مجاورة لبيته ، فقال لآخر عواده ، ان العصفير تقول سيق سيق ، وهأنذا في السياق ، .

وقد تذكرت رمزية المصريين حين رأيت ، (شاتوبريان) يقول في أول كتابه (عبقرية المسيحية) ، « إن السر طبيعة إلهية ، ولذا فإن أوائل الأسويين ، كانوا لا يتكلمون بسوى الإشارات ، .

فقلت سلام لم يقل (الفراعنة) فإنهم أعم شهرة وأبعد عهدا في الدهر بالكتابة والإشارة ، فلغتهم دنيا من الرموز الصافية ، ومن يدري لعل لغتهم كانت أصواتا مشابة للرسم ، على أن عالم المصرية (ماسبيرو) لم يسمعها منهم ، ولا استطاع (شامبليون) الذى اكتشف كتابها بالمقارنة مع كتابات عتيقة إلى جانبها على حجر وجده ، فى بلدة (رشيد) حين جاء مع نابليون فى غزاته لمصر — أن يعرف كيف حال النطق بها وماصوت كلامها المرموز .

ولم يكن الرمز مقصورا على قدماء المصريين ، فقد أثر أيضاً عن الهنود ، وامتثلت به الميثولوجية اليونانية .

وحين ارتقى الفكر الإنسانى وتمرس بالمعقولات صارت الرمزية تعبيراً فلسفياً ، فهى حالة الفكر واللسان اللذين لا يعبر بهما عن الأمور إلا برموز . ومن ههنا أرى إخوان الصفاء جعلوا الرمز وسيلة إلى غايتهم الفلسفية فى التعبير والكلام . وهذا مصداقه فيما قاله (ديدرو) فى القرن الثامن عشر حينما تكلم عن الفيلسوف فيثاغورس : إن فلسفته سرية ورمزية ، واضحة لأناس معاة على آخرين .

ومن ههنا أيضاً تصنى كلام الصوفيين . فكان لفظهم إيماءات عبروا بها عن خواج الشطحات ، وقد صار لهم من جراء تعاورهم — ناس بعد ناس — مذهب للتجلى ، ولهم معجم خاص برموزهم وإشاراتهم ، وهو وإن يكن معجماً غير مكتوب على نحو المعاجم التى تعرفها ، لكنه مسطور فى ضمائرهم ، وإذا لم يحذقه حذاقه كانت الصعوبة فى فهم أشعارهم ومقولاتهم الصوفية .

ولقد وجدت الرمزية المذهبية على النحو الذى عرفها فيه (فيرلين وبودلير) وأشياعهما قريبة الصفات والغايات من الصوفية الإسلامية . فان الرمزية التى أبدعها فيرلين فى تاريخ الأدب الفرنسى وكانت نقضا للحركة البرناسية فى هذا الأدب ^(١) قائمة على (كلام المعانى

(١) البرناسية مذهب البرناسيين وهم فرقة (الكونت دوليل) وفيهم سوللى برودوم وفرانصوا

خلف كلام المباني) . لقد كان (فيرلين) وصحبه حريصين في شعرهم على أن تكون تلاوين معانيهم تبعد شيئاً بعد شيء وذلك بأن يحملوا معاني عباراتهم غير محدودة ، وإنما هي منشورة الأطراف مذكورة متدرجة من اللون الصبيغ إلى اللون الناصل الضائع . فهم أبداً لا يخرجون دخائل نفوسهم إلى خوارج كلامهم ، فيكون لخلجات الخيال مكانة في الأثر الذي يؤثر عنهم وكانوا يحرصون في أن تشف عباراتهم عن الأسرار الروحية المتناهية في دقتها جاعلين الموسيقى اللفظية هدهدة لتلك المعاني الشفافة .

وما ذكرت موسيقاهم هذه اللفظية ، إلا مرت بالخطر نغمات النايات الصوفية موسوسة بصنوجها ، مواجهة بهفها على قصائد ومقطوعات لمحي الدين بن العربي ، وللشيخ عبد الغنى النابلسي .

وإن (بودلير) الذي سكب خمرته في كؤوس الرمزية فغنى بها أشعاره الرقراقة في (زهرات الشر) يذكرني — على شقائه وبلائه في نعيم الدنيا — بالخرقة الصوفية المعتقد التي سكبها ابن الفارض في أشعاره الرمزية الملهمة فسكربها من قبل أن يخلق الكرم وتسكب الدنان .



فلا يذهبن إذن ذاهب الى أن الرمزية تجدد في أدب العرب المعاصر ، فإن في أدبنا العربي رمزية كبرى هي كالكنز الدفين في أطباق الكلام ، وأنها تحتاج لمن يكشف عن بدايتها للناظرين .

وإذا كان في الأدب الغربي (فيرلين) و (بودلير) أعظم من رمز في القرن التاسع عشر في الأدب العالمي ، وكان الشاعر الألمعي (بول فاليري) ^(١) شيخ الرمزية المعاصرة

== كوييه وجوزي ماريا دو هيريديا ، وكلهم شعراء فرنسيون من أواخر القرن التاسع عشر في فرنسا وجد أدبهم في بحران التأثير الابداعي ، والوجداني (الرومانتيك والليريك) فقلب الأدب وفن البلاغة والكتابة ، وكان مرام البرناسيين أن يكون الشاعر غير شخصي في شعره Impersonnel فكانت نزعتهم الكبرى تزويق الديباجة إلى حد أقصى وقلة العناية بالرواء الروحاني ، كانت كلماتهم جلجلة بغير موسيقى ، وبغير فكر . وقد تبسط (دويميك) النقاد الفرنسي في تحليل مذهبهم في كتابه : Histoire de la litterature française. Par René Doumic الطبعة الحادية والعشرين سنة ١٩١١ إصدار المكتبة الكلاسيكية بباريس ص ٥١٢ .

(١) بول فاليري P. valery أكبر شعراء فرانسة في العصر الحاضر توفي سنة ١٩٤٥ وأشهر قصائده الرمزية (المقبرة البحرية ، وأنشودة الأعمدة) وكان ذا مذهب فلسفي في الرمزية يكتب للخواص دون العوام بل يكاد يكتب لأنداده ، وأصحابه . وافتد كانت رمزية (فاليري) حفية بالمادة اللفظية أكثر من حقاوتها بالمعاني وكان الشعر عنده كالمهندسة والبناء .

في أوربا ، فإن عندنا جبار المعرفة وفي شعره من الرمزية ما لا حد لوصفه ورصفه ، وكـم أرى
من الرمزية الفنية الصافية في بيته الذي يقول فيه :

لبت حول الماء من سغب إن غربي ماله مرس

فقلت إن الماء حقيقة الوجود ، والسغب عطش العقل الذي ما زال ظامئاً يبتغي ارتواء
من معرفة سر الوجود . والغرب ، هذا العقل الذي يركب في رؤوس البشر ولكنه محدود
ناقص لا يستطيع أن يعرف ما خارج حده وما بعد نقصه ، والمرس وسيلة الوصول الى
حل قضية الوجود .

فالمعري يلوب حول سر الدهر من طول شوقه الى المعرفة ، ولكن عقله لا يوصله
الى بل الغليل .

وإن يكن (بول فاليري) فيما أثر عنه من رمزية معمّنة قد مزج رموزه بالفلسفة ، فإن
أبا العلاء لم يقصر في ذلك ، وإن كان بيت فاليري في قصيدة (المقبرة البحرية) الذي يقول فيه :

زينون ، يا زينون القاسى ، زينون الإيلياى .

يدعو الى معرفة زينون اليونانى ومذهبه في فلسفة السكون والحركة ، فإن أبا العلاء دعا
في كثير من أبياته الى معرفة فلاسفة أقدمين بحثوا في العدم والفناء والنفس والروح ، ومن
لأبي العلاء بمن يظهر رمزية شعره على النحو الذي أظهر فيها علماء الأدب الغربى رمزية الشعراء ؟

— ٢ —

كان عرب الجاهلية إذا حزبتهم الحرب عصّبوا لها رؤوسهم بالسواد . فعل ذلك امرؤ
القيس حين وثب بنو أسد على أبيه حجر ، وقد أته وفود القبائل المعادية تعرض عليه الصلح
والفداء . وطلع عليها وعلى رأسه تلك العصا السوداء ، وعصب الرأس على هذا النحو
كان عند الجاهلين رمزاً للحرب .

وفي حروب على ومعاوية ، رفع قوم معاوية المصاحف على رؤوس الرماح ، فكان
فعلهم هذا رمزاً حربياً يدعو الى تحكيم كتاب الله في أمر السلاح ، كذلك بدت الرمزية عند
العرب في اللفظ والتعبير على سنتها ومذهبها في دنيا الأدب وعالم البيان .

ولكن أين الرمزية الحربية في الشعر العربى ؟

١ — يقول عبدالشارق بن عبدالعزيز الجهمى أخو (جوين) الذى كان له القتل زينا .

فلما لم ندع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤوا مزنة برقت لأخرى إذا حجلوا بأسيا ف ردينا

والجبل عند العرب مشى المقيد ، والردبان مشية فوق الجبل ، فكانت رمزية الجهنى .
الخماسية رمزية طبيعية غير متكلفة بعامل الفن ، إنه أعرابى مطيل النظر إلى السماء ، وما غير
الأعرابى الذى يسبح طرفه فى قلب السحاب بمسطيع أن يعرف تلاؤء الغادية ، وبرق
المزنة ، فلقد شاهد فى طويل ما رعت عينه السماء ، أن البرق يلمع فى سحاب جون ، فيتلاؤء
ثم لا يلبث أن يسرى ذلك البرق ، حتى تجاوب سحابة ثانية باللمع والبرق ، وكانت السماء
حين يهيج برقها ويحلمجل رعداها ، لاتقل شأنا فى الجلبة والرعد عن الحرب التى
يعرفها الشاعر على الأرض فى حلبتها وقعقة سلاحها ، فطاف به خيال رمزى جعل الكلام
فيه أعز وأغلى فى الاستعارة والتشيل والتصوير من أن يقول : لما لمعت سيوف أعدائنا فى
وهج الشمس على كتابهم ، جاوبناهم بلعان سيوفنا على كتابنا ، لكنه اتخذ الرمز بديلا
وجعل صدر البيت كله رمزا مفيدا لحاطره وشافيا لخياله ، وجعل بقية البيت انتقالا من
الرمز الذى حل محل التصريح والتوضيح ، إلى صورة ثانية من مشى العسكر بعضهم إلى بعض ،
قبل الالتحام ، فى بطاء وحفاظ ، وخفة وحذر .

قد تكون الرمزية فى الشعر القديم فطرية عند بعض الشعراء ، أو رمية من غير رام عند
البعض الآخر من وجدت عنده ، لكنها فى شعر العباسيين مقصود إليها ، وقد يحمل عليها
التعمد أو تكون من فنون الصنعة .

تكثر المعانى الرمزية عند أبى تمام ، ومن استقصى شعره الحماسى وجد عنده من الرمز
الكثير ، لنظر قصيدته فى بابك الخرمى ، وقد غدا الى حربته الأفشين فأسره فى أيام المعتصم ،
وكان بابك قد قتل الناس دهرا واعتصم فى مدينة (البذ) فى جهات خراسان ، وجاء به
الأفشين إلى سامرا مغلولا وفى رجله أصفاد ، فحملة على الفيل المشهر ، فنظر ابو تمام الى
هذه الصورة التى جاء عليها ضبع خراسان ، فألبسه برمه (طوقا من دم) تلقاء طوق
الخلاخيل الحديدية ، التى دارت حول رجله . فطوق الدم رمز لما سكب من دماء القتلى ،
وقد جعله ابو تمام سببا الى طوق من دم ، سيدور حول عنقه بيوم الدين فقال :
متلبسا للموت (طوقا من دم) لما استبان فظاظة الخلخال

وتظهر الرمزية عند أبى تمام حينما ملونة تتخذ من الألوان كلاماً كقوله :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

فالاحمر رمز حماسى للدم . فصور (الطائى) (الطوسى) مجلبيا بشباب حمر وعنى بذلك
تلطخ جسده بالدم ، فلما جاء عليه الليل وهو طريق فى فلاة الممعة استحال اللون الاحمر
الذى كان دليلا على حربته إلى لون سندسى أخضر وهو (رمز النعم والجنان) فأراد بهذه الرموز

بديلا من أن يقول لبس في موته عوضا عن ثياب الدم ، ثياب الخالدين في جنات النعيم .
(ولقد عرضت لتحليل هذه القصيدة الحربية عند الكلام على شعر الطائي في حماسة هذا العصر) .
لم يعبا علماء البلاغة بهذه الرمزية الطائية ، وإنما جعلوها نوعا من أنواع البديع المسمى .
عندهم بالتدبيح وهو ضرب من الطباق البديعي تزدحم فيه الألوان للكناية أو التورية ،
ولو عرفوا أن الكناية والتورية هما من فن الرمز في الأدب الغربي لجذلت نفوسهم لهذه
السابقة في علم البلاغة العربية .

والظاهر أن أبا تمام — وقد ملك على ناصية الألفاظ الموسيقية — كان يقصد إلى الرمز .
وإذا كانت الموسيقى اللفظية من خصائص أدب الرمز فإن شعر أبي تمام كله ألفاظ موسيقية
ذوات جرس . وقد سماه علماء البلاغة العربية (بالجناس اللفظي) . وقد مزج أبو تمام
جرس السلاح بجرس الكلام في قصائده الحماسية فجمع بين اللحنين وألف بين هذه الموسيقى .
فشعره الحربي هسيس سلاح ، وصلصلة كلام ، ووسوسة حروف مؤتلفة للحن ، كما في
الموسيقى من اتلاف التناغم .

ويدل على بلوغه قمة الفن الموسيقي في كلام الشعر مثال واحد من تألف السينات في
قوله ببعض شعره الحماسي :

بسنة السيف والخطى من دمه لا سنة الدين والإسلام مختضب
إن الأسود أسود ألغاب همها يوم الكربة في المسلوب لا السلب
ولو تتبعنا ، لوجدناه يوالف بين الصادات ، والميمات ، والنونات في طور موسيقى
« غريب » .

أما ابن الرومي فأحسب أنه ظل يرمى بيت أبي تمام الذي أشرت إلى الرمزية فيه ،
حتى قال بيتا يشبهه في رمزيته ومعناه ، حين رثا بطلا صريعا لبس حلة الدم .
كسته القنا حلة من دم فأضحت لدى الله من أرجوان
فلم يحىء بيت ابن الرومي ، وهو الآرى في تصويره وخياله ، أروع من بيت أبي تمام
ذو الطبع العربي ، وقد يستعين ابن الرومي بالرمزية في هجائه فيكون الهجاء عميق المعنى كما
هجا ابن أبي طاهر بقوله :

رأيتك (تنبختي) سادرا كفعلك بالقمر الباهر
فإنه ليقع في الذهن أن ابن الرومي يقول لابن طاهر : إنك تدمني كما تدم شعاع
القمر ، فمن عادتك ذم كل ناضر باهر ، والرمز في البيت أن ابن الرومي — وهو الممعن
في معاني الهجاء ، جعل ابن طاهر كلبا ، لأن من عادة الكلب أن ينبج النجوم وينبج القمر

ولكن ابن الرومي ، كغيره من شعراء العرب الذين مرت في بلاغاتهم صور رمزية غير مقصود إليها ، لم يجعل في بيته (رمزية صرفة صافية) ، ولو فعل لأبدل كلمة (تنبأ) بتقدحني فقال :

رأيتك (تقدحني) سادرا كفعلك بالقمر الباهر
وحين أرسل شاعر الطيرة على ابن طاهر بيته الثاني ، إرسال النبال استعمل فيه (القسى)
الشديدة القتل (رمزا) لقوارص هجائه فقال :

وإن قسى لمبرية بكل أمين القوى حادر
ثم أمعن في رمزيه هاجية حين قال في بيته الأخير :
فلا تخش من أسهمى صائبا ولا تأمن من العائر^(١)
فجعل أسهمه صائبة ، ثم قال : لا تخش منها . وهذا (رمز متناه في دقته) معناه أن ابن طاهر وهو الواقع عليه السهم صائبا ، ليس يصيبه السهم ولا يقع فيه ، لأنه (هباء وليس ثمنا) فلا عليه من هذه السهام الصائبة .
وأما أبو الطيب المتنبى فإنه استعمل ألفاظ الصوفية في بعض معانيه الحماسية ، وقصائده الحربية لا تخلو من رموز ، وقد عاب عليه صاحب (يتيمة الدهر)^(٢) استعمال كلمات الصوفية المعقدة ومعانيهم المخلقة ، .
وقد حسب الثعالبي أن تتابع الحروف في قول المتنبى (لها منها عليها) وهو يصف فرسه ، طريقة صوفية في التعبير .

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد
ولست أرى غير كلمة (سبوح) مواتية للزمز . أما قوله (لها منها عليها) فما فيه شيء من روح الصوفية التي تخيلها الثعالبي :
ولكن الرمز كل الرمز في شعره الحربي حيث يقول في قصيدته بسيف الدولة حينما أم ديار مضر لاضطراب البادية ثم ارتد على الروم :

لقيت بدرب القلة الفجر لقية شفت كبدي والليل فيه قنيل
وخيل براها الركض في كل بلدة إذا عرست فيها فليس تقيل
على طرق فيها على الطرق رفعة وفي ذكرها عند الأنيس خمول
سحائب يمطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيف غسيل

(١) السهم العائر الذي يقع طائشا .

(٢) يتيمة الدهر طبعة ، لإسماعيل الصاوي بمصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١٤٥ .

رمز أبو الطيب إلى شفاء الكبد بقاء الفجر ، وما شفاء كبده إلا بطول السرى وتحمل الشوق في فراق الحبيب ، ولكن ما هذا الفجر الذي لقيه أبو الطيب حتى شفى كبده ؟ إنه السيف ، سيف الأفق المحدود بانحنائه الأبيض ، وهو السيف الذي ضرب النهار به الليل فصدعه وقتله .

ثم رمز في البيت الثاني ، فجعل الطرق التي تدوسها خيل سيف الدولة ، طرقاتها رفعة على غيرها من الطرق . ومن أين لها تلك الرفعة وكل درب طريق ، ولكن خيل سيف الدولة إذا مرت بأرض باتت بعدها الأرض مختالة ، وهي خيل إذا ذكرت عند الإنسان أجملت ذكر الإنسان ، لأنها أعز منه قدرا وأبعد بأساً ، وأبقى ذكرا (لما أثرها الحربية) .

ثم رمز في البيت الأخير إلى الخيل (بالسحائب) لأنها وهي تعدو يكاد يحسبها الطرف مرتفعة عن الأرض ، وقد أmeen في رفعها خيال أبي الطيب فجعلها بمنزلة السحائب ، ورمز إلى الفرسان على ظهورها بالحديد . . .

وقد عرف الرمزية الحربية بعض شعراء الجاهلية كزهير بن أبي سلمى فإنه نبه إلى ويلات الحرب بطريق الرمز فقال عنها :

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة	وتضر إذا ضريرتموها فتضرم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها	قرى في العراق من قفيز ودرهم
فتغلل لكم غلمان أشأم كلمهم	كأحمر عاد ثم تلقح فتتم

وبلاحظ تألف الضاد في عجز البيت الأول . وعلى موسيقى اللفظ يقوم فن الرمزيين ، وقد وفق زهير إلى هذه النغمة الموسيقية الخامسة ، وأحسبه وهو المتنوق في لفظه ، الحولى في قصائده ، قد جاء بها تعمدًا فخرج على سجاجة الجاهليين .

ثم استعمل الرمزية في البيت الثاني بأسلوب التهكم ، وكان يعرف قيمة (الغلال) عند العرب وهم في واد غير ذي زرع ، وذكر كلمة (تغلل) ثلاث مرات في بيتين ، لكنه صدمهم بتهكمه واستهزائه ، حين رمز إلى ويلات الحرب والخطوب بالقفيز والدرهم تهويلا للامتلاء ومبالغة بالكثرة ثم زاد التهويل في البيت الذي يلي بغلال من نوع آخر ليس نباتا ، وإنما هو إنسان وحشى مشؤوم يشب ويكبر ويتزوج ، وينسل فيسد على المتحاربين في (حرب داحس والغبراء) عرض الصحراء والوحوش الحمر الرهيبة .

وكل ذلك رموز حربية متعاقبة فيها بتهويلها ليحجب زهير بن أبي سلمى السلام إلى العرب

ولو سبق الدهر بجائزة نوبل للسلام ، أو كانت حرب داحس والغبراء في عصرنا . لنال
جائزة السلام زهير بن أبي سلمى ، إذ كان يدعو إلى السلم وحقن الدماء في دعوة لا تقل في
نفع الإنسانية عما عند الغربيين في هذا العصر من دعاة السلام في عصبة الأمم المنقرضة ،
ومجلس الأمن الحديث . ولقد كان زهير في أعماق الدهر يدعو إلى سلم نبيلة صحيحة غير السلم
التي يدعو إليها دعاة السياسة الغربيون ، ويريدون بها سلب الأمم الضعيفة حقوقها أو إعداد
العدة إلى حرب جديدة ، تكون أشد هولاً على الإنسان والعمران ، بنكباتها وفجائعتها .

الباب الثالث

شعر الحرب في ظل الحمدانيين

شعر الحرب في ظل الحمدانيين

الفصل الأول

الدولة الحمدانية

(١) قيام الدولة الحمدانية

قامت الدولة الحمدانية في الموصل ، ثم في حلب زمن الخليفة العباسي المقتدر حوالي سنة ٣٠٢ للهجرة أى في النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . وأسرة الحمدانيين أسرة نبيلة عريقة الأصول من أشهر البطون العربية ، يرتفع بها النسب إلى الجاهلية ، ولعل فروسية أهلها وشغفهم بالشعر والأدب نزعة سرت إليهم من جددهم الأعلى في الجاهلية الشاعر الفارس عمرو بن كلثوم .

لأنهم تغلبون أقحاح نشؤوا من بلدة (رَبَاح) في العراق ، وكانت أيام دولتهم في النصف الثانى من حكم قسطنطين السابع امبراطور بيزنطة ورومان الثانى من بعده ثم نيسيفور فوكاس . وكان جد الأسرة الأقرب هو حمدان بن حمدون العدوى . فكان من أحفاده (سيف الدولة أمير حلب) وأخوه (ناصر الدولة أمير الموصل) .

وقبل أن ينفرد الأخوان الحمدانيان بالإمارة والسلطة كانا من قواد الدولة العباسية . وقد قيض لهما حظهما المقرون بالرأى والشجاعة أن يتبوأ لدى الخلفاء العباسيين المقتدر والراضى والمتقى أعز مكانة ينزل فيها القواد العظام . فقد أسكتا نامة الفتن التى قام بها عصاة الدولة حتى خلع الخليفة المتقى على الأمير الحمدانى أبى محمد الحسن لقب (ناصر الدولة) وعلى أخيه على لقب (سيف الدولة) (١) ، وبلغ من سمادتهما فى نصر الدولة العباسية أن أمر الخليفة بضرب اسميهما على الدنانير والدراهم .

(١) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء الحموى ج ٢ ص ٨٩ الطبعة الحسينية ، وشلهبرجة فى كتابه عن تاريخ الامبراطور نيسيفور فوكاس ص (١١٩) .

وروى أميد روز Amedroz في تعليقه على كتاب (تجارب الأمم) لابن مسكويه وكان هو الذي قام بنشره (١) ، إن سيف الدولة ورد بغداد وهو راكب فرسه ويده رمح ، وبين يديه عبد له وقد قصد الفرجة وأن لا يعرف فر بشارع دار الرقيق على دور بني خاقان وفيها فتيان يطربون فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وقد خدموه فاستدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها ، ثم انصرف ففتحوا الدواة فإذا في الرقعة (ألف دينار على بعض الصيارف) فعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنون أنها ساذجة فأعطاهم الصيرفي الدنانير في الحال والوقت ، فسأله عن الرجل فقال ، « ذاك سيف الدولة بن حمدان ،

وقد زاد عجبى لهذا الخبر الذي رواه أميد روز عن كتاب التكملة (٢) فعرفت منه أن مكانة سيف الدولة لدى العباسيين كانت مكانة عظمى . وأنه كان معروفا شائع الشهرة في بغداد . وأن الشعب عامة كان به سامعاً ومعجباً بفروسيته ونصرته ، وقد ورد في هذا الخبر أن سيف الدولة خرج مستخفياً (Incognito) كما يقول الغربيون . وفيه يفعل ذلك لولا أنه كان شائع الشهرة عند جميع البغداديين خاصتهم وعامتهم . وناهيك بتألق شهرته وانبساط معرفة الناس به ، هذا الصيرفي الثقل العيار الذي عرف توقيع سيف الدولة فدفع الدنانير في الحال والوقت نفسه كما جاء في هذا الخبر العجيب ، وقد دلتني هذه الرواية أن نظام الحوالات والسفائح كان معروفا لدى العباسيين ، كما كانت عندهم دور الصيارف .

إذن قامت الدولة الحمدانية الشرقية في الموصل في ديار أهلها العراقيين ، فلم تكن طارئة أو غاصبة ، وقامت الدولة الحمدانية الغربية في شمالي سورية بالفتح والحرب ، فقد كان ملك الاخشيديين قد بلغ إلى أعالي سورية فشدد سيف الدولة عليهم بجمعه ، وكان ذلك أوائل طلوع نجمه في الفروسية والشجاعة فاستولى على حلب وسائر الثغور الشامية ، وكان في إمارته حصن الغرب أنطاكية وحصن الجنوب حمص . وكان راغباً في مد سلطانه إلى الجنوب حتى دخل دمشق وسرعان ما خرج منها . ولم يكن في فاتحة عمله الحربى إلا داعية للخليفة العباسي وظل محافظاً على صلته هذه بالعباسيين التي لم تتعد الاسم لكنه بقي مستقلاً في دولته الخاصة وشغلته عن العباسيين بعد تأسيس دولته حروبه الطوال مع البيزنطيين التي أخذت منه طول الحياة حتى قال فيه أبو الطيب في رسالة إليه بعد مفارقتها :

أنت طول الحياة للروم غاز فتي الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٣٩ هامش . وقد وصفت هذا المصدر القيم في هذه الرسالة . هامش .

(٢) هو تكملة تاريخ الطبري لأبي الحسن بن عبد الملك الحمدي من مخطوطات المكتبة الأهلية

(٢) سيف الدولة ورجال دولته

لا نستطيع أن نتمثل عصر سيف الدولة في حروبه وفق ماتقضى الدراسة الحديثة إلا إذا درسنا التاريخ البيزنطى فى القرن العاشر لليلاد ، فإن الكلام على سيف الدولة وعصره الحربى لم يبق مصدره فى كتبنا العربية فحسب ، وإنما ثمة كتب ألفها البيزنطيون ، ونقلها الغربيون ، ذكروا فيها سيف الدولة أمير حلب كما كانوا يذكرون أباطرة القسطنطينية ، وكتبوا عنه وعن حروبه ورجاله ، ووصفوا حلب وما والاها كطرافه ما كتب العرب ، بل لم أجد إلى اليوم كتاباً عربياً رقفه صاحبه على سيف الدولة وعصره مثلاً وقف المؤرخ شلبرجيه كتابه الكبير الذى سماه : « نيسيفور فوكاس الامبراطور البيزنطى ^(١) » ، فى القرن العاشر ، وقد تقصى المصادر البيزنطية والمخطوطات العربية التى لم يصل أكثرها إلى أيدي العرب المحدثين ، وتنخل الكتب العربية القديمة حتى استخلص تاريخ سيف الدولة فى كتابه هذا النفيس وقرن سيف الدولة بنقفور الروم ، فأبان أن كلا منهما كان موازياً الآخر فى حروبه وجلاده ، وكان خصماً عنيداً لا يفتأ يهدأ من الوثوب على عدوه حتى يعود فيثور أشد ضراوة وأبعد فتكاً .

وقد نقبت فى كتابه وتتبعته حوادث سيف الدولة فيه ومضيت إلى ذلك متقريباً قصائد المتنبي فى ديوانه التى نظمها فى حروب سيف الدولة مع الروم وكنت أتقراها حرباً حرباً لاستطيع أن أحصل على تحديد دقيق ووصف زمنى لما لابس حوادث العرب فى حوادث الروم فى تلك الفسحة من الزمن الذى كان يقتتل فيها سيف الدولة مع نيسفور عاهل الروم . إن الشخصية العبقريّة التى كانت لسيف الدولة ، لا يستطيع التاريخ مهما جار كاتبه أن ينقصوا من أطرافها شيئاً من مزاياها الرائعة ، ولو أن سيف الدولة كان جرمانياً أو من الغولوا أو من الرومان لنسج له مؤرخو تلك الشعوب سجل تاريخ مذهب الحروف فإن أمثاله فى البطولة والإغارة وكرم الطبع وبسطة العلم كان نادراً عند الفرنجة .

ولم ينهض أحد بتسجيل ما اتصفت به هذه الشخصية العربية الغدة مثلاً نهض أبو الطيب المتنبي الذى يعد سيف الدولة شرف القبائل ونخ العواصم فيقول فيه :

كشرف عدنان به لاربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

gustave schlumberger (Un Empereur Byzantin au dixième siècle "Nicephor (١) Phocas")

طبعة معهد باريس سنة ١٨٩٠ . وقد وقف شلبرجيه علمه التاريخى على تاريخ البيزنطيين والعرب وكان قبل فاسيليف معدوداً من أوائل الأعلام الذين ألفوا فى هذا الصدد . كان من أعضاء المعهد الفرنسى المسمى Institut وهو مجمع الأكاديميات الخمس .

ووفاه حقه أبو منصور النعالي في يتيمة الدهر (١) فخلل أخلاقه وأبان قدره ، ودرس عصره ، ونهضة الأدب فيه ، واختص شاعره المتنبي بقسط جليل من هذه الدراسة الطريفة . وذكر أبو منصور خطر سيف الدولة على طاغية الروم وفداحة غزواته (كما سيأتى الكلام عليه عند ذكر حروبه) ، وجلالة قدره في الشعر والأدب وبأسه وسلطانه في الإمارة والفتوح .

ويمكن الحكم — حسب ما كتبه عنه المؤرخون منذ عصره وما بعده — بأنه كان قضاء مسلطا على الروم وكان حمى الثغور وسد الإسلام تجاه سيل الروم العارم ، فكانت الخلافة في أيامه مستريحة من غارات الثغور إذ كان سيف الدولة قد تكفل بها حسب ما تقتضى عوامل إمارته واستقلاله بالحكم في منطقة حلب وما والاها من البلدان التي كانت إليه .

وقد ارتكب بنو حمدان ومعهم سيف الدولة غلطات سياسية لا يغفرها التاريخ ، فقد حمل الطمع بنو حمدان على أن يجوروا على بنى عمومهم آل حبيب بصنوف العذاب حتى فر من هؤلاء اثنا عشر ألف فارس إلى بلاد الروم (٢) .

ومن غلطاتهم الفادحة أيضا أنهم كانوا يجورون على الرعية بالجبايات وأخذ الأموال والمكوس في حدود الظلم والاعتساف . وكانوا يبذخون ، حتى أن قصور سيف الدولة بحلب كانت تبذ قصور الخلفاء في بغداد ، وأروع من قصور القسطنطينية .

أما المؤرخون البيزنطيون الذين كتبوا تاريخ حروب القسطنطينية مع حلب منذ القرن العاشر فإنهم كما يروى (شلبرجه) كانوا يرون سيف الدولة نفسه الدهر في جوارهم وكان اسمه عندهم في البيزنطينية (Apochaudas) وكانوا يسمونه أيضا (الكافر الحمداني) ويعده رجال سياستهم المحارب الوحيد الأعظم السامى الذى أعلن الحرب المقدسة على النصرانية ، ومتى قال أحدهم (الحمداني) فإنما كان يعنى سيف الدولة .

ويقول (شلبرجه (٣) : « إن اسم سيف الدولة العظيم يسكاد يسكون مذكورا في كل صفحة من صفحات كتابي هذا المثير (٤) . »

(١) الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١١٠ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى) لأدم متز . ترجمة الدكتور أبى ريدة طبع مصر سنة ١٩٤٠ ص ٢١٢ .

(٣) كتابه السابق عن نيسيفور ص ١٢٠ .

(٤) من الكتب التي اعتمد عليها شلبرجه في وضع كتابه الثمين — وقد جاء في ثمانمائة صفحة من

القطع الكبير :

مخطوطات : عقد الأول للبعث

وظل اسم هذا المغوار العربي مشهوراً في حروب الشرق في القرون الوسطى ، ولم تخل من ذكر اسمه صفحة من صفحات الكتب البيزنطية التي ألفت في القرن العاشر لليلاد — كما يروى (شلبرجه) — وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوى خصم وأشرس بطل على الجيوش البيزنطية . وقد وجدت (شلبرجه) على ما عنده من تحوط في إيراد الحوادث الإسلامية قد يبدر منه حيناً بعد حين طيش المؤرخين الذين لا يملكون شعورهم . فقد كان يرعى زمام القلم وراء ألفاظ طاعنة فينا ، كما فعل وهو مأخوذ بسحر وصفه لظفر كسبه نيسيفور فوكاس على سيف الدولة بعد فتح حلب وإحراقها وهدمها . فنكأ هذا المؤرخ الكبير جراحات صدره المبكوتة منذ ظفر سيف الدولة على الروم ، وقد عجبت له ، فإنه حينما وصف ظفر سيف الدولة على نيسيفور وجمعه سكب عليه من بيانه الخلو صفات المجد والسؤدد التي لم يسكبها عليه مؤرخ من بني جلدته . فقد قال عنه إنه كان فارساً شجاعاً إلى أقصى ما يمكن من وصف الشجاعة والإغارة وإنه كان لا يعرف الخوف ولا الخور ، وطال ما كان جديراً بأشرف الأعمال وأكرمها ، فهو حامى ذمار الديار ومنهض الأدب والمغرم بالفنون ، ومضى هذا المؤرخ في تسكاب بيانه هذا في مدح سيف الدولة حتى قال عنه : « كأن سيف الدولة كان مخلوقاً ليسكن في قصوراً ألف ليلة وليلة أو في خيام الضاربين في عرض الصحراء » .

لقد أقام سيف الدولة لنفسه ملكاً في شمال سورية يضارع في نفسه وسلطانه ملك الخلافة ، بل لقد كانت الخلافة في انخزال وضعف في أيامه وكانت تنزى في الهوة السحيقة التي بدأت تسقط فيها منذ قتل المتوكل . فأقام سيف الدولة الدساكر والضياح وأحسن الحرث وأغزر النسل ، وكانت له حلب دار الإمارة ومستقر السفارة ، وفيها قصره في محل يسمى (الحلبية) فكان إذا عاد من غزوته أمر تحت المساء بإقامة المآدب في قصره (١) فجالت نساؤه وراء الستر معطرات فواتن ، ونهر قويق ذو الماء البارد يجري في القصر في مجار من المرمم المسنون ، وكان الصوت الفضى الذي يحدته الماء ينشر البرودة في جو ذلك المكان تحت رواق

تاريخ كمال الدين . مخطوط بدار الكتب الأهلية بباريس

==

كتاب عن الأمباطور بازيل البلغاري مخطوط ليجي بن سعيد بن البطريق الأنطاكي . كتب بالألمانية : المتنبي وسيف الدولة لـ Dieterici طبع برلين سنة ١٨٤٦ (قد اطاعت على هذا المصدر وأثبتته في مصادري وهو موجود في مكتبة جامعة فؤاد الأول برقم (٣١١١١) عام) . ديوان المتنبي للواحدى أخرجه Carmina طبع برلين سنة ١٨٦١ .

المتنبي ألفه Hammer بالألمانية طبع فيينا سنة ١٨٢٤ .

وكتاب (درهان حمدانيان) وضعه Sauvair طبع المجلة الفرنسية الأثرية بباريس سنة ١٨٨٥ .

(١) المصدر السابق ص ١٢٤ .

منصوص على الأعمدة العالية التي تشبه صواري المركب حتى يخيل إلى النظر أن أمير حلب إنما يعيش في عالم جنى ، مخوف بالجمال والطيب .

وكان يهوى أو يسمع وهو حالم الفكر شارد النظر — في أجواز مجده وخلوده — شعراءه ومنشديه يرتلون بين يديه آيات مجده الحربى ، ومفاخر معاركه . فإذا هجم قطع من الليل أخذ في المسامرة . ولم كان يحن بكل جوارحه إلى شاعره الأعظم أبى الطيب المتنبي يفيض شعره عذوبة معنى وحرية لفظ في مدح المحارب الذى لا يهدأ . ومن يدرى ؟ لعل « خولة » أخت سيف الدولة في إحدى تلك الأماسى والأسمار كانت تصيخ بالسمع ومعها جوارىها إلى إنشاد أبى الطيب وهى وراء خصاص من الفضة ، فى جو عابق بمجامر البخور ، فإذا شاعر أخوها وشاعرها يقول :

وما شرقى بالماء إلا تذكرأ لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه فليس لظمان إليه وصول

لقد شرقت بدمعها هوى إلى أبى الطيب ، قبل أن يشرق هو أسى بعد عشرين سنة حين ماتت وورده خبر وفاتها فى الكوفة فقال يومئذ البائية التى بها :

طوى الجزيرة حتى جاء فى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

يقول (شلبرج) « لا شئ يشبه ولوع سيف الدولة بالشعر إلا تلك المساجلات التى كانت بين الشعراء فى فرانسه الذين كانوا يسمون (تروبادور) فى (البروقانس) و (لانكدوق) حيث كانوا ينشدون الشعر بين أيدي الأمراء فى ولائهم كأنها من صنع الأساطير (١) » ،

وكان هذا البطل الذى نذر عمره لحرب البيزنطيين فسكب أنهارا من دمائهم ، قد أسكن قصره — فعل خاطف من مرده الشياطين — فتاة بيزنطية سايبة الحسن ، وكانت بنت كبير من البطارقة سباهها فى إحدى حروبه للروم فتزوجها وكان لها عليه ساطان عظيم (٢) « فكان يهيم بها مثل بطل من أبطال الروايات ، ويروح وقد نظم عن هيامه بهذه الرومية الحسناء أرق شعره الغزلى . وقد ذكر أبو منصور صاحب اليتيمة (٣) هذه الجارية من بنات ملوك الروم التى كان يهيم

(١) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

(٣) الطبعة السابقة ج ١ ص ٢٥ .

سها سيف الدولة حتى أسكنها إحدى قلاعها خوفاً عليها من ضررتها ، وذكر له فيها شعراً ، فيه صبرة ، وفيه هيام ، وخوف من العاذلين .

ولكن تلك الرائعة المفتان لم تستطع أن تمنع سيف الدولة من حرب قومها ، وكأني به حين كان يتركها إلى مغزى أهلها كان يودعها وهو متمثل بقوله شاعره المتنبي :

وللخود عندى ساعة ثم بعدها فلاة إلى غير اللقاء تجاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب

أما رجال سيف الدولة فلم يصفهم المؤرخون كما تريد السياسة ، وإنما وصفوهم كما يريد الأدب ، فكان أبو منصور الثعالبي صاحب اليتيمة أفضل من أبان أقدارهم وجمع غرر أقوالهم . إنه ليورد الكلام على أدبائهم وبشير إلى أثرهم في بلاط سيف الدولة . ولقد كان الشعراء والكتاب الحمدانيون متصفين بالسياسة والرئاسة ، وبالأدب والبيان معاً . ولم تكن السياسة حتى أواخر العصور العباسية لتفترق عن الأدب ، أفلم يكن الوزير كاتباً ، والقائد خطيباً ، وحاشية الخلفاء والأمراء من الشعراء والأدباء . كذلك فإن رجال الدولة الحمدانية كانوا أدباء حريين وشعراء فرساناً ، وكان الشعر والأدب صناعتهم جميعاً ، لأن سيف الدولة نفسه كان أدبياً شاعراً ، أثر له شعر جيد روى بعضه الثعالبي ، وكان أمير حلب يعرف مواطن النقد الفني ، وهذا أحد الأسباب الصحيحة التي رفعت مقام أبي الطيب عنده وجعلته يطمع بالجلود في قصائده الخالدة .

كان من رجال الدولة الحمدانية أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ابن عم سيف الدولة وعضده في السلم والحرب ، وإني لأسميه بحق (شاعر الفرسان وفارس الشعراء) . وكان أبو فراس تلو أبي الطيب في شعر الحرب وتأجج الحماسة . وكان من رجال هذه الدولة المصاليات ومن أبطالها المناجيد أبو العشائر الحمداني (١) وهو الذي ورد عليه أبو الطيب بإمارته في أنطاكية قبل أن يعرف سيف الدولة ، وقد أمر أبو العشائر في بعض حروب سيف الدولة مع الروم وحبس في حصن (خرشنة) ثم نقله البيزنطيون إلى القسطنطينية ومات فيها سجيناً . وفي هؤلاء الرجال أبو وائل تغلب بن داود الحمداني الذي أوفده سيف الدولة لمحاربة الخارجي في أطراف الشام فأمره الخارجي واستنقذه سيف الدولة . وفيهم أبو زهير مهلهل بن نصر بن حمدان رجل حرب وأدب . وبقية من أمراء حمدان بين عمومة وخؤولة كانوا منبئين في عمالات سيف الدولة على ثغور الشام . وكان يرفد هؤلاء الأمراء قضاة سياسيون وأدباء فقاضى قضاة سيف الدولة الذي كان يحارب معه أبو الحصين علي بن عبد الملك الرقي وابنه من بعده أبو الهيثم . وإلى هؤلاء كان لدى سيف الدولة قواده من غلمان

(١) هو الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي .

وكانوا عماده في حروبه ، فغلامه (نجبا) كان يحارب معه وهو الذى شغل جيوش نيسيفور فوكاس يوم تحدرت على حلب حتى تمكن سيده سيف الدولة من الابتعاد . ولكن (نجبا) لم يبق خالص الود لمولاه ، فقد خرج عليه في أواخر أيامه حين تقاعس حظه وبدأ أفول نجمه ، وقد روى ابن مسكويه أن سيف الدولة أمسك به وقتله جزاء خروجه عليه . فأمرت زوجته (وهي ابنة عمه وأخت أبي فراس) أن يطرح الخائن (نجبا) من مجرى الأقدار (١) . كما أظهر غلامه الآخر (قرعويه) حجة لمولاه وإطاعة في حياته ، ثم جعل بعد موته يتلاعب بابنه (أبي المعالي) وكان هو الذى حارب أبا فراس وأمر بقتله ، ثم ثار بعدئذ على سيده أبي المعالي سعد الدولة بن مولاه سيف الدولة في أيام عزه و سطوته . وكان من هؤلاء الغلمان بعد سيف الدولة أن كاتبوا الروم بالخيانة ، وكان (قرعويه) هو الذى راسل (بيير فوكاس) أحد قواد البيزنطيين واسمه عند العرب (طربازى) حسب رواية (شلمبرجة) وحده نقلا عن النصوص البيزنطية (٢) فدخل الروم أنطاكية بقيادة (ميخائيل بورتزيس) ونهبوها وانفتحت أبواب سورية بعد ذلك أمام جيوش يوحنا تزيسيس في غزواته اللاحقة ، وكان مراده ومناه الوصول إلى بيت المقدس مسوقا بنزعته الصليبية المبكرة .

وقد غطى على كل أولئك الرجال سيف الدولة وحده كنسر قشعهم نشر جناحيه على الصقور وكانت تلك عادة سيف الدولة فقد استبد برأيه حتى في أوقات مهالكه ومعاطبه . وقد نقد سياسته ابن مسكويه في تجاربه فقال عنه (٣) : « كان هذا الرجل ، أعنى سيف الدولة ، معجباً يحب أن يستبد برأيه وألا تتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره ، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذى يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال ، فلم يقبل منهم ، ولجأ ، فأصيب المسلمون بأرواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه » .

والظاهر أن (ابن مسكويه) لم يكن ظالماً لسيف الدولة بنقده لسياسته أو متحاملاً عليه ، على الرغم من النفرة التي كانت بين الفرس والعرب ، وقد كان هذا المؤرخ وأمير حلب في عصر واحد ، إذ كان المؤرخ كاتباً عند أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة الذى ورد عليه أبو الطيب بفارس أواخر أيامه .

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٨ . والكمال في التاريخ لابن الأثير أوربا ج ٨ ص ٤٠٨ . في حوادث سنة ٣٥٣ .

(٢) كتابه عن نيسيفور فوكاس ص ٧١٤ .

(٣) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨١ .

(٣) لون سياسة الحمدانيين

بينت في أوائل هذا البحث لون سياسة الحمدانيين تلقاء العباسيين . أما لون سياستهم تلقاء الروم فكانت كما يصفها (شلبرجة) « محاربة البيزنطيين بصلافة وشجاعة عظيمة ودفعهم عن الحدود الغربية إذ كان العدو الأوحده للعرب يومئذ هم البيزنطيون » .

ولكن هل كان الحمدانيون يحاربون البيزنطيين لرفع كلمة الله ، وإتمام ما قام به الخلفاء الراشدون ، والخلفاء الأمويون ، كالحوليد بن عبد الملك ، والعباسيون كالمعتصم والمتوكل ؟ أحسب ذلك كان السائد وأن الحرب المذهبية كانت الدافع الأول وأن خوف الحمدانيين على بلادهم من استيلاء الروم عليها كان السبب الثاني . ولعل الحمدانيين كانوا يجمعون بين الأمرين فتكون حروبهم تارة لهذا السبب الديني وآونة لذلك الدنيوي . وكانت أكثر الثغور على أيدي التداول بين الفريقين .

أما سياسة الحمدانيين مع الدول العربية التي عاصرتهم فقد كان سيف الدولة فيها مدره السياسة مع البويهيين ، حتى كان معز الدولة البويعي يوقره ويلتمس البعد عن أذيته ، وكذلك فإن سياسته مع الإخشيديين كانت بعد أخذه حلب ظلت صلته بالعباسيين حميدة بينما كان العباسيون يضطهدون الشيعة في كل مكان وفي كل ساحة .

(٤) حروب الحمدانيين مع الروم

١ - الجيوش العربية والبيزنطية في عصر سيف الدولة

حارب الحمدانيون البيزنطيين نحواً من ستين عاماً ، قال أبو فراس لامبراطورهم حينما جلس لمنادته (١) . وقد بسطت أسباب هذه الحروب الطويلة عند الكلام على حروب سيف الدولة من شعر المتنبي ، فما أحبّ إلى أن أصف الآن صورة لكتيبة عربية من القرون الوسطى من مخطوط عربي يملكه (شارل شيفر) أحد أثرياء الفنون من علماء الفرنجة المعاصرين ، وقد أثبت (شلبرجة) هذه الصورة في كتابه عن ملك الروم نيسيفور فوكاس ، وهي تمثل خيلاً عرباً مترامضة النحور وعليها دارعون بأيديهم الأعلام ، وإن أعلامهم لمطرزة ملونة مخططة عليها وشى كثير وزركشة فنية . وفوقها كتابات منها (لا إله إلا الله) بطراز كوفي ، وهي أعلام عراض . وفي وسط الصورة فارس بين صحبه الفرسان قد أكب على طبل تحت يديه يقرعه بحماسة وعنف ، وقد رفع مفرعة في الفضاء ، وأهوى على الطبل

(١) كما سيأتى الكلام في شعر الحرب عند أبي فراس .

بمقرعة ، وعلى جانبيه فارسان مع كل منهما بوق طويل ينفخ فيه جهد أنفاسه وهم جميعا في سحنات عربية عليها لحى وفوق رؤوسهم عمام مكمورة ، ولباسهم سراويلات مشدودة .
وقد تبين لى أن هذه الصورة هى صورة الموسيقى العربية التى كانت تسمى أمام الجيش فى العصر العباسى ، عارية من السلاح ، شأن فرق الموسيقى المعروفة فى عصرنا فى جيوش الأمم وقد ذكر (شلهبرجه) (١) أن قسطنطين الرومى البورفيرى Porphyrogénète وصف فى كتابه المسمى (الإدارة) فى الفصل العشرين كيف كان طراز المسلمين المحاربين مع سيف الدولة وأن (كريم) (٢) الذى ألف كتابا عن أدوات الحرب عند العرب قد أخذ عن البورفيرى أكثر ذلك الوصف فقال : « إن جنود سيف الدولة كانوا مغاوير محبين للحرب فحينما يكون منهم ألف يدافعون عن مكان فانه يظل من الإغراق فى المستحيل أخذه منهم . إنهم ليقعدون على ظهور أفراسهم فى المعركة وليس عليهم لباس السلاح التام ، فهم لا يكثرثون بلبوس (الجانيبات) (٣) ولكنهم يضعون على وجوههم مغافر من المعدن المصفح ، سلاحهم الرماح الطوال والتروس الكبيرة التى تغطى الجسد كله ، وأقواسهم من خشب لين واسع ما بين السيتين يعسر على الرجل القصير أن يرمى به النشاب . »

ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين ينقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ورحى المعركة تدور ليستعينوا بالطبل الكبير أو القرون الناقفة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعا عاجلا متتابعا .
رهم إذا ساروا قلقلوا أقتابهم وعدتهم فزحف جيشهم مزينا بالأعلام الملونة وعلى رؤوس الرماح قصاصات مضمورة تلوح فوق رماحه المنصوبة التى لا ينتهى الطرف إلى مداها .
وكانوا جميعا مزبنين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ترنموا فى مسيرهم بأغان يخرجون أصواتها من أنوفهم نعيما Chant nasillard مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون اكى يسرعوا فى السير يزحف مع كل فارس منهم جندي راجل وراءه .

يقول (رامبود (٤)) لم يكن لباس الجندى العربى مختلفا عن لباس الجندى اليونانى الذى سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة . وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ودرع من المعدن تغطى الجذع ، وجانيبات تستر رجله والساعدين ومقاود من

(١) ص ٢١١ من كتابه السابق .

(٢) أحد المستشرقين الألمان .

(٣) الجانيبات صفائح من الدرع على شكل الفخذين تشد فوق الساق والرجل من كل جانب .

(٤) ص ٢١٠ المصدر السابق (لشلهبرجه) .

الفولاذ للخيول ، وكانت اعتمد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول العربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطي الفرس . . ويقول (رامبود) لم يكن شيء ليختلف بين الروم والعرب في نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقي فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين ، وأما طراز المبارزة فقد وجدت أن شرعته من وضع العرب منذ حروبهم في الجاهلية ، يتبارز بطلان من كل جهة ويتعاوران المطاعن والمضارب ، حتى يصرع أحدهما الآخر على نحو ما كان معروفاً عند الرومانيين من صراع الـ Gladiateurs إلا أن هؤلاء كانوا يتصارعون راجلين ولم يكن صراعهم للحرب ولكنه للنجاء من الأسر أو الدنوب (١) فإذا فرغ البطلان الفارسان من الصراع ولم يقو أحدهما على الآخر انصرفا فعدا إلى مكانهما غيرهما ، أو وقع أحدهما قتيلاً فجاء مكانه آخر من صحبه . فإذا نفذ المنتصرون هجم كل فريق على الآخر هجمة (السلاح الأبيض) .

ولاشك أن نظام المبارزة بين الفرسان في القرون الوسطى في أوربه مقتبس عن العرب فكان هؤلاء الفرسان الأوربيون يتحاربون على طريقة المبارزة ثم تتلاحم جموعهم كما يفعل العرب . وقد أثبت (بيديه) في كتابه عن تاريخ الأدب الفرنسي (٢) صورة لمبارزة بين فارسين من القرون الوسطى متواقفين كل منهما أمام الآخر ويبد كل منهما رمحاً وترسه وعليه درعه ، وهذه الصورة منقوشة على وجه كنيسة (أنغوليم في فرنسا (٣) .

أما جيوش البيزنطيين وأخصبها جيش الإمبراطور نيسيفور فوكاس فكان كما يقول مؤلف عصر هذا العاهل ، أن الجيش البيزنطي كان على غاية الكمال والدربة والفن العسكري وكانت المعتقدات الدينية والشعور الوطني يدفعانه إلى أقصى الحمية والحماسة ، وأن الأباطرة البيزنطيين كانوا يجودون بالخيرات الجملة على الجيش ويقطعون الأجناد قطعاً من الأرض (٤)

(١) لا يزال بناء (القوليزة) جاثماً في ضاحية روما فقد كان يجري فيه أيام عمرانه على عهد الأباطرة الرومان الأقدمين عرض رياضي يشهده الإمبراطور ورجال الدولة ونساءها من الأشراف والأعيان ويدخل إليه بالمجرمين والأسرى فيصطرح كل اثنين منهم على حدة فن قتل الآخر سلم من ذنبه وأطلق وكان ذلك تسلياً للباطرة روما وطغاتها بعد أن يشاهدوا اقتراس الأسود لضرب آخر من الأسرى والمجرمين

(٢) المجلد الأول ط لا روس بباريس سنة ١٩٢٣ .

(٣) أنغوليم Angoulême كنيسة كبرى على نهر شارانت في طريق أورليان بفرنسا .

(٤) كتاب (شلوبيرجة) عن نيسيفور فوكاس ص ١١٨ .

وقد اعتدل (رونسيان) حينما وصف جيش البيزنطيين فلم يصفه وصف (شلمبرجة) وإنما قال عنه : ولم يكن البيزنطيون (أمة حرب) ولم يكونوا كجارجي الغرب — وهو يعنى اليونان والأوربيين — فرسان معارك . وكانت الضرورة وحدها هى التى تقتضيهم الاعتراف بالأمور العسكرية (١) ،

لكن (شلمبرجة) الذى جعل من اختصاصه التنقيب فى تاريخ البيزنطيين يصف دهشة سكان الحوض الأبيض المتوسط حين كانوا يعاينون الجنود البيزنطيين عالىن كالنخيل ، سيوفهم عراض ، ورماحهم طوال سنانها ذو رأسين وبجانبه فأس حديد ، ويصفهم هذا المؤلف بأنه لم يكن شىء يقف فى وجه هجومهم ولا من يستطيع أن يهزمهم عن مواضعهم حينما يندفعون أمواجاً وصفوفاً ، ولقد كانوا يبطولاتهم أوائل الفرسان فى أوربا البربرية . وكانت عددهم ثقيلة كل الثقل لا تصلح إلا للمقاومة والفتوح .

ثم أرسل المؤلف أوصافاً فى لباسهم الحربى فكانت على رؤوسهم خوذ ثقيل من الحديد ، وعلى أطرافهم وجسومهم الزرد المضاعف المظاهر بينه وكان يسترهم تروس كبيرة . وكانوا يحاربون وهم مولون هاربون ، فكانوا يلقون بهذه التروس على أكتافهم فتقيم النبال ساعة الهزيمة .

ويصف تعبئتهم فى بعض المعارك بأنهم كانوا يؤلفون صفاً واحداً كتفاً إلى كتف متراصاً كالجدار . لا يمكن اختراقه وهذه تعبئة قديمة موروثة ، حدث عنها تاسيت ووصفها بأنها (حائط الحديد) يتلاحم فيه صف الجنود (٢) منصوبة عليه الرماح ويلبغ على رؤوسه المغافر تتلألأ بأيديه التروس المعدنية .

يقول مؤرخ الروم إن الامبراطور نيسيفور فوكاس ألف كتاباً للروم فى فن الحرب وصف فيه خيالة سيف الدولة بأنها تهاجم عن الرجالة ، وبين فى كتابه هذا أساليب المحاربة

(١) كناية بالترجمة الفرنسية (الحضارة البيزنطية) ص (١٤٢) السابق وصفه ، الذى يقول فيه إن بزنطة كانت مدافعة حتى قويت فصارت مهاجمة . وإن لقب القائد الأكبر عندهم هو (Akritae) وإن فرق جيوشهم فى القرن العاشر كانت بأيام نيسيفور ذوات أسماء خاصة بها كفرقة tagmata وفرقة Hicanate ومنها الحرس الأمبراطورى . وإن أرض بزنطة قد سميت مقاطعاتها بأسماء فاتحيها وبأسماء بلاد فى يونان . فأرض بيلوبونيز هى تسمية ثانية للأرض الأولى فى بلاد اليونان القريبة ، فأذكرنى هذا ما صنع العرب حينما مصرعوا الأمصار ، فإن الكوفة موطن أبى الطيب المتنبى كانت تحمل فى سككها أو بقاعها أسماء بقاع اليمن وفى ذلك يقول أبو الطيب فى الحنين إلى هذه البقاع الكوفية :

أمنسى (الشكون) و(حصرتوتا) ووالدى و(كندة) و (السبيعا)

التي قرنها بحب أمه .

(٢) لقد عرف المسلمون مثل هذه التعبئة إذ قيل عنها (مثل البذيان المصوص يشد بعضه بعضاً)

الروم للعرب ، ونصائح لهم في حروبهم مع المسلمين ، وقد ذكر في أحد فصوله أن العرب يقاومون مقاومة عنيفة فيصمدون وراء متاريس من متاعهم وجماهم الهللكي . ويوصي الجنود البيزنطيين بأن ينزلوا في مثل هذه الحالة إلى الأرض ويباغتوا العرب (بالسلاح الأبيض) . وفي كتابه فصل عن حرب الليل (البيات) فيوصي فيه جنوده أن يستعملوا المشاعل والقناديل لإخافة المسلمين (٢) ، وفيه فصول كثيرة عن السبي والسلب ومحاصرة الحصون .

ويذكر (شلمبرج) أن العرب كانوا حينما يفتحون بلدة من بلاد الروم سرعان ما يطبعونها بطوابعهم في الحرث والسقاية ومرافق الحياة .

وكانت جيوش البيزنطيين تهدر بأصوات أناشيدها بدمدمات أشبه بهدير البحر . وقد وصفهم ليون الشماس Leon le Diacre (٣) بأنهم جنود نذروا حياتهم للبوت وأن من أخفق منهم كان يغرس سيفه في أحشائه فينتحر ، وكانوا يعتقدون أن الذي يموت بطعنة أعدائه تهباً له حياة أخرى .

وقد أنشد شعراء البيزنطيين قصائد طوالا عن حروبهم مع العرب ، ضاع أكثرها فقد روى (رونسيمان) (٤) أنه في العصر العاشر للميلاد (٥) ظهرت في بزنطة ملحمة شعبية مطولة في عشرة كتب سجل فيها مؤلفوها الحوادث الحربية التي جرت على الحدود الشرقية في حروب (ديجينيس أقریطاس Digénis Akritae) الذي قضى عمره (٦) في محاربة المسلمين في البر والبحر وكانت له أكبر درجة في الجيش البيزنطي وأن أبا هذا البطل قد أسلم ! ومن يدري ؟ لعل كتابا من هذه الكتب العشرة هو عن سيف الدولة وأهوال الروم معه . إذ كان المسلمون هم العدو الخيف للبيزنطيين وهم الخصم الوحيد (٧) .

أما تلك الأناشيد البيزنطية التي كان ينشدها الروم فقد كانوا يقولون فيها : (٨)

والنصر لله الذي هدم البلاد العربية ، والنصر لله الذي شنت شمل من ينكر التثليث

(١) لقد عرف المسلمون مثل هذه التعبئة إذ قبل عنها (مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا) .

(٢) عبر بكلمة Sarrasins أكبر المؤرخين البيزنطيين عن المسلمين في القرن العاشر للميلاد .

(٣) مؤرخ بيزنطي في النصف الثاني للقرن العاشر الميلادي أرخ حروب سيف الدولة مع الروم ونشر

تاريخه إلى الفرنسية سنة ١٨١٩ في مجموعة Byzantine بمكتبة Bonn .

(٤) ص ٢٦٧ من كتاب (La civilisation Byzantine) لرونسيان المذكور .

(٥) وهو عصر سيف الدولة والإخشيديين .

(٦) ١٤٧ من المصدر السابق .

(٧) ص ١٥٤ المصدر نفسه .

(٨) كتاب (شلمبرج) عن نيسيفور فوكاس ص ١٩١ ويقصد البيزنطيون بعدو المسيح سيف الدولة .

المقدس . والنصر لله الذى جلال بالخيبة هذا الأمير القاسى عدو المسيح ، النصر لله ، النصر لله .

وكانوا إذا ظفروا على العرب أقاموا فى كنائسهم تقديسا مسيحيا إذ كانت الحرب ضد العرب فى نظر البيزنطيين (حربا صليبية)

وليت شعرى أى شىء كان يقول جنود سيف الدولة بعد ظفرهم على الروم ؟ ما أحسبهم بعد أن يفرغوا من تلاوة آيات الذكر الحكيم الا منشدين مقطوعات حماسية من شعر المتنبي فى سيف الدولة فى هزيمة (الدمستق) فيدبتون متندرين بفرار عاهل الروم . معجبين بمعاني أبى الطيب فى سيفياته التى كانت صدى خواطرها ، ومرآة بطولتهم التى خلدها الشاعر العظيم فى حروب سيف الدولة .

ب — الدمستق وقواده

(الدمستق) هو لقب امبراطور القسطنطينية ومعناه Domestique (الخادم الأعظم لجيش الشرق) أو (القائد الأعظم لجيش آسيا Généralissime) وكان لقب قسطنطين مالبينوس السابع (Constantin Maléinos) ملك القسطنطينية ، وهو المعاصر لسيف الدولة وقد حاز عاهل الروم هذا اللقب عقب ظفره الكبير على المسلمين ، وهو أيضا لقب نيقفور الروم Nikiphoros (نيسيفور فوكاس) امبراطور آسيا الوسطى ولم يصر نيسيفور امبراطورا على القسطنطينية إلا بعد حروبه العديدة لسيف الدولة . فكان الدمستق قسطنطين هو الامبراطور ونيسيفور قائده الأعظم .

وقد تفصّلت أخبار القواد البيزنطيين فى زمن سيف الدولة من خلال المصادر التى وقعت إلى عن حروب البيزنطيين مع العرب فى القرن العاشر لليلاد فوجدت أن قواد ملك الروم قسطنطين (٢) وضباطه فى حروبه مع سيف الدولة هم :

نيسيفور فوكاس Nicephor Phocas (أعظم القواد)

ليون فوكاس أخو نيسيفور Léon Phocas

برنغاس Bringas حارب فى جزيرة كريت ثم وجهه مولاه إلى محاربة الحمدانيين (٢)

(١) ص ٩٩ من المصدر نفسه والهامش .

(٢) حكم قسطنطين السابع البورفيريونى — هذا — من سنة ٩١٣ الى سنة ٩٥٩م وكان بعده على عرش القسطنطينية رومان الثانى من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ للميلاد .

حنّا قرقواس الأرمني Jen courcouas وهو الذى ورد اسمه فى شعر المتنبى وأبى فراس (قرقوش) .

ميخائيل بورتزيس Michel Bourtzès وقد حارب سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة (

توفلس أخو قرقواس Théophile

ملياس M élias

برداس فوكاس Barbas Phocas أبونيسيفور) .

بازيل Basile

يوحنا تزميسيس Jen Tzimiscés وقد صار امبراطورا على القسطنطينية بعد أن اغتال نيسيفور .

شماشيق Chamachic ابن جان تزميسيس وهو الذى ورد ذكره فى شعر المتنبى وأبى فراس باسم (الشمشقيق وهو تصحيف صوبته ب (الشميشيق) تصغير (الشمشيق) كما سيأتى : وكانت كلمة (البازيل) لكل عاهل على القسطنطينية أيضاً .

أما قواد العرب فكان ينظر إليهم الروم نظرة المنافس والضريع ، فان نيسيفور وأخاه ليون كانا يعدان نفسيهما مثل سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة أمير الموصل .

وكانوا ينحتون فى لغتهم البيزنطية أسماء لأكثر قواد العرب ، كما سموا (عبد العزيز بن عمرو بن سعيد القطربى قائد (كريد) وأميرها وكان شديد الصولة عليهم) بالقرباس (Kouroupas) ومعناه بالرومية (الحاكم ولى الأمر) (١) ، كما سموا (أبا العشائر) وقد وقع فى أسرهم Apolasar وكان نيسيفور فوكاس (٢) كبير أولئك القواد وزعيم الجيش كله وهو الموكل إليه فى أيام قسطنطين حرب سيف الدولة وشن الغارات على الحدود الإسلامية والدفاع عن بيضة الروم إذا هجم عليها جيش المسلمين لكن الحيف الذى سجله التاريخ على هذا الجبار العظيم أنه كان مطواعا لزوجته (تيوفانو) اللعوب ، وكان الشعب البيزنطى يعجب لأمره كيف أقدم على الزواج بها وهى اليم من الامبراطور رومان الثانى ، والتى كانت لها سمعة تخوض فيها الألسن وقد جر عليه هذا الزواج خسارة ماله وعمره ، فقد مهدت تيوفانو سبيلا إلى عاشقها (تزميسيس) فقتله — وخلا نيسيفور مخدول الهوى خاسراً للبجد فنُقش على ضريحه هذه

(١) هامش ص ٨٠ من المصدر السابق لشهرجه .

(٢) يروى (رونسيمان) أن أبا الامبراطور نيسيفور فوكاس كان من دم عربى (كتابه الموصوف

فيما سبق ص ١٩٢) .

الكلمة : د أنت يامن قهرت الدنيا إلا امرأة ، (١) .

(٥) الأدب الحمداني

يؤلف أدب الحمدانيين الحلقة الذهبية التي وصلت أدب العباسيين الزاهر بما بعده من آداب ظلت تترجح بين صعود وهبوط حتى انمطت أواخر العصر العباسي .

وكان أدب الحلقة الحمدانية شعرا ونثراً مع أخذ بالنحو وفنون اللغة ، فقد كان لسيف الدولة مجالس أدب في حلب بداره (الحلقة) كانت تجمع الرواة والشعراء ، فظالما استمع ، تحت قباب هذه الدار في أماسيه الرائعة النشوى بالظفر ، إلى قصائد أبي الطيب المتنبي فيه ، وظالما تناظر في حضرته ابن خالويه وسائر الأدباء ، وكان هو الحكم بين المتناظرين . وأرى مجلسه الأدبي الحافل قد سبق إلى ما عرف في أوروبا منذ القرن السادس عشر في فرنسة من (الآباء) (Les Salons) وفي هذا البهو الحمداني الرحيب نوظر أبو الطيب المتنبي في قصيدته الميمية المشهورة وعنف عليه حساده وفيهم ابن خالويه وأبو فراس حتى أوغروا عليه صدر سيف الدولة فضربه بالدواة وشجه فرد الشاعر على أميره بقوله :

إن كان سركو ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكو ألم

فقام إليه سيف الدولة وقبله مستغفراً . وشهد هذا البهو أكابر الشعراء الحمدانيين كأبي الفرج البغاء الخزومي وكان يجمع بين الصناعتين ، ورافق سيف الدولة إلى دمشق وقصر عليه مدحه وذكر في شعره ورسائله غزوات سيف الدولة وهو القائل فيه :

كأنما ادخر الرحمان معظمة	دون الملوك لسيف الدولة البطل
رآه أكرمهم في الخير إن ذكروا	وصفا وأفضلهم في القول والعمل
فهزه وظبا الأسياف مغمدة	واستله غير منسوب إلى الفل
حتى غدا الدين من بعد العبوس به	جذلان يرقل من نهماه في حل

(١) كتب هذه الكلمة على قبر نيسيفور فوكاس (يوحنا بطريق مَلَطِيَّة) وأول من ذكرها (ليون الشماس Léon le diacre) وهو مؤرخ بيزنطي في النصف الثاني من القرن العاشر . قص في عشرة كتب حوادث بيزنطية من سنة ٩٥٩ — ٩٧٣ للميلاد وكان أصدق شاهد للحوادث البيزنطية الهامة مع العرب .

أنظر ص ٤٤٨ المجلد ١ من كتاب Histoire de l' Emplre

طبع باريس سنة ١٩٣٢ Byzantin-Par: Alexandre Vasiliev

وهذا الكتاب من أثبت المصادر عن البيزنطيين وقد خصص فاسيلييف المجلد الثاني منه للحروب الصليبية، ومجلدها يقعان في تسعمائة صفحة من القطار الكبير وقد كتب مقدمتهما مؤرخ البيزنطيين المعاصر شارل ديبل الفرنسي .

ومن رجال هذا الأدب الحمداني الشاعر أبو العباس النامي. وكان من فحول الشعراء الحمدانيين أحبه سيف الدولة فكان عنده تلو المتنبي كما يقول الثعالبي (١). ومن أدباء حلب في عهد سيف الدولة أبو الحسين الناشئ. وأبو القاسم الزاهي وكانا من الشعراء الظرفاء ومثلهما الوأواء دمشقي والسري الرفاء. وجاء السري سيف الدولة فلزمه واستكثر من المدح له. وكان في بلاط أمير حلب الشاعران النائران الأخوان الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد، وغيرهم كثير من أهل الشعر والنثر أحصاهم أبو منصور الثعالبي في اليتيمة واسترسل في الكتابة عنهم وعرض غرر أشعارهم وألوان نثرهم.

ووجدت أبا الفداء الحموي يروي في مختصر تاريخه (٢) أن أبا الفرج الأصبهاني ألف كتاب الأغاني في خمسين سنة وحمله إلى سيف الدولة فأجازه عليه بألف دينار واعتذر إليه. فإذا كان كتاب الأغاني وهو ماهو في عظمة التأليف والتصنيف في الأدب والشعر وأخبار الغناء واللحن قد ألف في عهد سيف الدولة، فقد كفى الأدب الحمداني غفرا سجييس الليالي. وكان الفارابي فيلسوف العقل والغناء ممن ورد على سيف الدولة. وكان زعيم اللغة في عهد سيف الدولة أبو الفتح عثمان بن جني وزعيم النحويين خالويه، وشيخ المؤرخين الشمشاطي ولم يشهد عصر من عصور الأدب العربي مجمع علم وأدب ولغة وشعر مثل مجمع سيف الدولة غير الرشيد والمأمون. وكان الخلفاء العباسيون الذين عاصروا سيف الدولة يحسدونه على قصوره الممردة، ورجاله الأفاذا.

وقد قلت لنفسى بعد الوقوف على أدب الحمدانيين وعجبي له إذ زخر بأفاضل الأخباريين وأساطين اللغويين، وأكرم الشعراء، قلت لولا حروب سيف الدولة للبيزنطيين للأدب العرب بالعلم والأدب، قال عنه أبو منصور الثعالبي (١): إن محمدا القاضي الكاتب وأبا الحسن الشمشاطي جمعا من مختار مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت من الشعر. وكان اتفرغه لكل ذلك أثر في ازدهار عصره في الشعر وفنون الثقافة المعروفة إلى عهده فكان أغنى عصر عرفه العرب، عهد الرشيد، وفاق زمن المأمون.

ثم قلت آسفا أين الحماسة في شعر هؤلاء الأدباء جميعا وفي نثرهم؟ إنني نقبت عنها فما وجدت لها أثرا عندهم يذكر، وإنما وقفت على شعر كثير للأدباء الحمدانيين في زمن سيف الدولة

(١) يتيمة الدهر طبعة اسماعيل الصاوي بمصر ج ١ ص ١٩٠

(٢) المختصر من أخبار البشر الطبعة الحسينية بمصر ج ٢ ص ١٠٨

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ١١

صرفوه في وجوه اللهو ، كالغزل والمطارحات ووصف الفا كة والغلمان والشراب ، وتوليد المعاني النواسية مما ملأ به الشعالي جانباً من يتيمة ، فعز عندي حينئذ مقام شاعر الحماسة الحمدانية أبي الطيب المتنبي وتلوه أبي فراس ، وعرفت منزلتهما من شعر الحرب الحمدانية . فلولاهما لما ذكر سيف لسيف الدولة ، ولما خلد ذكر لواقعة من وقائعه الأربعين .

فحق على إذن بعد ذلك ، أن أنفرغ للكلام على شعر الحرب عند المتنبي وأبي فراس وأن أجلس النقاب عن أروع حماسة عرفها الشعر العربي ، منذ عمرو بن كلثوم في الجاهلية إلى يومنا هذا .

الفصل الثاني

شعر الحرب عند المتنبي

(١) هروب سيف الدولة معه شهر التقي

صحب المتنبي سيف الدولة منذ مدحه في أنطاكية حين استجيم فيها من غزوته لحصن
برزويه إلى أن فارقه قاصدا إلى كافور الإخشيدى أى أنه لزم الشاعر أمير حلب نحووا من
تسع سنين منذ سنة (٣٣٨ - ٣٤٥) للهجرة (١) فلم يفارقه في سورية الشمالية وداكرها وفي
رحلاته البدوية وغزواته للروم والأعراب . وكان يسجل في قصائده الكثيرة التى اختصه
بها كل حوادثه فيتبع بالذكر حروبه وسفره وقفوله وارتحاله ونزوله ويصف ظفره الصاعق
وانخزال الروم وفرار ملكهم وقوادهم وتشتت جيوشهم واندحارها .

وكانت أول قصيدة له فيه عند لقائه (في حربه للروم) ، وآخر قصيدة له عند فراقه (في حربه للروم) ، وأكثر شعره خلاهما قد قاله في هذه الحرب .

وإن هذه القصائد فوق ما حوته من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق في فن المعاني والأسلوب وسمو في الصنعة فإنها تجمع في أبياتها (قيمة تاريخية) و (جغرافية) غالية القدر، وتعد (وثائق) في غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسي والتحقيق الأدبي عن عصر سيف الدولة .

ولهذه القصائد بقي الدهر منشدا يردد ذكر سيف الدولة على خلود المتنبي . وكان من حظ أمير حلب أن ينظم فيه شاعره أبو الطيب أحسن قصائده وأروعها في كل عمره الشعري ، فيقرن خلوده بخلوده ، ومجده الأدبي بمجده الحربي ، ولست مع أبي منصور الثعالبي — — — — —
— — — — — الذي يقول إن سيف الدولة هو الذي رفع من قدر المتنبي ونفق شعره

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بتصحيح ومقارنة الدكتور عبد الوهاب عزام طبع بمصر سنة ١٩٤٤

وألقي عليه شعاع سعادته حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر وسافر كلامه في البدو والحضر،^(١) . إذ أن أبا منصور كان ينظر إلى الشعراء بمثل النظرة التي كان يريهم بها الخلفاء والأمراء وطال ما كان هؤلاء يعدون الشاعر من أداة المناداة . وغفل أبو منصور عن أنه هو أيضا أديب مؤرخ ، وكاتب مترسل ، وأن له شعرا كالذي مدح به أبا الفضل الميكاك . ولولا أن كتابه (اليتيمة) معدود في جملة الذخيرة من تراثنا الأدبي ككتاب ابن خلكان ومعجم الأدباء والأغاني لما أهدت إلى حطه من كرامة المتنبي — من شاء مدحه — فأثقل عاتقه بمنة سيف الدولة الذي ألقى عليه شعاع السعادة وكان من قبل خاملا مجهولا .

وكيف اتفق أمر المجد واكتسابه بين سيف الدولة وشاعره ، فإن أبا الطيب كان يعد نفسه ملكا في شعره وأميرا بلسانه ، وها هو ذا الدهر ينطوي عصورا والمجد يزيد المتنبي حللا من خلوده تبلى دونها حلل الملوك .

ولم يكن شيء في شعر المتنبي أعذب نفعا ولا أبعد أثرا من (سفياته الحماسية) التي نسجها على هفوف الصحراء ومزجها بمحجمات الخيل صافقة سنا بكها على درب الروم تسم عليها صدور البزاة بمقدوح الشرر ، وصليل السلاح في ضجيج الفرسان وعجيج الغبار . وفي هامة الجيش الذي يسد هزيمة وجوه الجو كان يترنح (أمير حمدان) على جواده المظلم كأنه فارس الأساطير يهب في عالم الحروب فيملا (قلقلا والناطوق والقبدوق والأبسيق، وسائر أقاليم بزنطة)^(١) . برهبة حربه وسطوته وبأسه، حتى تجيء أخباره القسطنطينية فيراع من فيها ، ويهب البيزنطيون إلى خيولهم بأثقال الحديد لرد هجمة العرب وسد الثغور ، وإغلاق الحصون .

وقد وصف (رونسيان)^(١) ما كان يجري عند هبوب العرب على بلاد الروم في عصر سيف الدولة ومن قبله ، وما يتخذ الروم من التعبئة فقال : لقد حصنت الحدود الإسلامية من جهة الروم تحصينا قويا فإذا هجم المسلمون على ناحية كان على الفرقة الرومية الحامية أن

(١) يتيمة الدهر للثعالبي الطبعة السابقة ج ١ ص ٩٠

(٢) أنظر الخريطة المعربة لأقاليم الروم في آخر الرسالة .

وقد وصف أقاليم بزنطة هذه (ابن خرداذبة) في كتابه (المسالك والممالك) الذي نشره de gaje سنة ١٨٨٩ بطبعة ليدن . وقد اعتنى أبو القاسم بن خرداذبة بقياس المسافات بين هذه البلاد وبعدها عن حواضر الإسلام ولم يصفها من الوجهة التاريخية أو الاجتماعية . وفي هذه الأقاليم جرى أكثر حروب سيف الدولة مع الروم وأسماؤها بالرومية .

Cilician, Anatolikoi, Cappadocia. Opsikion, Buccelarii. Armeniakoi, Paphlagonia, Optimatoi, SeLeukeia...

وكل واحد من هذه الأقاليم يحتوى مدنا كثيرة ذكر أكثرها في شعر أبي تمام والبحترى ثم في شعر أبي الطيب وأبي فراس ،

(٣) بكتابه السابق عن (الحضارة البيزنطية) الترجمة الفرنسية ص ١٤٨

ترسل الخبر إلى كل الفرق التي بجوارها ، وهؤلاء يشيعون الخبر فيمن يجاورهم من الفرق وأهل الحصون ، ويتأهب الجميع للدفاع ريثما يأتيهم المدد من جيش القسطنطينية ، وتندب كل ناحية فرقة من حرسها فيتألف جيش سريع التعبئة يرفد الفرقة التي هاجمها المسلمون . وكانت المعارك بين الروم والعرب سجالات في عهد سيف الدولة يكتب فيها الظفر حيناً للمسلمين وحيناً للبيزنطيين .

المعارك

١ - معركة خرشنة

لخرشنة (١) معركة وصفها المتنبي في شعره في قصيدته العينية التي أولها :
غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جنبوا أو حدثوا شجعوا

وقد مر سيف الدولة في طريقه إلى هذه الغزوة على مدينة سمندو Tzamandos وعبر نهر (آلس Halys) الذي ذكره أبو تمام في رومياته وهو نهر عظيم ، ونزل على مدينة ضارجة (٢) فأحرق ربضها وكنائسها وأرباض خرشنة وما حوالها ، وأعمل سيوفه ولبث أياماً هناك ، ثم كر راجعاً فعبر (آلس) وأخذ ستمته إلى خرشنة بعد عزلها — بإحراق ربضها وما حوالها — فبلغها ليلاً وحط رحاله في بطن (اللقان) فجاءه الدمستق في ألوف من الخيل وكان سيف الدولة ماهراً بفنون الحرب ، فلم يطلع على الدمستق إلا بسرية واحدة من سراياه ملك الروم وهو يظن أنها كل ما في جيش أمير حلب ، وما راعه إلا سيف الدولة وقد طلع عليه بجيوش تملأ الفضاء كثرة لا قبل له بها . فنشبت المعركة بين الجيش العربي والجيش البيزنطي في بطن اللقان ، هائلة ضاربة قتل فيها من فرسان الدمستق خلق كثير وأسر من بطارقة رجاله وأعيانهم ما نيف على الثمانين شخصاً وأفلت الدمستق .

(١) خرشنة Charsianon وهي بين إقليم أرمينيا والبقلار . وقد وصفها شلمبرج بأنها كانت مدينة ذات قلعة حصينة جبلية في جهات ملطية Mélitène مسيرة خمس ساعات على الفرات . أما (ياقوت) فاقتصر على قوله فيها أنها مدينة قرب ملطية من بلاد الروم .
(٢) ضارجة Dharija في أرض البقلار بناحية خرشنة .
ويتبين لي من اسمها بالرومية أنها (ضارجة) لا صارخة كما وردت في قصيدة أبي الطيب هذه . وهو تصحيف . وقد روى ياقوت اسم هذه المدينة كما ذكرها ديوان أبي الطيب واستشهد عليها ببئته هذا :
نحلى له المرج منصوباً بصارخة له المنابر مشهوداً بها الجمع
وضبطها ياقوت صارخة بقوله بعد الراء خاء معجمة وجيم معجمة بعد الراء .

وغير سيف الدولة وجمعه مثل هذا الظفر فأبوا مترحين بنشوة الظفر ومعهم — كما يذكر (شلمبرجه) — مائة وعشرون بطريقا . ولم يعلموا أن الروم قد ارتدوا بقيادة (قسطنطين بارداس) فقعدها لهم في بعض الطريق وأخذوا عليهم بعض مخارم الجبال ، فصبوا عليهم الصخور وأصلوهم غارة شعواء وأمعنوا فيهم قتلا حتى تشتت جيش سيف الدولة وفر جمعه وتقطع جنده فجعل سيف الدولة يستنفرهم فلا ينفرون ، فلم يجد بدا من أن يقتل أسراه خلاصا من عبثهم وغدرهم ، واجتاز سيف الدولة فنجا وعاد إلى حلب (مزموما) .

ولهذا استفتح أبو الطيب قصيدته بذكر من يخدعون بالرجال ويظنون بهم بأسا . وما هؤلاء الرجال إلا أذعياء شجاعة جبناء عند القتال .

وفي الآيات الأولى من هذه القصيدة يقرر أبو الطيب أدب الحرب وشروط الفروسية ، فليست عنده جمال وجه وإنما هي بأس حرب . وما الفارس إلا الذي يثبت على الخيل ويوقرها إذا خفت وأرادت الفرار ، وكان دمه هو الذي ينسكب من أعطافها فيقول في شرط الفارس :

وفارس الخيل من خفت فوقرها في (الدرب) والدم في أعطافه دفع^(١)

وكان مفروضا في أبي الطيب أن يتمدح بقيادة سيف الدولة وتوحده بالشجاعة حتى يخفف من أحزان انكساره في هذه الموقعة فقال .

بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش يابن أبي الهجاء يمتنع

قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سرع

ثم ذكر مسيره في البلاد البيزنطية لايعوقه بلد عن بلد فهو يزرع الموت أينما سار في ديار الروم حتى جثم على أرباض (خرشنة) فكان فيه شقاء الروم وبيعهما وصلبانها ، فسبي نساءها وقتل ولدانها وأخذ أموالها ، وأوقد النار في مزارعها الكثيرة .

لايعتق بلدا مسراه عن بلد كلوت ليس له رى ولا شبع

حتى أقام على أرباض (خرشنة) تشقى به الروم والصلبان والبيع

للسبي مانكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ماجمعوا والنار مازرعوا

وكانت عادة سبي المغلوب وانتهاب ماله واسترقاقه وبيعه وتخریب مدنه وتحريقها عادة حرية معروفة منذ كان الإنسان المحارب على الأرض . فإن الأمم القديمة كانت شديدة الضراوة فقد كان الآشوريون والكلدانيون يثقبون شفاه الأسرى ويربطونها بحبال يشدونهم منها ، ليقودوهم ، وليعرضوهم على الناس في هذا العذاب والهوان . وكان الفراعنة والرومان يربطون

(١) الدرب طريق الروم . وورد في كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ج ١ ص ٣٩٧

« اذا أطلق لفظ الدرب فأعنا يراد به ما بين طرسوس والروم » .

أسراهم بحبال يعلقونها وراء العجلات ثم يطلقون الخيل بالسباط ما وسع السوط . ويشهد عذاب الأسرى القوم الظافرون في حفل عظيم ، كما تقدم وصفه .

وإذا فعل سيف الدولة ذلك بمدن الروم وأسرى البيزنطيين ، فإنما هو يكيل لهم بمثل ما كالوا به إذ كانت الحرب سجالا بين المسلمين والروم منذ فتوح الخلفاء الراشدين إلى آخر الحروب الصليبية ، يغزو الروم تغور العرب فيحرقونها وينهبونها ويسبون نساءها ويسترقون الرجال ويقفلون بالأسرى والغنائم ، كما فعلوا (بن بطرة) .

فيغزوهم العرب للانتقام أو للفتح وينقمون منهم مساوئهم التي أسلفوها ويصلونهم النار التي أصلوها كما فعلوا (بعمورية) . .

ثم يمضى أبو الطيب بقصيدته — كما قدمت في وصف المعركة من أن الدمستق ظن أن القلة في جيوش سيف الدولة ثم لم يلبث أن طلعت عليه جحافلهم فيصف ذلك متخذاً من عيني الدمستق (اللتين خانتاه في تقدير العدد) وسيلة إلى أداء هذا المعنى معبرا بسواد الغمام عن كثافة الجنود وخفيف الغمام وهو القزع عن قلة الجنود .

لام الدمستق عينيه وقد طلعت سود الغمام فظنوا أنها قزع ويعكف أبو الطيب بعد هذا البيت على تصوير خيل الحمدانيين فيصف الحكاة عليها بأن الرجس فيهم من طول ما تمرس بالحرب وركوب الخيل هو بالنسبة إلى الأعمار الحربية في سن الفطام ، فقد رضع لبان الحرب حتى استتم غذاؤه منها ففطم وهو في عمر الرجال . أى أن الفارس الحمداني سلخ سن الرضاع من الحرب منذ الصبا حتى صار في عداد الرجال (وسن الرجال هو سن الفطام الحربي) .

وهؤلاء المفطومون الرجال هم على جياد كسبت بمرانها على الحرب كل عام من عمرها بعامين ، فحوليا وهو ذو السنة الواحدة معدود بمنزلة (الجذع) من الخيل وهو ذو العامين . فيا عجبا لأبي الطيب في قدرته على الوصف الدقيق لقد جعل كثرة السنين في الحرب شرفا لعمر الرجال ، وقلة السنين في عمر الخيل اصالة لها وكرما مع التمرس بالحرب . فقال عن الجيوش الحمدانية الكشيفة .

فيها الحكاة التي مفطومها رجل على الجياد التي حوليا جذع
ثم ذكر (اللقان) وهو مكان بالروم وراء خرشنة وقد جاءته تلك الخيول راكضة فلا غباره مناخرها وكان الماء الذي كرهته الخيول من نهر (آلس) ما يزال يعتلج في حناجرها ، فقال :
يذرى (اللقان) غبارا في مناخرها وفي حناجرها من (آلس) جرع
فلم يجب هذا المعنى بأقوتها . فقال في معجم البلدان ^(١) : وهذا البيت من إصرافات المتنبي

في المبالغة لأنه يقول إن هذه الخيل شربت من ماء (آلس) فلم يتعد حناجرها حتى أذرى اللقان الغبار في حناجرها . يعنى سارت من آلس إلى اللقان في مدة هذا مقدارها وبينهما مسافة بعيدة .

وتابع المتنبي وصفه فقال إن هذه الخيل وقد جاءت را كضفة ممعنة في عدوها كان فرسانها يتلقون بها أعداءهم ليدوسوهم بحوافرها ، وكان طعن الفرسان وهم فوقها يشق لهاطريقها ويحدث لها بين صفوف الروم أجوافاً تسعها . وأظلمت الواقعة من كثرة ما علا من الغبار ولكن كان يهدى تلك الخيل في ظلمات تلك المعركة المتلاطمة شمع تضىء ناره ، خلقته عبقرية الخيال عند المتنبي فجعلته من أجسام الرماح ، وأما ناره التي كانت تضىء فهي الآسنة .

وكانت تلك الخيل العربية الضامرة الواثبة إذ تخشى الروم تدمر عليهم بسرعة ، حتى تركبهم وتغشاهم ، لا يصددها في قفزها عليهم سهام ، ولا يعوقها عن وثوبها برد بلادهم . فقال في تلك الخيول وفي الروم .

كأنها تتلقاهم لتسلكنهم	فالطعن يفتح في الأجواف مايسع
تهدى نواظرها ، والحرب مظلمة ،	من الآسنة نار والقنا شمع
دون السهام ودون القر طاحلة	على نفوسهم المقورسة المزع (١)
أجل من ولد (الفقئاس) منكف	إذ فاتهم وأمضى منه منصرع (٢)

ولم يترك أبو الطيب وصف البطارقة المقيدين بالأغلال ، وكانت أغلالهم على أيديهم وأرجلهم أمينة لا تخون من وكل إليها الحفاظ عليهم حتى تؤدي بهم إلى السيوف فتضرب أعناقهم . لكن هذه القيود الآمينة غير ورعة لأنها لا تشفق على الأسرى من عض الحديد . وهذه القيود تعوق البطارقة عن الخطو فتثقل خطاهم ، وإذا أرادوا النوم طردت أثقالها النوم عن جفونهم فقال :

كم من حشاشة بطريق تضمنها	للباترات أمين ماله ورع
يقاتل الخطو عنه حين يطلبه	ويطرد النوم عنه حين يضطجع

إلى ههنا يصف المتنبي فوز سيف الدولة ونصرته على الدمستق ولكنه لا يصارح كيف تحول النصر إلى هزيمة وإنما يجعل أولئك الأسرى من الجيش الحمداني الذين وقعوا في قبضة الروم عسكرياً خونة متخاذلين جازاهم الله بما صنعوا من خذل الأمير حين استنفرهم . وقد وصف هؤلاء الجنود لتهاونهم على الحرب . بأنهم كالأموات فليس يأكلهم إلا الضياع فقال :

قل (لدمستق) إن المسلمين لكم خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا

(١) المزع الخيول الخفيفة جمع مزوع ، والمقورة الضامرة .

(٢) الفقئاس هو Bardas Phocas فولده Nicephore Phocas أى قدهرب ابن فوكاس (نيسيفور) .

وسبق الخيل بفراره فلم تدركه « فأجل منه ماسور مشدود ، وأشجع منه مقتول مصروع » .

لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رفق فليس يأكل إلا الميتة الضبع
ولولا الانكسار المر الذي ألم بسيف الدولة لما ذكر أبو الطيب أسرى العرب ، ولا
ناقش في أمرهم الروم ، ولا استخف أسرهم ، ولكان الظفر المطلق سد عليه أمثال هذا الكلام
الذي لا يطمع فيه إلا المقهور . ثم يتخذ من أولئك الأسرى عزاء للفر فيزعم أن أسر الروم
لهم كان فضلا على سيف الدولة ، إذ تخلص منهم ، وكانوا جنودا فيهم الفصل الدنى ، وفيهم
الرديد . حتى إذا عاد الجيش العربي إلى حلب عاد وهو خالص من أولئك الجنود المأسورين .
فقال في هذا التعليل :

ولإنما عرض الله الجنود لكم لكي يكونوا بلا فصل إذا رجعوا
ثم يأخذ أبو الطيب بما أوتي من فن الحماسة ودقة الأداء فيهن الأمر على سيف الدولة
في هذه الهزيمة التي كانت بعد الظفر فيجعله بمنزلة من كان فوق الشمس فهو لا يكثرث بمن
يرفعه ولا بمن يضعه . ثم يجعل — في شعره — الدهر يسعى إلى الأمير بالعدر . والسيف
مؤتمر بأمره ، ينتظر يوم الانتقام ، وها هي ذى أرض الروم على طاعة في الربيع والصيف
فيقول :

من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضع
الدهر معتذر والسيف منتظر وأرضهم لك مصطاف ومرتبّع
وبدل هذا الوصف على أن أبا الطيب كان مع سيف الدولة في هذه المعركة لأنه كان قد
حدث المتنبي بها صاحبه ابن جنى فروى له كيف كانت نصرة سيف الدولة وكيف ارتد الروم
على المسلمين .
وإني لأجد الدليل على شهود أبي الطيب لهذه الواقعة والهزيمة قوله يخاطب سيف الدولة
في آخر هذه القصيدة :

وقد حمدتك في هول ثبت له حتى بلوتك والأبطال تمتقع
فيتبين من هذا البيت أن أبا الطيب شاهد سيف الدولة وهو يثبت في الهول فحمده على
ذلك ، ثم داخله الشك فتأكد عنده ثباته حين اختبره في هذه الهزيمة التي كان فيها الأبطال
المسلمون يقتلون ووجوههم ممتقعة .

كما أن (شلمبرجة) يذكر أن أبا الطيب كان مرافقا لسيف الدولة في هذه الواقعة وهزيمتها
ويقول بأن اسمها (غزوة القفزة) وذلك أن الجواد الجبار الذي كان يركبه سيف الدولة قفز
به من على عدوة الجبل قفزة عجيبة فنجبا بها من القتل والأسر ومعه فئة من الرجال فيهم
(أبو الطيب) (١) ، وكانت هذه الواقعة عليه من أسوأ الوقعات ، وقد حدد هذا المؤرخ هذه

المعركة بيوم ٢٠ تشرين الثاني سنة ٥٩٠ للبلاد (١) .

وظل الدمستق بعد هذه المعركة يراوح ثغور العرب ويفادها حتى أتى (مرعش) (٢) فهم به سيف الدولة ، فلأذا بالفرار ، فلاحقه بعد التحام قصير ، وكان الدمستق قد ترك أمواله وقتلاه .

ويظهر من شعر أبي الطيب أن الدمستق لما أتى (مرعش) بعد (معركة خرشنة) أوقع في سورها تهديما ، فشخص سيف الدولة (سنة ٣٤١ هـ) لطرد الروم ، ففرق المال على أهل الثغور الفقراء ، وبنى السور فأقامه وعلاه ، وبنى القلعة في شاهق السور . وكان شخوصه بجيش لجب يسد الفضاء ويملا وجه الليل . وأرى أن المتنبي (لم يكن في هذه السرية) وإنما لبث في حلب . ولما قفل سيف الدولة من طرد الدمستق وإغاثة المنكوبين من أهل الثغور خرج أبو الطيب للقائه . فلما استشرف وفد اللقاء الذي فيه المتنبي ، ولعله كان (ربعا في ظواهر حلب) ترجل المتنبي وصحبه للإلام بسيف الدولة كرامة أن يصلوا إليه راكبين في مكان لقائه ، فقال .

فدينك من (ربيع) وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
نزلنا من الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نسلم ركبا

هنيئاً (لأهل الثغر) رأيك فيهم وأنتك حزب الله صرت لهم حزبا
فيوما بجيـل تطرد الروم عنهم ويوما بجود طرد الفقر والجدا
سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أتى (مرعشاً) يستقرب البعد مقبلا وأقبل إذا أدبرت يستبعد القربا
مضى بعد ماالتف الرماحان ساعة كما يتلقى الذهب في الرقدة الهدبا

(١) يحدد ابن مسكويه في كتابه تجارب الأمم ج ٢ من ١٢٥ وقد وصف الواقعة باختصار على أنها جرت سنة ٣٣٩ للهجرة وسيأتى وصف هذا المصدر وطبعته .

ويذكر هذه الواقعة (يحيى بن سعيد الأنطاكي) في تاريخه الذي نشره فاسيلييف وكراتشكوفسكي في مجموعة Patrologia Orientalis الجزء XVIII طبع باريس ١٩٢٤ من ٧٦٨ : أن سيف الدولة بلغ خرشنة منتصف ربيع الأول سنة ٣٣٩ وأنه بعد ظفـره أخذ عليه الروم ناحية في (الدرب) معروفة (بمقطع الأظفار) فافوقوا به وهلك جمـه وارتجـع الروم السبي الذي كان المسلمون غنموه ، وأخذوا سواده وكراعه وأمواله ، وغنموا غنيمة عظيمة ، وأفلت سيف الدولة مع نفر يسير (منهزما) في منتصف جمادى الآخر من هذه السنة (فتكون غزوته لخرشنة في ثلاثة أشهر) . وقد سمي الثغريون هذه الغزاة (غزاة المصيبة) .

(٢) مرعش بالرومية Germanikeia .

ولكنه ولي ولطعن سورة إذا ذكرت نفس لمس الجنبا
 وخلي العذارى والبطاريق والقرى وشعث النصارى والقرايين والصلبا
 والظاهر من البيت الأخير أن سيف الدولة في هذه السرية لحقت جيوشه الدمستق في قرى
 الروم فلم يدفع عنها عادية العرب الذين دخلوا القرى الرومية وسبوا العذارى وقتلوا البطاريق
 وهدموا الكنائس فنشروا فيها الفرائين (١) والصلبان .

ولا بد من الإشارة إلى أن ترتيب أبيات هذه القصيدة في كل نسخ الدوان جاءت على
 صورة واحدة . وذكر البيت الذي يشير فيه المتنبي إلى بناء سور مرعش منفردا عن (ضميرة)
 ولا صلة له بسابقه وأرى صواب ترتيبه أن يذكر بعد بيت (كفى عجباً) ، فيكون :

كفى عجباً أن يعجب الناس أنه بنى مرعشا تبا لآرائهم تبا
 فاضحت (٢) كأن السور من فوق بدته إلى الأرض قد شق الكواكب والتراب

ثم يتم أبو الطيب القصيدة بوصف الجيش الذي شخص به سيف الدولة :

وجيش يثنى كل طود كأنه حريق رياح واجهت غصنا رطبا
 كان نجوم الليل خافت مغاره فدت عليها من عجاجته حجباً

وكان ملوك الروم في تاريخ حروبهم مع المسلمين يطلبون منهم الهدنة أو الفداء أو تبادل
 الأسرى وتدفعهم إلى ذلك أسباب من فن السياسة التي كانت تقع كثيراً في القسطنطينية ،
 أو من ضعف الجيوش البيزنطية أو اختلاف قوادها أو لوجود كثرة في الأسرى . وقد
 يطلب العرب هم الفداء وتبادل الأسرى أيضاً وقد يطلبون الهدنة .

وفي كتاب (التنبيه والإشراف) للسعودي مؤلف مروج الذهب (٣) باب خاص
 بالأفدية . فمن أيام الخليفة الرشيد إلى أواخر خلافة المتوكل حصل خمسة أفدية جمعت عدد
 مافودي فيها من المسلمين بين ذكر وأنثى في عشرة آلاف وسبعمائة أسير (٤) . وكانت
 تحصل هذه الأفدية على نهر (اللامس) (الذي قدمت ذكره ووصف الفداء عليه) .
 وقد حصلت المفاداة والهدنة بعد أن ارسل ملك الروم وفداً إلى سيف الدولة عقب

(١) يقصد المتنبي بالقرايين مكانها وهو المذبح الذي تقدم فيه واسمها بالرومية Altua أى (Autel) .

(٢) أى مرعش .

(٣) طبع ليدن سنة ١٨٩٣ ووقوف de goeje ص ٢٨٩ .

(٤) من أمر ما حصل للمسلمين خلال هذه الأفدية ما ذكره المسعودي في كتاب (التنبيه والإشراف)
 هذا أنه في الفداء الثالث في خلافة الواثق أمر القاضي أحمد بن أبي دؤاد ولي الفداء أن يمتحن المسلمين
 من الأسرى فمن قال (بخالق القرآن) فودي به ومن لم يقل بذلك ترك بارض الروم بغير فداء وأن جماعة من
 الأسرى المسلمين اختاروا الرجوع إلى أرض النصارية لإباء منهم أن يقولوا بتلك المقالة .

معركة خرشنة ، وسرية مرعش لجاء الرسول البيزنطى فى سبيل الفداء والهدنة ورأى فى طريقه قتلى قومه .

فذلك حيث يقول أبو الطيب فى القصيدة القافية :

رأى ملك الروم ارتياحك للندى فقام مقام المجدى المتعلق
وكاتب من أرض بعيد مرامها قريب على خيل حواليك سبق
وقد سار فى مسراك منها رسوله فسا سار إلا فوق هام مفاق
وينبغى أن يكون سيف الدولة قد تلقى سفير ملك الروم فأقام له حفلا فى وليمة وسماط
وتصدر هو فى ذلك على عرشه . فوصف أبو الطيب هذا اللقاء بقوله عن السفير :
فأقبل يمشى فى السماط فما درى إلى البحر يمشى أم إلى البر يرتقى
وكان دليل الهدنة المؤقتة بين العرب والروم فى تلك الفترة قول أبى الطيب بعد ذلك :
فان تعطه بعض الأمان فسائل - وإن تعطه حد الحسام فأخلق

ب - معركة الثغور

سميتُها معركة الثغور لما وقع فيها من سلسلة معارك فى أمصار الثغور ، وقد وقعت سنة ٣٤٣ للهجرة بعد أن أطلق الحمدانيون أسرى الروم وانقضت الهدنة إذ كان سيف الدولة فى ديار بنى مضر يخمد ثورة بنى عقيل وقشير وعجلان ، ويأخذ منهم الرهائن فحدث له رأى فى الغزو ، فجاء الثغور حتى بلغ سمسيات ، وبلغه أن العدو فى بلد المسلمين فخرج إلى بلاد دلوك وصنجة وعرة وموزار وملطية وقباقيب وهنزيط وسمنين ، وهو معمل سيوفه يلقى الروم بالمعركة بعد المعركة حتى انهزموا . وكان يقود الجيوش البيزنطية (برداس فوكاس) القائد (وهو رأس الجيش الأعظم من امبراطور الروم قسطنطين السابع البورفيروجينى ^(١)) وثالث أولاد قسطنطين فوكاس وكان ما يزال شابا . ففر برداس وترك ابنه أسيرا فى أيدى الحمدانيين .

وقد ورد فى تاريخ (شلمبرحة) العصر نيسيفور أن هذه الواقعة سنة ٩٥٣ للميلاد ^(٢) فراح خيال المتنبي فى وصف هذه المعارك بادئا بتصوير الخيل وهو المولع فيها العارف بحقيقة شياتها وصفاتها ، فرسمها وقد رمى بها سيف الدولة درب الروم إلى العدى ، فانطلقت وكأنها السهام . ومضت وهى تغذ الركض رافعة أذنانها وهى فى مرح وصهيل تحت

• Constin Porphyrogénète (١)

(٢) ص ١٣٣ وكتابه هذا موصوف فيما سلف .

وذكر هذه الواقعة ابن سعيد الأنطاكي فى تاريخه المتقدم ذكره فقال فى ص ٧٧١ يزيد على ذلك أن البطريق لأون الملائي Leon le Maleïnos قتل فى هذه المعركة .

الفرسان وإنما لخيّل شفها الركن لا تنقف في بلد نهارا حتى تسرى إلى غيره ليلا ، إلى أن كسبت الروم فما شعروا حتى رأوها تمطرهم بالحديد وتظلمهم بالسيوف كما يصف ذلك أبو الطيب بقوله :

وما علموا أن السهام خيول	رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى
لها مرح من تحته وصهيل	شوايل تشوال العقارب بالقنا
إذا عرست فيها فليس تقيل	وخيل براها الركن في كل بلدة
قباحا وأما خلقها فجميل	فما شعروا حتى رأوها مغيرة
فكل مكان بالسيوف غسيل	سحائب يمتطرن الحديد عليهم

وكان جنود هذه المعركة من الفرسان فلم يزايلوا ظهور الخيل ، وظلوا يمرون من قرية إلى قرية يسكبون دماء الروم ويخوضون في اللبّات والنيران تسايروهم والروم بين ذلك صرعى حتى أتت خيول سيف الدولة إلى ملطية :

بكل نجيع لم تخضه كفيل	نخاضت نجيع القوم خوضا كأنه
به القوم صرعى والديار طول	تسايرها النيران في كل منزل
ملطية أم للبنين نكول	وكرت فمرت في دماء (ملطية)
وأودية مجهولة وهجول	ودون سميساط المطامير والملا

ووصف المتنبي سيف الدولة كيف فر منه برداس وكيف بقى ابنه قسطنطين ممتلىء القلب عجبا رازح الساق من القيود الوهمية التي يحبسها في الأسر ، ثم جعل المتنبي يتهكم بطول جيوش الروم وعرضها ويعد عليا الحمداني — وهو سيف الدولة — أكل تلك الجيوش وشروبها . ولكم أبدى علماء البلاغة وبعض الناقدين^(١) امتعاضا من قول أبي الطيب (على شروب للجيش أكل) لما فيه من تفاهة الوصف والصوغ . ولكنه في معرض الحماسة والبعاد عن الصنعة قد أفاد في الرد على تلك الجيوش الرومية ذات الطول والعرض فقال عن سيف الدولة والروم :

فودع قنلاهم وشيع فلهم	بضرب حزون البيض فيه سهول
على قلب (قسطنطين) منه تعجب	وإن كان في ساقيه منه كبول
لعلك يوما (يادمستق) عائد	فكم هارب مما إليه يؤول
أتسلم للخطية ابنك هاربا	ويسكن في الدنيا إليك خليل
أغرّم طول الجيوش وعرضها	على شروب للجيش أكل

ولم يدع أبو الطيب ذكرى هذه المعركة الكبرى التي وقعت في بلاد كثيرة من الثغور فقد ردد هذه الذكرى حين هنا سيف الدولة بعيد الأضحى إذ أنشده في ميدان حلب وتحت دار سيف الدولة وهما على فرسهما قصيدة التهنئة بالعيد وبالنصر (١) فوصف ابن (الدمستق) الذي وقع في الأسر كأنه قد مات وقد عاش أبوه لفراره ونجاته . وشرح أبو الطيب في هذه القصيدة أيضا أن الجيش كله قد وقع في الأسر . وأن (برداس) الهارب لم يجد له عزاء سوى لبس المسوح التي يلبسها الرهبان والاعتكاف في الدير . وكان ذلك دأب القادة البيزنطيين حين يخسرون الحروب فيلجؤون إلى الديارات للسلوى . فصور أبو الطيب كل ذلك وخلع على فنه فيه مسحة تهكم فقال في الدالية بعد اللامية التي أنشده إياها في تهنئة العيد :

لذلك سمي ابن الدمستق يومه	مما تسماه الدمستق مولداً
فولى وأعطاك ابنه وجيوشه	جميعاً ولم يعط الجميع ليحمداً
وما طلبت زرق الأسنة غيره	ولكن قسطنطين كان له الفدى (٢)
فأصبح يحتاب المسوح مخافة	وقد كان يحتاب الدلاص المسردا (٣)
ويعشى به العكاز في الدير تائباً	وما كان يرضى مشى أشقر أجرداً

ومن المفروض أن ملك الروم بعد أسر ابنه جعل يتجنب إلى سيف الدولة ويرسل إليه الرسول إثر الرسول لفكك ولده ، وقد كان ذلك . فجاءه (رودس) (٤) رسول قسطنطين السابع سنة ٣٤٣ للهجرة فحشد سيف الدولة للقائه جيوشاً حال ثقلها بالباب دون دخول أبي الطيب . فلما دخل أبو الطيب حيث كان الحفل ، وصف السفير أنه (قبل الأرض ثم قبل كم سيف الدولة) . وأجد هذا عند أبي الطيب تسجيلاً للطراز الذي كان يسلم به السفراء البيزنطيون على الملوك في القرن العاشر للميلاد ، وهو طراز السلام لدى سفراء الفرنجة في

(١) راجع الكتاب القيم الذي ألفه بلاشير عن أبي الطيب المتنبي وهو :

un Poète arabe du IV^e siècle de l'Hégire (X^e siècle de j-c) About — tayyibb al

Motanabbi طبع باريس سنة ١٩٣٥ حيث يقول فيه عن هذه القصيدة وقد ترجم كل أبياتها إلى الفرنسية في كتابه (ص 172) إن فيها نفحة حماسية تميزها من سائر قصائد المتنبي وبطرفها ما فيها من وصف الأقاليم البيزنطية التي جرى فيها القتال فهي بلا ريب واحدة من أروع قصائد أبي الطيب .

(٢) كان ابن قسطنطين برداس قسطنطين فوكس (فاسمه كاسم أبيه) .

(٣) يحتاب يلبس ، والدلاص المسرد : الدرع البراقة المنسوجة .

(٤) يذكر (بلاشير) في كتابه عن المتنبي ص 174 أن هذا الرسول كان الحاكم بول (le Magester Paul) .

ومعه وفد من السفراء . واهل رودس هذا الذي ذكره (بلاشير) نقلا عن السكتب البيزنطية المؤلفة في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد كان كبير هؤلاء السفراء .

القرون الوسطى ، ولكنهم لم يكونوا يقبلون الأرض ، وإنما كانوا يرجعون خطوتين إلى الوراء ووجوههم تلقاء الملوك الذين يؤدون التحية إليهم ، ثم يمسون الأرض بأطراف قبعاتهم ذوات الريش ثم يلوحون بها ميلا مع الخطوتين الراجعتين . لكن السفير البيزنطى قد قبل الأرض قبل أن يقبل كم سيف الدولة .

وأرى أنه أدى التحية لسيف الدولة لدن مثوله بين يديه ، تلك التحية (الرسمية) وهو يمس يده الأرض ثم يعيد يده إلى فمه . وهو نظام (البروتوكول الرومى) فقال أبو الطيب عن هذا الرسول وهو يتقدم متجها نحو سيف الدولة فى مكان مثوله بين صفين من السكاة :
وقبل كما قبل الترب قبله وكل كى واقف متضائل
وأخذ المتنبي يحسد رسول الروم على تقبيل كم الأمير فقال :

مكان تمناء الشفاء ودونه صدور المذاكى والرماح الذوابل

ولم يصرح أبو الطيب فى هذه القصيدة بأن سيف الدولة من على الرسول بفسكاك ابن قسطنطين فقبل سفارة الرسول ، أو أن ابن قسطنطين كان سجيناً أو عزيزاً فى أسره ، أو أنه قضى نحبه فى ديار المسلمين . وليس عليه كل ذلك وهو من الشعراء ، وإنما ذلك على المؤرخين فقد ذكر (شلبرجه) أن الشاب الأسير (قسطنطين فوكاس) ابن قسطنطين برداس قائد امبراطورية بيزنطة ^(١) مات فى حلب لأن سيف الدولة رفض تسليمه فقال هذا المؤرخ (٢) :
لكن سيف الدولة وهو البطل الألبى على الدوام الشريف فى خلاقه كتب كتاب تعزية إلى أبيه التعس وسلم الجثة إلى نصارى حلب فلفوه بأكفان ثمينة وأدرجوه فى ضريح من أضرحة كنائسهم .

فكان قول (شلبرجه) الذى استبقاه من المؤرخين البيزنطيين ، وقول الانطاكى ، تامة لما جاء فى شعر أبى الطيب عن أخبار معركة الثغور وعقبها (٣) .

ح — معركة الحدث الحمراء

وصف المتنبي (الحدث) بالحمراء (٤) لكثرة ما أريق عليها من دماء البيزنطيين . وكان

(١) أبناء الدمستق قسطنطين برداس فوكاس شيخ القواد البيزنطيين م :

نيسيفور فوكاس ، ليون فوكاس ، قسطنطين الشاب هذا .

(٢) ص 134 من تاريخ نيسيفور السابق . وذكر ذلك يحيى بن سعيد الأنطاكى بكتابه المتقدم ص 771

فذكر موت ابن قسطنطين بحلب ودفنه ، ولم يذكر كتاب التعزية الذى ذكره (شلبرجه)

(٣) يزيد المسيو (بلاشير) فى كتابه عن المتنبي (ص 176) أن ابنا شابا ليسيفور فوكاس مات

فى هذه الواقعة .

(٤) قامت الحدث على تل يسمى بالأحر فسميت لذلك بالحمراء (باقوت)

الروم قد خربوا مكانها المنيع منذ سنة ٣٣٧ هـ فجاءها سيف الدولة لإعادة بنائها سنة (٥٣٤٣) فباشر بيده خط أساسها فدهمه (برداس فوكاس) قائد الروم بعد يومين بجيش من البيزنطيين فيه خمسون ألفا من الرجال والفرسان ، فيهم البلغار والأرمن ، وكان معه ابنه (نيسيفور فوكاس) فحارب الحمدانيون البيزنطيين ، من طلوع الشمس إلى غروبها ، ولم يكن مع سيف الدولة غير خمسمائة من حرسه الخاص ، خففت الحراسة في صدور رجاله حين رأوه يشق الصفوف إلى الدمستق . ويقول (شلبرجة) لقد انهزم الروم وخسروا ثلاثة آلاف قتيل (١) . وأسر سيف الدولة جمعاً من البطارقة والأراكنة Archontes فظلوا في أيدي العرب ، وقتل في هذه الواقعة (ابن بنت برداس وصهره كوديس الأعور ، وأسر قائد بلدى إيمانندوس وتزامندوس وسجين .) وهما بلدان بيزنطيان خطيران) أما نيسيفور فوكاس وكان يومئذ أحد القواد في جيش أبيه فلم ينج إلا باختفائه في نفق حتى إذا سطا الليل فر تحت ظلامه ولحق بفلول جيشه المنقطع في الدرب ، المحثث خطاه نحو القسطنطينية .

لم يعتن مؤرخو العرب بتفصيل وقائع سيف الدولة الخطيرة التي غيرت تاريخ الإسلام برمتها في غربي العراق زمن الدولة العباسية ، حتى أن شراح قصائد أبي الطيب جميعا كانوا يقدمون على القصائد تتفا تبين بعض معالمها التاريخية غير أن ذلك غير واف بغرض التاريخ السياسى الذى ينبغى أن يفهم فى نوره مثل هذا التاريخ الأدبى . على أن القصائد لا تتطلب فى مفاتيحها مثل ذلك ، لكن تاريخ الأدب الصحيح لابد أن يرفده التاريخ السياسى ليفهم (النص) على وجه الاسمى . ولذلك فقد وجدت (جوستاف شلبرجة) و (فاسلييف) و (دييل) و (ماريوس كانار) قد أفاضوا فى تحقيق التاريخ البيزنطى وربطه بحوادث العرب وانفرد (شلبرجة) من بينهم بالتوضيح والإسهاب فى ربط هذه الحوادث الرومية بحوادث سيف الدولة . وبه قد استعنت ، فقد درست قصائد المتنبي الحماسية فى الحرب الرومية مستنيرا بالحوادث التاريخية التى رواها عن سيف الدولة والبيزنطيين لتجىء هذه الدراسة الحماسية أقرب إلى القصد وأتم لغرض تاريخنا الأدبى الحديث .

فكذلك يقول (شلبرجة) إن سيف الدولة لم يترك مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها وحتى وضعت فيه آخر لبنة بمشارفته (٢) فى ١٢ من تشرين الثانى سنة ٩٥٤ للميلاد ١٣ من رجب سنة ٣٥٣ للهجرة)

(١) تاريخ نيسيفور لشلبرجه ص 135 . وقد انفرد (شلبرجه) بهذه الأخبار الخطيرة وأسماء الأسرى الروم دون مؤرخى العرب .

(٢) إن التواريخ التى جاء بها (بلاشير) لهذه الواقعة فى كتابه عن المتنبي ص 176 بلغت الغاية فى دقتها كما كان يفعل شارحو ديوان المتنبي الأقدمون . فقد حصل عند (بلاشير) موعد التلاحم بين =

ولما استقر الدمستق في القسطنطينية ، طلب البيزنطيون الهدنة فرفض سيف الدولة لأنهم كانوا قد قتلوا من وقع في أيديهم من الأسرة الحمدانية ، (١)

* * *

وضع أبو الطيب المتنبي عن معركة (الحدث) قصيدة أولى أردفها بعد عام بقصيدة ثانية عن (الحدث) نفسها ، إذ كان الروم عادوا إلى شن الغارة عليها بعد بنائها . أما القصيدة الأولى التي يصف فيها معركة (الحدث الحمراء) فانه يبدأ وصف المعركة بهويل ، فيتساءل هل كانت الحدث الحمراء تعرف لونها من كثرة الدم الذي صبغ أرضها والنار التي حمرت بناءها وجوها ؟ وهل كانت الحدث الحمراء تعلم أي الساقين يسقيها الغمام أو الجحاحم ؟ لكثرة ما ضرب الحمدانيون من رؤوس الروم ، فقال :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقين الغمام (٢)

سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجحاحم (٣)

فكان ذكر الغمام التي سقتها أمطارها قبل وصول سيف الدولة إليها تأريخاً لوقوع المعركة في الشتاء وقد وقعت المعركة والبنائون ماضون في بناء سور الحدث وإعلانه ليكون دريئة للمسلمين من الروم والروس ، فكانت المنايا تتلاطم حوله تلاطم الأمواج ، فقال أبو الطيب :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكيف ترجى الروم والروس هدمها وذو الطعن أساس لها ودعائم (٤)

ثم وصف الجيش الرومي الذي زحف به الدمستق وقواده (وقد أوردت ذكر هذا الجيش عند الكلام على وصف الشعر العباسي للجيش) وتبسطت في تحليل هذه القطعة الحاسية التي صور فيها أبو الطيب سيف الدولة وقد وقف (يستعرض) جيشه المنتصر ويشهد انهزام جيش الروم ، فكان واقفاً في جفن الردى والردى عنه نائم والأبطال البيزنطيون الكلمي الهزيمة تمر به وهو وضاح الوجه باسم الثغر .

== البيزنطيون والحمدانيون في هذه المعركة يوم الاثنين ٢٩ جمادى الثانية سنة ٣٤٣ الموافق ٣٠ من تشرين الأول سنة ٩٥٤ وأن الانتهاء من بناء سور الحدث كان في ١٣ رجب سنة ٣٤٣ الموافق ١٢ من تشرين سنة ٩٥٤

(١) هامش ص 135 من كتاب (شلمبرجه) السابق

(٢) شرح هذا البيت المعلم البستاني في نسخة الديوان ط بيروت سنة ١٨٦٠ هامش ص ٢٥٦ فقال

(أى : وهل تعلم أي الساقين يسقيها : الغمام أم الجحاحم ، وحذف الجحاحم اكتفاء بالغمام)

(٣) الضمير في نزوله ودنا عائد إلى سيف الدولة

(٤) كان في الجيش البيزنطي مطوعة من الروس من جهات شمال أرمينية ومن بلاد القفقاس .

وكانت على أفراسهم الجواشن تغطي قوائمها فذلك قول المتنبي عن هذه الجياد المصفحة :

• أتوك يحبرون الحديد كأنما سروا بجياد ما هن قوائم

وكان من دأب أبي الطيب المولع بوصف الخيل أن يتبسّط في شعره الحماسى عند ذكرها ،
فصور هذه الخيل كيف لحقت بالروم المنهزمين في قنن الجبال وقد انتشروا فوق جبل
(الأحيدب) (١) فكانت خيول سيف الدولة تتبعهم في تلك الذرى فتدوس وكور النسور
التي كثرت عندها جثث القتلى من الروم فكانت خير وليمة للنسور الجياع . وأن فراخ
العقاب وقد هيّجتها تلك الخيول لتطل من أوكارها تظن أن الخيول أماتها وقد جاءتها بالمطاعم .
وأن تلك الخيول التي تمرست بصعود الجبال ، إذا زلقت قوائمها مشيت بسيف الدولة وأجنادها
على بطونها كأنها الأفاعي تتمشى على الصعيد .
فقال شاعر المعارك الحمدانية مع الروم في هذا الخيال الرائع ، وهو يعنى
سيف الدولة والروم :

نثرهم فوق (الأحيدب) نثرة	كما نشرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى	وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظن فراخ الفتح أنك زرتها	بأماها وهي العناق الصلادم (٢)
إذا زلقت مشيتها يبطونها	كما تتمشى في الصعيد الأراقم

ثم يستغرب أبو الطيب كروار المستق على الثغور حيناً بعد حين بغير أن يحيق به
الحجل من كثرة هزائمه وانكساره . وكان جديراً أن يولى ظهره ولا يولى وجهه ، وهاهنا
يذكر أبو الطيب أحد أبناء قائد الروم الذى قتل في هذه المعركة وقتل معه صهره وابن صهره
فيقول :

أفى كل يوم ذا المستق مقدم	قفاه على الإقدام للوجه لاثم
وقد فجّته بابنه وابن صهره	وبالصهر حملات الأمير الغواشم

وكان أبو الطيب أول من وصف هذه الحروب مع البيزنطيين بأنها ليست حروباً خاصة
بين ملك الروم وملوك العرب (ولكنها حرب بين الإسلام والشرك) فقال :

ولست مليكاً هازماً لنظيره	ولكنك التوحيد للشرك هازم
---------------------------	--------------------------

فكان منه ذلك أول إعلان لوصف الحرب الحمدانية بأنها ملحمة كبرى بين الإسلام
كافة والروم كافة . وقد دعا الروم من ذلك اليوم لمثل هذا المعنى فعمموا دعوتهم حتى بلغت
أوروبا وانتشرت فيها كلها . وجعلت هذه الدعوة تقوى في بلاد الفرنجة وراء البحار حتى آن

(١) يقول الأستاذ بلاشير في كتابه عن المتنبي ص 176 إن (الأحيدب) اسم حصن وأراه جبلاً كما
يظهر من شعر المتنبي . وقد حدد بلاشير جيش البيزنطيين في هذه الوقعة بمائة ألف من الجنود المنظمين .
(٢) الفتح جمع فتحاء وهو العقاب . ولعناق الصلادم كرائم الخيل الصلاب .

لها على عهد ملكي الإسلام نور الدين وصلاح الدين أن تكون (حرباً صليبية ^(١)) يحى بها ملوك الغرب الجباورة إلى حرب المسلمين في طول الشواطىء السورية ، وفي عكا وصور وعند أسوار بيت المقدس ، فتكون الغلبة الأخيرة للمسلمين بعد أن تتصدع تلك البلاد سنين طويلاً ، وقد كانت بركانا يغلى على الشاطئ الشرقى للحوض الأبيض ، ثم عرفت الهدوء حيناً من الدهر ونامت لتستريح ، ثم نهضت من غفوتها في تاريخنا الحديث على نار ثانية تأتينا من صوب الغرب .

يقول (شلمبرجه) ^(٢) إن أبا الطيب كان مع سيف الدولة في هذه المعركة الراجحة ، وكان يحارب الشاعر إلى جنب الأمير فنظم لهذه المعركة قصيدة أنشدها سيف الدولة في راحة من المعركة عند المساء ، وهذه القصيدة ذات شعر فياض وتفصيل يغرى ، وهى الأنشودة الحقيقية للأبطال المسلمين المتقين الظافرين على المسيحيين ، ثم يترجم شلمبرجه قصيدة (الحدث الحرام) إلى الفرنسية ترجمة دقيقة حافظ فيها على روح الشعر العربى الذى خلد فيه أبو الطيب سيرة حروب سيف الدولة .

ولعل اسم المتنبي قد بلغ البيزنطيين وعرفوا خطر شعره عليهم فوجب أن يذكره في تاريخ حروبهم مع المسلمين . وكان مؤرخهم (سيدرنوس Cedrenus) وهو أكبر مؤرخي البيزنطيين في القرن العاشر يذكر تلك الحروب ويسجلها بإسهاب وتفصيل .

* * *

كان بناء الحدث الحرام وتملك العرب لحصنها شوكة في جنب الروم ، لأنها باب الطريق إلى القسطنطينية . فجاء جيشهم الشرقى ^(٣) إلى الإغارة عليها بعد عام من بنائها سنة ٣٤٤ للهجرة ^(٤) بقيادة ابن ملكهم (ليون) فوصف أبو الطيب سرية الروم هذه ومادار عليها من الأقدار التى دارت قبلها على آباء الروم وأخوانهم ، فقال .

لا ألوم ابن (لاؤن) ملك الروم — وإن كان ماتنى محالا ^(٥)

(١) يقول شلمبرجه في ص 139 من كتابه نقلاً عن المؤرخ (رامبولد) : إن قسطنطين السابع كان يدعو الشرق والغرب والهيلانيين والفرنك إلى البدء بعصر (الحرب الصليبية)

(٢) كتابه ص 128 (السابق)

(٣) في جمادى الأولى سنة ٣١٤ الموافق أواخر آب سنة ٩٥٥ (بلاشير . المتنبي ص 178)

(٤) كان للبيزنطيين جيش خاص كامل النظام والعدة مهيئاً على الدوام لغزو المسلمين في الشرق ولصد غزواتهم عن بلاد الروم . وهو غير جيوش بيزنطة التى كانت معدة لمغازى بلاد البلغار والحروب الأوربية وهو غير الفصائل الحارسة التى كانت كل واحدة منها موكلة بإقطاع من أرض الروم لحماية الثغور الرومية من بغات المسلمين .

(٥) أى تمنى تخريب قلعة الحدث

أقلقتة بنية بين أذنيه — وبان بغى السماء فنالوا
يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها فيجمع الآجالا
نزلوا في مصارع عرفوها يندبون الأعمام والأخوالا
ولم يأل أبو الطيب جهدا في تسجيل وقائع سيف الدولة في شعره الحماسي ، فقد كان يحثه
عليها : حماسه ، وحبه للفروسيّة ، وكرم الأمير ، ومطالبته إياه بان يقول فيها أكرم القصيد^(١)

د — معركة الدرب

لئن كانت (معركة الدرب) هي آخر معركة وصفها المتنبي لسيف الدولة مع الروم ،
وكانت قصيدته فيها هي آخر قصيدة في سيف الدولة قبل رحيل الشاعر من حلب ، فقد وفر
الدهر على أبي الطيب كبرى حوادثه وأفدح خطوبه ، إذ نجى عينيه — وكانتا تحبان سيف
الدولة — أن تشهدا انكساره الأكبر ودوران الدائرة عليه وعلى جيوشه في وقعة (مفارة
الكحل^(٢)) التي سحق فيها نيسيفور فوكاس الجيش الحمداني وكتب على سيف الدولة القهر
الآخر ، وأقول النجم الحمداني من سماء حلب إذ فتحت أمام جيوش الروم الجرامة أبواب
حلب فدخلوها وأحرقوها ، وجن فيها جنونهم في النهب والسلب والقتل والاستعباد .
من لعيني أبي الطيب يوم ذاك ؟ وقد لجأ الأمراء الهاشميون والحمدانيون إلى قلعة حلب
فاعتصموا بها وهي مشرفة من أعاليها وسط حلب على المدينة التي تخوض في دماؤها خيول
الفرسان البيزنطية ، ونيسيفور يحرض عسكره على أن يمثلوا بالقتلى ويعملوا اليد في المال والسلاح
في الرجال ، والسبي في النساء ، ما استطاعوا من أقصى الجهد ، انتقاما لعصور رومية مدخرة
الأحقاد في صدور البيزنطيين منذ الأجداد الأوائل . فشفوا أكبادهم في تسعة أيام دامية .
لقد كانت هذه الفاجعة سنة ٩٦١ لليلاد (٣٥١ للهجرة) وجر نيسيفور الأسرى معه
وكلهم من خلص الرجال وسادة حمدان وأغلى نساء العرب ، فساقهم مصفودين إلى القسطنطينية
فلما بهم أطرافها وعرضهم الروم في حفل عظيم بساحة (السيرك^(٣)) وكان بين هؤلاء الأسرى
(أبو العشائر الحمداني Apolasar) كما يسميه (سيدرنوس) المؤرخ البيزنطي ووضع بين
هؤلاء أيضاً أبو فراس الحمداني الذي سنرى صورة فروسيته الشاعرة عما قليل — إذ كان
قد وقع أسيراً قبيل حصار حلب .

(١) ديوان المتنبي طبع بيروت ص ٢٦٤

(٢) يقول سيدرنوس عن وقعة مفارة الكحل بأنها كانت في مكان اسمه Andrassos

(٣) (شلمبرجه) ص ١٤٣

لم يكن أبو الطيب يومئذ في حلب وإنما كان في مصر حزينا عند كافور ، ومن يدري لعله بكى طويلا في الفسطاط على الحبيب الأول غير المعصم قتي الفتيان الحلبي . أو لعله أشفق على نفسه أن يبقى في حلب ، وقد توقع لها مثل هذا المصير المخيف . وكان قد قوى عليه ضغط الحساد في بلاط سيف الدولة فزهد في المقام . وطالما ذكر همه من الحساد في خلال قصائده الأخيرة التي نظمها في حروب سيف الدولة ، فقوى عنده ذلك الإشفاق على نفسه فارتحل يود الخلاص من بلد قد اضطرب حظه في يد القدر وبات معروفا مصيره الأليم .

ولست أخلى أبا الطيب من عتاب عنيف على سكوته بعد تركه سيف الدولة ، فهو لم يذكروا في شعره (نكبة حلب) وكان عليه أن يذكرها كما رثى خولة أخت سيف الدولة بعد مفارقة السنين . ومن يدري لعله كان نظم في تلك النكبة القصائد الطوال البواكي فهي من شعره الضائع ، أو لعل هذا الشعر الأخير لم يذعه أبو الطيب لأنه كان يومئذ قد اتخذ الليل جملا وفر من عند كافور ، وأخذ يضرب بالبوادى ، وكافور يطلبه بالأرصاد حتى بلغ الكوفة وهو خائف من أن يدركه كافور ، وخائف من العبيد الذين معه وفيهم لصوص . وقد كان من عادة أبي الطيب إذا ارتحل أن يحمل معه أوراقه ودفاتره وصناديقه ، ودليل في ذلك ما رواه البغدادي في خزنة الأدب ^(١) . والبغدادي هذا كان من ثلبة أبي الطيب فلقد سلقه بضروب من السباب والملامز . فكان مما رواه عن اصطحاب المتنبي لصناديقه في ترحاله أنه لما بلغ الأهواز نزل عن فرسه وفتح (عيابه وصناديقه ^(٢)) لبلل مسها في الطريق ومما ذكره عن دفاتره وأوراقه التي تكون معه أنه في حادث مقتله حمل (فاتك عليه وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه وكان ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب (دفاتر أبيه) فقتل أحدهم الفرس خلفه وجز رأسه . وصبوا أمواله يتقاسمونهابطروطوره ، وأن قاتليه (بدير قنة والنعمانية) اقتسموا عقائله وصفايه .

فن هذه الروايات التي أوردها البغدادي — نقلا عن كتاب سماه (إيضاح المشكل لشعر المتنبي من تصانيف أبي القاسم عبدالله بن عبدالرحمن الأصفهاني ، وهذا الإيضاح مقصور على شرح ابن جني لديوان المتنبي) — يتبين أن دفاتر أبي الطيب وصناديقه ومتاعه وأثقاله قد نهب عند قتله . فلا يبعد أن يكون في هذه الدفاتر شعر المتنبي كتيبه في نكبة حلب وفيه حنان على سيف الدولة وفيه إشفاق ، وضاع هذا الشعر لأن قاتليه نهبوا متاعه وماله ، كما روى البغدادي في كلامه هذا عن أبي الطيب فقال : (إن المتنبي شعرا كثيرا) والباقي منه

(١) خزنة الأدب ج ١ ص ٣٨٢

(٢) العياب جمع عيبة وهي أوعية من آدم يكون فيها المتاع (اللسان)

الذى تداوله الناس هو برواية أبي الفتح بن جنى . وكان ابن جنى معاصره ومصاحبه في بعض رحلاته .

* * *

فلئن فأت أبا الطيب أن يشهد آخر معارك سيف الدولة ويصفها (١) فبحسبه ووسع وفائه أن يصف آخر معركة وقعت قبل أن يفصل عن سيف الدولة وهى معركة الدرب . كان سيف الدولة شاغل البلاط البيزنطى فى القرن العاشر للميلاد . وقد تداول الروم وجوه الرأى فى أمر الحمدانيين والفتك بهم فأقسم البطريق (٢) لملك القسطنطينية أن يعارض سيف الدولة فى (الدرب) وسأله أن ينجده ببطارقته وعدده وعدده ، ففعل ملك الروم وجيز البطريق (شاما شيق chamachic) ابن جان تزييمسيس Jen Tzimiscés . لكن ذلك القسم الذى آلى به البطريق على نفسه قد أحسنه وخاب فأله ، فاندحر واندحرت جنوده . وكانت هذه المعركة آخر المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم فراح أبو الطيب قبل التوديع ، يحدو بقصيدة من أعلى شعره كما يقول ابن جنى (٣) ينشدها مقطوعة من ملحمة (٤)

(١) بعد نكبة حلب انكمرت نفس سيف الدولة فكان يحارب وكأنه جريح وقد أثر فى نفسه مصابه بمحاضرة الحمدانيين فأصيب بفالج بعد سنتين من فتح حلب بأيدي الروم ، وكان مثل نسر قد رماه صائده فلم يقتله بالرمية الأولى ، فجعل يتعامل على نفسه . وكانت تصيبه غيبوبة يظل فيها نحو ساعة ثم يستفيق . وكانت هذه الغيبوبة من أثر فالجه ، كما يروى أحمد بن مسكويه صاحب تجارب الأمم (ج ٢ ص ١٩٩) ولكن كل ذلك لم يقعه عن الحرب والمعارك فقد جرى له مع الروم معارك عدة بين نكبة حلب وموته أى بين سنتي (٣٥١ — ٣٥٦) للهجرة ولم يكن فيها شأنه كما سلف فى مزدهر أعوامه الفائتة . وقد كثرت عليه الفتن فى داخل بلاده وفى ديار الموصل فى بلد أخيه ناصر الدولة وابن أخيه أبى تغلب ، ووثب عليه بعض غلمانه واحتال لبعضهم فقتله كما فعل بغلامه (نجا) ، وكان مثل شجرة نفذتيلها وبقيت منه ذبالة توشك على الانطفاء .

(٢) من الملاحظ أن كلمة البطريق كانت لقباً لكل قائد عظيم من قواد البيزنطيين .

(٣) ص ٤١٧ من نسخة الديوان للدكتور عزام

(٤) الملحمة فى لغة العرب معناها الواقعة العظيمة فى الفتنة على ما فى اللسان وغيره من معاجم العربية وقد عرفها الجاهليون فى معناها هذا ولكنهم لم يطلقوها على القصيدة الحربية وفيها أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (أنا نبى الحرب والملاحمة) أنظر مفيد العلوم للأخوارزمى الطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٠ ص ٢١٤ باب (ثواب الفزاة والمجاهدين) وكذلك كان شأن الأمويين والعباسيين وقد ورد ذكر (الملاحم) فى شعر الشعراء منهم النطاشى الذى يقول :

ولو تستخير العلماء عنا ومن شهد (الملاحم) الغلابة

فكان معناها عنده مرادفاً للحرب والمعركة ولم يطاق العرب كلمة الملحمة بالمعنى المعروف عند الغربيين سوى فى عصرهم الحديث وقد قصدت بكلمة الملحمة فى هذه الرسالة المعنى الحديث (أى القصيدة الحربية الكبرى) وهذا جائز من باب المجاز المرسل فى العلاقة السببية .

الكبرى التى نظمها قصائد فى حروب سيف الدولة لتكون (أنشودة الدهر) فى فروسية آل حمدان وبطولة أبى الهيجاء سيف الدولة .

بدأ المتنبي القصيدة بالمحكمة التى وهبها بيانه فلام من يقسم لعقبى الحرب لأن عقباها مجهولة :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يفيدك فى إقدامك القسم
ثم ذكر البطريق الذى أحنث يمينه سيف الدولة . فقال ، وقد صغر اسمه هو انا وكان
أبو الطيب مولعاً بالتصغير لا يقنع منه بخلسة المغير كما يقول أبو العلاء المعرى . فصغر
أبو الطيب المتنبي اسم قائد الروم فجعله (شمشيق) .

آلى الفتى ابن شمشيق فأحنثه فتى من الضرب تنسى عنده الكلم (١)

وصف أبو الطيب ببيانه جيش الحمدانيين فى هبوبة إلى هذه الحرب ، فما فتحت مدينة
(سروج) ناظرها عند الصباح إلا كان جيش سيف الدولة يزدهم منظره فى جفونها ،
فتجلجلت مدينة (حران) على صوته ، وكان مغذاه فى يوم ناضر تخالط وجهه السحب غير
مطرة فتروح عليه الشمس وتجيء . وكان جيش سيف الدولة يطاول الأرض بطوله وجسامته
فلا هو ينتهى ولاهى تنتهى . وفى هذا الجيش خيول ضوامر تلوح شكائهما الحرى وقد عدت
بفوارسها حتى تغمرت من بحيرة (سمنين) فجعلت أفواها تنش بالماء وتغمر فيه اللجم (٢) .
كذلك يرمى على الشعر أبو الطيب تصاوير وصفه فيقول :

فلم تم سروج فتح ناظرها إلا وجيشك فى جفنيه مزدهم
والنقع يأخذ (حرانا) وبقعتها والشمس تسفر أحيانا وتلتثم
سحب تمر (بحصن الران) ممسكة وما بها البخل لولا أنها نغم

(١) فى نسخ الديوان جميعها ذكر اسم هذا القائد (شمشيق) وذكره كذلك ابن مسكويه صاحب
تجارب الأمم (ج ٢ ص ٢١٣) وكل من عرض له ذكره بهذا اللفظ . وهو غلط وصوابه (شمشيق
تصغير شمشيق) .

(٢) فصل (بلاشير) مراحل المعركة فى كتابه عن المتنبي ص ١٨٠/١٨١ فروى أن سيف الدولة
ترك حلب لهذه الغزوة فى ١٤ المحرم سنة ٣٤٥ الموافقة ٢٨ نيسان سنة ٩٥٦ ، فر على الرقة ثم
على حران وأران واركنين وبلغ هنزيط . وفى المحرم الموافق ١١ مايس بلغ حصن زياد (وهو اليوم
خربوط) على الشاطئ الأيسر من الفرات الشرقى فى الشمال الشرقى من هنزيط anzitène . ثم أرسل
من يتعرف له أحوال الروم على نهر ارسناس ، ثم عبر النهر إلى جيوش البيزنطيين وهم بقيادة (يوحنا
تريميسيس) فى تل البطريق . وتل البطريق على الشاطئ الأيمن من الفرات الغربى ، فهزم الروم وسحقهم
وعاد فعب النهر بعد أن أحرق أرباض الروم ثم حل على الروم حملة لاحقة فى ١١ صفر الموافق
٢٤ مايس فأهلكهم وأسر منهم سبعة آلاف أسير وقتل منهم مقتلة . وفى عشية اليوم الثانى دخل
سيف الدولة آمد وفيها أنشده شاعره المتنبي هذه القصيدة الميمية المستوحاة من المعركة .

جيش كأنك في أرض تطاوله فالأرض لا أمم والجيش لا أمم
 وشذب أحمت الشعري شكايها ووسمتها على آتافها الحكم (١)
 حتى وردن (بسمنين) بحيرتها تنش بالماء في أشداقها اللجم
 ثم أعقب هذه الجيوش العربية سيرها فأغذته حتى جاوزت نهر (أرسناس) فأمر
 سيف الدولة جيشه أن يخوض النهر . فيالمنظر الموح وهو ينكشف عن صدور الخيل
 فيجفل منها وهي لا تجفل منه . وكان سيف الدولة في مقدمة الجيش أول الخائضين في نهر
 (أرسناس) يعبر بالجيش إلى بلد مقدور عليه الحريق . فيقول المتنبي في هذه الصورة الفنية
 ويعنى نهر الروم :

وما يصدك عن بحر لهم سعة وما يردك عن طور لهم شمم
 ضربته بصدور الخيل حاملة قوما إذا تلفوا قدماً فقد سلوا
 تجفل الموج عن لبات خيلهم كما تجفل تحت الغارة النعم
 عبرت تقدمهم فيه إلى بلد سكانه رمم مسكونها حمم
 ويعرض أبو الطيب صوراً فنية من معانيه الحماسية فيجعل السيوف في أكف الحمدانيين
 ناراً وقد عبت قبل أن يكون المجوس وما زالت إلى اليوم في اضطرام . وذلك عنده عمر
 السيوف وتاريخها في دهر الحروب يعبدها الأبطال كما يعبد النار المجوس ، وطال ما عبد أبو
 الطيب سيفه أما بات بعد خلوصه من كافور يقبل أسيافه ويمسحها من دماء العدى : كذلك
 يقول عن الحمدانيين :

وفي أ كفهم النار التي عبت قبل المجوس إلى ذا اليوم تضطرم
 ثم يسرى خياله على وصف الجياد التي كلف بها كلفه بالغيد الأمايد ، وينتقل إلى وصف
 السفن (السماريات) التي أعدها سيف الدولة ليحضى عليها بعض الجنود مسارعة للزحف على
 طول نهر أرسناس وهي سفن أعدها هنالك بأرض الروم حين دعت إليها الحاجة فجأة فكانت
 من نتاج رأيه فحملت الفرسان في بطونها لا على الظهور ، وكانت خيلاً مكدودة بغير ألم وإنما
 الألم كان برا كبتها .

دهم فوارسها ركاب أبطنها مكدودة وبقوم لابسها الألم
 ولم تكن هذه (الجياد البحرية) ذوات حلق كالخيول ولا لها شيم مثل شيمها .
 من الجياد التي كدت العدو بها وما لها حلق منها ولا شيم
 نتاج رأيك في وقت على عجل كلفظ حرف وعاء سامع فهم

(١) الشذب ضوامر الخيل ونجم الشعري من نجوم القيط والمراد به أن الخيول من طول مالاكت
 شكايها حيث تلك الشكاي من ذلك اليوم القاطن — والظاهر أن الشعري تلوح في هجير النهار .

وقد أذكرنى قول أبى الطيب بنابليون بونابرت ، حين وصف نباهة سيف الدولة وسرعة
خاطره فى تدبير خطط القتال . فكان نابليون كذلك يرتجل منافذ الخلاص ارتجالا فى زحام
المعارك (نتاج رأى فى وقت على عجل) .

فلما بلغ سيف الدولة صدر الدرب واقع الطريق صاحب القسم فصدم جيشه بخميسه
الذى كان هو غرته وطلعته ورماحه شعر وجهه

ودارت المعركة فوق الدرب فصمد الروم لسيف الدولة صمود جسوم بغير أرواح إذ
جعل أبو الطيب تلك الجسوم الرومية هى التى ثبتت فى المعركة (ثبتت طريحة على الأرض
بغير أرواح) والأرواح هى التى انهزمت (نخرجت من جسومها منعقة هاربة .)

وقد تمنوا غداة الدرب فى لجب أن يبصروك فلما أبصروك عموا

صدمتهم بخميس أنت غرته وسميرته فى وجهه غمم (١)

فكان أنبت ما فيهم جسومهمو يسقطن حولك والأرواح تنهم

وملأت الخيول الأعوجية (٢) الطرق خلف الروم المنهزمين بعد المعركة ، وجللتهم السيوف

طوال يومهم فكانت تعلق رؤوسهم

والأعوجيه ملء الطرف خلفهم والمشرقية ملء اليوم فوقهم

وويل (ابن شمشيق) من تهكم المتنبي وروعة تصوره للبعاني ، فقد تصور أبو الطيب أن

ابن شمشيق اعتذر من يمينه التى حلفها فساءلها . (أن تسمح له فينتنى عن الحرب) وقد انثنى
فنكص وهرب ، فراحت يمينه تبتسم استهزاء به وهو يفر ، وكلما أمعن بالفرار أمعن يمينه
متبسمة مستهزئة .

وأسلم ابن شمشيق أليته إلا انثنى فهو ينأى وهى تبتسم (٣)

وغاب الفتى البطريق قائد الروم معنا فى هربه بين الأدغال والآجام فأتبعه المتنبي

بهذا البيت .

فلا سقى الغيث ما وراه من شجر لو زل عنه لوارت شخصه الرجم

وقفل سيف الدولة بالفخر إلى موطنه واندفع الناس يغنون ويطربون فرحة بهذا الظفر

(١) الغمم كثرة الشعر فى الوجه .

(٢) المنسوبة إلى أعوج وهو فعل كان معروفا فى العرب .

(٣) على هذا النحو أرى فهم البيت وروايته . وقد روى فى بعض النسخ بادئا بكلمة (وأعلم)

كما فى نسخة بيروت . وفى جميع الروايات كلمة (إلا) بالتشديد — وشمشيق صواب لشمشيق كما
صححت ذلك فى هامش من هذه الرسالة وأبنت الدليل .

العظيم حتى أنساهم طربهم السبب الذى من أجله طربوا . وقد دخل سيف الدولة حلب على جواده الجبار مقلداً شكر الله وييده سيفه الماضى (ذو شطب) فقال أبو الطيب يصف ذلك .
ألهى الممالك عن نحر قفلت به شرب المدامة والأوتار والنغم
مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بأمضى منهما النعم
ووسم أبو الطيب الروم فى (قصيدة الوداع هذه) ميسماً لا يبلى على الزمان ، فقال فى آخرها
يخاطب سيف الدولة ،

ألقت إليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

* * *

كذلك يأخذ تاريخ الأدب العربى المعاصر قسطه من دراسة حماسة المتنبى وتصوير شعره .
الصورة التى يستحقها أعظم شاعر عرفته العربية ، قد خلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين
الفروسية وتهاويلها فى دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب ييده أكبر ملحمة للعرب والإسلام
بأنخم أسلوب وأعذب بيان . وكان يطبع هذا الشعر الحماسى الرائع بميسم خلود هو عنوان
البطولة ورمز الفروسية العربية ، سيف الدولة ،

فلا يعجب علماء البلاغة حين يتدارسون مثل هذا البيت السابق الذى يجعل فيه
أبو الطيب دماء الروم ملقاة فى طاعة سيف الدولة يدعوها بلا ضرب فتجيب ، فإنهم متى
تفهموا هذه الحماسة وعرفوا مغامرات صاحبها وجدوا المتنبى غير صائغ للبالغات ، ولا ملحف
فى أوهام التصوير .

(٢) وأما أبو الطيب المتنبى فقائد عسكر

سلاماً أبا الطيب على كرور العصور ، مر على هلكك ألف عام فقام الأدباء فى دنيا العرب
من أجلك وقعدوا ، ورددوا ملء سمع الأرض شعرك وتدارسوا فنك ، وبسطوا سيرتك
وجددوا عهدك ، وعهودك لا تبلى فى الشعر ، وسيرتك لا تنتهى فى فم راويات الزمان . ولقد
يأتى عليك ألف عام ثانية بعد وأنت مورد ثرار لم يفرغ ماعندك من سلسيل الشعر والفكر
كتبتُ عنك فى مصر وكنتَ فيها قبل عشرة قرون ، ومن يدرى لعل منزلك كان على
عدوة هذا النيل الجميل حيث أسكن اليوم ، وكنت تزور كافورا فى جيزة الفسطاط وتسكن
بالقرب منه ، بعين قريرة لكن كان ذلك قرباً يخالطه البعاد فقلت فيه :

أرى لى بقربى منك عيناً قريرة وإن كان قرباً بالبعاد يشاب

ولو أحسن إليك كافور فلم ينفرك عن مصر نفار الأطيّار السواجمع عن الأشجار النواضر ،
 خلّدت بأسه وسطوته . وكان كافور ذا بأس وكان شجاعاً حازماً ذا سطوة . ولكن حظ
 سيف الدولة أبى إلا أن يستأثر بحبك وحده ، ويحوز الخلود في شعرك ، فقلت فيه (السيفيات)
 وهي لب حرب ، وصفحة مجد ، وعنوان أمة كانت تسكن شمالى بلادى ، فتصدعها العاديات .
 لقد أنشدت في شعرك بطولة سيف الدولة ، لأنك ضربه في ثفاف الرماح واستجلاس ظهور
 الخيل ، وكان هوى العروبة في قلبك مثل هواها في قلبه ، فاجتمع على مروءتك النيلان .
 الحمية والفروسية . وكثر في شعرك خفق البنود وجلجلة السلاح وكنت طروباً فيه لمحمة
 الخيول التي حمرتها الحرب . وبرى حوافرها الدرب .

لقد نام طرفك وأنت قتيل مغدور به — في دير العاقول حيث يهتف بك الصدى على
 المدى ، وقد عرفت في حياتك أن العرب لك آهون ، وطال ما تارق أذباؤهم في تفهم شعرك
 وسر غورك ، فسهروا جراء قوافيك واختصموا كما تقول ، لكنك تركت الدنيا وأنت غير
 عالم أن دنيا بزنة كانت بذكرك مملوءة كما امتلأت بسيف الدولة ، وأن دنيا الفرنج بعدك بألف
 عام أطلعت في شعرك كتباً لأقوامها بلغت العشرات ^(١) ، وقد تبلغ المئات بعد ألف عام تأتي ،
 فاسمع من خلف الغيوب هذه الأبيات الحماسية التي قلتها في الخيول والحروب وفروسية سيف
 الدولة ، إنها ثلاثة أبيات من البائية تخاطب بها سيف الدولة فتقول :

فبت ليالياً لانوم فيها تحب بك المسومة العرب
 يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب
 وخيلاً تغتذى ربح المواشى ويكفيها من الماء السراب

لقد نقلها أحد المعجبين بك إلى لغة قومه فيما نقل من شعرك العجيب فقال : هذه
 الترجمة لها :

Dans ta course rapide par les meilleurs chevaux auxquels l'Arabie
 ait donné naissance, tu as passé plusieurs nuits à la poursuite, de
 l'ennemi, sans goûter les douceurs du sommeil, entouré de tes escad-
 rons qui s'agitaient à tes cotés, comme l'aigle agite ses ailes dans son
 vol précipité.

(١) أعد كتاب المسبو بلاشير عن المتنبي أخطر كتاب صدر عن شاعر سيف الدولة في ديار
 الفرنجة ، فقد ألفه مسبو بلاشير الأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٩٣٥ في ٣٦٦ صفحة
 تنبع فيه أبا الطيب من فاتحة أمره إلى خاتمة في دراسة حياته وشعره وتحليل ذلك وترجمته أروع قصائده
 وهو من أوثق المصادر المعاصرة الفرنجية وأعظمها قيمة عن المتنبي .

Gustave Schlumberger (Un Empereur Byzantin au dixième siècles Nicephor (٢)

Phocas طبع معهد باريس سنة ١٨٩ (ص 128)

Il ne faut aux chevaux de tes cavaliers d'autre nourriture que le vent qui souffle dans les deserts, ils se contentent pour étrancher leur soif de la vapeur qui s'élève sur les terres brûlées des ardeurs du soleil.

* * *

كان سيف الدولة (محاربا بالوراثه) بل كان (١) مصابا بهوى الحرب فعبّر أبو الطيب عن حقيقة هواه ، وظل يهدد آماله الحربية الجسام فى العزة والنصر ومفاخر الفتوح طول عهده معه ، ولم ينس أن يغنيه فى هذا الهوى وهو بعيد عنه مفارق يوم كان فى العراق سنة (٣٥٢) فأرسل إليه هذا البيت فى قصيدة (ما لنا كلنا جو يارسول) .

أنت طول الحياة للروم غاز ففى الوعد أن يكون قفول
وقد استغل العباسيون هذا الهوى فى سيف الدولة ، فأعدوه لحماية ثغور الجزيرة من الروم (٢) وكان الوضع الجغرافى لبلاد سيف الدولة يقضى أن يكون أمير حلب محاربا كبيرا ، فأعطى سيف الدولة الحرب كل حياته ولذلك يقول عنه الثعالبى فى اليتيمة أنه (قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب ، وقد دعاه أبو فراس ليلة لسمع غناء أبى عبدالله المنجم ، وقد أحضره من أجله وأرسل إليه شعرا يدعوه فيه ، فأجابه سيف الدولة بهذه الكلمة الرائعة :
« أنا مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر (٣) »

وقد وقع المتنبى لسيف الدولة وقوع الأليف للأليف فعلق كل منهما بصاحبه حتى فرق بينهما الحساد . وكان فى بلاط سيف الدولة شعراء كثير فلم يعجب سيف الدولة أحد منهم كالمتنبى . فكان أبو الطيب (جريدته الحربية) على مصطلح زماننا من جرائد الحروب التى ألفناها .

وأرى أن فروسية المتنبى هى التى كان لها أكبر نصيب فى هذا الإعجاب لدى سيف الدولة . كان المتنبى فارسا وقد اكتسب الفروسية من حياته البدوية التى عاشها فى صباه ، ألم يصحبه أبوه إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حواضرها ، ومن وبرها إلى مدرها (٤) فأكسبته البادية والتنقل فيها فروسية وشجاعة . وما كان أهل البادية غير فرسان ومحاررين . فلما خالط سيف الدولة رافقه فى أكثر حروبه وشهداها معه وحارب فيها إلى جانبه . واقد

(١) كتاب المتنبى لبلاشير بالفرنسية صفحة ١٢٧ ط باريس سنة ١٩٣٥

(٢) كان الخليفة المتقى بالله أبو إسحق والمستكن بالله أبو القاسم والمطيع لله أيام الدولة الحمدانية

(٣) ديوان أبى فراس الحمدانى ط بيروت سنة ١٩١٠ ص ٨٣

(٤) يتيمة الدهر السابقة ج ١ ص ٩٣

وفى مطالب الشعر الحماسى من شاعر فارس مثله ، فنظم غرر قصائده فى حروب الحمدانيين للروم وكتب له الخلود . فهو أكبر شاعر عربى أعطى الحروب العربية الرومية من شعره أكبر نصيب . فلئن كانت الملحمة العربية الرومية قد بدأت — كما قلت — بشعر أبى تمام ثم بصاحبه البحترى فلقد تلقفها أبو الطيب المتنبى فأنشد أروع فصولها . إنه حشد لها كل ما وسعه فنه من بيان ساحر ، ومعان سامية ، فى أنقى لفظ ، وأشرف أسلوب (١) . وكان سيف الدولة شاعراً (يعبد نفسه فى شعر غيره فيه) فوجد فى المتنبى بغيته فأمد به بالمال والسكرم ليمده بخلود المجد وبقاء الذكر .

وكانت الفروسية متبادلة الشعور بين سيف الدولة وشاعره ، فكان إذا شاء سيف الدولة إكرام أبى الطيب أهدى إليه سيوفا ورماحا ودروعاً وأفراساً (٢) وكان زى المتنبى فى ركوبه زى الفرسان ومعه رمحه ، فقد روى الثعالبى فى اليتيمة (٣) أن الحسين بن أحمد الصنوبرى خرج من حلب يريد سيف الدولة (٤) فلما برز من السور إذا هو بفارس متلثم قد أهوى نحوه برمح طويل وسدده إلى صدره ، فكاد الصنوبرى يطرح نفسه على الفارس فرقا ، فلما قرب منه الفارس ثنى السنان وحسر لثامه فإذا هو أبو الطيب المتنبى .

وعرف المتنبى بالفروسية فى أشد مواقف حياته وهو (ساعة قتله) فقد قال لهبده (سراج) لما قرب (فاتك) منه يريد قتله :

— باسمراج أخرج إلىّ الدرع .

وأخرجها ولبسها وتبها للقتال .

وذكره غلامه ببيته الحماسى المشهور .

الحيل والليل والبيداء تعرفنى والطعن والضرب والقرطاس (٥) والقلم

وقد عرف أبو الطيب الحيل وكان يجد أصائلها قليلة كالصديق ، فبرع فى وصفها واقفة

(١) يقول (بلاشير) فى كتابه عن المتنبى ص 183 عند دراسته لشعره الحماسى إن صوت أبى الطيب • المتنبى ليطان مجلجلا خشنا فى قصائده الحماسية كأنه صوت أولئك البرابرة الجرمانيين الذين تملأ أنفسهم فرحا حشرات أعدائهم المقتولين •

(٢) ص ٣٦٢ و ٣٩٧ من نسخة الديوان للدكتور عزام وص ٢١٧ من نسخة الديوان طبع بيروت سنة ١٨٦٠ للمعلم البستانى .

(٣) ج ١ ص ٩٧ .

(٤) لعل سيف الدولة كان يومئذ خارج حلب افرض من أغراضه .

(٥) لعل غلامه هو أبو الحسين المستهام الحماسى . فلقد ذكر الثعالبى فى (تنمة اليتيمة) طبع طهران سنة ١٣٥٣ هـ نشر عباس لإقبال ج ١ ص ١١) أن أبا الحسين المستهام هذا كان غلام أبى الطيب وكان شاعراً . فلا يعبد عندى أن يكون هو الذى حث أبا الطيب على القتال فى ساعته الأخيرة ببيته الحماسى المشهور .

وسائرة ، وعادية في الحرب ومنتطرة . وكان عبقرى الفروسية يشهد بذلك كل شعره ، وبكاد يكون أكثر شعره الحماسة ، فلا تخلو له قصيدة من ذكر الخيل والرحم والسيف ، أحب الخيل والسيف والرحم منذ فاتحة شعره ، فداليته التى يقول فى أولها وهو فى ميعه صباه :

أهلا بدار سباك أغيدها .

ملأى بالخيال المرتميات به نحو الممدوح وطاخة بعوالى الرماح ، وبحد السيوف . وكانت قصيدته الأخيرة التى يقول المتشائمون من نقاده إنه جعل من قوافيها كلمة الهلاك فهلك^(١) ملأى كذلك بمعالم فروسيته ، ففيها وقع الأسنة وفيها السلاح والذعر والاعداء . فجلبلة هذا السلاح فى شعره ، ولما فيها التى لا تنفذ حول الحرب والطعان والسير والنزال قال فيه الشريف الرضى (وأما أبو الطيب المتنبى فقاتل عسكر^(٢)) .

وكان ابن الأثير يقول عن فن المتنبى وروعة تصويره للبعارك ، إنه إذا أفاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقاتلا والسلاحين قد تواملا .

يقول صاحب الصبح المنبى أيضاً ، ولا شك أن المتنبى كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أداه بيبانه^(٣) .

ويقول ديمومبين : كان المتنبى هو (المسجل التاريخى Historiographe) للأمير الحمدانى حينما احتكت الحضارة الإسلامية بالحضارة النصرانية فى القرون الوسطى وإن المرء حين يقرأ المتنبى ينساق فكره أحيانا إلى ذكر لويس الرابع عشر وعبور نهر الراين . ثم عقد ديمومبين ، موازنة خفيفة بين شعر المتنبى وشعر كورنيه الأكبر من حيث العقل واختيار المعانى وتوقد الحماسة وساطان المنطق . ثم خرج من هذه الموازنة إلى

(١) القيمة السابقة ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) الصبح المنبى عن حيشية المتنبى للشيخ يوسف البديعى . مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٥٣٣ أدب) أوراقه ١٣٢ ورقة منسوخ فى سنة ١٢٦٤ للهجرة وقد وردت كلمة الشريف الرضى فيه فى الورقة ٤٨ (٣) المخطوط السابق ورقة ٤٧٥ .

أما الفرييون الذين درسوا شعر أبى الطيب فأحنى مؤلف فيهم بأبى الطيب هو (بلاشير) كما قدمت . لكنه يخفف من غلواء إعجابه بفن الحماسة فى شعر المتنبى فهو يذكر فى كتابه عنه (ص ١٨٣) أن روح الحماسة الحقيقية لا تنشيع فى كل قصيدة ، فإذله أبياتا حماسية رائمة خارقة لكنها منفردة ومنشورة بين سواها من الأبيات التى دونها فى القيمة الحماسية ويقول نصا :

« وأن أفضل ما فى فنه الحماسى براعته فى وصف بغات الحمدانيين لبلاد يزنطه وخطفاتهم للصاعقة فى حرب عدوم وقفولهم مسرعين بالأسرى والغنائم . ولقد كان أبو الطيب يحمل القوم بشعره على أن يشعروا بالرواية العظمى التى كان هو ممثلا فيها » .

القول بأن للعرب في الأندلس تأثيراً في الأدب الإسباني وأن هذا الأدب هو الذى تسلم إلى فرنسه فأثر في شاعرها الأكبر كورنيه أوائل أمره ، وأن أجداد كورنيه النورماندين الذين تراموا على غزوة صقلية اختلطوا بالعرب الذين من جنسهم المتنبي (١)

أما الأستاذ ماريوس كمنار (٢) فيقول إن المتنبي كان أعظم شاعر خلد حروب العرب مع البيزنطيين فبذ ذلك كل شاعر قبله قال الشعر في حرب الروم ، والمتنبي في ذلك وحيد غير مدافع .

وقد استعان هذا الأستاذ بشعر المتنبي في هذه الحروب على معرفة العتاد الذى كانت عليه الجيوش البيزنطية فاتخذ من قول المتنبي :

أتوك يجررون الحديد كأنما سروا بجياد ما هن قوائم

دليلاً على ثقل جيش الفرسان عند البيزنطيين المسمى بالرومية (Scholorioi) أى المطاردون المدججون بالحديد الذين ركبوا خيلاً مستورة القوائم برداء من الدروع يسكاد يبلغ الأرض (كما أشرت إلى طرف من ذلك فيما تقدم) .

وأردف ماريوس قائلاً : « إن هذه القصيدة الميمية هى المثل الأعلى عند أبى الطيب في سيف الدولة ، والمثال المحتذى للقصص الحربى ، فإن كل نأمة حربية أو حركة من هذه المعركة كان المتنبي يرسمها بعبقريته المصورة الجبارة ،

وقد كان أبو الطيب إلى فروسيته الشاعرة الخارقة وروعة تصويره للبعارك عفيف الحب ، كان حبه كحب فرسان القرون الوسطى في أوروبا . أفلا نظرت إلى هوى (سيرانودو بيرجراك) . كذلك كان أبو الطيب ، لقد مات ودفن هواه في ضلوعه أكانت (خولة أخت سيف الدولة) تحبه . إنه رثاها بعد فراق أخيها بسبع سنين فطوى الجزيرة إليه خبر موتها — كما ذكرت — فأشرقه بدمعه حتى كاد يشرق به . وكان من قوله :

وأشذب معسول الثنيات واضع سترت فى عنه فقبـل مفرق

وما كل من يهوى يعف إذا خلا عفا في ويرضى الحب والخيـل تلتقى

وقد سأله عن معنى هذا البيت فقال لهم أبو الطيب « المرأة من العرب تريد من صاحبها أن يكون مقداما في الحرب فترضى حينئذ عنه .

كذلك كان أبو الطيب فارساً في شعره وفي حبه . ومن يدرى ؟ لعل الحب كان وقود شجاعته عند سيف الدولة لترضى عنه (خولة) فتجده مقداما في الحرب ، كما يقول .

(١) "Al Mutanabbi" recueil publié a l'occasion de son millénaire.

طبع بيروت ١٩٣٦ س ٨٨ مقالة الأستاذ (Gaudeferoy Demonbynes)

(٢) ص ٩٩ مقالاته في المجموعة نفسها لذكرى ألف عام على المتنبي .

ومحسبه دليل على هذا الحب أن كان ينتهز الفرصة ، في عادة الشعراء ، ببدء القصائد بالنسيب فيقدم على كل قصيدة رسالة من هواه ، فيأخذ بالفروسية كأنها أنشودة البطولة في الحرب ، ورسالة العفة في الحب ، إلى خولة . وسجل التخليد لسيف الدولة ، عبقرى الحرب .

(٣) فن المتنبي في شعر الحرب

الشعر العربي مثل معادن بعضها قد مزج ببعض - وقد يكون بين هذه المعادن قطعة صافية من الذهب الخالص ، وقطع ممزوجة بمعادن من الفضة وغير الفضة . فعلى الجوهري أن يستخرج ما يريد من السبيكة .

كذلك وجدت شعر العرب سبائك . فأكثره قصائد في شؤون شتى وبعضه القليل في موضوع واحد . وإذا ضربت المثل بشعر الحماسة وجدت هذا الشعر في الأدب العربي قد توزعته ثلاثة أوصاف .

١ — شعر المديح : فإن فيه شعراً حماسياً كثيراً لكنه قد مزج بموضوعات المدح ، فالشاعر يذكر سجاياء مدوحه من كرم ومعروف وشهامة وأعراق ، ثم يذكر شجاعة الممدوح فيعرض إلى ذكر حروبه ووقعاته إن كان من القواد ، أو يذكر وقائع آباءه وجدوده إن كان من الأحفاد .

٢ — شعر الفخر : فإن الشاعر المفتخر يعرض إلى ذكر أيامه الحربية إن كانت له مآثرة في الحرب ، أو يفتخر بأيام آباءه وأجداده ، كما فعل الفرزدق . وهذا الضرب من الشعر الحماسي كثير في أدب العرب .

وهذان النوعان السابقان من شعر الحماسة يشبهان السبيكة المخلوطة ، ومهمة دارس الأدب فيهما عسرة لأنه يتنخل أبياتاً ومقطوعات حماسية من بين أبيات كثيرة في شؤون أخرى تتناول المديح أو تتناول الافتخار .

٣ — الشعر الحربي الصريح الذي قيل خاصة لوصف الوقائع والمعامع

وهذا النوع يقل في شعر العرب القديم في الجاهلية والإسلام ، ويظل ممزوجاً مع غيره من الشعر في القصيدة الواحدة . أما في العصر العباسي وخاصة زمن أبي تمام والبحتري ، فقد أخذ شعر الحرب (المتوحد في موضوعه) يظهر في قصائد أبي تمام ثم في قصائد البحتري ، على نحو ما قدمت في الكلام على شعر الحرب عندهما ، وأجلى ذلك وأكثره وضوحاً وحدوداً وصفهما لمعارك العرب مع البيزنطيين في حروب أبي سعيد الثغري .

ولما جاء المتنبي أصبح هذا الضرب الصريح من شعر الحرب كامل التحديد واضح الظهور في مبادئه وخواتمه . وبرزت حدوده للعيان متميزة من غيرها في شعر الحرب . فإن أبا الطيب

المتنبى وقف أحسن شعره على سيف الدولة ثم جعل هذا الأحسن رهيناً بوصف الحروب العربية البيزنطية التي نهض بها سيف الدولة طوال عهده على حلب . فكان أن نظم أبو الطيب قصائده الطوال موقوفة على حروب الحمدانيين . ولولا ما كان يأخذ به نفسه من مفاتيح الغزل وختام الحكمة ، لجاءت قصائده مثالا فنيا رائعا ينبغي أن يحتذى بعده في كل شعر حربي ، إذ كان يجمع فيه بين سمو الديباجة وروعة المعاني . وقد كانت قصائد العرب الحماسية منذ عرف العرب الشعر إلى عهد سيف الدولة لا تخرج عن أن تكون واصفة لوقعة واحدة أو واصفة لجملة وقائع متتابعة . وكان شعر أبي الطيب في الحرب لا يحيد عن هذين الوصفين ، فكان يصف في بعض قصائده وقعة واحدة وكان يصف وقعات متعددة . وفي كلامي على معارك سيف الدولة التي وصفها المتنبى (فيما سبق هذا البحث) تبين حقيقة هذا التقسيم الفني فإن « معركة خرسنة » ، ومعركة « الحدث الحمراء » ، مثال لقصائد المتنبى الحربية التي وصفت فيها (معركة واحدة) . أما « معركة الدرب » ، فهي المثال الآخر لقصائد المتنبى التي وصفت فيها (عدة معارك) أو على الأصح (عدة مواقف حربية) في « تل البطريق » ، ودخول الجيوش العربية إلى (سروج)^(١) عند انحسار الليل وافتتاح الجفون ، وإمام الجيش (بجران) تحت يوم ناضر فيه غمام يستر الشمس ثم ينحسر .

ثم اجتاز الجيش بقلع (أرسناس)^(٢) بعد أن هد عصمتها ثم محاصرة الحمدانيين لحصن (الران) حتى كانت (الوقعة الكبرى القاطعة) في (الدرب) الذي نذر البطريق القائد أشد النذور ، وأقسم أغلظ الأيمان ليكسرن سيف الدولة وليلقينه فيه فيعارضه بجيش لا قبل له به . فكان أن خاب نذره ونقضت الحرب قسمه كما يصف كل ذلك أبو الطيب بقصيدته الحربية الأخيرة التي ودع بها سيف الدولة فكانت آخر شعره في حلب .

ففي هذه الوقعة من الأرض بين (أرمينيا وقلقلا وبر الأناضول) جعل المتنبى أعظم قصائده الحربية وقفا على سيف الدولة في حروبه مع البيزنطيين . وقد كانت هذه الديار الواقعة في شمالي الشام الآخذة إلى الغرب (موطننا فسيحاً للشعر الحماسي) لأن الدولة العباسية لم تصطليح عليها الفتن في الداخل كما اصطليحت على الأمويين ، وإنما كان الخصم الألد للعباسيين والعدو الأشد لكل العالم الإسلامي والعربي البيزنطيين . فكان جلاد

(١) Saros سروج عند نفسور الشام قال عنها (ياقوت) في معجمه : ؟ بلدة عربية من حران في ديار مصر ، وحران على طريق الروم من جهة الشام .

(٢) ذكر المسعودي في كتاب (التنبيه والإشراف) طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ بوقوف de goeje ص ١٨٩ أن أرسناس اسم نهر يصب في الفرات بين باسورين وقبر سابور وقد رسمه Brooks على خريطته التي عربتها في آخر الرسالة واسمه بالرومية Arzanene

العرب معهم طويلا في تلك المواطن العربية التي ارتبطت أرضها بأروع الشعر الحربي العربي وكانت مهداً لغرق قصائده في عصر بني العباس من أيام المعتصم إلى عهد سيف الدولة . وكان أبطال هذا الشعر (كما ذكرت) أبا تمام والبحتري ، ثم جباره أبا الطيب المتنبي . ومات المتنبي ومن بعده سيف الدولة وعم الخراب البلاد الحمدانية ، إذ نهض الروم آخر عهد (نيسيفور فوكاس) لا كمال غزواتهم في أرض الإسلام بعد فتحهم حلب ، فاندفع قائدهم الأرمني الجبار (يوحنا تيميسيس) بجيوشه كعباب الموج فاكتمسح ثغور الشام جميعها وامتد إلى العراق حتى بلغ حدود بغداد ثم أحس بعمد الشقة وقلة الزاد فخاف على جيشه من الخذلان ، فعاد به حيناً إلى جانب أنطاكية ، وقفل هو إلى القسطنطينية ، فقتل مولاه نقفور وكان يهوى زوجته (تيوفانو) واستولى على العرش ، ثم عاود الكرة فكانت النوبة لسورية فخارب فيها الإخشيديين .

وقد روى (شلبرجه) في كتاب جليل آخر عن (الحروب البيزنطية في الشرق والغرب ، في أواخر القرن العاشر على عهد الخليفين العباسيين المطيع لله وابنه الطائع^(١)) فكان من من الدهر على الشعر الحماسي أن يسبق في دنيا العرب بحوادث الظفر فيشهدها أبو الطيب وصاحبا من قبله ليسجلاها في شعرهم الباقي ، ويتاح لأعينهم أن تغفو قريرة في أجدائها قبل أن الخذلان الذي جلل به الروم أرض العرب حيناً من الدهر ، حتى انجالت سماؤهم فعادت ضاحية ضاحكة وانجباب أعداؤهم فراحوا يتعثرون بالخبيبة ويلوذون بالفرار ، لامعة وراهم صفحات السيوف بأيدي البطالين العظميين نور الدين ، وصلاح الدين .

«L'Épopée Byzantine à la fin du dixième siècle.» Par Gustave Schlumberger. (١)

الفصل الثالث

شعر الحرب عند أبي فراس الحمداني

(١) فروسية أبي فراس

يقول أبو منصور الثعالبي في يتيمة في تعداد مزايا أبي فراس إنه « كان فرد دهره مجداً وبلاغة وفروسية وشجاعة^(١) ، فجمع الثعالبي في كلمة واحدة أعراق أبي فراس وسمو شعره ، إلى حماسته وحربه .

وإن القدر الذي كتب لسيف الدولة في حرب الروم قد أصاب أبا فراس ، فكان ابن عمه^(٢) سيف الدولة يميزه بالإكرام من سائر قومه ويصطنعه في غزواته ويستخلفه على أعماله^(٣) .

وكان يصحب سيف الدولة في حروبه منذ صباه ، فقد قال : « غزونا مع سيف الدولة وفتحنا (حصن العيون) سنة ٣٣٩ وسنى إذ ذاك تسع عشرة سنة^(٤) » .

وكان هذا الفتى الوسيم يعرف حق القربى عليه وما يطالبه به مجد قومه ، وهو الذي يقرر سبب وجودهم في الدنيا بقوله :

فلم يخلق بنو حمدان إلا للمجد أو للبأس أو لجود
فجمع الشئائل كلها في المجد والبأس والجود . وكان البأس أظهر صفاته ، فنشأ على الفروسية حتى غدا أشجع قومه وأعز فرسانهم بعد سيف الدولة وكان يحمل على وجهه ميسم الشجاعة ، فلقد أصابت خده طعنة من سنان ، وأصابته ضربة سيف في فخذه فشق فخذه عنها ، وجعل يعزى نفسه في جراحاته فيقول :

فلا تصفن الحرب عندي فإنها طعماى مذ بعث الصبا وشرابى
وقد عرفت وقع المسامير مهجتي وشقق عن زرق النصول إهابى

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٧ الطبعة السابقة .

(٢) سأثبت في الصفحة التالية جدولاً بنسب هذه القربى .

(٣) اليتيمة ج ١ ص ٢٧ الطبعة السابقة .

(٤) كتاب Abou Firâs بالألمانية مؤلفه رودلف دفوراك طبع ليدن سنة ١٨٩٥ (ص 342)

وطالت جراحاته فلم تندمل فراح ينفس عن نفسه بالشعر فيقول :

جراح تحاماها الأساة مخافة وسقمان باد منها ودخيل

يقول (شلبرجه) : ، إنه كان ألمع الشخصيات في بلاط حلب^(١) ، وكان سيف الدولة يقدر فروسيته وشعره فيجرب عليه ألف دينار كل سنة ، وأن أبا فراس كان أنجب أهل الفروسية في كل عصره ، وكان جندياً منقطع النظر ، .

وأراه قد كتب لنفسه أن يبقى بعد سيف الدولة ابن عمه^(٢) فتصرع حلب وتلقى الهوان وهو حي موجود . ويموت سيف الدولة قبله ، فيبقى وحيداً ويصير شريداً على نحو ما سأروى مصرعه الدامي الفظيع .

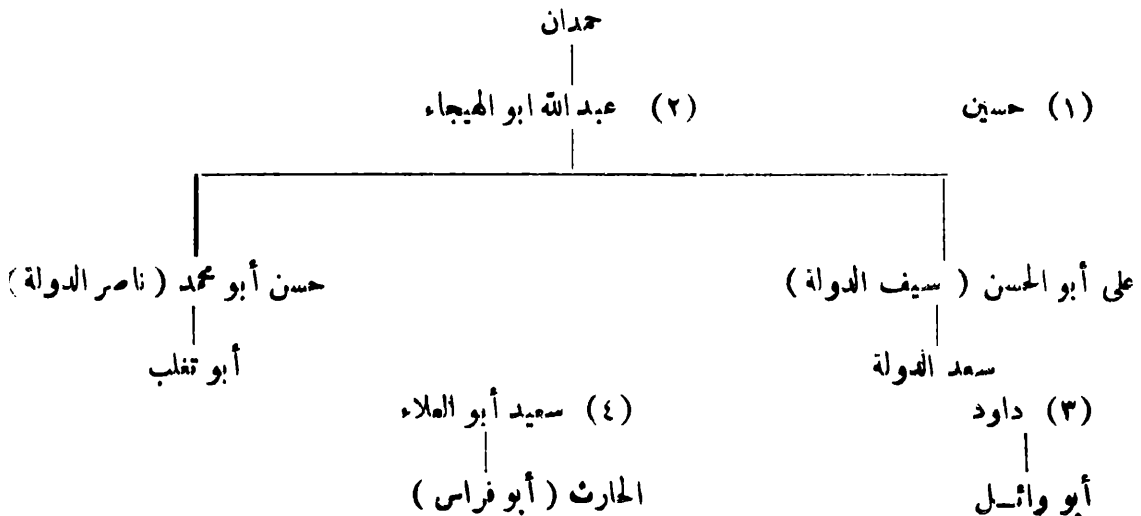
(٢) تحت أسوار منبج

منبج Bambyce بالبيزنطية ، وكانت تسمى باليونانية القديمة (المدينة المقدسة) (Hiérapolis) ومن تاريخها في الحروب أنها كانت البيت الديني للجيش اليونانية القديمة ، ومثابة للربان والقديسين يحيوونها من الديار البعيدة كل عام . وكانت سوقاً لآسيا طوال الزمن القديم ومستجماً تتقابل فيه القوافل الكبرى الذاهبة إلى الشمال والآية إلى الجنوب أما هيكلها فقد هدمه الغزاة الكثيرون من طول ما نسجوه ، بهجمات خيولهم من جنوب وشمال . أما اليوم فقد انهدم فيها كل شيء قديم ، ولم يبق من آثار ماضيها إلا بقايا الهيكل ، وانتشرت حوالها قبور المسلمين . وقد نام تحتها أبطال مناجيد كانوا في عصر بني العباس

(١) كتابه عن نيسيفور المتقدم ذكره ص 219

(٢) أنبت Dieterici وكان أستاذاً بجامعة برلين في كتابه Mutanabbi und Seifuddaula طبع

ليدن سنة ١٨٧٤ ص 142 نسب سيف الدولة وأبي فراس كما يأتي تعريبه :



أيام سيف الدولة وأبي فراس حماة الديار ، وغلبة الروم .
وصف مدينة منبج قاضي القضاة محمد بن الشحنة الحلبي (١) ، وكان من أهل القرن التاسع للهجرة فذكر أن سورها كان إلى أيامه ووصف بناءه .

فليت شعري كيف سأذكر الحارث الحمداني أبا فراس إذا مررت يوماً بمنبج (٢) فوقفت
حيث كانت تعلو تلك الأسوار .

لأذكرن أن جيوش البيزنطيين كانت تنحدر في طول الأناضول وعرضها وقد تجمعت
أولاً في عسكر مجر لم تعرف بلاد العرب حشد مثله قد أقبل عليها من قبله ، وكان سيف
الدولة في تخاذله الأخير وانكفائه على نفسه . فما راعه إلا الجيش البيزنطي يسد الشمال
فينحدر من جبال طورس ، فاستجاش العدة أمير حلب من فوره ، وهب بمن معه من بقايا
الأتعوان ليصد رجيل البيزنطيين في مدينة أعزاز في شمال سورية . وحين عاين الخطر الداهم
والسيل الرومي ، قفل مسرعاً وأمر بأبواب حلب فأغلقت واستعد أهلها للحصار (٣) .

بل لأذكرن هذا الجيش البيزنطي إذ انحدر من أقصى الشمال سنة (٣٥١) للهجرة ،
وكان يرغو كبركان ويقصف كهواصف . وقد حلف نيسيفور فوكاس لا وقف به زحفه
إلا عند أسوار بيت المقدس فأنشأ جيشه في مدن الشمال فكان ابن أخيه (تيودور theodore)
قائد الحملة التي حاصرت منبج ، وكانت منبج إقطاع (٤) أبي فراس وكان متقلداً لها (٥)
فأصبح فارس حمدان للقائد البيزنطي ودافع عن مدينته منبج بضراوة حتى أثنى البيزنطيون
جراحاً وغلبة الروم بكثرة جمعه ، فوقع أبو فراس أسيراً وأسلم نفسه للروم ومعه سبعون
من فرسانه فحمله الروم إلى القسطنطينية .

(٣) روميات الأسير

يروى المؤرخان اليونانيان (سيدرنوس وغليكاس) حوادث حصار نيسيفور فوكاس
لحلب وما ذاقت على يديه حاضرة سيف الدولة سنة ٩٦١ للميلاد (٣٥١) للهجرة من
القهر والهوان .

-
- (١) الدر المنتخب في تاريخ حلب ووقوف إلبان سر كيس الدمشقي ط بيروت سنة ١٩٠٩ .
(٢) ليس اليوم في شمالى حلب بلد في سورية أعن من منبج وأفيج ، ففى في نطاق من البسايين
وفيها عيون . وسكانها أكثرهم من الشراكسة .
(٣) لم يكن سيف الدولة في حلب حين حاصرها نيسيفور فقد انحدر الى بعض القرى المنعزلة وأمله
فعل ذلك لإبقاء على نفسه ليستطيع نصرة قومه لإبان الحصار أو بعده .
(٤) تاريخ أبي الفداء الطبعة الأولى الحسينية بصرج ٢ ص ١٠٨ .
(٥) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٢ ص ١٩٢ . الآتي ذكرها

ويروى المؤرخون العرب هذه الواقعة في اقتضاب أو تفصيل .

فيكون من حوادث هذا التاريخ وقوع أبي فراس في قبضة الروم وبقاؤه سنين في القسطنطينية . لكن (شلبرجة) يقول إن أبا فراس نزل في بلاط القسطنطينية حتى اقتداه سيف الدولة سنة ٩٦٦ . وأبو منصور الثعالبي يقول إنه حصل مشخناً بخرشنة ثم بقسطنطينية وهو يقول في شعره :

إن زرت خرشنة أسيرا فلقد حلت بها أميرا

فيتبين من الروايتين العربية والفرنجية ومن بيته هذا أن البيزنطيين حملوه أسيرا من منبج إلى خرشنة مشخناً بالجراح ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية .

هذا رأى ، ورأى آخر حسب روايتين أخريين عربية وفرنجية . أما الفرنجية فقد رواها (بروكلمان Brockelman) في فصله المختصر الذي كتبه عن أبي فراس في معلة الإسلام الفرنسية (١) ، فقال إن أبا فراس أسر مرتين : مرة سنة (٩٥٥ لليلاد ، ٣٤٨ للهجرة) وهو أمير حصن وحلبه البيزنطيون في حصن (خرشنة) ففر منه بأن ألقى بنفسه من مشارفه بقفزة مهلكة .

وأسر مرة ثانية في سنة (٩٦١ م = ٣٥١ هـ) فأخذ في هذه المرة إلى القسطنطينية . ويقول (بروكلمان) أفسر ما رواه (شلبرجة) بأن أبا فراس كان أعرج من أثر ضربة في رجله .

والرواية الثانية العربية هي رواية (ابن خلكان (٢)) . ولا أشك أن بروكلمان قد صدر بقوله عنها . فقد روى أديبنا القديم أن أبا فراس أسر أول مرة بوقعة (مغارة الكحل) سنة (٣٤٨) ولم يتعد به الروم خرشنة ، ووصف ابن خلكان خرشنة بأنها كانت قلعة للروم ، والنهر يجري من تحتها ، وقال إن أبا فراس ركب في هذه القلعة فرسا وركضه ، فأهوى به من أعلى الحصن إلى النهر ، والمرة الثانية التي أسر فيها هي أسر الروم له ، في منبج وحملهم إياه إلى القسطنطينية .

فأبو فراس إذن لم يكن في وقعة حلب حين دخلها الروم وأبادوها ، وإنما كان عندئذ في الأسر يتقلب على مثل الشوك من تباريح أشواقه إلى ابن عمه ، ولم يكن له عزاء في أسره سوى أن ينعطف إلى أشعاره ، فيسكن تباريحه بحماساتها ، ويبكي لهفة على أمه (صهيجة) . وكانت (صهيجة) نبيلة الصفات في قومها ، ربطتها مودة إلى ابنها كأنها الجنون ، ولذا

فإننا نحس طائف هذا الجنون في شعره إليها وهو يتظلم في أسره ، ويحن إلى الوطن ، فإذا هدا في جنح الليل أرسل طرفه الباكي ، فتخيل أمه العجوز باكية عليه بمنبج ، وهي البارة الرحيمة والعبادة لله التقية ، فسكب خواطر أحزانه على الشعر وبات يقول :

لولا العجوز بمنبج . ما خفت أسباب المنية

وكان يعز عليه لولاها أن يطلب من ابن عمه الفداء (على عادة العرب والروم في تفادي الأسرى كما ذكرت) فقال :

ولكان لي عما سألت من الفدا نفس أيية

والظاهر أن أمه هي التي كانت تلح عليه ، برسالاتها أن يطلب الفداء من ابن عمه ، فشرح هذا في البيت الآخر :

لكن أردت مرادها ولو انجذبت إلى الدنية

وكم يحزنني أن أذكر أمه — وأنا الفاقد أوى — إذ يقول لها في آخر هذه الرسالة الشعرية

يا أمنا لا تحزني وثقي بفضل الله فيه

يا أمنا لا تيأسي لله الطاف خفية

وكانت أمه تخرج إلى طريق القوافل المارة بمنبج ، فتسأل عنه الركبان ثم لما أعيها سؤال القوافل بغير جواب ، خرجت من منبج إلى حلب ، ودخلت على سيف الدولة فسأله فداء ولدها ضارعة إليه شاكية .

ولما طال فداؤه انطوى على نفسه يقول مثل هذا الشعر :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسى مهر ولا ربه غمر

ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر

وقال أصيحاني الفرار أو الردى فقلت : هما أمران أحلاهما مر

وإذا عدنا إلى (شلمبرجة) فإننا نجد يقول إن أبا فراس كان نزل وهو أسير في بلاط

القسطنطينية .

ولكنني أجد في شعره الذي قاله في القسطنطينية أنه كان يرسف في القيود ، فكان إذن

سجيناً عند الدمستق (رومان الثاني ^(١)) ولعله نزل سجيناً بعد وصوله إلى القسطنطينية ثم

أطلقه الدمستق (فكان يدعو إلى مكالمته ومناظرته في آراء الحرب والدين .

وقد رأيت في شعره أنه حمل مقيداً على الرغم من جراحاته ، وأنه إذ جاء به البيزنطيون

(١) توفي قسطنطين السابع سنة ٩٥٩ للميلاد فنصب البيزنطيون بعده على القسطنطينية رومان الثاني

Roman II امبراطورا . وكان نيسيفور فوكاس القائد الأكبر لم يشب بعد على العرش .

إلى خرشنة كان القيد في رجله ، ثم مضوا به في درب الروم وهو مصفود بالأغلال . فهو في إحدى رسالاته الرومية يصف أمه بأنها عليلة حزنا عليه ، فيقول في قيوده :

عليلة بالشام مفردة بات بأيدي العدى معلما
تسأل عنا الركبان جاهدة بأدمع ماتكاد تمهاها
يامن رأى لى (بحصن خرشنة) أسد شرى في القيود أرجلها
يامن رأى فى (الدروب) شاحخة دون لقاء الحبيب أطولها
ليست تنال القيود من قدى وفى اتباعى رضاك أحملها

وفيها يشير الى سؤال العجوز لسيف الدولة فداه . وأرى أنه كان فى هذه النوبة الثانية من أسره حبيساً فى حصن (خرشنة) أيضاً قبل أن ينقل الى القسطنطينية ، لأن إقليم خرشنة واقع فى الدرب الى القسطنطينية فهو يقول بتلك الإشارة .

جاءتك تفتح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها

ولم تكن رسائل أبى فراس إلى أمه من القسطنطينية إلى منبج ، رسائل بكاء والتىاع فحسب وإنما كان فيها شعر حماسى يتأسى به الفارس الحمدانى ويدعو فيه أمه الى الاعتزاز ، فهو بعد أن يقول :

وإن وراء الستر أما بكاؤها على وإن طال الزمان طويل
يقول .

لقيت نجوم الأفق وهى صوارم وخضت سواد الليل وهو خيول
وكان أبو فراس يلح بفكاكه فى كل قصائده الرومية — كما يظهر من شعره — ويعاتب سيف الدولة فى القعود عن ذلك . وقد أفسح سيف الدولة بقعوده عن فكاك أبى فراس مجالا لقول الحاسدين الذين كانوا عند سيف الدولة يؤثرون بقاء أبى فراس فى الأسر ، حتى لجأ أبو فراس إلى تهديد سيف الدولة بأنه سيلتجئ لاهل خراسان فى فكاكه .
وقد فات مؤرخى العرب الذين ذهبوا مذهب التعليل الخاطىء إذ زعموا أن سيف الدولة تجافى عن ابن عمه وقعد عن فدائه ، فاتهم أن يعرفوا الحالة السياسية والاجتماعية التى كان عليها سيف الدولة حينذاك .

إنه كان كالخارج من الموت ، حلب مهدمة ، ورجاله منكفون عنه ، وبعضهم قتل أو أسر ، وماله الذى كان فى بيته فى حلب فى (الحلبة) منهوب ، حمله البيزنطيون إلى القسطنطينية وغلبانه شامسون يتربصون به الوثوب عليه ، والرومان ظافرون ظفرا لم يحلوا بمثله منذ عهد الفتح الإسلامى ، زمن الخلفاء الراشدين حين جاء الإسلام بلادهم . فلم يعد لسيف الدولة عندهم ذلك

المجد الحديدي ، وتلك الصولة التي كانت ترهبهم ، كل هذه الامور لم يعرض إلى واحد منها ، أحد من مؤرخي العرب بما فيهم ابن خلدون ، كما لم يعرض لها مؤرخو التاريخ البيزنطي الذي نقله لنا هواة البحث فيه من مؤرخي الفرنجة .

هذا هو الذي أقعد سيف الدولة عن فكك أبي فراس وغيره من أعزاء الحمدانيين لديه . وإن أبا العشائر بن حسن بن علي الحمداني ، كان في الأسر أيضا ، فقد أسر في معركة تل (البطريق) عند (حصن عرمدا) الذي أسره ليون بن الدمستق وحمله إلى القسطنطينية ومات في الأسر سجيناً (١) وكان في الأسر من أشرف حمدان ابن أخى سيف الدولة محمد بن ناصر الدولة وكان أبو الهيثم ابن قاضى سيف الدولة أبي الحصين وخلق كثير من رجاله و (حرسه الخاص) فبعد عن فداء كل هؤلاء . ولا شك قد كان يحزنه موت أبي العشائر وهو الفارس البطل والشاعر الحماسي .

ولقد كان في نية قائد الروم (نيسيفور فوكاس) أن يستأصل شأفة الحمدانيين جميعا ويلحق سيف الدولة في ملجئه خارج حلب لولا أن عاجلته القلاقل السياسية في القسطنطينية ، ولولا مقتل ابن أخيه (تيودور) الذي أسر أبا فراس ، إذ اقتحم ممر القلعة حلب فأسقط عليه الحمدانيون من أعاليها حجرا رضح رأسه فأهلكه فتشنى نيسيفور بمقتلة أشرف أسراه على مرأى من الحمدانيين المعتصمين بالقاعة في بهرة حلب ، وحلب يومئذ تموج بدم سكانها . (ولم يرو هذه الحادثة الأخيرة) ديمحي بن سعيد الأنطاكي ، وإنما رواها « شلبرجة » .

(١) من أجل المصادر وأوثقها (تاريخ ديمحي بن سعيد الأنطاكي) وقد اعتمد عليه كل المحققون بالتاريخ البيزنطي في العصر الحديث في أوروبا فأضافوا حوادثه التي رواها عن عصر سيف الدولة إلى الكتب البيزنطية التي وقعت إليهم واستجلابها حقائق التاريخ البيزنطي والإسلامي في نفور الشام وبلاد الروم في القرن العاشر الميلادي .

وقد نشر (تاريخ ديمحي بن سعيد الأنطاكي) كراتشكوفسكي وفاسيلييف الروسيان المتخصصان بالتاريخ العربي وأدبه أول مرة بالعربية في مجموعة Patrologia orientalis المجلد XVIII طبع باريس سنة ١٩٢٤ مع الترجمة الفرنسية لنصوص هذا التاريخ القيم نقلا عن أقدم مخطوط محفوظ في دار الكتب الكبرى في ليننجراد ، ومكتوب في القرن الخامس عشر الميلادي وقد دلهما على هذا التاريخ العالم الألماني البارون (Van Sosen سنة ١٨٨٣) .

ويمحي بن سعيد الأنطاكي هذا من مؤرخي القرن الحادي عشر الميلادي وقد ذكر في أول تاريخه أنه تاريخه « تبعا لتاريخ (سعيد بن البطريق) لاذ كان ابن البطريق انتهى في تاريخه بالسنة الخامسة من خلافة الرازي وهي سنة ست وعشرين وثلثمائة » .

(أنظر هذا المصدر من ص 728 — 787 ففيه نبذة مختصرة عن عصر الحمدانيين وسيف الدولة تنعم غليل الباحث المقارن بين التاريخ العربي والتاريخ البيزنطي) .
(وأسر أبي العشائر وموته ورد في ص 772 من هذا المصدر)

وحين ارتد نيسيفور فوكاس إلى حاضرة بلاده وجد السبيل إلى الاستيلاء على عرش
بينظلة بمعونة (تيوفانو) زوجة مولاه وعشيقة التي صارت له زوجا بعد أن آمت من (رومان
الثاني) وهي التي قتلتها بعد ذلك بمعونة (يانيس ^(١)) تزميسيس (عشيقها الأخير .

وقد شاء الحظ أن يخدم أسرى الحمدانيين وأن يرفع الستار عن كاهل سيف الدولة فأتاح
له أن يطلب فكك أسراه ، وكان البزنطيون في بحران سيامي واختلاف داخلي ، فقبلوا منه
(ملتمسه) .

كذلك يقول (يحيى بن سعيد الأنطاكي) أن سيف الدولة (التمس) من نقفور الملك
المفاداة بمن أسر من المسلمين بمن عنده من أسرى الروم فأجابه إلى ذلك وسار سيف الدولة
من (ميفارقين ^(٢)) إلى سميساط (وأقام الفداء على شاطئ نهر الفرات) في رجب
سنة ٣٥٥ (٣) .

فقدى باني ناصر الدولة محمد وبأبي فراس وبالقاضى أبي الهيثم وغيرهم وبغلبانه بمن
أسرهم الروم ودفع للروم (أعور حرم) و (ابن بلنطس) وجميع من كان عنده من أسارى
الروم ، ولما لم يبق عند سيف الدولة من الروم من يفادى به اشترى من الروم بقية أسرى
المسلمين وكان عددهم (ثلاثة آلاف نفس) بمائتين وأربعين ألف دينار رومية وأجحف
ذلك به (٤) ،

هذا مارواه الأنطاكي ، وليس فيه الكفاية .

وقد أتم بغية هذا البحث عندي مارواه أبو منصور الثعالبي في اليتيمة ^(٥) بقوله ، « ولما
خفف عن أبي فراس ورقه ونوظر في أمر الهدنة والأسارى أجيب إلى ملتمسه بعد أن
أكرم وبجل ، .

فيظهر من هذه الرواية أن أبا فراس عقد الهدنة وكتب صكا بفك أسره وصحبه فسفر
بذلك لسيف الدولة .

(١) عرب يحيى بن سعيد الأنطاكي في تاريخه اسم Jean يانيس لكنه أخطأ في إطلاق كلمة
(الشمشيق) كغيره من المؤرخين على القائد Tzimiscés وصوابها الشميشيق كما قدمت وهو تصغير
chamachic ابن تزميسيس .

(٢) Miphracta

(٣) عين (شلهبرجه) (ص 696 من كتابه عن نيسيفور فوكاس) الفداء بحزيران سنة ٩٦٦ .
وأبو الفداء بتاريخه الطبعة السابقة ج ٢ ص ١٨ عينه بسنة (٣٥٥) أيضا

(٤) ص 803 من المصدر السابق بمجلة (Patrologia) .

(٥) الطبعة السابقة ج ١ ص ٦٦ .

ورواية ثانية تكمل هذه أوردها أميدروز amedroz الأستاذ بجامعة اكسفورد وهو ضريح (مارغوليوث) . قال نقلا عن تاريخ (علي بن محمد الشمشاطى^(١)) فى حاشية له على كتاب تجارب الأمم الذى نشره^(٢) :

أن رسول سيف الى الروم فى هذه المفاداة كان (أبا القاسم الحسين بن على المغربى^(٣)) أرسله سيف الدولة لتقدير المبلغ الذى تكون عليه الفدية ومعه هدية بعشرة آلاف دينار منها ثلاثمائة مثقال مسك .

ولا ريب فى أن هذا الفداء أهبط سيف الدولة وكلفه مابقى معه من المؤونة بعد أن تضعضع ماله (فيروى صاحب تجارب الأمم ويروى كذلك يحيى بن سعيد الانطاكى) أن سيف الدولة انصرف من الفداء ودخل حلب وأقام بها ليلة واحدة وخرج وهو عليل من الاسترخاء العارض له . فكان يحمل فى قبة^(٤)

إن هذا الهوان الذى أصاب أمير حلب طعن نفسه . ولا ارتاب فى أنه كان الأثر فى هذا الفالج الذى أصابه ، فأذنت أيامه بالزوال .

كان البطل الحمدانى خرج من الأسر فجاء حلب ليودع سيف الدولة الوداع الأخير . لقد مات سيف الدولة على فراشه سنة (٩٦٧ م . ٦٥٣ هـ) وكما كان يؤثر أن يموت فى الحرب وألا يجود بنفسه حتف أنفه .

لأنه أوصى أن يوضع رأسه فى قبره على لبنة كان جمعها (من نفص غبار غزواته) ، فأذكرنى مرة ثانية بضريعه نابليون إذ أراد أن ينصب تمثاله على عمود من ذوب المدافع التى كسبها فى حروبه . وكذلك كان . قد نصبوا له عموداً شاهقاً فى ساحة (فاندوم) بباريس

(١) فى يتيمة الدهر للعلماي ج ١ ص ٨٩ ذكر زهيد للحسن بن على بن محمد الشمشاطى ، وكان شاعرا فى شعراء الدولة الحمدانية وأدبائها أما تاريخ الشمشاطى فليس فى مصر بدور كتبها . وقد اضطررت الى قبول ما أورده (أميدروز) حملا على روايته على الرغم من تخرجى فى المصادر .

(٢) ج ٢ ص ٢٢٠ هامش رقم ٢) .

كتاب تجارب الأمم لأحمد بن محمد بن مسكويه طبع شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٩١٥ بوقوف Amedroz وقد ترجم أجزاءه الى الانكليزية ونشره بلندن سنة ١٩٢١ . وابن مسكويه هذا من مؤرخى أوائل المائة الرابعة للهجرة وكان فى زمن من حياته كاتباً عند أبى الفضل بن العميد الكاتب الصناعى المشهور . وذكر عن ابن العميد فصلاً ضافياً فى كتابه ، إذ كان فى خدمته بضع سنين . وقد تهصب على سيف الدولة فرماه بالعجب والكبرياء والاستبداد فى الرأى . (ج ٢ ص ١٨١)

(٢) هو لاشك صاحب (أبى العلاء المعرى) الذى عرف فيما بعد (بالوزير المغربى) وورثاه أبو العلاء فى الازوميات وحده .

(٣) 804 من مجموعة Patrologia السابقة ، و ج ٢ ص ١٩٩ (تجارب الأمم) .

وعليه تمثاله يقف أبداً فوق ذوب المدافع التي هزم عنها أعداءه . كذلك فعل سيف الدولة من قبل نابليون (بثمانمائة وخمسين عاماً) لقد ذكر صاحب اليتيمة أنه غزا أربعين غزوة له وعليه . وقد تبسط ، شلهبرجة في وصف هذه اللبنة الحربية المقدسة ، فقال إنها كانت مزيجاً من غبار معاركه مع الروم ملبوكة بعرقه ، فكانت تجمع من ثيابه ومن بدنه قبل أن يستحم عند قفوله من الحرب

إني لأشعر بحماسة تشيع في أعطافى فتتملاً على منافذ العين ومسارب السمع حين أتصور سيف الدولة وقد أسند لاحده خده الأصيد إلى هذه اللبنة الهائلة في جانب أمه الحنون بمدينة ميا فارقين وهو الذي كان في الحياة يحب أمه كما يحمدنا شاعرنا المتنبى ، إذ ألبس جنوده التجافيف^(١) وراح بهم إلى زيارة أمه في (ميا فارقين) . ولم يكن جنوده في هذه الزيارة يسرون إلى الحرب ولكن حماسة سيف الدولة زينت له كرامة البطولة ، فكان جنوده خمسة آلاف ومعهم غلمانهم بألفين . وقد هاجمت هذه الزيارة الحنون بلابل أبي الطيب فراح يصف هذا الجيش الذي وقف سيف الدولة يعرضه فوق تراب أمه ، وكان كأنما يريد أن يشعرها بآسائه وسلطانته لتظل في نومها الأبدى مطمئنة عليه . ومد أبو الطيب خياله إلى الخيل فجعل هذا الحيوان الحنون يشارك سيف الدولة بالركة والرحمة ، فهو أبدأ كلما ركب الخيل مالت بأعناقها نحو اليمين حناناً من حلب إلى ميا فارقين ، وأمطرت السماء يومذاك فقال عن الغيث :

فزار التي زارت بك الخيل قبرها	وجشمه الشوق الذي تتجشم
ولما عرضت الجيش كان بهاؤه	على الفارس المرخى الذؤابة منهم
حواليه بحر للتجافيف مانج	يسير به طود من الخيل أيهم

وفي هذه الخيل يقول :

وأدبها طول القتال فطرفه	يشير إليها من بعيد فتفهم
تجانف عن ذات اليمين كأنها	ترق لميا فارقين وترحم

وعن تلك اللبنة الحماسية قال (شلهبرجه) :
 « هي وحدها في ظلمة قبر سيف الدولة الشاهد الفخور لألف معركة ، . كذلك شهد أبو فراس موت ابن عمه سيف الدولة . ولسكنه لم يقل في رثائه شعراً ، وكان ينبغي أن ينوح عليه في شعره . ولعل له شأناً كشأن أبي الطيب في نكبة حلب فيما فاتنا من شعره .

فخرم الجبار الحمداني شاعريه . مات المتنبي قبله ، ومات هو قبل أبي فراس ، فلم يرثه أبو فراس . وإن مثل مصابه ليلجم الشعر ويبيكم الأفواه .

(٤) هريبات أبي فراس

هل حاول أبو فراس نظم الملحمة ؟
سألت نفسي ذلك حينما فرغت من قراءة قصيدته الرائية الكبرى التي أولها : لعل خيال العامرية زائر .

وقد سكبها قصيدة على روى الراى ، كلها من بحر واحد في مائتين وخمسة عشر بيتا . فكانت قصيدته هذه قد جاءت إلى عهده أطول قصيدة محكمة في شعر الحرب ، يفيض بها شاعر ملء الشوط في معان قوية ولفظ مكين .

بدأها بالغزل على عادة شعراء العرب القدامى في عصره ، ثم افتخر بفروسته وبمجد قومه ذا كراً سوائف المحامد لعمومته وأهليه ، حتى بلغ سيف الدولة صاحب حلب ، وناصر الدولة صاحب الموصل فقال فيهما :

ففيما لدين الله عز ومنعة ومنا لدين الله (سيف) وناصر
وذكر صوراً من مغازى سيف الدولة لديار الروم . وكان بيته الرائع الذي يقول فيه
عن سيف الدولة :

وأوطأ حصنى (ورتنيس) خيوله وقبلهما لم يقرع النجم حافر (١)
يهيج عندى خيالا من معارك سيف الدولة . وإن أبا فراس ومن قبله أبو الطيب ليعجزهما
وصف فروسية سيف الدولة . فأبو فراس يعتذر عن ذلك بقوله في هذه الملحمة .

ألا قل لسيف الدولة القرم إننى على كل شيء غير وصفك قادر
ووصف في الملحمة هروب الدمستق بعد أن جرح في وجهه فقال :
وولى على الرسم الدمستق هارباً وفي وجهه عذر من السيف عاذر
وقد أشار أبو الطيب إلى هذا الجرح في وجه الدمستق في قصيدته اللامية فقال يعير
الدمستق بفراره .

نجوت بإحدى مهجتك جريجة وخلفت لإحدى مهجتك تسيل
وأمعن أبو فراس في ملحمة بذكر ما تبقى من قومه الأبطال بعد طويل الحروب فذكر

أسماءهم وأعمالهم حتى قال في آخرها وهو يحل نفسه أن يكون مادحا متملقا أو شاعرا مأجورا :

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى فما أنا مداح ولا أنا شاعر

وقد غلبه الفخر بالقبيلة في هذه الملحمة على التبسط بذكر الحرب وتصوير المعارك . وهو إن أجل الكلام على حروب الحمدانيين للزوم في رأيته الكبرى فقد تبسط في قصيدته التي قالها بعد أن أضافه الدمستق في مناظرة جرت بينهما في القسطنطينية حين كان عنده أسيراً فكان يزور البلاط ويجالس الملك (١) بعد أن فككت قيوده . فقال له ملك الروم (٢) : إنما أنتم كتاب ولا تعرفون الحرب ، فقال له أبو فراس نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ .

وازدحمت في صدر أبي فراس ذكريات الحروب وهو في أسره وما كسب العرب من نصر على الروم فراح يذكر — في قطعة واحدة — مفاخر الحمدانيين في الحروب البيزنطية وأسرى الروم وأقيالهم وقوادهم بأسمائهم وأيام انكسارهم في حروبهم مع قومه ، فقال وهو يعير الدمستق ويزجره ويقدم صورته في أول بيت بأنه ضخم العنق فيقول (٣) :

أتزعم يا ضخم اللغايد أننا	ونحن أسود الحرب لانعرف الحربا (٤)
فويلك من للحرب إن لم تكن لها	ومن ذا الذى يضجى ويمسى لها تربا
ومن ذا يقود الجيش من جنبااته	ومن ذا يقود العين أو يصدم القلبا
وويلك من أردى أخاك (بمرعش)	وجلل ضربا وجه والدك العضبا (٥)
وويلك من خلى ابن أختك موثقا	وخلاك (باللقان) تبندر الشعبا (٦)
أتوعدنا بالحرب حتى كأنتنا	ولمايك لم يعصب بها قلبنا عسبا

(١) أعلل سبب مجالسه أبي فراس الملك الروم واختلاف هذا الأمير الحمداني إلى بلاط الامبراطور البيزنطى بأن أم أبي فراس كانت بيزنطية . وأظهر دليل هذا فيما بلى .

(٢) النتيجة ج ١ ص ٦٥

(٣) المصدر نفسه والصفحة . وديوانه السابق ص ١٠٤

(٤) اللغايد لحم الحلق ويتصد بها أبو فراس ضخم العنق ، والرومان كانوا جسوما طوالا وأعناقاً ضخاما .

(٥) أى جعل العضب وهو السيف يجلل وجه والدك بالضرب .

(٦) شدد اللقان وكان أبو الطيب يخففها .

فسل (بردسا) عنا أباك وصهره
 وسل (قرقواسا) والشميشيق صهره
 وسل صيدكم (آل الملايين) إننا
 بأقلامنا أحجزت أم بسبوفنا
 رعى الله أوفانا — إذا قال — ذمة
 ولو أن أبا فراس كتب تاريخ حياته في حربه لما زاد على البيتين الآتين اللذين يصف
 فيهما هذه الحياة التي كثرت فيها الغارات وركوب المطايا بعد كسر أعدائه في كل البلاد .
 جمعت سيوف الهند من كل بلدة
 وأعددت للهيجاء كل مجالد
 وأكثرت للغارات عندى وعندهم
 مئات البكيريّات حول المراود (٤)
 وهو يسرد في بعض شعره كيف سار بجيش لجب جيّاش بالصناديد وعليه الرايات الحر
 تخفق بها الرياح وكان صاحب هذا الجيش سيف الدولة الذى يفرغ ثباته على قلب الجيش
 وجناحه . وقد وصف هذا المسير بعد أن أتى رسول ملك الروم يطلب الهدنة من سيف الدولة
 — بعد حرب من حروبه — (على نحو ما وصفت في كلامى على شعر الحرب عند المتنبي)
 فأمر سيف الدولة الجند أن تركب بسلّاحها لاستقبال الرسول وركب هو من داره المسماة
 (بالدارين) فى ألف جندي من (حرسه الخاص (٥)) الممالك وعلى أفراسهم ألف جوشن

(١) رجعت فى هذه القطعة وهى أكثر قطع أبى فراس بأسماء الروم وأحشدها ذكرًا لحروبهم مع
 الحمدانيين فى جملة واحدة ، إلى مخطوط الديوان . وهو أحسن مخطوطاته الموجودة فى دار الكتب المصرية
 برقم ١٨٣٢ خصوصى أدب فى ٦٧ ورقة وهو نسخة بخط محمد بن أحمد الحياط الشافعى مغفل التاريخ .
 وقد جاءت هذه القطعة فى المخطوط بأسماء البطارقة والبلاد على وجه فى غاية التصحيف والغلط وجاءت
 بعدها نسخ الديوان المطبوعة على هذا النحو من الغلط — فكلمة (بردسا) جاءت فى المخطوط وفى
 نسخ الديوان وفى يديمة الثعالبي (فسل برد ، سل عنا أباك وصهره) . وبردس هو برداس قائد
 قسطنطين السابع ملك القسطنطينية المعروف بالبرفروجيني .

(٢) فى المخطوط والنسخ : (وسل قرقاشا والشمعق) . وقرقواس هو الأرنجى Jean Courcouas
 من قواد الدمشق (ص ١١٦ من كتاب « شلمبرجة ») .
 والشميشق بتصغير شمشيق هو Chamachiq ابن تزي عيسى على نحو ما بينت فيما سبق فى هوامش
 الكلام على حماسة المتنبي .

(٣) آل الملايين هم آل البطريق قسطنطين مالميتونوس (C. Maléinos) .
 (٤) البكيريّات ضرب من النوق ، والمراود الحلقات التى تربط بها المطايا .
 (٥) يعبر المؤرخون العرب بكلمة (الغلمان) فى حق سيف الدولة وأمثاله من الأمراء عما نسميه
 فى عصرنا (الحرس الخاص) .

مذهب من دروع الخيول على ألف (فرس عتيق) وألف (خفاف^(١)) وركب الناس والقواد على طبقاتهم في الجيش .

وما أحسب سيف الدولة فعل ذلك إلا ليرى رسول الروم عدة العرب وعديدها وليقوم بتكرمة السفير في استقباله الرائع ، فوصف أبو فراس هذا المظهر الحماسي بقوله :

علونا جوشنا بأشد منه	وأثبت عند مشتجر الرماح
بحيش جاش بالفرسان حتى	ظننت البر بحرا من سلاح
والسنة من العذبات حمر	تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهم	وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته كريم	قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا	وهيبته جناحا للجناح

وكان أبو الطيب المتنبي متما لأبي فراس في قصر سيف الدولة^(٢) وكان من وحي هاتين الشخصيتين اللتين تم إحداهما الأخرى أن بدأ أبو فراس وصف الجيش الذي وقف يوم مشول السفير ، فاتم أبو الطيب الكلام ، كيف وجد السفير في القصر في حضرة سيف الدولة وكيف تقدم فقبل الأرض بين يدي الأمير ثم قبل كفه .

وبحسب أبي فراس ، وأكثر شعره في الحروب والحماسة ، أن يبقى مطاولا بفروسيته ، وأن تكون مكانته في الحرب مكانة القواد الذين يحرون الكتائب الظافرة ، وهو البطل الذي يظلم حتى ترتوى قبله السيوف والرماح ، ويظل طاويا حتى يترك في ساحة الحرب قتلاء فيأكل قبله الذئب والنسر ، فيقول :

وإني لجرار لكل كتيبة	معودة ألا يخل بها النصر
وأصدا حتى ترتوى البيض والقنا	وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

(٥) نهاية النسر الحمداني

ما أشبه النسر بالبطل ! فلقد كان النسر رمزا للبأس والقوة . ويموت النسر فيتحامل على نفسه جبار الجناحين معكوف المنسر ، منشور الخلب . وكذلك يموت البطل .

(١) ديوانه ط بيروت سنة ١٩١٠ ص ٥٩

(٢) لم أقصد في هذا الرأي أن أقيس أبا فراس على قد المتنبي . فأبو فراس في شجاعته وبطوانته قد يفوق المتنبي . لكنه لا يقاس به في الشعر وفي قصائده الحماسية . فليس للمقارنة من سبيل بين قصائدهما إلا في الموضوع . أما في دياجة اللغة وأسلوب السبك ، وعبقرية المعاني فإن أبا الطيب المتنبي هو الجبار الوحيد . وقد قصدت إلى أن أبا الطيب كان متما لأبي فراس في بلاط سيف الدولة (لإتمام الشخصية غسب) و (لإتمام الموضوع) .

وأفل نجم حلب بعد سيف الدولة فغلب عليها ابنه أبو المعالي سعد الدولة ، فأنكر على أبي فراس ولاية حمص ، وكان سيف الدولة جعلها إليه . وكان أبو فراس قد استقر بعمله في حمص بعد فكاكه من الأسر في الروم . فاعتل عليه سعد الدولة وزعم أنه يجور في الحكم على أهل حمص فخاربه بغلامه (قرعويه) .

وكان (دثوراك) من المستشرقين الذين ولعوا بأبي فراس لفروسته (وشخصيته) الشعرية ، ولشعره في حروب العرب مع الروم وشهوده المعارك بنفسه التي كانت بين الروم وبين المسلمين ، ولأنه نزل في ملك البيزنطيين وجاورهم .

وقد روى (دثوراك) صورة من حياة أبي فراس قبل نهايته فقال (١) : إن أبا فراس أصبح يوم مقتله حزينا كئيبا ، وكان قد قلق تلك الليلة قلقا شديدا ، فرأته ابنته امرأة أبي العشائر (٢) كذلك فأحزنها حزنا شديدا فبكّت وهو على تلك الحال . فلما ركب جواده للقتال أنشأ يقول ورجله في الركاب والخادم يضبط السير عليها ، وكانت بنته تبكي لحاله :

أبنتي	لا تجزعي	كل الأنام إلى ذهاب (٣)
نوحى	على بحسرة	من خلف سترك والحجاب
قولى	إذا كلمتني	فعميت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا	س لم يمتع	بالشباب

ثم خرج أبو فراس إلى لقاء (قرعويه) بجمع من السكبيين فتركوه في زحام المعركة ، فوقع أسيرا . ولم يشفق عليه (قرعويه) التركي فسكلم بالتركية أحد المماليك ممن كان معه ان : — د اقبل أبا فراس ، .

فألقي المملوك بنفسه على أبي فراس وكان أعزل نزع أعداؤه سلاحه ، فخبطه خبطة واحدة بدبوس من شوك الحديد على رأسه فسقط الشاعر البطل . ونزل الغادر عن جواده فجز رأسه

(١) كتابه (أبو فراس البطل الشاعر) Rodolph Dvorak طبع ليدن سنة ١٨٩٥ ص 342 . وقد جمع فيه دفوراك شعر أبي فراس الذي رواه أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر . ودرس شعره بمقدمة كتابه وعدد النسخ المخطوطة من ديوانه في دور الكتب بأوروبا . وذكر أنه نقل دراسة الثعالبي (من الجزء الثالث) مع أن هذه الدراسة في كل النسخ العربية جاء بها الثعالبي في الجزء الأول . ويظهر من قدم الطبعة التي نشرها (دفوراك) لكتابته أنه نقل أقوال الثعالبي في أبي فراس عن مخطوط ولعل ترتيبه كان أجزاء مختلفة عن ترتيبها في الطبعات العربية .

(٢) تقدم أن أبا العشائر الحمداني وقع أسيرا فحمل إلى القسطنطينية ومات فيها سجيناً .

(٣) اليتيمة ج ١ ص ٧١ ويذكر ابن خالويه أن هذا آخر شعر قاله أبو فراس عند موته .

وعلقه بركاب أميره (١) وبقي جسد الصريع رفيق سيف الدولة ومنافسه في الشعر والفخر عاريا مطروحا جزر السباع، تنوشه جوارح الطير في عرض الصحراء، حتى مر به أعرابي فأشفق على الجسد الهامد، فلفه بكفن وأدرجه في التراب. وكان ذلك في ربيع الآخرة من سنة ٣٥٧ الموافقة آخر شباط سنة ١٦٨ لليلاد (٢).

وبلغ أمه (صهيجة) (٣) الخبر الصاعق فخفت إلى مكان ثراه وطاف بها من هول التفجع طائف الخيبة الأخيرة فرفعت أصابعها إلى عينيها ففقتاهما (٤)، كما فعل (أوديب الملك)،

(١) تاريخ أبي الفداء الطبعة الحسينية بمصر ج ١ ص ١٠٨ وكتاب شلمبرجه (تاريخ نيسيفور فوكاس) ص 698 وقد ذكر (دفوراك) في كتابه السالف أن أبا فراس وأخاه (أبا السرايا) كانا شاعري بني حمدان وكان أبو المرايا الأصغر (ص 9).
(٢) مات أبو فراس وعمره ٣٧ عاما.

(٣) يقول شلمبرجه (ص 698) من كتابه عن نيسيفور فوكاس أن (صهيجة Sahyjah) أم أبي فراس كانت في قديم عهدها (أمة) ثم علا شأنها فصارت عزيزة غالية. وقد وجدت الدليل على أن أمه كانت بيزنطية من قوله وهو في القسطنطينية أيام أسره فقد أرسل إلى ابن عمه سيف الدولة فيما أرسل من القصائد قصيدة يعاتبه بها لعوده عن فدائه وفي هذه القصيدة بيتان يذكر في أولهما أنه قضى في القسطنطينية سنتين إلى يوم قصيدته وأنه إن خاف من (أخواله الروم) أمرا واحدا تخوف من أعمامه العرب أربعة أمور. والبيت الأول أورده أبو منصور الثعالبي في جملة القصيدة ولم يرد في الديوان، والبيتان هما:

أقت بأرض الروم عامين لا أرى من الناس مخزونا ولا متصنعا

لذا خفت من (أخوال الروم) خطه تخوفت من أعمام العرب أربعا

لقد أقر لنا أبو فراس (بهذا) أن أمه كانت بيزنطية ولكنه لم يذكر أنها كانت (أمة) وقد رجعت إلى معاجم العربية في مادة (صهجة) فلم أجد فيها ولا في مادة (صهجة) إسما لامرأة بهذا الوزن عند العرب. فسألت نفسي عن صهيجة (حسبا قال «شلمبرجه») بأنها كانت أمة، هل كانت لاحدى السبايا من البيزنطيين أو أن هذا الاسم رومى؟ ومن يدري؟ فإن بعض السبايا من الروم كن زوجات للحمدانين (وقد قدمت في كلامي على سيف الدولة أنه كانت له زوجة من بنات ملك الروم وكانت أكثر نسائه حظوة عنده فكان يحفظها في بعض الحصون خوفا عليها). فأم أبي فراس إذن بعد قوله (أخوال الروم) امرأة بيزنطية تزوجها أبوه وكانت من السبايا. وقد روى ابن خلدون في وفيات الأعيان (ط البارون أوسلان بياريس سنة ١٨٣٨ ج ١ ص ١٨٨) أن ثابتا بن سنان الصابي ذكر في تاريخه أن أبا المعالي سعد الدولة قتل أبا فراس في الحرب وأخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة في البرية حتى جاء بعض الأعراب فكفبه ودفنه (كما ورد في قول شلمبرجه، لكن رواية ابن خلدون تسمى أم أبي فراس (سخبينة)، فيقول إن سخبينة قلمت عينيها لما بلغت وفاته. وقيل أنها لطمت وجهها فقلعت عينيها.

(٤) كتاب شلمبرجه السابق ص ٦٩٨/٦٩٩ ولم يذكر شلمبرجه ولا غيره من كتاب التاريخ البيزنطى أن أم أبي فراس كانت (بيزنطية) ولا ذكر ذلك أحد من العرب. لكن أبا فراس وحده هو الذى أعاننى على تفسير كلام شلمبرجه بمد يتيه السابقين.

وهبطت بغير وعى ميتة على ثرى أبي فراس ولدها البطل الشاعر ، يملأ أذنها صمما صوته وهو
باك مرناً في عرض الصحراء ينشد آخر بيت قاله :
زين الشباب أبو فراس لم يتمتع بالشباب

* * *

تلك خاتمة البطل الثاني من آل حمدان ، مات مهدور الدم في بلد أهليه (١) ، وكأن الشعر
أوحى إليه بمثل هذا المصير حين قال عن أهليه :

أراني وقوى فرقتنا مذاهب وإن جمعتنا في الأصول المناسب
فأقصاهم أقصاهم عن مسااتي وأقربهم مما كرهت الأقارب

* * *

لقد فسر سعد الدولة ما كبت في نفس أبيه سيف الدولة (٢) كان أبوه يمنعه العقل وتغلب
عليه الشجاعة ، فخنق البطل في ظلام ضميره حسده لابن عمه البطل . وراح من الدنيا وهو لا يظهر
منه غير المودة لأبي فراس وغير الإكرام . فلما جاء ابنه سعد الدولة خرج من نفسه الغل يفح
مثل ثعبان فأصاب أبا فراس فقتله .

فحم الدهر مجد الحمدانيين بعد أن ملأ بهم غرة شعر العرب . وبقيت ذكرى هذا المجد
وهاجة بالنور والنار ، خالدة في أدب العرب الذي امتاز من أدب الأمم بأصدق حماسة ،
وأروع بيان ، على الزمان .

(١) رحم الله أبا فراس ، لقد كان متهوراً . أفلم يطرح نفسه من فوق حصن خرشنة على نهر
آلس ، أفلم يبرز لتيودور في ظاهر منبج ومعه سبعون فارساً لحسب ، كذلك خرج في حمص للقاء
قرعويه بحفنة من الكلبين الصعاف ومن يدرى لعل أبا الطيب كان يعرف فيه شجاعته المحرومة من
الرأى ويعرف لابن عمه سيف الدولة الرأى والشجاعة معا ، فراح يقول في مدح سيف الدولة : (الرأى
قبل شجاعة الشجعان) .

(٢) كان سعد الدولة طياشا في سياسته ، فاعب به فلان أبيه حتى خشيت أمه على نفسها منه
وخافت أن يكون نصيبها كنصيب ناصر الدولة من أولاده فقد أسروه ووثبوا إلى الحكم ، ولذلك
فإنها أغلقت أبواب (ميفارقين) وكانت (ميفارقين) حصنها وحصن زوجها قبل موته ، ولم تفتحها
لابنها سعد الدولة حتى أخذت عليه المهود والمواثيق بإطاعتها . وكانت زوجة سيف الدولة هذه امرأة
حصيفة من نوادر النساء في الأدب والجمال وهي (أخت أبي فراس الحمداني) بنت أبي العلاء سعيد
ابن حمدان . وأختها زوجة أبي العشائر الحمداني الذي أسره البيزنطيون ومات في سجنهم بالقسطنطينية .
(راجع تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٢ ص ٢٠٨ النسخة المتقدمة ذكرها) وكتاب شلهبرجه
عن نيسيفور فوكاس ص ٧١٤ نقلا عن Fraytag في كتابه عن الأسيرة الحمدانية الذي يروى فيه بأن
زوجة سيف الدولة هذه كانت تبذل الرجال بالشجاعة وكانت لا تتقاعس عن أن تقود الجيش العربي
للمحاربة بعد موت زوجها مع بذل مالها الكثير على الجنود .

مؤلفات الحماسة القديمة

(١) كتاب الحماسة للطائي

الحماسة (أى الفروسية Bravour) (١) هى القصائد التى تتمدح بذكر الشجاعة فى القتال ، والبطولة فى المعارك . ويرى لويس ماسينيون أنها تضم الجزء العظيم من الشعر العربى القديم وكان لها المكانة الأولى فى (المنتخبات) المسماة بكتاب الحماسة .

ويعد مارغوليوت أبا تمام شاعراً و(ومنتخبا للشعر Anthologue) (٢) ويذكر أن له غير كتاب الحماسة كتاب (المختار من شعر القبائل) وكتاب (المختار من شعر الشعراء الفحول) ولا شك أن مارغوليوت قد لخص ما قاله الآمدى فى الموازنة (٣) من أن أبا تمام كان مشغولاً مدة عمره بتخير الشعر ودراسته والتنويع فيه وأن له ذينك الكتابين . على أن لآبى تمام كتباً أخرى من المختارات وهى كتب انتقى فيها شعر الشعراء المقلين والقدامى والمحدثين وأن بعض كتبه هذه كانت متداولة فى أيدى الناس .

ولعل يوماً تظهر فيه هذه الكتب التى يسميها الآمدى ومارغوليوت فنرى أى ذوق قد استولى على الطائي فى هذه الكتب ، ونعرف أين كتبها ، وهل كان يوم ذلك يعوقه سيف أو يحبس شتاء . ومن يدرى أين تكون اليوم فلعل بعضها فى رف من رفوف المكتبات الغربية وكان قد عبر البحر إلى ديار الغرب مع آلاف مثله فى أسلاب الصليبيين التى أخذوها من ديارنا . وكيف جاء الأمر فإن أبا تمام قد أغنانا حتى حين بكتاب الحماسة .

فلئن دل على منتخب ذوقه ؛ فإن كتاب الحماسة يدل على أن أبا تمام كان حربى النزعة أو كان يحب شعر الحرب فانتقى أروعها وليس كتابه مقصوراً على الحربيات فحسب ، وإنما فيه غير الحماسة ، المراثى والأدب والتشبيب والهجاء والوصف والملح ومذمة النساء . وقد غلب عليه اسم الحماسة لأن العرب بها أحق ولها أروى . ولأن شجاعة العرب ومآثرهم الحماسية ألح سجاياهم وأعرق ما فيهم من الصفات . ولعل أبا تمام أحس فى مقطوعات الهوى ثورة الحب ، ووجد فى أشعار الأحزان لهيب الوجد فطبع كتابه بطابع الحماسة . وليس هو المتوحد بهذا الاسم فى كتب العرب القديمة فثمة (حماسة) البحترى . (وسأحللها)

(١) المعلمة الإسلامية بالفرنسية المجلد ٢ ص ٢٦٠

(٢) المصدر نفسه المجلد ١ ص ١١١

(٣) طبعة الجوائب ص ٢٣

عند الكلام على كتابه الحماسي . و (حماسة) أبي هلال العسكري وحماسة الأعمى الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ والحماسة للخالدين الحلبيين وهما أبو عثمان سعيد وأخوه أبو بكر محمد من شعراء سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، وحماستهما الآتية تسمى (الاشباه والنظائر) . و (الحماسة لعل بن الحسن المعروف بشميم الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ للهجرة . و (الحماسة) لابن الحجاج يوسف بن محمد الأندلسي البياسي المتوفى سنة ٦٥٣ هـ ، وآخرها (الحماسة) البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري المتوفى سنة ٦٥٩ هـ .

أما كتاب الحماسة لأبي تمام فقد سمي باسمين . أحدهما شرح ديوان الحماسة لأبي زكريا التبريزي ، تليد أبي العلاء المعري . وأقدم طبعة منه التي طبعت بمدينة (بن) بألمانيا سنة ١٨٢٨ ووقف عليها الدكتور (ولهم فريتاغ^(١)) . والثاني ديوان أشعار الحماسة وأقدم طبعاته طبعة الزهار ببيروت سنة ١٨٨٩ .

وقد أفرغ التبريزي في شرحه للحماسة كل جمعة لغته وأدبه . فهو يذكر البيت من القطعة ويشرح ألفاظه اللغوية ثم يفسر معناه . وإذا تضمن البيت اسم (علم) أو ذكر يوم من أيام العرب أو ألمع إلى حادث ، استطرد فترجم لذلك (العلم) وأفاض في ذكر ذلك اليوم وأحاط بالحادث . وقد يفضي به القول إلى نقد لإظهار خطأ في تركيب أو اتهام بسرقة لفظ أو انتهاب معنى . فإذا فرغ من كل ذلك انتقل إلى البيت الثاني .

وتلك طريقة عامة قد اتبعها أكثر الشراح الأقدمين ، وهي خالية من العرض الأدبي والمقارنة ، وبعيدة عن الدراسة والتحليل .

وقطع هذه الحماسة بين مطولات وقصائر (وقد أوردت منها نماذج عدة فيما تقدم من الرسالة حسب اقتضاء الشواهد في شعر الحرب ووصف الوقائع) وكان أكثر هذا الشعر الحربي جاهلياً وأمويًا .

ولم يكن أبو تمام متبعاً لطريقة علمية في انتخابه لشعر الحماسة وإنما كان (يجمعه جمعاً بغير تصنيف) . فقد تجيء قطعة في وصف قوس أو رمح . ثم تلوها قطعة في طراد الخيل . ثم من بعدها ثالثة في السيوف . وتتوزع المعاني شعر الحماسة من أوله إلى آخره من غير نظام أو ترتيب .

فهو لم يتبع ترتيباً زمنياً في شعر الحماسة ، فنحن نجد له قصيدة لشاعر أموي بعدها ثانية

(١) كان أستاذ اللغات الشرقية في جامعة فريدريك ولهم .

لشاعر جاهلي . ومن بعد هاتين قطعة لشاعر من عصر الخلفاء الراشدين ، أو من أعماق الجاهلية .

وإذا كان شعر الحماسة متنوع الضروب ، فكان على الطائي أن يجعله ضرورياً حسب موضوعاته أو حسب شعراء القبائل . وكان عليه ألا يخلطه من ترتيب الزمن ، بادئاً بالجاهلية منتهياً بعصره وأيامه . فقد بحثت الحماسة الطائية فما وجدت فيها من شعر العباسيين المحدثين أو المولدين إلا النزر القليل . وقد جاءت هذه الحماسة كلها في شعر الجاهلية وصدر الإسلام وفي عصر بني أمية حتى إذا كان عصرنا استدرك هذا القصور (سيد على المرصني) . أحد أدباء النهضة في مصر فألف كتابه أسرار الحماسة قاصداً به ترتيب حماسة الطائي (١) فجعل أشعار الحماسة قسمين : أولها للموضوعات الأدبية .

وثانيهما لشعراء الوقائع الجاهلية والإسلامية .

وقد قدم الشعر الجاهلي على الإسلامي ، والشعر الإسلامي على العباسي ، وألزم نفسه في حواشيه إتمام أكثر القصائد الطوال التي اكتفى الطائي منها بالآيات القلائل . وقد عرضه هذا التطويل في ذكر القصيد للخروج بها عن الحماسة التي اختارها الطائي . إذ أن الطائي عمد إلى مواطن الحماسة في تلك الطوال فأثرها بالذكر وحدها .

وإن المرصني ، وإن يكن من أهل فاتحة العصر ، ففي طريقة شرحه وعرضه لم يزد على ما عرف عند الأدباء الأوائل من حذق بمعاني النصوص مع شرح للكلمات وبيان لأوجه اللغة في الفقه ، وطرائق الإعراب . فجاء كتابه لا يختلف في كثير عن شرح التبريزي ، ولا يزيد عليه جدة أو طرافة .

إنا انعذر أبا تمام — على الرغم من وصف الأدباء الأقدمين له بأنه كان في انتخابه لشعر الحماسة أشعر منه في شعره — فإنه لم يقصد إلى الانتخاب وإنما جاءه عرضاً وحله الزمان عليه . فقد انقطعت به الطريق وهو عائد في الشتاء من خراسان بعد أن قصد بمدحه عبد الله بن طاهر وزير المأمون وأعانه على هذا الأمير أبو العمثيل وأبو سعيد الضير ، فأخذ له منه ألف دينار وكان عبد الله بن طاهر يعتمد عليهما في تقدير الشعر الذي يمدحه به الشعراء . فلما عاد من خراسان يريد العراق دخل (همدان) فاغتنمه (أبو الوفاء بن سلمة) أحد أدباء البلد وسراتها فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثاج غطى الطريق وقطعه على السابلة ، فغم أبا تمام سقوط الثلج فقال شعراً يذم فيه الشتاء (٢) والبرد بتلك النواحي خارج

(١) مذكور في ثبوت المصادر في خاتمة هذه الرسالة .

(٢) هبة الأيام للبديعي ص ١٣٧ وأخبار أبي تمام للصولي ص ٢٢٢ (الطبعتان السابقتان)

عن حد الوصف كما يقول البديعي . وأفرح الثلج أبا الوفاء ليزداد لزوماً لضيفه الشاعر العظيم فقال له (١) : « وطن نفسك على المقام فإن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » . وأحضره خزانة كتبه فجعل أبو تمام يطلعها واشتغل فيها مدة انحباسه في دار أبي الوفاء فصنف خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات ، وهذه كما يروى التبريزي طوال . ثم إن الشاعر حين تكشفت الأرض وذاب الثلج هم بالذهاب تاركاً في خزائن آل سلة (مخطوطاته) هذه وانصرف يريد بغداد . فجعل آل سلة يضمنون بتلك المخطوطات الطائفة ولا يكادون يبرزونها لأحد حتى تغيرت أحوالهم كما يروى التبريزي ، فورد عليهم همدان رجل من أهل مدينة (دينور) يعرف (بأبي العواذل) فظفر بكتاب الحماسة وحمله إلى أصبهان فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عده من الكتب في معناه فشر فيهم ثم في من يليهم (٢) .

وقد افتح أبو زكريا التبريزي شرحه حماسة الطائي بباب سماه باب الحماسة ، فبدأ بذكر الحماسة لغة ومعنى واصطلاحاً ، وعدد قبائل العرب التي كانت في الجاهلية مشهورة بالحماسة كقريش وكنانة وخزاعة وجماعة من بني عامر بن صعصعة الذين كانوا يسمون (حمساً) لتشددهم في أحوالهم ، ثم مزج بين معاني الشجاعة ومعاني الحماسة باقتضاب دخل منه على شرح أول الحماسيات :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
وكان على التبريزي أن يعرض على قرائه أشهر المعاني التي تداولها شعر الفروسية ، وأن يعرض إلى تحليل القبائل العربية وتقسيمها ، وبيان مواطنها ليسهل فهم شعرها الحماسي ، وأن يفيض القول في ذكر العصبيات التي كانت تسيطر على العرب من عدنانية وقحطانية ، وما كان يعتري الطبقات الاجتماعية من فوارق بين أمراء وشعبيين وسوقة وصعاليك . ومثل هذا كان مطلوباً من مثله لمعاصرتة أنضر عهود العرب في العلم ، ولوجوده في أغزر زمن بمؤلفاتهم القديمة .

ولقد نعذره عذرنا لغيره من مؤلفي تلك العصور الذين كان غرضهم الجمع والإطراف .
لا التفسير والتصنيف .

(٢) كتاب الوحشيات

كتاب الوحشيات (٣) المسمى بالحماسة الصغرى هو طوائف من الشعر الجاهلي والمخضرم

(١) ، (٢) مقدمة التبريزي على شرحه لديوان الحماسة ص ٢ ط أوروبا .

(٣) مخطوط فوتوغرافي بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٧ أدب لم ينشر

اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائي بعد اختياره كتاب الحماسة الكبرى المتقدم ذكره . وقد جرى فيه على وجه يقارب أبواب حماسته الأولى فقسمه إلى أبواب الحماسة والمراثي والأدب والنسب والسماحة (فيما يتعلق بالأضياف والمدح) والصفات والسير والملح ومذمة النساء .

وقد وجدت في أوله^(١) أن أبا تمام (لم يروه وإنما وجد بعده مكتوباً في مسودة بخطه مترجماً بكتاب الوحشيات) .

وقد أورد الطائي في فاتحته قطعة للشتق الضبي وختمه بأبيات لنصيب ، أما باب الحماسة فيه فهو مجموع مقطوعات وأبيات من روح الحماسة في كتابه الأول في ذكر الحرب والفروسية وضروب الشجاعة والفخر بالنسب والكرم . وشعر شعرائه لا يفترق في أسلوبه ومعانيه عن شعر أندادهم في الحماسة المعروفة .

أما طريقة أبي تمام في كتاب الوحشيات هذا ، فلا تزيد على جمع الشعر دون أن يسير فيه بطريقة علمية أو فن جديد أو أن يتبع ترتيباً خاصاً ، أو أن يشير إلى مناسبة في ذكر القطع أو الأبيات التي يوردها . وما أوردته من النقد على كتاب الحماسة الكبرى ونقصه الفني وارد على كتاب الوحشيات هذا . وكل ما يمكن أن يضيفه هذا المخطوط ، الذي لم ينشر ، إلى قيمة أبي تمام أنه يصفه بشاعر جمّاعة لنماذج الشعر من كل فن ، في حسن اختيار ، وبراعة في فنون الحماسة . ويدل مذهبه هذا في اختيار الشعر واصطفائه أنه كان (ذواقاً) . ولعل هذا المذهب الذي ذهبه في انتقاد الشعر هو تفسير لطبعه في اختيار شعر نفسه وفنون قوله وتنوقه في ألفاظه وعنايته بالبديع وسائر فنون البلاغة . وكل هذه الأمور مردّها رهاقة الذوق وسلامة الاختيار . وكيف تم الأمر فإن أبا تمام كان ذا سابقة في هذا الفن وهو (فن اختيار الشعر وتأليف الكتب في نماذجه وعيونه) .

وهذا المخطوط في (٢٤٣) ورقة ، نسخ أصلها على بن أحمد بن أبي الجيش البوازي في ربيع الآخر سنة ٦٣٧ للهجرة .

(٣) كتاب التنبيه في شرح أبيات الحماسة (٢)

وهو كتاب لأبي الفتح عثمان بن جني . ولا أزيد بالتعريف علم ابن جني وسعة (موسوعيته) فقد كفاه أن يحمل أعباء اللغة وفنون البلاغة في عصره ، وأن يتفرد بهما حتى قال عنه مترجموه

(١) ورقة ٢

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٤ آداب (لم يفسر)

وفيه غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن (١) إنه أقدر أهل عصره بالتصريف . وقد بلغ كتابة الإنشاء لصمصام الدولة وابنه عضد الدولة .

فاذا عرفت ابن جنى هذا القدر ، قلت إنه سن شروح الشعر الحماسي وإعرابه والنظر في مشكله لكل من جاء بعده من خدم حماسة أبي تمام وسعى لها بالذئوع ، فأنا أعد بذلك ابن جنى أستاذاً لأبي زكريا التبريزي تلميذ المعري المتوفى سنة ٥٠٢ هـ الذي شرح ديوان الحماسة الطائية كما تقدم ، فلقد سبق ابن جنى التبريزي إلى إظهار درر الحماسة الكبرى بمائة عام أو يزيد إذ كانت وفاة ابن جنى سنة ٣٩٢ للهجرة .

وقد وجدت هذا المخطوط القيم حاوياً كنزا في اللغة والنحو ، وقد وضع فيه ابن جنى خلاصة مجهوده العلي في النحو واللغة وفن العروض . وقد ألفه (للخاصة) مترفعاً فيه عن العامة والدعاه والمبتدئين في الأدب ، فقال في مقدمته وهو يشير إلى أنه ألفه لأحد أصحابه الملتزمين وقد أجبته أيدك الله إلى ملتصك من عمل مافي الحماسة من إعراب وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف ، أو عروض أو قواف وتحاميت شرح أخبارها أو تفسير شيء من معانيها إلا ما ينفع بالإعراب فيجب لذلك ذكره من حيث كان ذلك .

ثم يقول (٢) . . . وبعد فإن هذا الكتاب لست أعمله لمبتدئ ولا لمنوسط ، وإنما أخطب به من قد تدرب فكره وقوى نظره . .

أما وصف هذا المخطوط فقد وجدت صفحته الأولى بخط محدث عهده سنة ١٢١٠ هـ وسائرته بخط عتيق لعلي بن عبد الرازق ابن عمر الجعفرى فى جمادى الأولى سنة ٦٠٢ للهجرة وعدد ورقة ٢٠٤ وورقات .

(٤) كتاب الحماسة للبحترى

أبو تمام يسبق البحتري . فالبحترى الذى تأثر أستاذه الطائى فى شعره وطريقته وفى فنونه وأغراضه ، هو الذى يتأثره فى (كتاب الحماسة) . ولذا نجد البحتري قد ألف كتاباً سماه (الحماسة) وكان كتابه هذا أكثر تنظيماً فى موضوعات الحماسة من كتاب أبي تمام فالبحترى يجعل حوادث الحرب وسجايى المحاربين وسائل لإيراد الشعر فيها . وجملة هذه الموضوعات الحماسية يدور شعرها فى حمل النفس على المكروه والفتك ، وفى الإصحاح للأعداء وفى الأنفة والامتناع ، وفى ركوب الموت خشية العار ، وفى التحريض على القتال . وقد أورد

(١) أنظر كتاب المبهج فى شرح المعاني لأسماء شعراء الحماسة الطائية لابن جنى طبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٨ للهجرة لإصدار القدسى وبيدر (مقدمته) .

شعرا حماسيا فى ديات القتلى والامتناع من الصلح ، وأبه إلى شعور الفرار الذى يعترى الفرسان فى حومات الحروب ، فجاء بأشعار كثيرة فى ذم الفرار وفى الاعتذار منه ، والإقرار به ، وفى الفرار على الأرجل وعلى الخيل ، ولم يخل كتابه من خلجات النفوس كالحب والبغضاء ومن سجايا العرب كالكرم والوفاء والحفاظ والعقل ، فقد أثبت من هذه الخلجات والسجايا شعرا مختارا ، إلى أن ختم حماسته بنماذج من شعر النساء فى الرثاء .

ويمتاز كتابه بطريقته العلوية من كتاب أبى تمام الذى جاء مضطربا بغير طريقة ، فالبحترى قسم كتابه إلى أبواب كثيرة متعاقبة التعداد أوفت على الثلاثين بابا ، وبهذا التقسيم (العلمى) ممكن الدارسين لحماسته أن يتتبعوا معانى الشعر الحماسى خلال شواهد المتشابهة ، ويروا تطورها بحسب العصور والقائلين . وقد ورد فى حماسته بعض القطع التى أوردها أبو تمام .

على أن البحترى — على الرغم من نشأته البدوية وضربه فى الصحراء العربية ومخالطته للأعراب حتى تملك زمام الفصحى — يظل فى حماسته دون حماسة الطائى ، ولا تشعر أبياته المنتقاهُ بذلك الروح الحربى الذى تشعره حماسة الطائى . ومن المفروض المقبول أنه فى حياته البدوية تمرس بحياة الصحراء وثقف اللعاب بالرماح والسيوف ، وتعود ركوب الخيل ، ولقى شظف العيش الذى كان لازما للطبيعة البدوية فى عصره . وقد أفاده هذا فى إجادة وصف الخيل والسلاح والإبداع فى تصوير المعارك . وكان حافزا له ومعينا حين كان يترك العراق ودار الخلافة لزيارة أبى سعيد الثغرى فى أرمينيا ويقم عنده ويشهد حروبه مع الروم ثم يقفل بجوائزه الكثيرة .

أما طبعة الحماسة البحترية فقد صدرت بإشراف المستشرق مارغوليوت الأستاذ بجامعة كسفورد بصور فوتوغرافية عن نسخة الأصل وطبعت فى ليدن سنة ١٩٠٩ .

ثم طبع المكتب الشرقى فى بيروت بوقوف الآباء اليسوعيين (حماسه البحترى) نقلا عن نسخة مارغوليوت الفوتوغرافية .

وظلت حماسة البحترى تالية ، وحماسة الطائى هى الأولى ، فإذا قيل (كتاب الحماسة) وقع فى الدهن كتاب واحد للحماسة هو (حماسة أبى تمام) .

(٥) حماسه الخالدين^(١)

وحماسة الخالدين التى ورد ذكرها فى هذه الرسالة ، هى مخطوطة تحمل اسما آخر وهو (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين الجاهليين والنخضمين) .

(١) مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٥٨٧ آداب

وقد أردت أن أذكرها هنا بعد حماسات الطائي لأظهر الفرق العظيم بين حماسة كُتبت لها الذبوع والطبع والشروح على ما فيها من عيب قبيح ، ونقص على ، وبعد عن التاريخ الأدبي والنقد ، وبين حماسة كتب لها الخمول وأن تظل في عتمة المخطوطات كتبها الأخوان الخالديان (أبو عثمان المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة ، وأبو بكر المتوفى سنة ٣٨٠) . وكانا من أدباء البلاط عند سيف الدولة الحمداني ، وكانا ينغصان على أبي الطيب المتنبي نعمته في حلب ويحسدانه على شعره .

كان من عادتهما أن يؤلفا الكتاب معاً ، وهذه سابقة في أدب العرب يئذ بها آداب الأمم الراقية ، فإن تأليف الأخوين كتاباً واحداً أمر نادر ، وقد عرف في فرنسا بعصرنا الحديث أن الأخوين (جيروم وجان تارو) كانا يؤلفان الكتاب الواحد في الأدب والسياسة والنقد وينشرانه ، وعليه اسمهما معاً . وفي أدبنا القديم كما ذكر ابن القارح والمعري أن القطربلي وابن أبي الأزرهر ألفا معاً كتاباً عن المتنبي ومن عجيب هذا الكتاب الحماسي الذي ألفه الخالديان الحلبيان أنه حماسة فنية ، وذو طريقة علمية . فقد جعلاه مزاجاً طريفاً لنقد الشعر الحماسي وغير الحماسي مع مقابله (بأشباهه ونظائره) ، هذا إلى ذكر المناسبات الأدبية والأخبار والتحقيق في الروايات ، فن أمثال طريقتهما قولهما (١) :

بكره قلوبنا يا آل بكر
ومثله قول الحسين بن الحمام المري :

نفلق هاماً من رجال أعزة
أخذه بعضهم فقال :

قومي هم قتلوا أميم أخي
وأخذه حرب بن مسعر فقال :

ولما دعاني لم أجبه لأنني
فأخذ هذا المعنى ديك الجن فقال في جارية يحبها فقتلها :

قمر أنا استخرجته من دجنة
فقتلته وله على كرامة
لبليتي وجلوته من خدره
ملء الحشا وله الفؤاد بأسره

ثم ذكر المؤلفان كيف أخذ المعنى أبو تمام والبحترى ، فلما ذكرا قول البحترى :
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها
تذكرت القرني ففاضت دموعها
قالا بعد ذلك :

« وبيت البحترى أطرف وأبدع من بيت المهلهل إلا أنه هو الذى أرشده إلى المعنى ودل عليه ، .

فمن هذه النماذج التى أوردتها يتبين أن الخالدين أوردوا بيتاً حماسياً للمهلهل ثم كرا بعده بأبيات لشعراء ، وقد زعما أن هؤلاء الشعراء أخذوا المعنى الأول واحداً عن الآخر . وهذا زعم يكثر عند الأوائل من نقدة الأدب العربى الذين لا تطيب نفوسهم إلى حسن الظن والقول (بتوارد الخواطر) وتوافق المعانى ، واتفاق التعابير .

وقد يورد المؤلفان صورة لطريقتها فى النقد والعرض والمقابلة كقولهما (١) :

« وقد ذكرنا بعض قصيدة عبد بنى الحسحاس التى سماها الفضل الديباج الخسروانى ، وتكلمنا على بعض ما أخذ من غيره ، وأخذ منه من جاء بعده ، وقصيدة الصمة القشيري عندنا أطرف كلاماً منها وأملح ديباجة ، ونحن نختار منها ما نستعمل ، .

فإذا ختم الخالديان حماستهما هذه (٢) رداً الكلام إلى طريقتهما فى التأليف فذكرنا بتواضع أنهما لم يكن لهما سوى الجمع والتسليف ثم عرضنا نقصهما على من لعله يأتى بعدهما (فيردل شيئاً مما اختاراه ويهجن شعراً نقلاه) فيقولان :

« وهذا غير مزر بنا ، ولا ناقص لنا ، لأن لكل إنسان اختياره ، . فزاد عجبى حين انتهيت من دراسة هذه المخطوطة الشائقة التى أحسست فيها (بحياة الشعر) ووجدت فيها روح صاحبها تدب نابضة فى كل صفحة منها ، ورحت أزعج أن فى نشر هذا الكتاب خدمة للأدب العربى الرجيع فى آراء نقده وطريقة تأليفه وحسن عرضه ، مما يجعل قدمه جدة ، وقيمه ذخراً . فهو كتاب فى (أدب الحماسة) لا فى (نماذج من الشعر الحماسى) كالتى أوردتها أبو تمام والبحترى ، ومن جرى على غرارهما فى حسن اختيار الشعر .

(١) ورقة ٨٦ من المخطوطة

(٢) جاءت فى ٢١٥ ورقة

خاتمة

حين سفر عمرو بن العاص بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبين قائد من قواد الروم ، قال له أحد الشاميين من بطانة القائد ، وهو يهم بالخروج :
— أحسنت يا عمرو الدخول فأحسن الخروج .
فاتخذ عمرو أهبة لنفسه وخرج .

وليت شعري هل أحسنت الدخول إلى موضوعي فأحسن الخروج ؟
وكيف اتفق الأمر ، فإن كتب الأدب المتدائرة بأساليب العلم لأبد لها من فوائدها وخواتيمها ، وهأنذا أختتم رسالتي ببحث الأمور الآتية :

- | | |
|--------------------------------|-----------------------------------|
| (١) تلخيص أطوار الشعر العربي | (٢) الفرق بينهما فنياً وغائياً |
| (٣) ميزات عامة لشعر الحرب | (٤) مقترحات لاستمرار الدراسة |
| (٥) فكرة عامة من الأدب المقارن | (٦) ملحمة لسان الدين بن الخطيب |
| | والمعراج النبوي ونظم السيرة شعراً |

* * *

لقد صدق د إيبوليت تين ، من نقاد الأدب الفرنسي المحدثين حين رد الأدب إلى ظواهر التطور الطبيعي ، فقال إن الأدب وكل آثار الفن والعقل كالحیوان والنبات تولد وتنمو فتعيش وتتحول أو تتقاعس وتموت . إنه أخضع الأدب والفن إلى مذهب التطور . ويجمل بي أن آخذ برأيه في شعر الحرب والحماسة العربية ، فإن شعر الحرب عند العرب قد مر بأدوار التطور الطبيعي ، ولم يشذ في الأدب أو يتمنع على مقاييس العلم : لقد بدأ في جاهليته ساذجاً كحياة قائله ، وقد كانت حياة الجاهلية منبسطة الآفاق ، على نمط واحد فجاء شعر الحرب فيها بمائلا لها : إنه فيها أبداً أنشودة حماسية بالفخر والبأس ، وبالعزة والبطولة والفروسية ، ممزوج ذلك بالكرم والسماحة والحفاظ على العرض والتفاني في المروءات ، هذا من حيث المعاني التي كانت في الحماسة الجاهلية ، وأما من حيث المباني فقل ما شئت من جزالة وحوك حر مع إرسال للأسلوب على سجيته بغير تكلف أو تصنع إلا ما صدر عن الشعراء الناحتين أمثال زهير :

وقد تلقف شعراء الحماسة الأموية هذا الشعر الجاهلي من أهليه فساروا على غرارهم فيه ونسجوا مثل أبراده ، إذ كانت طوابع العصر الأموي عربية محضة ، وقد يصعب على دارسي

الأدب أن يقفوا على تفاريق واضحة الخطوط بين الشعر الجاهلي والإسلامي في الصور الأولى في الديباجة والحبك

أما المعاني فقد بدا فيها تطور ظاهر إذ تجلببت بأردية معاصرة ، وشاع فيها جانب من معاني القرآن الكريم والحديث الشريف وذكر الجنة والنار والثواب والعقاب وما إلى ذلك من المعاني الإسلامية ، وظهر هذا التطور بوضوح في حماسة الهجائين وبدأ التطور ظاهراً بالمعنى والمبنى في العصر العباسي ، فكان للتمازج الثقافي بين العرب والعجم أثر في دقة المعاني وروعة الأخيصة أما أساليب القول فظلت مستمسكة بأمويتها حتى كان أبو تمام يخلع عليها تلاوين فنونه في صناعته اللفظية والبديعية ، وبسط سلطان فنه الصناعي على كل شعر بعده ، ولما جاء أبو الطيب المتنبي بلغ بالحساسة العربية ذروتها .

فإذا صح وصف هذا التطور بأدوار فيكون : شعر الحرب في العصر الجاهلي ، في طور المولد والبدواة ، وفي العصر الأموي في طول النثر والتحضر ، وفي العصر العباسي في طور التكامل ، حتى إذا دمرت الحروب الصليبية انحدر شعر الحرب إلى درك التقاعس على الرغم من وفرة الأسباب المعنوية ، لأن شعراء العرب في عهد هذه الحروب كانوا في دور ضعف وانحلال في اللفظ والأسلوب ، وكان أغلبهم صاحب ركة في القول وصناعته تضج بالكلفة . وحين انطفأت نار الحروب الصليبية بعد نور الدين وصلاح الدين خمد كل وقد في الشعر الحربي عند العرب إلى اليوم غير نفحات في شعر البارودي ومن بعده في شعر شوقي ، فكان هذا التطور المعاصر عهد انبعاث بعد الفناء .

أما الفروق بين هذه الأطوار فقد تلوح فنية وتلوح غائية ، فإن قليلاً من شعر الحماسة قيل لوجه الفن وحده . وكثيراً منه قيل لغاية من غايات الفخر أو السياسة أو منازع الحزبية . وقد أنكرت على شعر الحرب عند العرب أموراً تتعلق ببواعثه ، ثم رأيتني مضطراً أن أعظم هذا الشعر الذي جاء معبراً عن خلجات الأنفس العربية القديمة التي ما عرفت إلا الشجاعة والفداء ، والجود في سبيل العلاء . وقد يكون فرق آخر بين فنية هذه الأطوار وبين غايتها ، فنجد الشعر الحماسي في كل أدواره وأطواره يبرز لنا فنه في شكل (فخر مسلح) وتتمثل لنا غايته في صورة (عز مسلح) ، فإن أولئك الشعراء جميعاً كانوا يصوغون شعر الحماسة بفن الفخر . وكانت غايتهم جميعاً في ذلك تخليد القوم والاعتزاز بالقوة .

وأما الميزات العامة التي يتميز بها شعر الحرب من سائر فنون الشعر العربي فهي كما أجدّها (١) متانة الديباجة وقوة التعبير ، ونخامة اللفظ ، لأن ذلك مقتضى المعاني الحماسية .

(ب) ذكر السلاح ووصف مضائه والبراعة في مقارعته .

(ج) الإشادة بفروسة البطل ، أو إشادة البطل نفسه بفروسته وشجاعته إن كان من الشعراء .

(د) أغلب قصائد الحماسة وأروع الشعر الحربي قاله شعراء محاربون .

(هـ) التشابه في رواسته وطوابعه ، بخلاف سائر الفنون الشعرية ، فقد نجد فوارق كبرى بين قصائد المدح ، وفوارق بين قصائد الوصف ، ولكن لا نجد كبير فرق بين قصائد شعر الحرب والحماسة من حيث الميسم العام الذي يسمها ، لأنه يقوم على ذكر البأس والنجدة والفخر بالسلاح والكراع .

(و) شعر الحماسة لون فاقع من ألوان الفخر . فلو عرينا أية قصيدة حماسية من الفخر لم يبق منها في أيدينا غير قعقة السلاح وحمات الخيل .

وإذ كان عملي في هذه الرسالة الجامعية هو تجربة أولى لدراسة شعر الحرب في أدب العرب فإنني أرجو — كما ذكرت في المقدمة — أن أوفق بعدها إلى التوفر على أدب الحماسة العربية ، والكتابة عن عصر صلاح الدين والصليبيين ، ونفسي تجيش بهذا الأمل . كما أتمنى على علماء الأدب العربي أن يعنوا بدراسة هذا الوجه الحربي في شعر العرب ، إذ كان الصق الأشعار بهم وأنطقها بحقيقتهم في كل أعصرهم ، في ساح بداواتهم ، وميادين حضاراتهم ، لعل يوماً أغرم حجاجاً يكون فيه للعربية ملحمة جديدة تجمع بين مجدها التالد وعزها الطارف ، فتكمل بذلك ثمرات الشعر الحماسي في أدبنا الحديث . وما رقيت آداب الأمم في قديمها وحديثها إلا برقي شعر الحماسة . فهذه يونان لولا الإلياذة والأوديسة لما كان لها هذا الصوت الصارخ في أدب العالم منذ عتيق الدهر إلى اليوم . وإنه ليحسن من دراسي الحماسة العربية أن يجعلوا الأدب المقارن ديدناً لهم ، فإن تمازج الثقافات هو لقاح الأدب الخالد ، فكلم بين أشعار هوميروس وشعر الحماسة العربية من أسباب التشابه في روعة المعاني ونبيل المقاصد تصلح أن تكون بحثاً رائعاً في الأدب المقارن . وقد وجدنا الأمم الغربية في قديمها وحديثها محتفية بشعر حربها حادة على حماسها ، تجعل ذلك كنفاً لها في الملبات ، وملذاً وملجأ في النهضات . وما أجل يوماً يظل أمة العرب وهي تحت كل نجم مشدودة الأواصر بشعرها الحماسي تمتاح منه قواها ، وتقبس علاها ، وتشيع منه في أنفس بنينا وبناتها وقدرات البطولة ، وتبعث فيهم المروءة والنجدة على الأجيال الصاعدة .

وأما لإنهاء الكلام على الملحمة العربية بعد معاناة بحثها طوال هذه الرسالة وتقصى فنونها موضوعها عند الفرنجة والعرب . فأقول فيه إن العرب وإن تأخروا في نظم الملحمة إلى اليوم

وكان بمقدور بعضهم أن يبرع فيها ولكن شغلته شواغل كما اتفق لمسلم بن الوليد التي شغلته الحسان عن حلقات الفرسان وصرعته الفواني بالأعين النجل ، فافات شعراء العرب أن يحاولوا معرفة الملحمة وأن يجربوا نظمها ، كما فعل لسان الدين بن الخطيب في ملحمة الكبيرة وابن عبد ربه . على أننا — إذا وسعنا معنى الملحمة إلى عالم الدين وعلونا بها عن محسوساتنا الدنيوية — وجدنا ملحمة رائعة في آثارنا العربية وهي قصة المعراج ، ولولا ما فيها من أخيلة الواهمين ، لجاءت من أروع الملاحم العربية الدينية . وكذلك فإن بين مؤلفي السيرة النبوية من حاول نظمها ، ولكن كل ذلك لم ينجح كاملا وكان في طي المحاولات ، والأمل منعقد بشعراء يظلم زماننا ، أو بعده سينظمون ملحمة العرب الكبرى وفق قننا الأسمى وطريقها القويم ، على غرار ما جاءت به كبريات الملاحم الشعرية التي بقيت سجل الفخر لأمتها على الزمان .

ملحــق

صنف القدامى كتباً في (الحماسة) ، ولم يصنفوا كتباً في (شعر الحرب) . فقد أثر عنهم حماسات كثيرة ، انهم لم يجمعوا بحثاً ، ولم ينسقوه وفق التيارات الأدبية التي جرى فيها فيكون عملهم فنياً . لقد كانوا يحبون الأفراد والقطـع في هذا الضرب الذي ألفوا فيه ، فجمعوا شعر الحماسة من كل نوع منفرداً بعضه عن بعض ، منقطع الصلة بما قبله وما بعده ، وكان نظامهم فيه نظام (المجاميع) .

ولإنه ليلاحظ الفرق بين معنى شعر الحرب ومعنى شعر الحماسة . فشعر الحرب حماسي بالطبع وليس كل شعر حماسي شعر حرب ، لأن الحماسة — كما ذكرت في المقدمة — لها عند العرب المؤلفين كأبي تمام والخالدين وغيرهما معنى أعم وأشمل من الحرب ومقتضاها من سلاح وحيل وبأس وشجاعة .

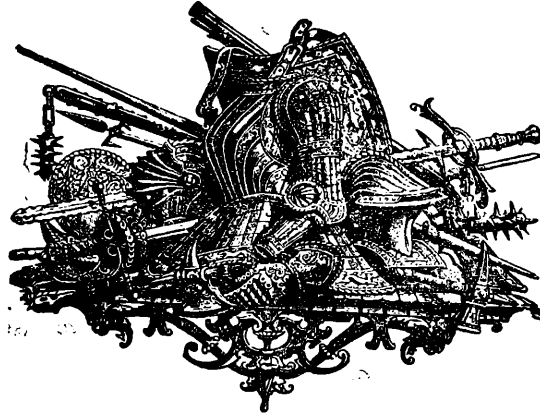
فقد زاد هؤلاء على شعر الحرب في معاني الحماسة شعر الفخر والغزل وما قيل في الفضائل والمزايا . وأخذ بهذا الشمول أكثر مصنفى الأدب وباحثوه الأقدمون . وليس هذا بضائر حماسة العرب فإن كبريات الملاحم وأروعها حماسة أنشدت في آياتها خفقات البنود ، وزمازم الجيوش وصلصات السلاح إلى جانب آهات الأبطال العاشقين ولواعج الهوى بربات الجمال .

كذلك كانت مهمة الباحث الحديث في شعر الفروسية وقصائد الحماسة مهمة شاقة في أدب العرب تجعله ينظر إلى المؤلفين الغربيين بعين حسيرة ، وقد وفقوا في مؤلفاتهم عن فروسية القرون الوسطى ، فصوروا وأسهبوا في وصف أولئك الشجعان الذين لزموا ظهور الخيل ، عليهم الحديد ، تغوص رؤوسهم في المغافر ، وتتحرك أجسامهم بصفحات الدروع ، رماحهم طوال وسيوفهم عراض ، ونعالهم مربوطة بنسوع تلف على الساق .

فيود الباحث العربي لو يغمس اليراع في مداد تاريخ العرب فيكتب سطوراً من الفن يصور فيها أبطال الجاهلية وفرسان الإسلام ، على رؤوسهم الكوفيات الملونة ، والعقل السود أو العائم البيض ، تلف صدورهم دروع منسوجة من السلاسل خفاف لا يثقلهم حديد ، يحولون كالنسور ، رماحهم العوالي ذوات الكعوب ، وسيوفهم الرقاق المعوجات . ولهم زيف في وجه العدى كهبوب الريح ، أشعار الحماسة لسان حالهم وأفصح مقالهم ، أعربوا فيها عن معاني بطولة كأنها أسطورية . كان قوامها الشرف والحمية والتجدة ، ورعاية الذمام .

وأنا أبدأ كما قرأت على حسام (آشيل) أدب هوميروس ، أسمع في ليالى طروادة
نجوى البطل (هيكطور) لزوجته (آندروماك) وعلى رأسها الجليل التاج الوهاج الذى أهده
لها (آفروديت) .

وكذلك فإنى كما قرأت على سنان البطل (قطرى بن الفجاءة) أدب الخوارج ، فإنى أبدأ
أسمع نجواه لزوجته (أم حكيم) تحت ليالى العراق . وأحس فى لفحات اللهب الخالد التى شعلها
أبو الطيب المتنبى فى شعره الحربى نفحات روحه ، ونبضات هواه ، وهو يهفو إلى (خولة أخت
سيف الدولة) منشدا شعره عند قلعة حلب ، أو ماضياً على جواده فى بادية الشام . . .



المراجع والمصادر الأدبية

مرتبة على حروف الهجاء بأسماء المصنفات

أخبار أبي تمام للصولي طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ وفاة الصولي (٣٣٥)
أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري طبعة الخانجي سنة ١٣٢٢ هـ وفاة ابن قتيبة (٢٧٦)
أسرار الحماسة لسيد علي المرصني الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩١٢ عصر المرصني (النهضة الحديثة)
الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي الطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧ وفاة الثعالبي (٤٢٩)
الأغاني للأصفهاني طبع مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٣ تصحيح الشيخ الشنقيطي وفاة
الأصفهاني (٣٥٠)

الأغاني طبع دار الكتب المصرية حتى الجزء الحادي عشر سنة ١٩٣٨
اليأذة هو ميروس مترجمة نظماً لسليمان البستاني طبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٤
(عصر هو ميروس القرن التاسع ق. م) (عصر البستاني النهضة الحديثة)
تتمة يتيمة الدهر للثعالبي ط طهران سنة ١٣٥٣ هـ ج ١
التكملة لشعر الأخطل عن نسخة طهران الخطية وتعليق الأب صالحاني اليسوعي طبع بيروت
سنة ١٩٣٨ وفاة الأخطل سنة (٩٠)

جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي الطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٣ (وفاة القرشي سنة ١٧٠)
حلية الفرسان وشعار الشجعان لعلي بن هذيل الأندلسي تصحيح لويس ميرسيه طبع باريس
سنة ١٩٢٢ . (هذا الكتاب القيم في مكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ١٣٥٤ وهبة الأمير كمال)
(عصر ابن هذيل الأندلسي القرن الثامن للهجرة)

حماسة البحترى طبع المكتب الشرقي ببيروت بوقوف الأب لويس شيخو اليسوعي نقلا عن
الطبعة الفوتوغرافية التي أخرجها مارغوليوث .

خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق بمصر سنة ١٢٩٩ هـ (وفاة البغدادى ١٠٩٣ هـ)
ديوان ابن الرومي الجزء الأول طبع الهلال بمصر سنة ١٩١٧ والجزء الثاني طبع مطبعة مصر
بشرح محمد شريف سليم (وفاة ابن الرومي سنة ٢٨٣)

ديوان ابن المعتز طبع المحروسة بمصر سنة ١٨٩١ (وفاة ابن المعتز سنة ٣١٥ هـ)
ديوان أبي تمام الطبعة الوهية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ (وفاة أبي تمام ٢٣١) ، 846

- ديوان أبي تمام طبع بيروت لشاهين عطية سنة ١٨٨٩
- ديوان أبي الطيب المتنبي ضبط المعلم بطرس البستاني طبع بيروت سنة ١٨٦٠ (وفاة المتنبي سنة ٣٥٤)
- ديوان أبي الطيب المتنبي تصحيح الدكتور عبد الوهاب عزام طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٤ .
- ديوان أبي فراس الحمداني طبع بيروت سنة ١٩١٠ (وفاة أبي فراس سنة ٣٥٧) .
- ديوان البحترى طبع الجوانب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ (وفاة البحترى ٢٨٤) .
- ديوان البحترى طبع هندية بمصر سنة ١٩١١
- ديوان جرير الطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣ هـ (وفاة جرير ١١١ هـ)
- ديوان الاخطل برواية أبي عبد الله اليزيدى طبع بيروت سنة ١٨٩١ للأب صالح الخاني اليسوعي (وفاة الاخطل سنة ٩٠ هـ)
- ديوان أشعار الحماسة للطائي طبعة الزهار ببيروت سنة ١٨٨٩ .
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات شرح الحسن السكري للدكتور Rhodokanakis
- طبع فينا سنة ١٩٠٢ وفاة ابن قيس الرقيات (٨٥) وفاة شارحه (٢٧٥)
- ديوان عنتر بن شداد العبسى طبع هندية بمصر سنة ١٣١٥ هـ . وفاة عنتر (٦١٥ م)
- ديوان الطرماح نشر وتعليق كرانكو طبع لندن سنة ١٩٢٧ وفاة الطرماح (٨٠)
- ديوان الفرزدق إملاء ابن حبيب عن ابن الأعرابي نقلا عن النسخة المخطوطة بأياصوفيا في القسطنطينية مع ترجمة فرنسية للسيو (ر . بوشيه) طبع باريس سنة ١٨٧٠ (نسخة
- بدار الكتب المصرية في أربعة أجزاء رقم ٣٠٩٠ آداب . وفاة الفرزدق (١١٠)
- ديوان القطامي اخراج بارت Barth طبع ليدن سنة ١٩٠٢ وفاة القطامي (١٠١) .
- ديوان مسلم بن الوليد طبع ليدن سنة ١٨٧٥ وفاة مسلم بن الوليد (٢٠٨) .
- رسالة الغفران لأبي العلاء المعرى طبعة الكيلاني سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٥ . ورسالة ابن القارح مع هذه الطبعة ، وفاة أبي العلاء (٤٤٩) .
- رغبة الآمل من كتاب الكامل لسيد علي المرصفي طبعة النهضة بمصر سنة ١٩٢٧ .
- الشاهنامة للفردوسي — رسالة دكتوراه للدكتور عبد الوهاب عزام طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ . عصر الفردوسي ٤١١/٣٢٠ هـ) .
- شرح ديوان الحماسة للطائي لأبي زكريا التبريزي الطبعة الأولى للدكتور فرايتغ سنة ١٨٢٨ وفاة التبريزي (٥٠٢)

- شرح ديوان حماسة البحترى طبع ليدن سنة ١٩٠٩ بصفحات فوتوغرافية بوقوف مارغوليوت
(وفاة البحترى $\frac{284}{897}$)
- شرح القصائد العشر لأبي زكريا التبريزى طبع كلكته سنة ١٨٩٤ .
- شرح ديوان كثير عزة لهنرى بيريس طبع باريس سنة ١٩٢٨ (وفاة كثير عزة (١٠٥))
- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى طبع الخابجى سنة ١٣٢٢ هـ .
- شعراء النصرانية فى دولة بنى أمية للأب لويس شيخو اليسوعى طبع بيروت سنة ١٩٢٥
(عصر الأب شيخو النهضة الأخيرة)
- طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى وقوف Hell طبع ليدن سنة ١٩١٦ (وفاة ابن سلام ٢٣٢)
- العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين وقوف w.ahlwardt
- العقد الفريد لابن عبد ربه طبعة سنة ١٣٥٣ بمصر الجزء الثالث (كتاب وقائع العرب وأيامها)
- العقد الفريد لابن عبد ربه طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٠
وفاة ابن عبد ربه (٤٢٦) هـ
- الجزء الأول (كتاب الفريدة فى الحروب)
- عيون الأخبار لابن قتيبة طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥
- الجزء الأول (كتاب الحرب)
- الفرق بين الفرق لأبى منصور البغدادى طبع المعارف بمصر عن نسخة برلين سنة ١٣٢٨
وفاة أبى منصور البغدادى (٤٢٩)
- الفصل فى الملل والأهواء لابن حزم وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى .
- الطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ (وفاة ابن حزم ٤٥٦) (وفاة الشهرستانى ٥٤٨)
- الكامل للبرد تصحيح محمد الأسيوطى طبع مصر سنة ١٣٠٩ هـ ، وفاة المبرد (٢٨٥)
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين الموصلى طبع بولاق سنة ١٢٨٢ هـ .
- وفاة ضياء الدين الموصلى سنة (٦٣٧)
- المبجج فى تفسير أسماء شعراء الخماسة لأبى الفتح بن جنى طبع دمشق الترقى سنة ١٣٤٨
- وفاة ابن جنى (٣٩٢)
- مخطوط ديوان أبى فراس الحمدانى بدار الكتب المصرية رقم ١٨٣٢ خصوصى أدب
- نسخة بخط محمد بن أحمد الخياط الشافعى (غير معروفة السنة)
- مخطوط الصبح المنبى عن حيثية المتنبى للشيخ يوسف البديعى
- مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٣٣ أدب ، نسخة كتبت سنة ١٢٦٤ هـ (وفاة البديعى ١٠٧٣)

مخطوط الصولى فى شرح ديوان الطائى الجزء الثالث . أوله ورقة (١) وآخره ورقة (٢٤٢) إلى باب المراثى بخط كبير ، على الصفحة الأولى منه اسم محمود سامى الشهير بالبارودى سنة ١٢٧٥ هـ . نسخة محفوظة بدار الكتب المصرىة (رقم ٥٧٣ آداب)

معجم الأدباء لياقوت الرومى طبعة دار المأمون بمصر ج ١٩ وفاة ياقوت (٦٢٦) .
معجم الشعراء لأبى عبد الله المرزبانى ومعه المؤلف والمختلف فى أسماء الشعراء وأنسابهم للآمدى . وقوف الدكتور كرانكو . وفاة المرزبانى (٣٨٤) طبع القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ
وفاة الآمدى (٢٧١) .

المعلقات طبع برلين سنة ١٨٩١ وقوف الدكتور آبل .
المفضليات للضبى برواية أبى محمد الأنبارى تحقيق وشرح شاكروهارون طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٢ وفاة الضبى (١٦٨) . وفاه الأنبارى (٣٢٧) .
مفيد العلوم لجمال الدين بن أبى بكر الخوارزمى الطبعة الأولى العلمىة بمصر سنة ١٣٦٠ عصره (أوائل القرن الخامس للهجرة) .

مقامات الهمدانى الطبعة الثانية لليسوعيين ببىروت شرح الشىخ محمد عبده (عصر الشىخ محمد عبده) النهضة الحديثة ، وفاة الهمدانى (٣٩٨) .

الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى طبع الجوائب بالاستانة سنة ١٢٨٧ .
نقائض جرير والفرزدق لأبى عبىدة طبع لىدن سنة ١٩٠٥ لفيفيان ، وفاة أبى عبىدة (٢١٠)
نهاية الأرب فى فنون العرب للنوبرى طبع دار الكتب المصرىة سنة ١٩٢٦ السفر السادس (كتاب قادة الجيوش ومكايد الحروب ووصف الوقائع) والسفر التاسع ، طبعة الدار سنة ١٩٣٢ .

هبة الأيام فىما يتعلق بأبى تمام للبديعى طبع مطبعة العلوم بمصر سنة ١٩٣٤ وفاة البديعى $\frac{1072}{1663}$
وفيات الأعيان لابن خلكان طبع البارون أوسلان بباريس سنة ١٨٣٨ ج ١ وفاة ابن خلكان $\frac{781}{1282}$.

يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى طبعة اسماعيل الصاوى بمصر سنة ١٩٣٤ الجزء الأول .
وفاة الثعالبى $\frac{219}{1038}$.

المصادر التاريخية

تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى طبعة البابى الحلبي بمصر سنة ١٣٠٥ ت السيوطى (٩١١)

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس لحسين بن عمر الديار بكرى الطبعة الوهية بمصر سنة ١٢٨٣ هـ ، ت الديار بكرى (٩٦٦) .

تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري الطبعة الأولى الحسينية بمصر ، ت الطبري $\frac{921}{2}$ تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري الطبعة الأوربية بليدن أعوام (١٨٧٩ — ١٩٠١) تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس بن هرون المملطي المعروف بابن العبري وقوف الآب صالحاني اليسوعي طبع بيروت سنة ١٨٩٠ ت غريغوريوس (١٢٨٦)

تجارب الأمم لأحمد بن مسكويه الجزء الثاني طبع شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٩١٥ بوقوف أميدوز Amedroz ونشر لندن سنة ١٩٢١ ت ابن مسكويه $\frac{1030}{21}$ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز . ترجمة الدكتور أبي ريده طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠

الخطط للمقريزي طبعة مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ج ١ ت المقريزي $\frac{1441}{80}$ الدر المنتخب في تاريخ حلب لمحمد بن الشحنة الحلبي وقوف اليان سركيس الدمشقي طبع بيروت سنة ١٩٠٩ ت ابن الشحنة $\frac{1412}{110}$

السيرة النبوية رواية ابن هشام طبع هندية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ . ت ابن هشام (٢١٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي طبع القدس بمصر سنة ١٣٥٠ ت الحنبلي (١٠٨٩ هـ) .

صلة تاريخ الطبري لعريب القرطبي طبع المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٨ ت عريب (٥٣٦٦) أجزاء من الطبقات لابن سعد طبع لجنة نشر الثقافة الإسلامية بمصر ١٣٥٨ ت ابن سعد $\frac{230}{845}$

فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذري الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٠١ ت البلاذري (٢٧٩) فتوح الشام للواقدي بتعليقات ولیم ناسوليس الارلندي طبع كلكتة سنة ١٨٥٤ ت . الواقدي (٢٠٧)

الكامل في التاريخ لابن الأثير الطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠١ هـ ، ت ابن الأثير $\frac{1234}{730}$ مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي لسيد أمير على طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر بمصر سنة ١٩٣٨

المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء المؤيد الطبعة الأولى الحسينية بمصر ، ت أبو الفداء $\frac{1331}{731}$ مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن المسعودي طبع دارالرجاء بمصر ، ت المسعودي $\frac{956}{340}$ معجم ما استعجم للحافظ البكري الطبعة الأوربية سنة ١٨٧٧ ت البكري $\frac{1094}{487}$ مقدمة ابن خلدون الطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٦ ت ابن خلدون $\frac{1406}{86}$

النجوم الزاهرة لأبي المحاسن الأتابكي طبع دار الكتب المصرية ج ٢ ، ت أبو المحاسن $\frac{٨٧٤}{1469}$

المصادر التاريخية الجغرافية

- التنبيه والإشراف للسعودي طبع ليدن سنة ١٨٩٣ بوقوف de goeje
مسالك الممالك لأبي إسحق الاصطخرى الكرخي طبع ليدن سنة ١٨٧٠ نشره de goeje
ت الاصطخرى $\frac{٢٤٠}{951}$
المسالك والممالك لأبي القاسم بن خرداذبة طبع ليدن سنة ١٨٨٩ نشره de goeje
ت ابن خرداذبة (٣٠٠)
-

المصادر الفرنجية

تأليف Rodolph Dvorak (فيه نص الثعالبي مع شرح دفوراك ومقدمته) Abou Firâs
طبع ليدن سنة ١٨٩٥ .

Arabic Lists of the Byzantine themes.

تأليف F. W. Brooks طبع صحيفة الدراسات الهيلينية 1901

Byzance et les Arabes, par Alexandre Vasiliev

(820 - 867) الأسرة العمورية

الترجمة الفرنسية عن الروسية طبع معهد التاريخ الشرقى فى بروكسل سنة ١٩٣٥

Histoire de l'Empire Byzantine par A. Vasiliev

طبع بيكار بباريس سنة ١٩٣٢ (الترجمة الفرنسية) : tome I (324—1081)

Histoire de la nation Egyptienne par Gabriel Hanotaux et Gaston Wiet

طبع بلون بباريس سنة ١٩٣٧ Tome IV

La Civilisation Byzantine, par Stevan Runciman

الترجمة الفرنسية عن الانكليزية طبع پاىو بباريس سنة ١٩٣٤

L'Epopée Byzantine a la fin du dixieme siècle

طبع هاشيت بباريس سنة ١٨٩٦ par Gustave Schlumberger tome (I)

طبع مكتبة هاتيه بباريس ترجمة (جوركان) L'Iliade d'Homère

طبع مكتبة هاتيه بباريس ترجمة (جوركان) L'Odysée d'Homère

Mutanabbi und Seifuddaula : Dieterici

طبع ليدن سنة ١٨٧٤ (فيه نص الثعالبي مع تعليق دييتيريسى ومقدمته وتحليله)

Pages choisies des Grands écrivains (Homère) par Maurice Croiset

طبع مكتبة أرمان كولان بباريس سنة ١٩٢٣ الطبعة السابعة

Patrologia Orientalis, Fascicule 3, tome VIII

كتاب (العنوان) لأغايوس المنبجى فى هذه المجلة نشر فاسيليف طبع بباريس سنة ١٩٠٨

وفى هذه المجلة II tome XV Paprologia Orientatis

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ليجي بن سعيد الأنطاكي نشر فاسيليف

وكراتشكوفسكى طبع بباريس سنة ١٩٢٤ — وبذيل الصفحات ترجمتهما للنص العربى

"Histoire de Jean l'Antiochitain"

بالفرنسية :

Un Empereur Byzantin au Dixième siècle "Nicephor Phocas"

طبع باريس سنة ١٨٩٠ Par Gustave Schlumberger

Un Poète arabe du IVe siècle de l'Hégira (Xe siècle de j. c.)

About-tayyib al Motanabbi "essai d'histoire littéraire"

إصدار مكتبة أمريكا والشرق بباريس سنة ١٩٣٥ Par. R. Blachère

Sayf al Daula : Recueil de textes relatif á l'Emir Sayfal Daula le Hamdanide, par Marius Canard.

طبعة جول كابونيل بالجزائر سنة ١٩٣٤

"al Mutanabbi" recueil publié a l'occasion de son millénaire.

طبع بيروت سنة ١٩٣٦

المخطوطات الحماسية

- (١) كتاب الوحشيات وهو الحماسة الصغرى اختيار أبي تمام الطائي . مخطوط فوتوغرافي بدار الكتب المصرية عن نسخة خطية محفوظة في الآستانة (رقه في دار الكتب المصرية ٢٢٩٧ آداب) .
- (٢) التنبيه في شرح مشكل أبيات الحماسة لأبي الفتح عثمان بن جنى مخطوط بخط عتيق عهده سنة ٦٨٣ هجرية ، محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ٤٤ آداب .
- (٣) حماسة الخالدين ، وهو كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين مخطوط بخط عادى محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ٥٨٧ آداب .
- (٤) شرح ديوان الحماسة الطائية للإمام أبي الحسن علي بن محمد بن الحارث البيارى صاحب أبي سعيد السيرافى من علماء القرن الرابع الهجرى . نسخة مأخوذة بالفوتوغراف محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٧٤٠٩ آداب الجزء الأول وحده ، ٣٧١ ورقة .



أرمينيا

قزوين (القان) اُحميه

شیراز

نقو

کَاسِیْن

آبَد

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

مَکَم

الفهرس

صفحة

الاداء	ه
مقدمه الدكتور عبد الوهاب عزازم بك	ز
فاتحة الكتاب	١

تمهيد

الملاحم والقصص الحربى

(١) الملاحم فى آداب الأمم القديمة والحديثة	٥
(٢) الشعر الحربى والشعر القصصى	١٤
(٣) الملحمة فى الأدب العربى	١٤
(٤) العرب أمة حرب	٢٠

الباب الأول

شعر الحرب فى العصر الأموى

تمهيد

(١) الحياة الأموية الجديدة وشعر الحرب	٣٦
(٢) الحماسة الأموية بين الحرب والسياسة	٣٦
الفصل الأول : شعر الحرب عند الخوارج	٤٨
الفصل الثانى : شعر الحرب فى أدب الشيعة	٦٢
الفصل الثالث : شعر الحرب فى أدب الزبيريين	٧٤
الفصل الرابع : شعر الحرب فى ظل الأمويين	٨٢
كعب الأشقرى ، شاعر الحروب الأموية	٨٣

صفحة

	الآعشون الثلاثة	
٨٧	(١) أعشى بنى تغلب	
٨٧	(٢) أعشى ربيعة	
٨٨	(٣) أعشى همدان	
٩٠	الفصل الخامس : الفروسية القبلية	
	الفصل السادس : شعر الحرب عند الهجائيين	
٩٣	(١) حماسة الأخطل	
٩٧	(٢) فروسية الفرزدق	
١٠٠	(٣) بطولة جرير	
١٠٤	(٤) خصائص شعر الحرب عند الهجائيين	
	الفصل السابع : شعر الحرب الخارجية زمن بني أمية	
١٠٦	(١) شعر الحرب وراء خراسان	
١٠٩	(٢) الشعر في حرب الروم	

ذيل

١١٤	الشعر الحربى والرجز
-----	---------------------

خاتمة

١١٦	الخصائص العامة لشعر الحرب الأموى
-----	----------------------------------

الباب الثانى

شعر الحرب فى العصر العباسى الأول

	الفصل الأول : تطور الشعر فى العصر العباسى الأول
١٢٠	(١) تحضر الدولة
١٢١	(٢) تطور الشعر وتجده
١٢٢	(٣) هل طرأ على الحماسة التغير
١٢٣	١ - وقوف الفتوح حيناً ، وفتور البطولة حيناً آخر

صفحة	
١٢٣	ب — القواد الأعاجم
١٢٤	ح — الشعراء الأعاجم
١٢٤	د — تأثير الفارسية في الخيال العربي وأثر ذلك في شعر الحرب
١٣١	٤ (نطاق شعر الحرب في هذا العصر
١٣١	٥ (نماذج من شعر الحرب في العصر العباسي
	الفصل الثاني : شعر الحرب الداخلية
١٣٨	١ (سيوف القرامطة
١٤١	٢ (علوى البصرة وتصوير ابن الرومي لمذبحة الزنوج
	الفصل الثالث : شعر الحرب الخارجية في الشرق والغرب
١٤٦	١ (فتنة بابك الخرمي
١٥٠	٢ (خلود الطوسي
١٥٣	٣ (فتح عمورية
١٦١	٤ (أسد الثغور
١٧٢	٥ (روميّات البحتری
١٧٩	٦ (خاتمة أسد الثغور
	الفصل الرابع : الحرب البحرية
١٨٢	١ (الحرب البحرية عند العرب
١٨٩	٢ (أسطول المتوكل والمعركة البحرية
	الفصل الخامس : خصائص شعر الحرب في العصر العباسي
١٩٥	١ (فن أبي تمام في شعر الحرب
١٩٩	٢ (مياسم عامة لشعر الحرب

ملحق

	الرمزية والحرب
٢٠٠	١ —
٢٠٥	٢ —

الباب الثالث

شعر الحرب في ظل الحمدانيين

صفحة

	الفصل الأول : الدولة الحمدانية	
٢١٣	(١) قيام الدولة الحمدانية	
٢١٥	(٢) سيف الدولة ورجال دولته	
٢٢١	(٣) لون سياسة الحمدانيين	
	(٤) حروب الحمدانيين مع الروم	
٢٢١	١ - الجيوش العربية والبيزنطية في عصر سيف الدولة	
٢٢٦	ب - الدمستق وقواده	
٢٢٨	(٥) الأدب الحمداني	
	الفصل الثاني : شعر الحرب عند المتنبي	
٢٣١	(١) حروب سيف الدولة من شعر المتنبي	
	المعارك	
٢٣٣	١ - معركة خرشنة	
٢٤٠	ب - معركة الثغور	
٢٤٣	ح - معركة الحدث الحمراء	
٢٤٨	د - معركة الدرب	
٢٥٤	(٢) وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر	
٢٦٠	(٣) فن المتنبي في شعر الحرب	
	الفصل الثالث : شعر الحرب عند أبي فراس الحمداني	
٢٦٣	(١) فروسية أبي فراس	
٢٦٤	(٢) تحت أسوار منبج	
٢٦٥	(٣) روميات الأسير	
٢٧٣	(٤) حريبات أبي فراس	
٢٧٦	(٥) نهاية النسر الحمداني	

مؤلفات الحماسة القديمة

صفحة	
٢٨٠	(١) كتاب الحماسة للطائي
٢٨٣	(٢) كتاب الوحشيات
٢٨٤	(٣) كتاب التنبيه في شرح أبيات الحماسة
٢٨٥	(٤) كتاب الحماسة للبحترى
٢٨٦	(٥) حماسة الخالدين
٢٨٩	مؤامرة
٢٩٣	ملحق
٢٩٥	المراجع والمصادر الأدبية
٢٩٨	المصادر التاريخية
٢٩٩	المصادر التاريخية الجغرافية
٣٠٠	المصادر الفرنجية
٣٠٢	المخطوطات الحماسية
٣٠٣	خريطة (بروك) للثغور الحمدانية والأقاليم البيزنطية